التغير الاجتماعي

مظاهر التغير في المجتمع السعودي
(المظاهر المادية والثقافية)



د. فهد بن عبد العزيز الغفيلي



الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م


محمد خطاب

التغير الاجتماعي

مظاهر التغير في المجتمع السعودي
(المظاهر المادية والثقافية)

د. فهد بن عبد العزيز الغفيلي

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

ح فهد بن عبد العزيز الغفيلي ، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغفيلي ، فهد بن عبد العزيز

التغير الاجتماعي مظاهر التغير في المجتمع السعودي: المظاهر المادية والثقافية. / فهد بن عبد العزيز الغفيلي – الرياض ١٤٣٢هـ

٣٦٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٧٦٧٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- التغير الاجتماعي – السعودية – الأحوال الاجتماعية

أ. العنوان

ديوي ٣٠١،٢٤١ ١٤٣٢/٥٥٨٠هـ

رقم الإيداع ١٤٣٢/٥٥٨٠

ردمك : ٤- ٧٦٧٣-٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨



الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م


بسم الله الرحمن الرحيم


MOHAMED KHATAB

المحتويات

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وزوجه وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد..

يبقى موضوع التغير بكافة أشكاله وأزمانه من المواضيع المتجددة، المطلوبة، الحاصلة لا محالة شئنا أم أبينا، فلن يبقى شيءٌ على حاله مهما كان كنهه، فالتغير سيطاله إما بوصفه تغييراً ينم على وجود إرادة أحدثته فينسب إليها الفعل، وإما تغيراً وقع دون إرادة من وقع عليه فعل التغير.

قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى خمسة مباحث، كل واحدٍ منها خصصته لتناول محورٍ من محاور الكتاب: فالمبحثان الأول والثاني جعلتهما تمهيد لفهم موضوع التغير. والمبحثان الثالث والرابع، فكانا للحديث عن كنه التغير وهو موضوع الكتاب بالتفصيل مع الاستشهاد ببعض الأحداث التي تعين على فهم ما عنيته. أما المبحث الخامس فهو متعلق ببعض الحلول التي طرحتها بغرض الإسهام في حل ما وصفته بالمشكلات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع السعودي نتيجة التغيرات المادية والثقافية، كما يتضمن هذا المبحث أيضاً التوصيات والخلاصة.

تحدثت في المبحث الأول عن التغير وذكرت بأنه أشكالٌ عديدة ليس حصرها موضوعاً لهذا الكتاب، ولكن ما يهمني في هذا المقام الحديث عن التغير بشكل عام، حيث قمت بتقسيمه إلى خمسة أقسام، واستحدثت لهذا التقسيم مصطلحاً جديداً في علم الاجتماع أطلقت عليه (التغير الكوني) وهو ما أظنه أوسع درجات تصنيف التغير وقد أسهبت في بيانه في مدخل الكتاب.

وفي المبحث الثاني تطرقت إلى التغير الاجتماعي مبيناً بعضاً من تعريفاته بالإضافة إلى ذلك فقد كتبت تعريفاً خاصاً بي، يتوافق مع فهمي للتغير الاجتماعي، كما قمت بوضع تصنيف خاص بالمجتمعات البشرية، من حيث المستوى المعيشي؛ يعين على فهم التغير، ويمكّن من تحديد النوع الذي ينتمي إليه بعد أن حددت له أشكالاً سبعة لكل واحدٍ منها مفهومه ومعاييره الخاصة التي يمكن إسقاطها على حالة مجتمعية بعينها، ومعرفة حقيقة ما يجري من تغير مجتمعي هناك، وهل هو حسن أم سيء؟ فإن كان حسناً فما هو تصنيفه؟ هل هو تقدم؟ أم نمو؟ أم تحديث؟ وإن كان سيئاً فيمكن تحديد نوعه هل هو تغير قهقري؟ أم تغير نكوصي؟ وهكذا. وأرى أنه من خلال هذا التصنيف يمكن تحديد الجوانب التي أعانت على التغير ودعمها، ومعرفة الخلل ومعالجته. بالإضافة إلى قيامي بوضع مجموعة من العناصر أو الأركان لعملية التغير، لا يمكن أن يتم بدونها وهذا يكمل سابقه، ويمكِّن من تحديد العنصر الإيجابي أو السلبي في (الحدث)، بعكس ما ذكرته حول أشكال أو أنواع التغير التي يمكن من خلالها البحث في (النتيجة) وتحديد الجوانب الإيجابية والسلبية. ثم ختمت حديثي في هذا المبحث بنظرية وضعهتا حول التغير الاجتماعي وسمتها بـ(نظرية المحيط الاجتماعي) أو (نظرية الدوائر الأربع للتغير الاجتماعي) بيّنت من خلالها أن التغير يحدث بفعل أربع دوائر مؤثرة تبدأ بذات الفرد وتنتهي بالمجتمعات الغريبة حين تتصل بغيرها من المجتمعات.

ثم انتقلت بعد ذلك إلى المبحثين الثالث والرابع وهما صلب موضوع الكتاب، وهو المجتمع السعودي، حيث ركزت في حديثي على مظاهر التغير في هذا المجتمع، وحصرها بمظهرين مادي وآخر ثقافي، أفردت لكلٍ منهما مبحثاً خاصاً به. بدأت بالمظهر المادي، وأوضحت خلاله كيف بدأت هذه الدولة الفتية من نقطة الصفر؛ حيث لم يوجد أيٌ من مقومات العيش المدني فلا تعليم منتظم، ولا مستشفيات، ولا مراكز أمنية، ولا مؤسسات مالية، ولا مصادر دخل يعتمد عليها. ثم كيف تم الشروع في بناء كل ذلك بشكل متسلسل ومتسارع، ومع كل تشييد مادي تجد تغيرات ثقافية

تحدث هنا وهناك، بعضها يُرفض ويتم وأده في مهده، وآخر يُقاوم في البداية ثم مع الوقت يتقبله المجتمع ويصير جزءاً من معاشهم، وتغير ثقافي ثالث يتغلغل في جسد المجتمع دون ضجيج فيتلقفه الناس ويتشربونه دون شعورٍ منهم أن شيئاً قد أحدث تغيراً في حياتهم، وقد أوردت شواهد وقصصاً كثيرة حول ذلك، ولكنك ستجد في مواضيع كثيرة أن لا علاقة مباشرة بين كثيرٍ من التغيرات المادية ونظيرتها الثقافية، ولكنك حين تتأمل ستجد أنه لولا التغير المادي الذي حدث ما كان يمكن لتوأمه الثقافي أن يولد، وقصد المؤلف التوأمة هنا؛ لأن كليهما مرتبطٌ بصاحبه، ولا يمكن أن يحدث تغير مادي إلا ويصحبه تغير ثقافي والعكس صحيح، دون النظر إلى حجم التغير والصخب الذي يحدثه.

وقد تطرقت في هذين المبحثين إلى تغيرات مادية كثيرة حدثت، كان أهمها على الإطلاق اكتشاف النفط الذي نقل البلد من مصاف البلدان الأفقر على وجه البسيطة إلى أحد أغنى البلدان - بفضل الله - كما تحدثت عن توطين البادية في هجرٍ خاصة بكل قبيلة بدلاً من عمليات الحل والترحالة، والتي أراها من أهم التغيرات المادية التي كان لها أثرٌ ثقافي عظيم حيث صرفت ولاء ابن البادية من الولاء الذاتي المفرط في الأنانية حين كان لا يهمه غير نفسه وقبيلته وماشيته وخيمته، إلى ولاءٍ جديدٍ عليه لم تعرفه ثقافته؛ ولاء للأرض والهجرة التي يقطنها، محبة في المكان والدفاع عنه، خضوع لنظام يعطيه حقوقه مقابل واجبات يؤديها، وأشياء كثيرة أخرى في هذا المبحث.

في المبحث الرابع المتعلق بالمظاهر الثقافية حاولت أن أحدد جوانب ثقافية يتحدث عنها؛ بغرض عدم التشتت المربك أو الإطالة المملة؛ وبناء عليه فقد قمت في البداية بوضع أربعة جوانب تمثل المظهر الثقافي هي: (اللغة، الفكر والأدب، الميادين الثقافية، الطيف الفكري) وبيّنت لماذا اخترت هذه الجوانب تحديداً عناوين رئيسية في هذا المبحث؛ حيث أرى أن اللغة هي الهوية وأداة نقل الثقافة بالحرف أو اللسان. والفكر والأدب: من أشكال الصياغة، والإنتاج، والفهم الثقافي.

أما الميادين الثقافية: فهي أداة النشر والإشهار. أما الطيف الفكري: فهو متعلق بالفكر المنتج أو المتلقي لتلك الثقافة والمحدد لموقفه منها.

وقد قمت بدمج الطيف الفكري ضمن نظريتي التي وسمتها بـ(نظرية اختلاط الجسد والثقافة) أو (نظرية الميمات الأربع) وقصدت من ذلك أن أبين موقف المتلقي في المجتمع السعودي بحسب طيفه الفكري الذي قسمته إلى ستة أقسام، مع منطقة وسطية سمّيتها منطقة التلاقي أو (منطقة الخضوع والقبول) بعد أن بينت مقصودي في تلك الأطياف الفكرية وجعلها أحد أركان النظرية الأربعة، ثم استرسلت في بيان بقية الأركان. وكان هدفي من وضع هذه النظرية إيجاد حل لعدة من المشكلات التي تواجه المجتمع السعودي من خلال نظرية لها أركان ومعايير واضحة، يمكن إسقاط أي مشكلة مجتمعية متعلقة بمفهوم (الاختلاط الجسدي والثقافي) عليها. وهو قريب من مفهوم الاختلاط المتداول في المجتمع السعودي، إلا أنه أشمل وأكثر تشعباً منه وفي نفس الوقت فهذه النظرية تعد الاختلاط بمفهومه الدارج في مجتمعنا كغيره من المشكلات الاجتماعية، يمكن إسقاطها وتقييمها من خلال معايير النظرية والخلوص إلى حلٍ يتوافق مع الشريعة الإسلامية كمرجعية ومعيار رئيس يرضي كافة الأطياف الفكرية، ويجلبها جميعاً إلى (منطقة الخضوع والقبول) أو منطقة التلاقي.

ولعلي أكتفي بما ذكرته أو أوجزته في هذه المقدمة، التي قصدت منها أن أبين بشكلٍ موجز ما أردت الوصول إليه من خلالها. والله أسأل أن يجد كل من اطّلع عليها أو على شيءٍ منها بغيته وما ينفعه في بحثه ودراسته، وفهم موضوعه، أو في الأقل الظفر بوضوح الصورة التي تعينه على الاستزادة من طلب العلم في هذا الحقل المهم الذي يلازمنا حيث كنا. وبالله التوفيق وهو المعين النصير، وصلاته على خاتم أنبيائه ورسله محمدٍ وعلى آله وزوجه وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



المبحث الأول

مدخل إلى التغير

مدخل إلى التغير

التغير بشكل عام من سنن الحياة، وأحد أسرار هذا الكون، حيث كتب المولى -سبحانه وتعالى- التغير على كل ما خلق، فلا يبقى شيء على حال؛ فلا يبقى شيء على حال؛ فالبعيد سيقترب، والمرتفع سينخفض، وهكذا، وكما قال النبي عليه السلام في الحديث الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه -: "حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ"[1]. والتغير على أشكال متعددة لا يمكن حصرها فمنه ما نلحظه ونشاهده ونلمسه على أرض واقعنا، ومنه ما نسمع عنه ونقر به ويدعمه ما تم التوصل إليه من تقنيات أثبتت سريان التغير على ما كان يظن بأنه ثابت لا يتغير وهناك تغير مستقبلي متعلق بالحياة اللاحقة، سواء البرزخية منها أو الآخرة.

ولعلي في هذا المدخل أعرض لبعض أشكال التغير التي تطرقت إليها مستشهداً على ما أقول بأدلة من كتاب ربي الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[2] مع الاستئناس بشيء مما ورد في هدي المصطفى -عليه السلام- بالإضافة إلى تعزيز مقالي ببعض أقوال المختصين من دارسين وباحثين، وهذا النوع من التغير اسميته (التغير الكوني).

أنواع التغير الكوني:

قبل أن أبين أنواع التغير الكوني يجدر بي التأكيد على أن التغير عنصرٌ أساسيٌ وملازمٌ لنا، ولا يمكن لأحدنا أن ينفك عنه، وهو على أوجه كثيرة، فمنه المادي، ومنه المعنوي، ومنه طويل الأجل، ومتوسطه وقصيره، وغيرها من التقسيمات، ولكني هنا أجمله في خمسة أوجه بعد أن وسمته بـ (التغير الكوني) Universal Change وأشرف بأن أكون - بفضل الله - أول من أدخل هذا التقسيم في علم الاجتماع بأسره، وهو

(١) حديث رقمه (٢٧١٧) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير

(٢) الآية (٤٢) سورة فصلت.

يفيد في فهم وتفسير كثير من الظواهر الاجتماعية من منطلقات متوافقة مع ما نعتقده ونؤمن به، وأوجه التغير أبينها على النحو التالي:

١. التغير المحسوس Objective Change: وهو الذي يقع في أجسادنا وما يحيط بنا ويمكن لكل واحد منا إدراكه وتلمسه.
٢. التغير الإدراكي Perception Change: وهو التغير الذي يطرأ على مواقفنا وآرائنا ومعتقدنا ودرجات إيماننا وحالاتنا النفسية والذهنية.
٣. التغير الخفي Invisible Change: وهو الذي يحدث في أطوار خلقنا مثلما يحدث في الأرض وفي الكون الفسيح وأخبرنا القرآن الكريم عنه وتسنى للعلم الحديث رصده ولكن لا يمكن ملاحظته دون استخدام التقنيات الحديثة.
٤. التغير الغيبي Unseen Change: وهو ما يحدث في الحياة البرزخية والحياة الآخرة مما أخبرت عنه مصادر التشريع ولكن يعجز العلم عن إثباته.
٥. التغير الزائف Fake Change: ويشمل جميع التفسيرات والنبوءات التي تتعارض مع النصوص الشرعية، أو ثبت بطلانها بمرور الزمن.

أولاً التغير المحسوس Objective Change:

التغير المحسوس الذي نشاهده ونلمسه كثير، ولا يمكن حصره، ومنه تغير الإنسان نفسه من حالٍ إلى حال، ومن طور إلى آخر، من صحة إلى سقم، ومن طفولة ثم شباب ثم هرم، ومن فقر إلى غنى، ومن ضعف إلى قوة، ويؤيده قول المولى - عز وجل - : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[١]

هذا بالنسبة لما يتعلق بالنفس أو الذات البشرية التي أمرنا الله -سبحانه وتعالى- أن نتبصر بها وأن نتأملها ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٢] أما فيما يحيط بنا فالمتغيرات كثيرة، ودائماً ما يأمرنا المولى - عز وجل - أن نتأمل وأن

(١) الآية (٦٧) سورة غافر.
(٢) الآية (٢١) سورة الذاريات.

نتفكر ليستقر اليقين في قلوبنا بأن حالنا لن يبقى كما هو، والتغير كما يحصل في الأبدان التي هي أقرب ما تكون إلينا، فإنها تحصل حتى في الأرض التي تحملنا، فهي في يوم جرداء قاحلة ثم تخضر بأمر الله ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[2] ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾[3] ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾[4] والآيات التي تتحدث عن الأرض وحياتها ثم موتها كثيرة، ولعلي أختم استشهاداتي حول الأرض بهذه الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾.[5]

والتغير حاصل في الأوقات التي نحياها، وفي كل لحظة وفترة ويوم وشهر وسنة، فمن شروق الشمس إلى غروبها يتغير حال يومنا، وتتغير معه حتى مسميات اللحظات التي نعيشها، فمن فجر إلى شروق، مروراً بظهيرة فعصر فمغرب ثم عشاء، وهكذا ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[6] ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

(١) الآية (٢٤) سورة يونس.
(٢) الآية (٦٥) سورة النحل.
(٣) الآية (٢٠) سورة العنكبوت.
(٤) الآية (٩) سورة فاطر.
(٥) الآية (٢١) سورة الزمر.
(٦) الآية (٤٤) سورة النور .

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1] ومضي الشهور وما يتخللها من فصول حارة وباردة خضراء وهشيم ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[2] وجريان الشمس والقمر وما نراه من تغير حالهما ومطالعهما ومنازلهما أدلة كافية على سريان التغير على كل شيء في هذا الوجود ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾[3] ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.[4]

ثانياً التغير «المعنوي» الإدراكي Perception Change:

وهو ذلك النوع من التغير الذي يحدث في مواقف الأشخاص وآرائهم وحتى معتقداتهم، وهو من أخطر أنواع التغير، وأكثرها حساسية، وقد يترتب عليه نتائج لحظية حرجة جداً، وهو في الغالب يحدث نتيجة ما يتلقاه الإنسان من إجابات عن أسئلته أو ردودٍ أفعال نتيجة تصرفاته، فتغير حالته النفسية من حال إلى آخر، إما أن يكون مختلفا عن حاله وقد يكون مناقضا له تماما ومنه قوله -سبحانه وتعالي-: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[5] فحال نوح -عليه السلام- تلك اللحظة كان مزيجاً بين الفرح بأن نجاه الله والمؤمنين معه من الطوفان، وأهلك العصاة من قومه، وفوق ذلك عودة الحياة إلى وضعها بانتهاء الطوفان بعد أن ابتلعت الأرض الماء، وتوقف المطر، وانقضى الأمر، ومع كل تلك الفرحة بالنصر العظيم كان هناك مشاعر من القلق تخالط فؤاد نوح - عليه

(١) الآية (١٦٤) سورة البقرة.
(٢) الآية (٣٦) سورة التوبة.
(٣) الآية (٥) سورة يونس.
(٤) الآيتان (٣٨)(٣٩) سورة يس.
(٥) الآية (٤٥) سورة هود.

السلام - حول مصير ابنه الذي رفض الركوب معهم في سفينة النجاة خاصة وأن الله -سبحانه وتعالى- قد أخبره بأنه سينجيه وأهله والمؤمنين معه. ولكن كل تلك المشاعر تبدلت في لحظة حين تلقى نوح الرد من ربه في قوله -سبحانه وتعالى- : ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1] والإجابة الربانية التي تمثلت في أربعة أمور تتمحور حول (أن ابنك ليس من أهلك، وأنه من العصاة، وأنك تسأل عن ما ليس لك به علم، والموعظة بعدم النكوص إلى حال الجهلة) كل ذلك جعل حال نوح ومشاعره تتغير تماماً من السعادة بالنجاة إلى الوجل من سؤال الله ما ليس له به علم ومن مناجاته بأن ينجي ابنه إلى التضرع إليه بالمغفرة والرحمة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2] وهذا مثال على أن نوح -عليه السلام- صار بعد بلوغ الإجابة الربانية إليه في حال أنساه مصابه ووجله. ومن أمثله هذا النوع من التغير ما حدث للسحرة في عهد فرعون وانقلاب حالهم من أقصى درجات الكفر والإشراك بالله إلى مؤمنين موحدين في لحظات وفي موقف يفترض أن يكون مهيباً بحضور طاغية عرف عنه إبادته لمن يخالفه، ولكن ما رأوه من قدرات خارقة في تلك المعجزة الربانية التي كان يحملها موسى -عليه السلام- بيده قلب حالهم تماماً﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾[3] ومن ذلك أيضاً قول أنس بن مالك -رضي الله عنه-: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلت يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء».[4] والخلاصة أن الشواهد على هذا النوع من التغير كثيرة وليس مجال حصرها هنا، ولكني أورد بعض الأمثلة من باب الاستئناس فقط.

(١) الآية (٤٦) سورة هود.
(٢) الآية (٤٧) سورة هود.
(٣) الآية (٧٠) سورة طه.
(٤) الحديث ٢٠٦٦ سنن الترمذي

ثالثاً التغير الخفي Invisible Change :

وهو التغير الذي لم تكن البشرية تعلم عنه شيئاً حتى تنزل القرآن فأخبرنا عن شيء من أسراره، وما توصل إليه العلماء في العصور الحديثة من اكتشافات تتفق مع التغيرات التي أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - عنها، وهي أيضاً متعددة ومتنوعة ويجمعها أننا ما كنا لندركها أو نعلم حقيقتها لو لم نخبر عنها، فمنها ما هو في ذات الإنسان وبداية خلقه وتطوره وتغير حاله من تراب ثم تحوله إلى نطفة حقيرة، حتى يصل إلى ما هو عليه من خلق حسن سوي، حين يخرج من بطن أمه، وحينها نبدأ بمشاهدة تغيره وتبدل حاله، أما تلك التطورات والتحولات التي تستمر في العادة تسعة أشهر فلم نكن لندركها لو لم نخبر عنها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾[1] ولا يتوقف التغير على أطوار خلق الإنسان بل حتى الأرض تتغير أثناء عيشنا عليها ومشينا في مناكبها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾[2] وقد اكتشف العلماء حديثاً ظاهرة تآكل الأرض من أطرافها، فأطراف القارة المتجمدة تذوب وتنحسر ويتناقص حجمها، وعلماء الجيولوجيا يقولون إن القشرة الأرضية عند نهاياتها أو أطرافها تتآكل أيضاً وتترسب هذه المواد في قاع المحيطات.[3] والتغير يشمل الكون بأسره وقد أخبر الله عن ذلك بقوله ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[4] وفي ذلك يقول الدكتور عماد النجار: "لاحظ الفلكيون في الثلث الأول من القرن العشرين عملية توسع الكون التي دار حولها جدل طويل حتى سلم العلماء

---

(١) الآية (٥) سورة الحج.

(٢) الآية (٤١) سورة الرعد.

(٣) عبد الدائم الكحيل في موقعه على الرابط التالي: www.kaheelv.com.

(٤) الآية (٤٧) سورة الذاريات.

بحقيقتها، وكانت هذه الآية الكريمة قد نزلت والعالم كله ينادي بثبات الكون، وعدم تغيره، وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى منتصف القرن العشرين حين أثبتت الأرصاد الفلكية حقيقة توسع الكون، وتباعد مجراته عنا، وعن بعضها بمعدلات تقترب أحيانا من سرعة الضوء(المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية)، وقد أيدت كل من المعادلات الرياضية وقوانين الفيزياء النظرية استنتاجات الفلكيين في ذلك. وانطلاقا من هذه الملاحظة الصحيحة نادي كل من علماء الفلك، والفيزياء الفلكية والنظرية بأننا إذا عدنا بهذا الاتساع الكوني إلي الوراء مع الزمن فلابد أن تلتقي كل صور المادة والطاقة الموجودة في الكون (المدرك منها وغير المدرك) وتتكدس على بعضها في جرم ابتدائي واحد يتناهي في الصغر إلي ما يقرب الصفر أو العدم، وتنكمش في هذه النقطة أبعاد كل من المكان والزمان حتي تتلاشي(مرحلة الرتق). وهذا الجرم الابتدائي كان في حالة من الكثافة والحرارة تتوقف عندهما كل القوانين الفيزيائية المعروفة، ومن ثم فإن العقل البشري لا يكاد يتصورهما، فانفجر هذا الجرم الأولي بأمر الله - سبحانه وتعالى - في ظاهرة يسميها العلماء عملية الانفجار الكوني العظيم، ويسميها القرآن الكريم باسم الفتق، فقد سبق القرآن الكريم كل المعارف الإنسانية بالإشارة إلي ذلك الحدث الكوني العظيم من قبل ألف وأربعمائة سنة»[1] ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.[2] والإشارات والدلالات على التغير كثيرة ولا تقف عند حد.

رابعاً التغير الغيبي Unseen Change:

ذلك النوع من التغير الذي لم نره ولا يمكن للعلم الحديث أن يخبر عنه، وهو المتعلق بالحياة البرزخية والحياة الآخرة، وقد أخبر رسول الله عليه السلام عنها في أكثر من موضع، وكذلك القرآن الكريم الذي أخبرنا عن تبدل جلود أهل النار

(١) مقالة بعنوان من أسرار القرآن، الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية، بقلم الدكتور: زغلول النجار نشرت في صحيفة الأهرام المصرية، عدد ٤١٨١٨ بتاريخ ١٤٢٢/٣/١٢هـ.

(٢) الآية (٣٠) سورة الأنبياء.

وتجددها بقصد الاستمرار في التنكيل والتعذيب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾[1] وكذلك تغير الوجوه وتباين ألوانها بين أهل الإيمان وأهل الكفر ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦﴾[2] كما أن القبور لن تبقى على حالها وسوف يطالها التغير ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾[3] وكما أن السماء والنجوم والجبال والبحار والجنة والنار لن تنجو من التغير ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾[4] بل حتى إنٍ الجنة نفسها على ما فيها من نعيم خالد لا يوصف يزيدها الله وأهلها حسناً وجمالا فتتبدل صورهم وتتغير من حال حسن إلى ما هو أحسن منه، فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالا، فتقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً.[5] فتغير الحال ملازم للبشرية منذ بدء الخليقة، حيث عاشت أول عهدها بالجنة متنعمة، وحين عصى آدم ربه أبدل حاله هناك حين تبدت سوءته وزوجه ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾[6] قبل أن يهبط إلى الأرض ليعيش بطريقة مختلفة عما كانت عليه حياته في بداياتها ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾[7] وهكذا تبدل الحال من النعيم والسعادة والسلامة الدائمة إلى الكبد والشقاء والعداوة الأبدية مع

---

(١) الآية (٥٦) سورة النساء.
(٢) الآية (١٠٦) سورة آل عمران.
(٣) الآية (٤) سورة الانفطار.
(٤) الآية (١)(٢)(٣) سورة التكوير.
(٥) صحيح مسلم.
(٦) الآية (٢٢) سورة الأعراف.
(٧) الآية (١٢٣) سورة طه.

الشيطان. وعلاوة على كل ذلك فإن الأرض نفسها ستتبدل ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[١] كما أن السماء التي رفعت بغير عمد نراها سيطالها التغير وستطوى بيد العزيز الجبار ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٢]

خامساً التغير الزائف Fake Change:

وهو التغير الزائف المبني على غير حقيقة ويخالف ما جاءت به النصوص الشرعية وما يعتقده المسلم ويدين اللّه به، ومنه على سبيل المثال ما توصل إليه المفكر البريطاني تشارلز داروين[٣] حول نشوء الخلق وتطوره والتي يقول عنها الدكتور / حامد خوجة: «بأنها انتشرت في الأوساط العلمية وأحدثت دويًّا كبيرًا في قطاعات متنوعة من العالم، وقد قامت العديد من المعاهد العلمية في العالم الإسلامي بتدريس النظرية على أنها حقيقة علمية، وبينما يعتقد بعض المثقفين أنها من إحدى المحاولات لتفسير الحياة على الأرض، لكن لهذه النظرية دافع حقيقيّ بعيد جدًّا عن الدافع العلمي، وقد ظن كثيرون أن محور الخلاف في النظرية هو ادعاؤها بأن الإنسان يعود أصله إلى القرود، ومع أن هذه نقطة جوهرية في النظرية إلا أنها ليست كل ما تشمله وتدّعيه، لأن هذه النظرية وضعت لتأصيل عقيدة ورسم معالم منهج لحياة مجموعات من البشر رأت أنه لا بد لها من ربط علمي وتبرير منطقي لمعتقدها وسلوكها في الحياة»[٤] وهذا ما أريد الوصول إليه، فبسبب كتاب

---

(١) الآية (٤٨) سورة إبراهيم

(٢) الآية (٦٧) سورة الزمر

(٣) تشارلز روبرت داروين Charles Robert Darwin عالم حيوان، إنجليزي الجنسية، اشتهر بنظرية التطور وينسب إليه المصطلح الفكري الداروينية ولد (١٢٢٧هـ) في١٨٠٩/٢/١٢م وتوفي عام (١٣٠٠هـ) ١٨٨٢/٤/١٩م وقد كرمه البريطانيون بدفنه في كاتدرائية وستمنستر آبي في لندن إلى جانب كل من وليم هرتشل وإسحاق نيوتن.

(٤) د. حامد إسحاق خوجه، كلية الطب والعلوم الطبية - جامعة الملك عبدالعزيز، حقيقة نظرية داروين، بحث منشور في موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - مكة المكرمة، يمكن الوصول إليه من خلال هذا الرابط http://www.nooran.org/O/11/11(8).htm

داروين (أصل الأنواع: ١٨٥٩م) the Origin of Species اعتنق عديدٌ من الناس هذه الفكرة، خاصة في الغرب، بحيث تسببت في تشكيل وبلورة عقليتها العلمية والفكرية. كما كان من مخرجات هذه النظرية الزائفة قيام نظريات باطلة أخرى كنظرية (فرويد) الجنسية، و(دور كايم) الاجتماعية مما نتج عنه تغير في كثير التصرفات والسلوكيات وحتى التفسيرات العلمية اللاحقة التي بنيت على تلك النظريات، وكما هو معلوم فإن ما بني على باطل فهو باطل.

وكي لا أشتت ذهن القارئ الكريم فإني أشدد القول على أن فكرة النظرية باطلة، وكل مسلم يشهد بزيف التغيرات التي حدثت للإنسان وطريقة تغيره وتحوله من أصل حيواني إلى إنساني، لأن هذا يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾[٢] فهاتان الآيتان تبينان سبب الخلق والمادة التي خلق منها الإنسان، بالإضافة إلى ذلك، وهو كاف، فإن هذا القول يتعارض مع ما توصل إليه علم الوراثة الذي يؤكد بأن الكائنات تتوارث صفاتها الوراثية عن طريق الجينات الوراثية للأبوين بغض النظر عن الظروف، كما أثبت عدم التوافق الجنسي بين الإنسان والقرد والشمبانزي الذي يزعم داروين أنهما أحد المراحل التي مر بها الإنسان قبل أن يصل إلى صورته الراهنة. وهناك نوع آخر من التغيرات الزائفة، وهو كما ذكرت يتعلق بالنبوءات والتوقعات سواء ما كان منها مبنياً على دراسات علمية، كتلك المتعلقة بنبوءة المفكر الأمريكي فوكوياما[٣] (نهاية التاريخ والإنسان الحديث) وما سيؤول إليه العالم من سيطرة الديمقراطية والليبرالية الغربية وسيادتها العالم، وهو ما يتعارض مع سنة

(١) الآية (٣٠) سورة البقرة

(٢) الآية (٢٨) سورة الحجر

(٣) يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية عام ١٩٥٢ م من كتابيه: (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) و(التصدع العظيم).

الله الكونية القائمة على الاختلاف والتدافع ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾[١] ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[٢]ومن تلك التغيرات الزائفة المبنية على دراسات علمية ولكنها مخالفة للنصوص الشرعية ما يتعلق بنهاية العالم بسبب الاحتباس الحراري أو التلوث أو سقوط النيازك، وغيرها من التخمينات الكثيرة التي دفعت نشرة علماء الذرة[٣] Bulletin of the Atomic Sc-entists التابعة لجامعة شيكاغو الأمريكية في عام ١٩٤٧م إلى عمل ساعة رمزية أطلقوا عليها ساعة القيامة Doomsday Clock ترمز إلى قيام الساعة أو نهاية العالم حيث كانت تشير تلك الساعة عام ١٩٤٧م إلى وجود سبع دقائق متبقية على نهاية العالم، وقد تغيرت زيادة ونقصاناً بحسبما يدور في هذا العالم من أحداث وحروب، وما يتوصل إليه من اكتشافات واختراعات، بالإضافة إلى ما يتوصل إليه العلماء من دراسات، وقد تم تعديلها بعد ذلك التاريخ ثماني عشرة مرة حيث بدأت بسبع دقائق عام ١٩٤٧م كما أسلفت حتى وصلت إلى دقيقتين قبل منتصف الليل عام ١٩٥٣م وهو أكثر تغيراتها تشاؤماً أما الأكثر تفاؤلاً فكان عام ١٩٩١م بسبب نهاية الحرب الباردة حيث وصلت إلى ١٧ دقيقة، وكان آخر تعديل لها عام ٢٠٠٧م حيث تشير إلى وجود ٥ دقائق فقط قبل فناء هذا العالم، وبالطبع فهذه التغيرات المبنية على اجتهادات علمية لا يمكن التسليم بها على الإطلاق، وإن كانت تعطي صورة لحقيقة الأخطار التي تواجه العالم الذي نعيش فيه إلا أن زيفها يتمثل في كونها مادية بحتة بحيث تغفل مشيئة الله وإرادته المسيرة لهذا الكون.

وكل وجه من أوجه التغير الكوني التي ذكرت في الأسطر السابقة يحتمل التصنيف سواء المادي أو الحسي والله أعلم، ولكن العبرة هنا أن التغير سيحل

---

(١) الآية (١١٨) سورة هود

(٢) من الآية (٢٥١) سورة البقرة

(٣) نشرة علماء الذرة تصدر عن جامعة شيكاغو الأمريكية ويمكن الوصول إليها والإطلاع على التسلسل الزمني لتنبوءات ساعة القيامة من خلال هذا الرابط على الإنترنت http://www.thebulletin.org/

بنا وبما حولنا، والأمر بأيدينا فإن أردنا أن نتغير للأفضل بادرنا بالتغيير، وإن أردنا أن نتغير إلى خلاف ذلك فعلينا الانتظار حتى يأتي من يغيرنا ويكفينا مشقة التفكير السليم، ولكن بالطريقة التي تلائمه ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[(١)] فالله لا يغير حالنا حتى نبادر نحن إلى التغير الذي يبدأ من الداخل، والتغير المحسوس وهو ما يبدأ من الأنفس أو ما يحيط بنا، وهو المصدر والأصل للتغير الاجتماعي برمته فالبشرية حين حدثت نفسها في مسألة الزراعة، وشرعت بها منتقلة من عالم مجتمعي قائم على الصيد إلى الطفرة الزراعية، كانت تلك ثورة التغير الاجتماعية الأولى، ثم حين جاءت الطفرة الصناعية في القرن السادس عشر كانت ثورة التغير الاجتماعي الثانية، والآن يبدو أننا نعيش ثورة التغير الثالثة مع التقدم التقني الهائل، وما توفر من تقارب المسافات، وسهولة الحصول على المعلومة، وسرعة الاطلاع على المستجدات، وهو ما يسمى بالثورة المعلوماتية القائمة على المعرفة بحيث يكون تقييم الشعوب من خلال ما تعرفه لا ما تمتلكه فقط.

أعود إلى القول بأن التغير جارٍ على هذا الكون، ومنه الجنس البشري، وما يحيط به، وفي ذلك يقول الدكتور / الفاروق يونس: « مفهوم التغير ليس بالمفهوم الحديث أو المعاصر، بل إن الفكرة ذاتها قديمة قدم الفكر الإنساني، وقدم التأملات الفلسفية. ويكفي أن ننوه إلى ما أثر عن الفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس وهو قوله: إن من المستحيل على الشخص أن يلج نفس النهر مرتين، وتأتي هذه الاستحالة لسببين أحدهما أن النهر ليس نفس النهر في المرتين، والآخر أن الشخص ليس نفس الشخص كذلك. ففي الفترة التي تفصل بين المرتين، ومهما كانت قصيرة، فإن الإنسان والنهر كلاهما قد تغير، ويصبح التغير في نظره هو الحالة الدائمة للأشياء، ونظراً لأن لكل شيء ما يناقضه فإن الوجود والعدم موجودان في كل شيء، ويصبح الوجود الحقيقي هو التغير[(٢)]».

---

(١) الآية (١١) سورة الرعد.

(٢) د. الفاروق زكي يونس، الخدمة الاجتماعية والتغير الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).

ولعلي في هذا المدخل أكتفي بما ذكرته والذي كنت أقصد منه أن أبين ما أسعى إليه في هذا الكتاب، حيث أردت أن أقصر هذا المدخل على الحديث عن مفهوم التغير بشكلٍ عام بحيث يكون منفذاً يمكن أن أمر من خلاله بعد ذلك لأتحدث عن مفهوم التغيرٍ الاجتماعي من حيث التعريف والأشكال، ثم أن أنطلق بعدها للحديث عن التغير في المجتمع السعودي ومظاهره بشكل عام، وهو موضوع هذا الكتاب، بحيث أتطرق إلى مظاهر التغير المادية، ومظاهر التغير الثقافية.

والله أسأل أن يجد كل من اقتنى هذا الكتاب ولو شيئاً من بغيته وما ينفعه في بحثه ودراسته وفهم موضوعه، أو في الأقل الظفر بوضوح الصورة التي تعينه على الاستزادة من طلب العلم في هذا الحقل المهم الذي - كما أسلفت - يلازمنا حيث كنا.



المبحث الثاني

مدخل إلى التغير الاجتماعي

مدخل إلى التغير الاجتماعي

قبل الشروع في الحديث عن مفهوم التغير الاجتماعي وأنواعه وأسبابه وغيرها من المواضيع، أؤكد على أن التغير الاجتماعي هو سر يساعد في فهم تطور المجتمعات في البلدان المتقدمة، وأيضاً سر فهم تقهقر البلدان المتخلفة، وما يميز مسألة التغير الاجتماعي أنها متجسدة في كل تجمع بشري، ولا يمكن أن ترى مجتمعاً أو تجمعاً بشرياً دون أن تلحظ التغير فيه، وسواء كان هذا التغير على شكل تنمية وتطوير وبناء، أو على شكل تقهقر وتخلف وهدم. وإن سلمنا بما قلت من حيث وقوع التغير الاجتماعي على جميع المجتمعات البشرية، فيلزم التأكيد على أن التقدم والتقهقر محكومان بمدى قابلية المجتمع واستجابته للتغير الطارئ بنقيضيه، سواء كان تقدماً أو تقهقراً.

تعريف التغير الاجتماعي:

لا يمكن حصر التعريفات المتعلقة بالتغير الاجتماعي، ولكن لعلي أورد هنا بعضاً منها ومنه تعريف كينجسلى ديفيز Kingsley Davis الذي يذكر: «بإن التغير الاجتماعي هو التحول الذي يقع في التنظيم الاجتماعي، سواء في تركيبه وبنيانه، أو في وظائفه، وهذا يعني أن التغير الاجتماعي جزء من التغير الحضاري Cultural Change الذي هو أوسع نطاقًا، وأبعد امتدادًا؛ فهو يتناول كل التغييرات التي تحدث في أي فرع من فروع الحضارة، بما في ذلك الفنون والعلوم والفلسفة والتقنية، كما يشمل صور وقوانين التغير الاجتماعي نفسه. فالعناية بالتغير الحضاري ينبغي أن تكون في النطاق الذي ينبغ فيه ذلك التغير من التنظيم الاجتماعي، أو يؤثر في ذلك التنظيم»[(١)]. أما مصطفى الخشّاب فيعرف التغير الاجتماعي بأنه: «ظاهرة طبيعية تخضع لها مظاهر الكون وشؤون الحياة بالإجمال، وهو أكثر وضوحاً في

(١) د. محيي الدين صابر، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٣٨١هـ (١٩٦٢م).

الحياة الاجتماعية، لأنها في تغير دائم، وتفاعل مستمر، وهذا ما حدا ببعض العلماء إلى القول بأنه ليست هناك مجتمعات، ولكن الموجود تفاعلات وعلاقات اجتماعية في تغير دائم وتفاعل مستمر وتأثير متبادل»[1] ويعرف أوجبورن Ogburn التغير الاجتماعي فيقول: «بأن التغير الاجتماعي يعني أساساً تلك التحولات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي، أي التي تحدث في بناء المجتمع، ويشير التغير الاجتماعي غالباً إلى التغير في السلوك الإنساني، بينما التغير الثقافي يتعلق بإبداع الإنسان. وبالتأكيد عندما نتكلم عن السلوك الإنساني يمكننا إن نقول أن السلوك يتقلب ويتغير ويمكن القول بأن الإنسان بسلوكه هو أداة التغير».[2]

تعريف المؤلف للتغير الاجتماعي:

يمكن للباحث القول من خلال ما قرأه ولاحظه: بأن التغير الاجتماعي هو كل ما يحدث في المجتمعات البشرية من تقدم وتقهقر ونمو وتقلص وتطور وتحديث.

وهذا يعني وضع عدة مواضيع هامة ضمن إطار التغير وجزء من أشكاله وهذا ما لاحظته عند كثيرٍ من علماء الاجتماع وباحثيه إذ يفصلون بينها وبين التغير الاجتماعي ثم يبحثون في مجال العلاقة بينها وبينه، وفي ظني أنها لا تعدو كونها شكلاً من أشكاله إذ أن التقدم يصور تغير المجتمع وسعيه إلى كسب الأفضلية على نظرائه من المجتمعات الأخرى ويمكن أن نلاحظ هذا في جميع البلدان المتقدمة التي تتنافس فيما بينها لتتبوأ مكان الصدارة وتسيير دفة المجتمعات الإنسانية. أما التقهقر فهو تغير المجتمع إلى حالٍ أقل شأناً من حاله السابق، وكثيراً ما يظهر هذا في البلدان التي تخوض حروباً طويلة المدى، تستنزف مواردها البشرية والمالية، وتشغل أهلها عن كل ما من شأنه جلب التطور والازدهار للبلد، ويمكن أن نأخذ حال العراق قبل حربه مع إيران وحاله أثناء الحرب وبعدها مباشرة، وكذلك حال

(١) د. مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

(٢) د. سيف الإسلام علي مطر، التغير الاجتماعي دراسة تحليلية من منظور التربية الإسلامية، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

الصومال، وحال فلسطين، خاصة أثناء الحصارات الاقتصادية والحروب الوحشية التي شنتها إسرائيل على أراضيها. ومن أجل التفريق بين المجتمعات المتقدمة والنامية والمتخلفة يمكن أن أقول ما يلي:

تصنيف المؤلف للمجتمعات البشرية من حيث المستوى المعيشي والقدرة على الإنتاج:

١. المجتمع المتقدم: تتوفر لديه جميع وسائل العيش الضرورية والكمالية وغالباً ما يكون لديه القدرة على إنتاج معظم الوسائل التي يحتاجها.

٢. المجتمع النامي: تتوفر لدية جميع وسائل العيش الضرورية والكمالية إلا أنه غالباً ما يقوم باستيراد معظم أو جميع ما يحتاجه بالإضافة إلى افتقاده الإمكانات اللازمة لإنتاج معظم تلك الوسائل سواء الضروري منها أو الكمالي.

٣. المجتمع المتخلف: لا تتوفر لديه كثير من ضروريات العيش الآدمي المتوفرة في بقية البلدان، ومن ذلك مثلاً: المياه النظيفة، الرعاية الصحية، أجهزة الاتصالات، وغيرها.

وبناء على هذا التصنيف فإنه ليس بالضرورة أن نطلق على جميع المجتمعات البشرية (وأقصد هنا بالمجتمعات المجتمع الصغير داخل المجتمع الكبير أو ما يسمى (Community) التي تنتمي إلى البلدان المتقدمة تقدماً اجتماعياً والعكس بحيث لا يمكن أن نطلق على كل المجتمعات المنتمية إلى بلدان متخلفة بأنه يلزم أن نحكم عليها بالتخلف، إذ إن هناك مجتمعات في أوروبا والولايات المتحدة والصين واليابان. تلك الدول صناعية ومتقدمة ومع ذلك يوجد بها بعض المجتمعات التي لا تمثل الصورة الحقيقة للمجتمع المتقدم، بحيث تفتقد كثيراً من الوسائل الكمالية التي صارت بعض المجتمعات تعدها من ضروريات الحياة كأجهزة الاتصال وأجهزة الترفيه المنزلي وغيرها، ورغم ذلك فالمجتمع في تلك البلدان خاصة الصناعية وأقصد بالمجتمع هنا الشعب بأكمله أو ما يطلق عليه society يمكن أن يطلق

عليه مجتمع متقدم. كما أن هناك مجتمعات أو تجمعات بشرية يمكن أن يطلق عليها مجتمع متقدم أو نام رغم عيشه في أحضان مجتمع متخلف بالكلية، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها بعض مجتمعات البيض الذين يعيشون في بعض البلدان الأفريقية الفقيرة.

كما أن هناك أمراً لابد أن ألفت إليه يتعلق بإطلاق التخلف على بعض البلدان التي يتوافر بها معظم وسائل العيش الضرورية، بالإضافة إلى بعض الوسائل الكمالية؛ وذلك عائدٌ إلى وجود عوامل أخرى تعيق حركة النمو في ذلك البلد، كهشاشة الجانب الأمني، ووجود حرب أهلية، أو تعرض البلد النامي لهزات اقتصادية شديدة تتسبب في نكوص البلد وتقهقره، أو حدوث كوارث بيئية وغيرها.

وأخيراً في هذه المسألة فإنه بالإمكان أن يكون البلد أو المجتمع النامي مصنعاً لبعض وسائل العيش الضرورية والكمالية، ومع ذلك فلا يطلق عليه مجتمع متقدم وذلك عائدٌ إلى أن معظم ما يستخدم من وسائل مصنعة خارجياً، كما أنه يعتمد بشكل أساسي على البلدان الأخرى لدعمه بالخبرات اللازمة، بالإضافة إلى قطع الغيار الضرورية لتشغيل معدات تصنيعه.

وكما أن المجتمعات تتفاوت فكذلك الأشخاص أنفسهم يتفاوتون من حيث التقدم والتقهقر في المجتمع الواحد، وفي هذا يقول دانييل ليرنر Daniel Lerner عن الأفراد في منطقة الشرق الأوسط في كتابه (موت المجتمع التقليدي: تحديث الشرق الأوسط[1]) حيث ينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف:

١. متمدن Modern أو عصري ويقاس بعدة مسائل مثل التعليم وعلمانية التفكير، والمستوى الاقتصادي المرتفع، والتعامل مع وسائل الاتصال.

٢. الانتقالي Transitional لديه الرغبة في التغير ولكنه لا يملك إمكانيات التغير، رغم أنه يستمع إلى الإذاعات الخارجية، ويستخدم وسائل الاتصال

(1) Daniel Lerner.The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East. Macmillan Pub Co. 1958

المختلفة، إلا أن أهم ما يعيقه عن التغير الذي ينشده يتمثل في عدم إجادته القراءة والكتابة.

٣. تقليدي Traditional ليست لديه الرغبة في التغير، فهو متقوقع على ذاته، ولا يريد الخروج من الدائرة التي هو فيها.

وبالتأكيد فإن مسألة تقدم المجتمع وتخلفه تعود في المقام الأول إلى الأشخاص ذوي النفوذ والقوة والتأثير، ومدى رغبتهم في التغيير والإصلاح، وفي هذا المقام يشير الدكتور / محمود عودة[١] إلى أن روجرز يقسم الأشخاص في المجتمعات ومدى قابليتهم وتفاعلهم مع مسألة التجديد والإصلاح والتغيير إلى خمسة أقسام كما يلي:

١. المجددون Innovators
٢. المتبنون المبكرون Early Adopters
٣. الأغلبية المبكرة Early Majority
٤. الأغلبية المتأخرة Late Majority
٥. المتمهلون أو المتريثون Laggards

أشكال التغير الاجتماعي لدى المؤلف:

التقدم: ويعني الارتقاء من مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى بغض النظر عن المستوى الحقيقي لمن تحصّل على التقدم هل هو متدني أم مرتفع.

التقهقر: ويعني التراجع من مرتبة إلى أخرى أدنى منها، سواء كان ذلك في جانب محددٍ من المجتمع أو في كافة جوانبه.

التطور: يعني التوسع والتمدد اُفقياً، ويقع في المجتمعات أو الأشياء المتقدمة، بمعنى أن التوسع في استخدام وسائل الاتصال والتقنية بشكلٍ عام يعدّ تطوراً، بينما إدخال تلك الوسائل أول مرة وتعامل المجتمع معها يعد تقدماً.

(١) د. محمود عودة، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤١٦هـ (١٩٩٥م).

التنمية: تشمل التقدم والتطور بحيث يجري إدخال تقنيات جديدة مع الاستمرار في التوسع باستخدامها من خلال مقارنة حال مجتمع معين في تاريخ زمني محدد بآخر قبله أو بعد بخمس أو عشر سنوات، فإن ثبت إدخال تقنيات جديدة قلنا هذا تقدم، وإن ثبت التوسع بها قلنا هذا تطور، ونطلق على عملية الإدخال والتوسع تنمية وزيادة.

النمو: يمثل مرحلة ما بين التقهقر والتقدم، بمعنى التفات أصحاب النفوذ في مجتمع أو بلدٍ ما إلى الحالة التي يعيشونها، وسعيهم إلى الخروج من حالة التخلف والتقهقر، فيبدأون بتلبية الحاجات الضرورية والأساسية للعيش الإنساني المتحضر، ثم يتبعونها بتوفير شيئ من الوسائل التكميلية التي تسهل العيش الآدمي، وتجعل الحياة أكثر مرونة وانسيابية، مع ملاحظة أن كل ما يتم توفيره من وسائل غالباً ما يكون مستورداً من بلدان متقدمة بالإضافة إلى أنه متوافر في جميع البلدان التي لا تعيش حالة التقهقر، ويشمل ذلك توفير مياه صالحة للشرب، ورعاية صحية مقبولة، ووسائل نقل آلية، ووسائل إعلام متنوعة، وأجهزة اتصالات حديثة، وغيرها من الوسائل الضرورية والكمالية الأخرى. كما يطلق مصطلح النمو على الزيادة السكانية، وعلى زيادة المحصول الزراعي، ولكن ليس بالضرورة أن يكون النمو السكاني تغيراً إيجابياً، بل العكس فقد يكون تغيراً سلبياً بحسب نظرية مالتوس التي ترى أن الانفجار السكاني نذير شؤم، وما لم يتوافر الإنتاج المماثل لهذا النمو السكاني فإن النمو الهائل للسكان يعد عنصراً مدمراً للتقدم وباعثاً لأشكال من التغير الاجتماعي غير المرغوب فيها[1]. أما النمو بوصفه شكلاً من أشكال التغير والذي يشمل كما أشرت التقدم والتطور فهو بلا شك يعد إيجابياً.

التقلص: ويعني استمرار التقدم أو التطور، ولكن بنوع من الترشيد، بحيث لا يستمر بنفس معدلاته السابقة.

التحديث: وهو النمو ولكن على كافة الأصعدة فلا يمكن أن نقول إن هناك تحديثاً في استخدام وسائل الاتصالات فقط، ولكن هناك نمو في استخدام وسائل

(١) د. دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل، عمان، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

الاتصال، والتقنيات الحديثة، وحركة تسوق ضخمة، وطفرة عمرانية، ونمو في مجالات أخرى، كل ذلك يطلق عليه عملية تحديث المجتمع وجره إلى مزيدٍ من التقدم والتطور على كافة الأصعدة.

عناصر التغير لدى المؤلف:

من خلال ما درسه المؤلف في مجال التغير الاجتماعي توصل إلى أن لكل عملية تغير مجموعة من العناصر، ملازمة لها، لا تنفك عنها، ولابد من التعرض لكل عنصر وبيانه؛ ليمكن تقييم التغير والحكم عليه، أحد تلك العناصر ثابت وهو ما يتعلق بالنتيجة أو المحصلة النهائية التي تتمثل دائماً بالتغير، أما بقية العناصر الأخرى فإنها متغيرة بحسب العملية وتتلخص عناصر التغير من وجهة نظري في ستة عناصر وإن شئت فسمّها أركاناً، حيث تتمثل فيما يلي:

١. **الميدان:** ويقصد به الحقل الذي سيطاله التغير، وهو بالطبع متنوع، ومنها على سبيل المثال: التعليم، والتقنية، التجارة، والصناعة، والأسرة، والزراعة، وغيرها كثير من الميادين والحقول.
٢. **الفعل:** ويقصد به الحدث أو النشاط الذي يعمل سواء بشكل تلقائي لا إرادي، أو بفعل بشري مدروس ومخطط له للوصول في النهايةً إلى حالة مجتمعية جديدة، ومثاله: اختراع التلفاز، واختراع السيارة، واكتشاف النفط، والسماح بتعليم النساء في المملكة، ودخول الإنترنت، وغيرها كثير.
٣. **الفاعل:** وهي الجهة التي تبنت الفعل وقامت به، أو أنها أسهمت وشاركت آخرين في تنفيذ فعل أو نشاط ترتب عليه تغير ومنه على سبيل المثال: المصلحون الاجتماعيون، والثوارً، وشركات التقنية والحكومات، وغيرها.
٤. **الوسيلة:** وتتمثل في الأداة المستخدمة لإحداث التغير، ويمكن أن تكون: وسيلة تقنية، أو وسيلة اقتصادية، أو وسيلة تربوية، أو وسيلة إعلامية، أو وغيرها كثير من الوسائل والأدوات التي يمكن استخدامها لإحداث التغير سواء بقصد أو بدونه.

٥. **المستهدف:** وهي الفئة المعنية بالنشاط أو الفعل، وهي الجهة المستفيدة أو المتضررة من النتيجة الحتمية للتغير، وهي متنوعة أيضاً، فقد تكون: المجتمع بأسره، أو الطلاب، أو المعلمين، أو الموظفين، أو فئة الشباب، أو النساء، أو وغيرها.

٦. **النتيجة:** وهي المحصلة النهائية، والتي ستكون بالتأكيد تغيراً يأخذ شكلاً من أشكال التغير التي تحدثت عنها سلفاً: (تقدم، تقهقر، تطور، تنمية، نمو، تقلص، تحديث).

ولعلي أدرج مثالاً يوضح هذه الفكرة ويزيل أي غموض قد يصحبها، فلو أخذنا على سبيل المثال الهاتف الجوال: فنقول بأن الميدان تقني، الفعل: السماح باستخدام الجوال كوسيلة اتصال، الفاعل: في هذه الحالة هناك ثلاثة أطراف: شركات الاتصالات(كجهة تبنت تقديم الخدمة وكل ما يتعلق بالأمور الفنية)، الحكومات (سمحت ونظمت ودعمت هذه الخدمة الوافدة)، المجتمعات (تفاعلت مع هذه الخدمة واستخدمتها، ولم تعترض عليها)، الوسيلة: تمثلت في تقنية الهاتف الجوال، المستهدف: المجتمع بأسره، النتيجة: في مثل حالة الهاتف الجوال تجد النتيجة أو التقييم النهائي يعتمد على المجال وتأثيرات تلك الوسيلة، ولكنها في المجال تعد شكلاً من أشكال التقدم المجتمعي، ثم إن التوسع في ذلك كاستخدام تقنية الجيل الثالث أو كاميرات الجوال يعد شكلاً من أشكال التطور رغم ثبات بقية العناصر، ولكن كما أسلفت حين تحدثت عن أشكال التغير وفرقت بين التقدم والتطور، فالتقدم يكون من خلال استخدام التقنية أول مرة، أما التطور فيتمثل في التوسع في استخدام نفس التقنية؛ فنحن بدأنا في الهاتف الجوال بالمكالمات فقط وهذه بحد ذاتها خطوة متقدمة، ثم تطورنا من خلال التوسع في استخداماته فصرنا نستخدمه للتصوير، ولاستماع المواد الصوتية، ولقراءة الكتب، ولممارسة بعض الالعاب، وللدخول إلى الإنترنت، وغيرها كثير من الاستخدامات التي لا يمكن حصرها. والنتيجة النهائية أن مجتمع ما قبل الجوال ليس نفسه مجتمع جوالات

الجيل الثالث الآي فون والبلاك بيري والنوكيا ٨ وغيرها من الجوالات الذكية التفاعلية.

دعوني آخذ مثالاً آخر بعناصر مختلفة، فزيادة المرتبات مثلاً تعد بداية لعملية تغير مجتمعي شاملة، بدأت بالفعل أو الحدث: زيادة المرتبات، وميدانها اقتصادي، الفاعل: الحكومة، الوسيلة: ضخ السيولة المالية وزيادتها في أيدي فئات مختلفة ومتنوعة من المجتمع، المستهدف: المجتمع بأسره، النتيجة: تنمية، نمو، تطور، تقدم، وقد تظهر بعض السلوكيات غير الجيدة فيكون هناك تقهقر في جوانب محددة، ولكن المحصلة النهائية للفعل الاقتصادي غالباً ما تكون تنمية.

العوامل المسببة للتغير الاجتماعي:

كما أسلفت فالتغير حاصل في هذا الكون وليس هناك أحد في مأمن منه ـ بمشيئة الله وقدرته ـ فهو كما يحصل في الذات البشرية وما يحيط بها وحولها من أشجار وأنهار ودواب وليل ونهار وشمس وقمر وغيرها فهو سيمضي في المجتمعات البشرية ولكن حدوث هذا التغير له أسباب وعوامل من أبرزها ما يلي:

أولاً: العامل الديني.
ثانياً: العامل التقني
ثالثاً: عامل الصراع.
رابعاً: العامل الاقتصادي.
خامساً: العامل السياسي.

أولاً: العامل الديني:

ويعد الدين الإسلامي من أبرز العوامل المؤثرة في المجتمعات الإسلامية، بل إني لا أعلم شيئاً غيّر الأفراد، وأثر في شخصياتهم وسلوكياتهم، وأثر في المجتمعات التي اعتنقته وبدل حالها مثل الدين الإسلامي الحنيف، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لأبي عبيدة بن الجراح – رضي الله عنه –: «إنا كنا

أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله[1]» ومنه قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي - رضي الله عنهما -: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله -سبحانه وتعالى- لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قال فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا[2]. فتأمل في قول جعفر -رضي الله عنه- ، وكيف كانوا قبل الإسلام ثم كيف تغيروا بعده. ومنه أيضاً قول يزدجرد ملك فارس لنفر من المسلمين قبل معركة نهاوند: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم. فقال المغيرة بن شعبة: أيها الملك، إن ما ذكرت من

---

(١) الحديث (٢٠٧) في المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ونصه: أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادي ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي ثنا علي بن المديني ثنا سفيان ثنا أيوب بن عائذ الطائي عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك فقال عمر: أوه لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد ﷺ إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لاحتجاجهما جميعا بأيوب بن عائذ الطائي وسائر رواته ولم يخرجاه وله شاهد من حديث الأعمش عن قيس بن مسلم.

(٢) حديث (٢١٤٦٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل.

سوء الحال: فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا: فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا. وأما المنازل: فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل، وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه. ثم انظر كيف يختم المغيرة حديثه للملك بقوله: فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك؟[١] وهذا الخطاب ما كان أحدٌ من العرب يجرؤ على التلفظ به قبل أقل من عشرين سنة فقط من ذلك الموقف ولكنه الإسلام الذي غير المجتمعات والأفراد والأنفس العربية بأسرها. والإسلام دين سماوي شمولي لم يكتف بتغيير حال معتنقيه، بل إنه دائماً ما يظهر قدرة باهرة على التأقلم مع المستجدات والتكيف معها وهذا من أسرار مناسبته لكل زمان ومكان، وإلى ذلك أشار الدكتور إبراهيم الجوير حين كتب: « يؤكد يوسف إس إم S.M. Yusuf على أن الإسلام سوف يستوعب التطور في مجالات الفنون، والعلوم ، والصناعة ، والتقنية الوافدة من جميع أنحاء المعمورة، كما أن (قدوري) يشير إلى أن الإسلام صاحب أقوى تأثير على الثقافة العربية، وعليه فإنه هو وحده ينبغي أن يكون الجهة التي تأتي وسائل التنمية منها ومن خلالها. كما درس سمث ١٩٥٧م W.C. Smith تأثير الأزمان المتغيرة على الدين مع التركيز على السمات الضابطة، وتأسيسا على ما سبق فقد أظهر الإسلام استجابة للتغيير»[٢].

ثانياً: العامل التقني:

أرى أن العامل الديني هو المؤثر الأول في تغير المجتمعات الإسلامية، فكما سلف لا يوجد مجتمع إسلامي واحد في هذا الكون إلا ويكون للدين الإسلامي دور رئيس في تغييره وتوجيهه، وفي ذات الوقت أرى بأن التقنية هي العامل الأول في

(١) البداية والنهاية (الجزء السابع) ابن كثير.

(٢) د. إبراهيم بن محمد الجوير، الأسرة والمتغيرات التنموية في المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ (٢٠٠٥م).

مسألة تغير البشرية بشكلٍ كامل، فمعظم ما نراه من تغيرات ما كانت لتحدث لو لم يكن هذا التقدم التقني الهائل ومن يتحدث عن دور التقنية في تغير المجتمعات لزاماً عليه أن يعرج على ما كتبه وليم أوغبرن W. Ogburn حول ذلك فهو نصير العامل التقني الأول ومن ضمن ما يذكره أوغبرن في كتابه (التغير الاجتماعي) الذي ألفه سنة ١٩٢٢م وهو بالمناسبة أول كتاب عن التغير الاجتماعي وينسب من خلاله للاختراعات التقنية دوراً هاماً في إحداث التغير.[١] كما أنه في حديثه حول مراحل التغير الثقافي يعد الاختراع والإبداع المرحلة الأولى للتغير الثقافي ويقول: بأن الاختراع والإبداع يشيران إلى القابلية على خلق الأشياء الجديدة إما أن يكون جديداً كالفأس مثلاً فيسمى إبداعاً، وإما أن يكون ناتجاً عن شيء موجود سابقاً كالسيارة وغيرها من الاختراعات فتسمى اختراعاً لأنها نتجت عن إبداع موجود.[٢] كما يرى أوغبرن، أن المخترعات تركت آثاراً في حياة الناس بعضها مباشر وبعضها الآخر غير مباشر، ويضرب مثلا على ذلك باختراع الآلة البخارية التي أدت في نظره إلى النتائج الآتية:

١- جذب العمال والعاملات من المنازل إلى المراكز الصناعية.
٢- أدى الأثر الأول إلى الإضعاف من سلطة الرجل في المنزل.
٣- أدى الثاني إلى تحرير المرأة.
٤- أدى ذلك إلى اطراد تمتع المرأة بحقوق لم تكن تتمتع بها من قبل.[٣]

وفي حديثه حول التغير الحضاري يشير وليام أوغبرن إلى أن عمليات التغير الحضاري الناتج عن التطورات التكنولوجية تتم في ثلاث طرق:

١. التنوع Diversification، وهي الطريقة التي يكون بها لاختراع من الاختراعات تأثيرات اجتماعية متنوعة في مختلف الميادين، مثل التليفزيون،

(1) W. Ogburn, Social change with respect to culture and original nature, New York : B.W. Huebsch, Inc. 1922.

(٢) د. معن خليل العمر، التغير الاجتماعي، دار الشروق الأردنية، عمّان، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

(٣) د. الفاروق زكي يونس، الخدمة الاجتماعية والتغير الاجتماعي، (مرجع سابق).

فإنه يباشر تأثيرًا كبيرًا على ميادين التعليم، الأسرة، السياسة، المسرح، السينما، الطب، المكتبات، الفنون،...الخ. وإنه قد يتبين من بحث أجري في أمريكا عام ١٩٣٣م، لمعرفة آثار اختراع الراديو، أن له حوالي ١٥٠ تأثيرًا في المرافق المختلفة للحياة الاجتماعية، وذلك يدل على أن معرفة تأثير اختراع كالسيارة مما يضيق بآثاره الحصر والتقصي.

٢. التتابع Sequence، وفي هذه الطريقة يكون للتطور التكنولوجي أثر جوهري مباشر وسريع، ثم آثار فرعية وثانوية أخرى، ذلك أن قوة الاختراع لا تقف عند التأثير الأول، بل تستمر في حلقات متصلة متشابكة كحلقات السلسلة، تمسك حلقة منها حلقة أو كالموج يدفع بعضه بعضًا. فاختراع الآلة البخارية سنة ١٧٧٦م كان تأثيره المباشر هو نقل المصانع ووسائل الإنتاج خارج المنزل، ولكن لم تتوقف التأثيرات الفرعية التي امتدت إلى جوانب أخرى كثيرة. فقد حدث تغيير في طبيعة عمل الرجل والمرأة وتأثرت سلطة الرجل كرئيس تقليدي للأسرة، وكمدير منظم للعمليات الإنتاجية التي كان مركزها البيت، ثم إن تغييرًا آخر لحق الأسرة نفسها من حيث كثرة الطلاق والانفصال بين الزوجين.

٣. الاستقطاب Convergence، أو الالتقاء: وذلك أن تتجه عدة اختراعات مختلفة إلى إنتاج تأثير واحد؛ فنشأة الضواحي السكنية على حواف المدن الحديثة Banlieux مثلاً كانت نتيجة لاختراعات كثيرة كالقطارات، والطرق الكهربائية، والعربات الخاصة والعامة، والهاتف، والمذياع، كما يمكن أن يكون لبعض التشريعات الخاصة بالمباني دخل كذلك. ويجوز أن يكون للتنظيم الاجتماعي نفسه وترتيب المكانات الاجتماعية دخل في هذا كله وأثر. ومثل آخر، فالمصنع مثلاً ليس نتيجة لاختراع الآلة البخارية وحدها، ولكن هناك عدة اختراعات أخرى كانت ضرورية لقيامه مثل صناعة الصلب مثلاً... وانهيار السلطة التقليدية للأسرة لم يسرع به اختراع المصنع وحده، بل أثرت كذلك فيه نظم المدارس والمواصلات وذيوع الآلة

الكاتبة التي اجتذبت إناث الأسر إلى المكاتب في العمل عليها... الخ وعمل المرأة نفسها خارج المنزل لم يعتمد على قيام المصنع وحده، بل كذلك على اختراع موانع الحمل Contraceptives وعلى نظام المواصلات.[(١)]

ذكرت تواً بعضاً مما يتعلق بالتقنية وما يرتبط بها بالنسبة لويليم أوغبرن، ولعلي أمر سريعاً على بعض علماء الاجتماع الآخرين من باب الاستشهاد بما قالوه أو قيل عنهم، ويكون مناسباً لتدعيم حديثي حول دور التقنية في تغير المجتمعات البشرية، وبهذا الصدد يذكر الدكتور علي القرشي في حديثه عن مالك بن نبي فيقول: بأن طريقة عيش الفرنسيين وارتباطهم بالتقنية أثر في حياته بشكل كبير فأول ما يقدم للطفل من هدايا كان ألعاباً ميكانيكية بسيطة ليفككها ثم يعيد تركيبها، وكان الموظف أو العامل الفرنسي حين يخرج من عمله يذهب إلى منزله ويمارس بعض الهوايات الحرفية كالنجارة أو الحدادة، وفي المقابل فإن المواطن الجزائري لم يكن يجد في بيته آلة ولا حتى مسماراً، ويقضي معظم وقته في لعب الورق، وهذا ما دعا مالك بن نبي إلى الاعتقاد بأن التغير يبدأ من التربية والتنشئة الاجتماعية، مع إدخال التقنية كعنصر رئيسي من المكونات التربوية للثقافة التغييرية[(٢)]

ويشير إميل دوركايم إلى أن التقدم التكنولوجي يؤدي دائماً إلى زيادة تقسيم العمل الاجتماعي، والذي يعني تباين الوظائف وتفتتها.[(٣)] وهذا يؤثر بشكل كبير على المجتمع بشكل عام حيث يؤدي إلى التفاوت الطبقي، كما أنه يؤثر على الفرد بذاته حيث يجعل قيمته متمثلة في كونه جزءاً من منظومة عمل يؤدي من خلالها دوراً محدداً لا يمكنه وحده القيام به.

ثالثاً: عامل الصراع:

في ظني أنه عامل مهم جدا؛ وهو من أسرار بقاء هذه الحياة وصلاحها للعيش والمولى - عز وجل - يقول: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ

(١) د. محيي الدين صابر، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٣٨١هـ (١٩٦٢م).
(٢) د. علي القرشي، التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغير في المجتمع المسلم المعاصر، مكتبة غريب، القاهرة، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).
(٣) د. محمد الجوهري، وآخرون، التغير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤١٥هـ (١٩٩٥م).

ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[1] ويقول في موضع آخر: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2] وهذا تأكيد على وجود الصراع بين الناس وأنه سبب صلاح الأرض كما في الآية الأولى، مثلما أنه سبب في حفظ ثقافات أخرى من الزوال كما تشير إلى ذلك الآية الثانية. كما أن من أسرار الخالق وجودَ الاختلاف بين البشر ليحدث هذا الصراع الذي هو سبب رئيسي لما نراه من تغيرات حيث يقول- عز وجل - في سورة هود: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[3]

ولو نلاحظ هنا أن الصراع كان سبباً رئيسياً في تهجير كثيرٍ من الناس من منطقة إلى أخرى ومنه تهجير الفلسطينيين عن أرضهم، وقبله تهجير المسلمين من مكة إلى المدينة والذي أثمر عن تأسيس أول دولة إسلامية مستقلة، كما أن الصراع هو السبب الرئيسي للحروب وما قيام أكبر حربٍ عرفتها البشرية إلا بسبب الصراع حيث ظن هتلر أن جنسه الآري متفوق على غيره من البشر فبدأ حربه على جيرانه لإخضاعهم والسيطرة عليهم، وهذا العامل وأقصد به «الحروب» يعده كثيرٌ ممن كتب في التغير الاجتماعي من أهم العوامل المسببة له، إلا أني أعده عاملاً ثانوياً ينضوي تحت مضلة الصراع، ونفس الأمر يمكن أن يقال عن التهجير القسري الذي يحدث في أنحاء متفرقة من هذا العالم بقصد تحقيق كسب لمهجر (بكسر الجيم) وإلحاق الضرر بالمهجر (بفتح الجيم) وهو بالطبع يختلف عن ذاك الذي تقوم به الحكومات بقصد تحقيق مصلحة عامة تفيد قطاعاً من شعبها.

---

(١) من الآية (٢٥١) سورة البقرة.
(٢) (٤٠) سورة الحج.
(٣) الآيتين (١١٨ و ١١٩) سورة هود.

ومن يرد التبحر في مسألة الصراع ودوره في إحداث التغيرات الاجتماعية فما عليه سوى البحث في النظريات المادية التاريخية، حيث تركز على التغيرات الثورية التي تنقل المجتمع من حالة إلى حالة مناقضة وتعد الصراع والتناقض المحرك الأساسي للمجتمع، وبالطبع فمن يقرأ في هذه النظريات فلن يعدم التعرف على كارل ماركس Karl Marx ونظريته حول الصراع CONFLICT THEORY حيث تركز على التنافس والصراع بين مختلف الطبقات وفئات المجتمع. ويؤكد كارل ماركس على أهمية الصراع على الموارد الاقتصادية فالموارد الاقتصادية بالنسبة له لا تشتمل فقط على الثروة بل تشتمل أيضاً على الوسائل التي يتم من خلالها تكوين الثروة وهي ما يسميها بوسائل الإنتاج وهي الموارد الخام والمصانع والأدوات.[١]

رابعاً: العامل الاقتصادي:

يؤدي هذا العامل عملاً حاسماً في مسألة التغير الاجتماعي ويؤثر ويتأثر بشكل كبير في بقية العوامل الأخرى، بالأخص العامل السياسي، وسوف آتي على تلك العلاقة لاحقاً، ولكني هنا أرغب في التركيز على دور العامل الاقتصادي في تغير المجتمعات ونقلها من مجتمعات منغلقة إلى أخرى منفتحة على العالم، تعرف ما يجري في كافة أصقاعه وكأنه جزء منها فتؤثر وتتأثر بحسب المكانة السياسية، فإن كان المجتمع مدعوماً بقوى سياسية نافذة فسوف يلعب الاقتصاد دوراً هاماً في تغير المجتمع بحكم التأثيرات الداخلية والتي غالباً ما تكون بسبب أفراد وحركات ومنظمات نشطة تتفاعل فيما بينها نتيجة لحراك اجتماعي متأتٍ عن نشاط داخلي بحت، يؤدي بعد تعميمه، سواء على المجتمع أو شريحة محددة من المجتمع إلى انتقاله بفعل المكانة الاقتصادية والسياسية للمجتمع صاحب اليد الطولى في التغيير إلى أن تتبناه مجتمعات أخرى لا تحظى بذات المكانة الاقتصادية والسياسية التي لدى المجتمع الأكبر إمكانات اقتصادية ونفوذاً سياسياً.

(١) د. اسماعيل كتبخانة، أسس علم الاجتماع، خوارزم العالمية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م).

ولو أخذنا فعل هذا العامل على دول مجلس التعاون الخليجي مثلاً لاستطعنا من خلال قياس ما كانت عليه قبل الطفرات الاقتصادية المتأتية من مبيعات الزيت الخام وما آل إليه حالها بعد ذلك والذي سأتطرق إليه بشيء من التفصيل حين أتحدث عن المظهر المادي في المملكة العربية السعودية. ورغم التغير الهائل الذي حدث في تلك البلدان العربية بفعل الازدهار الاقتصادي إلا أن للعامل السياسي دوراً رئيسياً هنا بجانب العامل الاقتصادي، حيث كان التغير في تلك المجتمعات يتأتى من الداخل ومن الخارج بحكم وجود بلدان ذات نفوذ سياسي أكبر فكانت قادرة على الوصول إلى ما سواها من المجتمعات والتأثير بها على اختلاف مستوياتها.

ومن هنا فالعامل الاقتصادي مهم جداً في مسألة التغير الاجتماعي، بل إن أصحاب الحتمية الاقتصادية يرون بأن العوامل الاقتصادية هي وحدها المسؤولة عن كافة التغيرات والثورات التي تحدث في المجتمعات، فهم يلغون كافة العوامل الأخرى ويربطون كل تغير بالاقتصاد(١)، ولا أقول بأنهم محقون في ذلك خاصة وأن النظريات الحديثة للتغير الاجتماعي ترفض فكرة الحتميات وإسناد التغيرات إلى عامل واحد فقط، بل ترى أن هناك أكثر من عامل يشترك في مسألة التغير الاجتماعي. ولكن لو أمعنا النظر في الجانب الاقتصادي لوجدناه المحرك الرئيسي لكل تغير فهو أشبه ما يكون بالعمود الفقري، وهذا القول لا يلغي دور العوامل الأخرى، وهذا ما يؤكده كارل ماركس Marx صاحب نظرية الصراع حيث يذهب إلى أن التغير الاجتماعي يرتبط في أساسه بالعامل الاقتصادي باعتباره المحرك الأساسي لكل عملية تغير، والتي تؤدي بدورها إلى تغيرات متعاقبة في بقية نواحي المجتمع، كما أن نظريته الاجتماعية تستند إلى مسلمتين أساسيتين أولاهما: أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره، وأنه يتكون أساسًا من الوسائل التكنولوجية للإنتاج.(٢)

---

(١) د. سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

(٢) د. فادية عمر الجولاني، التغير الاجتماعي..مدخل إلى النظرية الوظيفية لتحليل التغير، دار الإصلاح للطباعة والنشر، الدمام، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

وارغب الإشارة هنا إلى أن الهشاشة الاقتصادية قد تكون سبباً في إبطاء حركة التغير الإيجابي بشكلٍ كبير، وربما حدث التغير القهقري النكوصي الذي يجر على المجتمع الويلات بسبب زيادة الحاجة المطردة، وعدم القدرة على تلبيتها، وقد يعود ذلك إلى التكلفة غير المستطاعة التي كثيرا ما تكون مانعا من قبوله، وهذا يعدّ مانعا مهماً في سبيل انتشار تبني كثير من التجديدات الحديثة في المجالات التكنولوجية الإيديولوجية، وربما لا تكون التكلفة عالية بالشكل الذي يعيق حقيقة، ولكن قد تكون ندرة المصادر الاقتصادية ومحدوديتها سبباً في إحجام المجتمع عن اقتناء تلك التقنية الجديدة على الرغم من أن تلك التغيرات قد تكون مرغوبة إلى درجة كبيرة في كثير من البلاد المتخلفة والنامية ومع ذلك فإنها لا يمكن أن تظهر بدرجة كافية بسبب الضغوط الاقتصادية.(١)

كما لا ننسى هنا أن العامل الاقتصادي كان سبباً رئيسياً في تغير شكل الأسرة في معظم أصقاع الأرض، ولو أخذنا الأسرة السعودية نموذجاً لوجدناها إلى وقت قريب جداً كانت تعتمد على الأب أو الرجل بشكلٍ أعم، ولم يكن للمرأة أي دورٍ اقتصادي فعلي اللهم إلا إذا استثنينا ما تقوم به المرأة من مهام تعد في ذلك الوقت من صلب الأعمال الموكلة إليها كخياطة الملابس وعمل الخبز وصناعة بعض ما يحتاجه المنزل من أشياء بسيطة جداً وكل ذلك داخل نطاق العائلة بالطبع ولكنه يعد رافداً اقتصادياً مهماً، والأهم أنه لم يكن يعوقها عن القيام بدورها كربة منزل، ولكن مع الانفتاح الاقتصادي الذي حدث منذ بدء الثورة الصناعية ثم تجلى بشكلٍ كبير بعد الحرب العالمية الثانية بسبب نقص الأيدي الرجالية العاملة ووجود الحاجة إلى إشراك العنصر النسائي، ثم دخول المرأة ساحة العمل وتحللها من بعض وظائفها الأساسية وما نتج عنه من تأخر في سن الزواج لدى كثير من الفتيات بحجة إتمام الدراسة للحصول على فرصة وظيفية، تلك الفرصة التي أثرت في ربّات البيوت وأعاقت كثيراً منهن عن أداء رسالتها الحقيقية المتمثلة في

(١) د. سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث، (مرجع سابق).

تربية أولادها وما صاحب ذلك من طفرة تقنية ومعلوماتية وغزو إعلامي متنوع أثر في الأطفال بداءة ثم لحقه بالتأثير على المجتمع بأسره، وفي ظني أنه لولا العامل الاقتصادي ووجود الإمكانات المادية التي ساعدت في جلب تلك المستجدات المادية وإدخالها المنازل في ظل انشغال الأبوين، لما حدث ما نراه من تغير اجتماعي يحمل في طيه وبين جنباته كثيراً من السلبية على كافة الأصعدة.

خامساً: العامل السياسي:

أقصد به العمل الذي تقوم به الحكومات بشكلٍ عام في تغير المجتمعات سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، ومن وجهة نظري فإن العامل السياسي هو العقل المدبر والروح النابضة للتغير، ولو بحثت في أي تغير اجتماعي على وجه الأرض ستجد أن وراءه تأثيراً سياسياً سواء بتدبيره ودعمه أو بالسكوت عنه والسماح له، وهذا لا يعني بالضرورة وجود قوة سياسية مطلقة ولا هوان وضعف حكومي تام، ويمكن تفسير ذلك بحسب نفوذ وقوة السلطة الحاكمة ومدى رغبتها بالتغيير، ولو أخذنا المجتمع السعودي نموذجاً لوجدنا بأنه قفز قفزات متسارعة جداً خلال الخمسين سنة الماضية؛ وذلك عائد في المقام الأول إلى وجود إدارة سياسية لديها الإرادة في التغيير، فمن زار المملكة في السبعينات الهجرية لن يصدق ما وصلت إليه في مطلع القرن الهجري الخامس عشر، فما بالك بوضعيتها الحالية بعد أكثر من ثلاثين عاماً انصرمت من هذا القرن، ونفس الشيء ينطبق على الطفرة المعلوماتية التي شهدها العالم وعلى الأخص المملكة التي أصبح لديها أكثر من أربعين مليون خط هاتفي متنقل وثلاث شركات اتصالات عملاقة وقرابة النصف من المجتمع يتعامل مع تقنية الإنترنت وهي كلها مؤشرات ممتازة حدثت في فترة زمنية يسيرة لم تتجاوز عقدين من الزمن، وتلك توحي بوجود إرادة سياسية لم تسمح بهذه القفزات المتسارعة فقط بل دعمتها وأوجدت المناخ الملائم لنموها وسوف أتطرق إلى ذلك بشيء من التفصيل عند حديثي عن الجانب المادي في تغير المجتمع السعودي.

ومن ضمن أفضل التجارب المبهرة التي تثبت فاعلية الإرداة السياسية وأنها العقل المدبر للتغير والصانع الحقيقي للاقتصاد المؤثر تلك التجربة السنغافورية التي يجدر بي أن أستشهد بها على فاعلية الجانب السياسي، حيث لم تكن سنغافورة تملك أي مقوماتٍ نمو طبيعية، إلا أن قدرتها السياسية المتمثلة ذلك الوقت في رئيس وزراءها سابقاً لي كوان يو Lee Kuan Yuw حولت تلك الجزيرة المعدمة البائسة وشعبها الفقير إلى إحدى البلدان المتقدمة، وضمن أفضل خمس دول من حيث المستوى المعيشي وارتفاع دخل الفرد. ويمكنك لو اطلعت على كتاب قصه سنغافورة أن تتعرف على العقلية السياسية التي تمكنت من بناء دولة متميزة في كل شيء من نظمها المدنية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، والتعليمية، كل ذلك خلال ثلاثة عقود ونصف تقريباً من عام ١٣٧٨هـ إلى ١٤١٢هـ (١٩٥٩م) إلى (١٩٩٢م) وأبرز ملامح التغير الاجتماعي المادي الحاضرة للعيان التي أحدثها تمثلت في تمكنه من القضاء على الفساد الإداري الداخلي بقوانين شديدة القسوة، وبنائه مساكن جيدة لكل السكان، وبناء مطار دولي وخطوط طيران، وبناء شبكة طرق، وبناء نظام سياسي ديمقراطي، وهنا يأتي العاملِ المهم في التغير والمتمثل في تمكنه من بناء نظام اقتصادي متطور جعل سنغافورة واحداً من أهم المراكز البنكية في العالم، وأبرز الشواهد على متانته أنه حين واجهت النمور الآسيوية انهيارات اقتصادية متوالية في أواخر التسعينيات الميلادية، ظلت سنغافورة وحدها بين تلك البلدان صامدة.[١]

يقول رئيس وزراء سنغافور الأسبق: عند استقلال سنغافورة في مطلع الخمسينيات الميلادية كانت عائدات القاعدة العسكرية البريطانية تمثل ثلاثة أرباع دخلها القومي مما عزز التشاؤم حول قدرة هذه الدولة الصغيرة على النمو، ولكن بالتخطيط والعمل الدؤوب تمكنت خلال ثلاثة عقود من تغيير ذلك الحال الاقتصادي المتردي ولتحوز على أكثر من ٧٠٠ مؤسسة أجنبية و٦٠ مصرفاً تجارياً، إضافة إلى بورصة مزدهرة لتبادل العملات الصعبة بحدود ٦٠ مليار دولار أمريكي سنويا. ومن المفارقات العجيبة أن سنغافورة تبنت نظاماً حازماً لتحديد النسل،

(١) لي كوان يو، قصة سنغافورة..مذكرات لي كوان يو، ترجمة وتحقيق: هشام الدجاني، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

حيث لم تتجاوز نسبة زيادة السكان ١،٩٪ في عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) و١،٢٪ في عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م)، مما جنب البلاد كارثة الانفجار السكاني الذي يعرقل التنمية، ولكن ما أن أصبح الاقتصاد السنغافوري في حاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة المؤهلة، حتى غيرت الدولة سياستها السكانية في الاتجاه المعاكس باعتماد برنامج جديد يهدف لتحفيز المواطنين لزيادة النسل، حيث خصصت له ميزانية تقد بـ ٣٠٠ مليون دولار أمريكي.[١] وهذا ما يتوافق مع نظرية مالتوس التي ترى أن الانفجار السكاني نذير شؤم، ومالم يتوفر الإنتاج المماثل لهذا النمو السكاني فإن النمو الهائل للسكان يعد عنصراً مدمراً للتقدم وباعثاً لأشكال من التغيرات الاجتماعية غير المرغوب فيها[٢].

(١) محاضرة ألقاها لي كوان يو أمام منتدى التنافسية العالمي الذي عقد في مدينة الرياض، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٨م).

(٢) د. دلال ملحس استيتية، (مرجع سابق).

نظرية المؤلف في التغير الاجتماعي

نظرية المحيط الاجتماعي (الدوائر الأربع)

أختم حديثي في هذا المدخل حول التغير الاجتماعي، وكيفية تغير المجتمعات في كل مكان من خلال تأثرها من الداخل وبما يحيط بها من مجتمعات ومؤسسات مدنية وغير ذلك والمجتمع لدي وكما أراه يبدأ بالجزء الأصغر منه وهو الفرد مروراً بالأسرة ثم بالجماعة ثم التجمع البشري الصغير سواء في قرية أو في حي ثم المجتمع المدني الكبير وهو المتكون من عدة مجتمعات صغيرة يطلق عليها بالجملة مجتمع المدينة الفلانية كمجتمع محافظة جدة واختلافه من عدة جوانب عن مجتمع مدينة الرياض، ثم المجتمع البلدي وهو ما يطلق على مجتمع الوطن بأسره كالمجتمع السعودي المجتمع الكويتي، ثم يأتي ما هو أكبر منه وهو المجتمع المتعدد ذو الروابط والعلاقات الكثيرة مع غيره من المجتمعات المشابهة كالمجتمعات العربية مجتمعات أمريكا الشمالية، وهكذا حتى نأتي إلى الشكل الأكبر وهو المجتمع الدولي بشقيه السياسي والجماهيري.

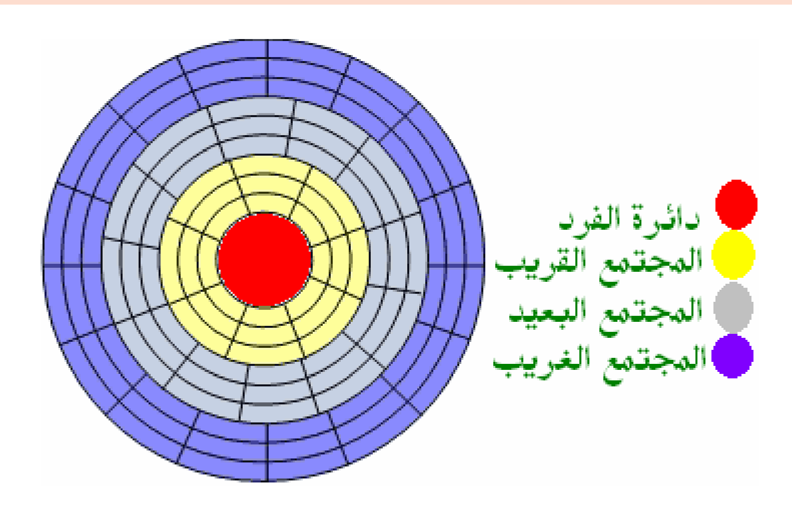
كل تلك المجتمعات بدءاً من مكونها الأصغر وهو كما أسلفت الفرد، تتأثر من الداخل بما يحيط بها، ومخرجاته قد تؤثر على المحيطين بها، وقد قمت برصد أربع دوائر رئيسية تحيط بكل جزئية من تلك التقسيمات وتشكلها وتغيرها، مما يترتب عليه تغير المجتمع بأسره، فعلى سبيل المثال: يعد الفرد جزءاً من جماعة تشكل مع مثيلاتها مجتمعات ترى من الخارج على أنها مجتمع واحد تجمعه ثقافة واحدة وإن تعددت وتنوعت، إلا أن الأكثرية منها غالباً ما تؤخذ بعين الاعتبار مع عدم إغفال الأقليات ودورها في التاثير وإحداث التغير في المجتمع بأسره. ولهذا فالتغير الاجتماعي ودرجة حدته وأشكاله تعتمد بشكلٍ كبير على المحيط الاجتماعي الذي أصنفه هنا إلى أربعة محيطات أو أربع دوائر كما يلي:

١. دائرة الفرد: وتتمثل في نفسية الفرد وطباعه وما يحققه من إنجازات وما يصيبه من أمراض وعاهات ومستواه الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي وغيرها، كل ذلك يؤثر في تفاعل الفرد مع المجتمع وقد يتغير بسببه أو قد يكون هو سبباً في تغير المجتمع.

٢. دائرة المجتمع القريب: ويقصد به الأسرة، والجيران، والمدرسة.

٣. دائرة المجتمع البعيد: وأعني به المدينة أو المحافظة التي ينشأ بها الفرد، ومجتمع البلد الذي ينتمي إليه ويعيش على أرضه وإعلامه.

٤. دائرة المجتمع الغريب: وتتمثل في المجتمعات المنتمية لبلدانٍ أخرى وتأتي عملية التأثر على الأخص إما بالانتقال للعيش معهم فترةً من الزمن، أو وفود جماعات من مجتمع بعينة أو من مجتمعات متفرقة فتؤثر في المجتمع المعني، والأكثر تأثيراً الوسيلة الإعلامية.



نظرية الدوائر الأربع: نواتها الفرد ومحيطها الأكبر المجتمع الغريب مع وجود قنوات تواصل متعددة بين جميع الدوائر وإمكانية تأثير كل دائرة في الأخرى دون عوائق.

ولكل من تلك الدوائر الأربع ارتباطه بالدوائر الأخرى وتأثيره عليها، بحيث تظهر النتائج النهائية على الفرد والمجتمع في لغته، وثقافته، ودينه، وعاداته وتقاليد، وفي أمور أخرى كثيرة يصعب حصرها.

ولو عدنا إلى عوامل التغير الاجتماعي التي ذكرت والمتمثلة بـ: الدين، الصراع، التقنية، الاقتصاد، السياسة، سنجد أن كل تلك العوامل تبدأ من إحدى تلك الدوائر وتؤثر في جزئية أو عدة جزئيات ثم تنطلق لتعم المجتمع بأسره وهكذا فعلى سبيل المثال سآخذ العامل الديني نموذجاً لأقول بأن دعوة الإسلام حين انطلقت بدأت من فرد، وهو محمد -علية السلام- الذي احتاج إلى أربعين سنة حتى يكون مستعداً لتلك الدعوة وهو سن الأشُدّ ثم حتى بعد أن أوحي إليه كانت هناك آيات تتنزل عليه لشحذ همته ورفع معنوياته وتقوية عزيمته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ ﴾[1] وغيرها كثير من الآيات التي تشير إلى أهمية تأهيل الفرد حتى يكون مستعداً لقبول التغير، خاصة حين يكون هو محطة الانطلاق لذلك التغير المجتمعي، فما بالك بحمل رسالة نرى أثرها وعظمتها وقوة تأثيرها حتى بعد مرور أكثر من (١٤٠٠سنة) على انطلاقتها، لها من المولى – عز وجل – الحفظ والعز الدائمين، وعلى أول من حملها أجل وأفضل وأزكى صلاة وسلام.

أعود إلى تلك الرسالة التي حملت أعظم تغير شمولي في تاريخ البشرية جمعاء حيث بدأت بفرد ثم انتقلت إلى فردٍ آخر مثله وحين انتشر وشاع أمر تلك الدعوة كان معظم أعضائها من المجتمع القريب وهم أسرة النبي – عليه السلام- بأكملها، وبعض أصحابه المقربين كأبي بكر وبعض أقربائه كعلي بن أبي طالب ثم حمزة بن عبد المطلب وغيرهم وكانوا قلة – رضي الله عنهم -، ولكن المجتمع البعيد المتمثل بسكان مكة المكرمة تلك الفترة لم يتقبلوا الدعوة بل وحاربوها فقد رأوها تغييراً لا يتفق مع ما ألفوه ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ ﴾[2] وهكذا الحال مع كثيرٍ من الأنبياء والمصلحين فكثيراً ما جوبهت دعواتهم التغييرية بالرفض من المجتمعات

(١) الآيات من الآية١ حتى الآية٥ سورة المدثر.
(٢) آية (٢٣) سورة الزخرف.

سواء المحيطة بهم أو بكافة المجتمعات، ولله مع تلك الأمم شأنان فإما أن يرفضوا فيتركهم ويمهلهم بل ويعطيهم ما يزيدهم طغياناً على طغيانهم ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1] ذاك شأن أما الشأن الذي يهمنا هنا فهو أن الله أراد لهذا الدين أن لا يترك بيت مدر ولا وبر إلا دخله[2]، ولهذا فحين لم يستجب المجتمع المكي أتى الله بأفراد من مجتمع آخر فتقبلوا تلك الرسالة ثم نشروها في كامل المجتمع الجديد الذي استقبلها واعتنقها واحتفى بها معظمه ثم كانت سبباً في قدرة ذاك المجتمع على تغيير كامل المجتمع القديم في وقتٍ لاحق بعد سلسلة من الصراعات والحروب التي كانت السبب الرئيسي في تغير موازين القوى بين المجتمعين، وتحول المجتمع الضعيف إلى المجتمع الأقوى في أقل من عقدٍ من الزمن ليتمكن من فرض سماع أفكاره التي لم يكن لها أن تسمع ولكنها حين أتيحت لها الفرصة وسمعت تشربها المجتمع بأسره، وهنا شكلٌ من أشكال العامل السياسي حين يبادر ويتيح المجال للأفكار الجديدة ويسمح بانتشارها في المجتمع ويترك له الخيار لتقبلها أو رفضها وهذا هو السر في فريضة الجهاد فهو لم يكن بقصد فرض دين الله بالقوة (لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ)[3] بل كان إجبار الحكام المتسلطين ليسمحوا لشعوبهم بسماع رسالة الله -سبحانه وتعالى- وبعد ذلك لهم أن يختاروا بين البقاء على دينهم أو اعتناق الدين الجديد.

والحديث حول تغير الفرد والمجتمع بأسره بالدوائر المحيطة به يطول ولكني مضطر لطرح الشواهد والأمثلة بقصد توضيح الفكرة وربطها بعوامل التغير الاجتماعي وإظهار مدى تغلغل كلٍّ منهما بالآخر، ومن ذلك مثلاً دخول الفضائيات

(١) آية (٤٤) سورة الأنعام.

(٢) من حديث أورده الإمام أحمد في مسنده عن تميم الداري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر».

(٣) من الآية (٢٥٦) سورة البقرة.

إلى المجتمع السعودي، حيث بدأت بضوء أخضر من الجبهة السياسية كعامل فاعل ومؤثر، ولكنه لم يكن كافياً ما لم يكن هناك قبول مجتمعي بدأ بالفرد والمجتمعين القريب والبعيد رغم وجود مجموعات كبيرة من الأفراد كانت ترفض الفكرة إلا أنها وبفعل تأثير المحيط القريب والبعيد بالإضافة إلى ما يبثه المجتمع الغريب كان الطرف الرافض مضطراً للدخول والاستفادة من تلك التقنية الوافدة.

ثم لا أنسى قدرة العامل السياسي على كبح جماح التغير وإعادته إلى نقطة الصفر رغم وجود بداية لحراك يفرض واقعاً جديداً ومنه قيادة المرأة للسيارة في المملكة التي قامت بها مجموعة من النسوة بدايات عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) وجوبهت برفض من السلطة السياسية فانتهى الأمر في حينه. ولو لاقت تلك الحركة قبولاً سياساً لأحدثت تغيراً كبيراً في المجتمع السعودي كان سيبدأ بأفراد معدودين ثم ينتقل إلى المجتمع بأسره بدءاً بدائرة الفرد مروراً بالدائرتين القريبة والبعيدة. ونفس الشيء ينطبق على السماح بدخول السينما إلى المجتمع حيث بدأت بأفراد ثم تبنتها جهات ومؤسسات إعلامية ولاقت قبولاً مجتمعياً جيداً قابله رفض مماثل من قبل أفراد استطاعوا التأثير على الجهة السياسية التي كان لها الكلمة الأولى في التصدي لتلك الحركة. وقد فصلت في ذلك في حديثي عن السينما في المملكة العربية السعودية.



المبحث الثالث

التغير في المجتمع السعودي

(مظاهرالتغير المادية)

التغير في المجتمع السعودي

المظاهر المادية :

لا يحتاج المرء لأن يكون متابعاً ليلحظ ما طرأ على المجتمع السعودي من تغيرات اجتماعية كبيرة خلال الثمانين سنة الماضية، وقصدت هنا الفترة الممتدة من سنة ١٣٥١هـ ١٩٣٢م وهي السنة التي تم الإعلان حينها عن قيام المملكة العربية السعودية، حتى إعداد هذا الكتاب سنة ١٤٣٢هـ ٢٠١١م وما حدث خلال تلك الحقبة الطويلة في عمر الرجال، القصيرة في عمر الدول من تغيرات على كافة الأصعدة سواء ما كان منها مادياً أو ثقافياً أو دينياً أو اقتصادياً أو سياسياً وحتى على مستوى الأسرة والفرد وغيرها، (وسوف أضطر لأن أذهب إلى ما قبل عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) لارتباط بعض الأحدث بفترة ما قبل التأسيس وامتدادها إلى ما بعده).

والحقيقة أن تلك التغيرات لم تكن حكراً على المجتمع السعودي فقط، حيث طال التغير كل المجتمعات البشرية دون استثناء بشكلٍ أو بآخر، ولكن لو نظرت إلى المجتمع السعودي خلال الثمانين سنة الماضية لوجدتً بأنه كان يعيش حياة بدائية جداً في أولى سنوات نشأته، ولم يكن في البلاد عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) أيّ من مقومات العيش الإنساني، ولم تكن الموارد المالية المتأتية من تربية الحيوانات وبعض المحاصيل الزراعية البسيطة ومداخيل الحج، كل ذلك لم يكن كافياً، ولهذا كان الناس يقطعون مسافاتٍ طويلة جداً لطلب الرزق فيذهبون إلى اليمن وإلى الشام وإلى الكويت، بل وهناكً من ذهب إلى الهند، وهذا ليس ببعيد، فما يزال يعيش بين ظهرانينا من قطع تلك المسافات طلباً للرزق وأخص بالذكر والدي العزيز - أطال الله في عمره - الذي ما يزال يحدثنا عن رحلاته إلى بلاد الشام في أواخر الخمسينات الهجرية، حيث كان بعض الأشخاص يمكثون هناك سنوات تصل إلى خمس وعشر سنوات قبل أن يعودوا إلى بلدانهم، ومنهم من طاب لهم المقام في تلك البلدان سواء سوريا أو العراق أو مصر وغيرها وصار جزءاً من أهلها.

ولم يدم ذلك الحال طويلاً، فبعد توحيد البلاد بثماني سنوات جرى تصدير أول شحنة زيت خام من ميناء رأس تنورة كان ذلك في شهر ربيع من عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) وكان بكميات قليلة جداً لا تتجاوز عشرين ألف برميل يومياً، أي بعد مرور عشر سنوات تقريباً على حفر بئر الدمام الذي منه بدأت حركة البيع ولكن عن طريق البحرين وليس بشكلٍ مباشر، ومما يجدر ذكره هنا أن أعمال التنقيب النفطية بدأت عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) بوساطة شركة شيفرون الأمريكية التي كان يطلق عليها سوكال وترمز إلى (ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا) ولم تكن الكميات المبيعة في بداية الأمر كافية إلا أنه مع الزيادة المطردة التي وصلت إلى خمسين ألف ثم قفزت في بداية التسعينات الهجرية (السبعينات الميلادية) إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون برميل من النفط كان لها أثرٌ واضحٌ في تسارع عجلة التنمية في المملكة على كافة الأصعدة لدرجة صارت معها الكميات المنتجة من النفط هي المؤشر الذي يحكي حقيقة التنمية في هذا البلد، حتى وصل الإنتاج إلى ذروته في عام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٧م) حين تجاوز سقف العشرة ملايين، وكان مصحوباً بنقلات تنموية مشهودة طالت كافة مظاهر الحياة في المجتمع.





أحد حقول النفط في مرحلة البدايات، وفي الصورة اليسرى يظهر مجمع بقيق أكبر مجمع نفطي في العالم يمر من خلاله ثلثا إنتاج المملكة من النفط يومياً.

لن أغرق هنا في التفاصيل حول تاريخ النفط في المملكة ولكني أذكره لكونه النقطة المفصلية التي غيرت المجتمع بأسره، وحولت المملكة العربية السعودية برمتها من بلد شديد العوز، يعتمد بشكلٍ كبير على المساعدات الخارجية التي لا تكاد تفي بسد احتياجات دولة فتية مترامية الأطراف، إلى بلدٍ غني جداً قادر على إطعام شعبه ومن يفد إليه بحثاً عن لقمة العيش، وهذا كان له كبير الأثر في إحداث الكثير من التغيرات في المجتمع السعودي.

صاحب اكتشاف النفط نوعٌ من الاستقرار الاجتماعي النسبي وهذا كان عاملاً مهماً جداً في مسألة استمرارية الدولة الفتية وضمان بقائها ـ بعد مشيئة الله ـ حيث اتخذت عدة إجراءات قبل سنة إعلان توحيد المملكة بست سنوات وتحديداً في صفر ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) وربما كان لاكتشاف النفط دور رئيس في تلك الخطوات التي أسهمت في تلك الانسيابية المطردة للتغير والتي ما تزال مستمرة حتى يومنا هذا ومن أبرز ما تجدر الإشارة إليه القيام بسن الأنظمة واللوائح التي تكشف هوية تلك الدولة الفتية ومن ذلك: أن المملكة مرتبطة ببعضها ارتباطًا لا يقبل التجزئة، وأن اللغة العربية تعد لغتها الرسمية، والأهم من ذلك كله أن أحكام الدولة مطابقة لما ورد في كتاب المولى – عز وجل – وسنة رسوله عليه السلام وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح – رضي الله عنهم –، كما صاحب ذلك إنشاء مجلس شورى، ثم جرى بعد ذلك إنشاء الوزارات وكان أولاها وزارة الشؤون الخارجية حيث تأسست في رجب ١٣٤٩هـ، (١٩٣٠م) ثم وزارة المالية عام ١٣٥١هـ، (١٩٣٢م) ومع توالي إنشاء الوزارات صارت الحاجة ملحة لوجود مجلس للوزراء حيث تم تشكيل أول مجلس وزراء عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) ولم تتوقف التغييرات الإدارية الجذرية، حيث استمرت الدولة في مراجعة أنظمتها وتعديلها بما يخدم الصالح العام، وفي شعبان عام ١٤١٢هـ (١٩٩٢م)، تم إقرار أنظمة الحكم والشورى والمناطق في المملكة العربية السعودية.

التعليم وتوطين البادية وتأسيس الهجر:

أعود مرة أخرى إلى البدايات الأولى والتي اتضحت خطوطها شيئاً فشيئاً، فبعد استتباب الأمن ووضع السلاح ثم اكتشاف النفط وتصديره بكميات تجارية، وما صاحبه من إعلان توحيد البلاد، وسن الأنظمة واللوائح التي بيّنت هوية البلد مع إنشاء الوزارات للقيام بأعباء تسيير أمور الدولة، كان من المهم النهوض بالمجتمع وتحديثه ولن يتأتى ذلك إلا من خلال التعليم الذي كان موجهاً لأهالي المدن والحواضر، أما البادية وبحكم كثرة ترحالهم فكان من الصعوبة بمكان الوصول إليهم، فكانت الخطوة الأهم هنا البدء بتوطينهم في المدن والقرى وبناء الهجر لهم وتشجيعهم على ذلك مما أدى إلى نزوح كثير منهم إلى الحواضر واستقرارهم بها.



منظر جانبي لأطلال إحدى الهجر التي أسست بتوجيه من الملك عبد العزيز عام ١٣٣٧هـ (١٩١٩م)

وكانت أولى تلك الهجر قد أسست لتلم شمل قبيلة مطير في الأرطاوية كان ذلك سنة ١٣٣٠هـ (١٩١١م) أي قبل اكتشاف النفط، وهي من الأمور المهمة التي فطن إليها الملك عبد العزيز رحمه الله؛ بغرض توطين البادية وتنمية الحس الوطني في أنفسهم ليكون ولاؤهم للأرض التي يقطنون قبل أي شيء آخر، وسوف أتحدث عن ذلك بشيءٍ من التفصيل في الأسطر التالية، ولكن بعد أن أفرغ من سرد الهجر التي أنشئت بغرض توطين البادية، حيث تلا بناء هجرة الأرطاوية بناء هجر أخرى، كالصرار للعجمان والغطغط لعتيبة، والبدوع لآل مرة، وثادق لحرب، وجبة لشمر، وجلمودة للخوالد، والجفير لقحطان، والحسي لسبيع، والفيضة لعنزة، ومشيرفة

للدواسر، ويكرب للهواجر، والحناة للعوازم، وطيبسم (طيب اسم) للسهول، والعماير لهتيم، وغيرها الكثير من الهجر التي زادت على ١٢٢ هجرة سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م)[١] وهذا ساهم في بدء اختفاء حركة الترحال التي ميزت حياة معظم قاطني شبة الجزيرة بشكلٍ عام خاصة مناطق نجد.

كما أعان أهل البادية على أن يشعروا بقيمة المواطنة ويشاركوا في تحمل بعض المسؤوليات المترتبة عليها مثلما ينتفعون بإيجابياتها، كما ساعد على انخراط البدو في المجتمع وتقيدهم بأنظمته وامتثالهم للسلطات المختلفة، وإخراجهم من حالة الفوضى وعدم الخضوع للنظام إلى حالة من الاستقرار والعيش الهادئ في جو من الأمن والطمأنينة والسلام، والأهم من ذلك كله أن عمليات توطين البادية قضت أو على الأقل حدت بنسبة كبيرة من النزاعات القائمة بين القبائل المختلفة حيث صار الولاء للدولة وهذه في ظني من أبرز إن لم تكن أبرز المكاسب من قيام الدولة برمتها، فالشعور بالأمن والاستقرار هي الأرضية التي أمكن من خلالها الانطلاق في عمليات تنمية الدولة وتحديثها والرقي بها، ومع الوقت والجهود المستمرة في عملية التوطين بدأت تختفي البداوة في البلاد حتى صارت نسبة البدو الرحل لا تزيد على ٣٪ من إجمالي السكان في بدايات القرن الهجري الجديد (بدايات الثمانينات الميلادية)، بعد أن كانت تزيد على ٨٠٪ في بدايات تأسيس الدولة.[٢]

وعن عمليات التوطين يقول الملك عبدالعزيز: إنني أريد تطوير نزعة البدو الفطريّة إلى الحرب، حتى يشعروا بأنهم أعضاء في جماعة واحدة، إنه عمل شاق، ولا أنكر ذلك، ولكن الجانب الكبير منه سيتحقق عندما تبدأ وحدات جيشي تشعر أن الهجر التي نشأت هي بمثابة وطن صغير لها في وسط الوطن الكبير القاحل.[٣]

(١) موسوعة مقاتل من الصحراء، الإصدار العاشر، ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م)، حركة الإخوان وتأسيس الهجر، وانظر أيضاً ملحق أسماء الهجر مرتبة هجائياً وإلى جانبها أسماء القبائل التي عمرتها واستقرت بها جماعات منها، في نفس الموسوعة.

(٢) مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت.

(٣) الموسوعة العربية العالمية.

إنشاء وزارة التربية والتعليم:

بعد نجاح عمليات التوطين وجهت الدولة تركيزها إلى التعليم حيث أنشأت مديرية للتعليم سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) والتي كانت نواة لوزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) التي أنشئت سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) فأخذ التعليم يتطور في عدد مدارسه ومادته التعليمية وأسلوبه ومنهجه بعد أن كان معتمداً قبل ذلك على أسلوب ما يعرف بالكتاتيب.





فصل دراسي في حقبة الستينات الهجرية (الأربعينات الميلادية) وآخر في الوقت الراهن.

ولكن نظراً لقلة المدرسين فقد اضطرت حكومتنا[1] السعودية إلى استقدام المعلمين من البلدان العربية المجاورة، بالإضافة إلى ابتعاث مجموعة من الطلاب السعوديين لتلقي العلم والمعرفة من بعض البلدان المتقدمة في مجال التعليم في ذلك الوقت؛ ولهذا الغرض تم إنشاء مدرسة تحضير البعثات عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) ثم جرى تأسيس دار التوحيد في الطائف سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م)؛ وكانت بغرض تشجيع أهل البادية على الانخراط في المدارس النظامية التي لم تكن مرغوبة

(١) ينصح المختصون في مجال البحث العلمي الباحثين بأن يكونوا على درجة عالية من الحيادية ومن ذلك التجرد من كل ما يوحي بالانتماء فيفضلون قول البلاد الفلانية بدلاً من بلدي. إلا أن المؤلف خالف هذا المنهج العلمي في أجزاء كثيرة من هذا الكتاب؛ وذلك حباً في هذه البلاد الطيبة المباركة أرضاً وحكومة وشعباً، وأتشرف أن أقول بلادي وحكومتنا، وأؤكد على أن هذا «التجاوز المتعمد» لن يكون حائلاً بيني وبين الحيادية في هذه الكتاب - بحول الله - ولن أتردد أو أتوانى في انتقاد أي قصور أو خلل، دون النظر إلى مصدره.

ذلك الوقت وزيادة في التشجيع فقد كانت تلك الدار تقوم بتأمين السكن والإعاشة للطلاب مع منحهم مرتبات شهرية، وبعد ست سنوات تم إنشاء معهد الرياض العلمي كان ذلك في شهر ذي الحجة عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) وبعده بثلاث سنوات افتتحت كلية العلوم الشرعية، التي تحولت سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٥م) لما يعرف الآن بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مع التوسع في كلياتها وأقسامها، وكان قد سبق ذلك التحول إنشاء جامعة الملك سعود سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٦م) وهي أولى الجامعات السعودية.

التعليم الفني:

وتزامن الاهتمام بالتعليم مع البدء في التعليم الفني والصناعي، وإن كان متأخراً عنه نسبياً، إلا أن بداياته تعد مبكرة جداً، حيث سبق افتتاح المعاهد العلمية الشرعية والكليات المتخصصة، وكان افتتاح أولى المدارس الصناعية في محافظة جدة سنة ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) ثم افتتحت المدارس الثانوية الصناعية والتجارية سنة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م) وسبقها بست سنوات افتتاح أولى المدارس الثانوية الزراعية وكانت تتبع لوزارة الزراعة قبل أن تلحق بوزارة المعارف سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٨م) ثم افتتحت المعاهد التدريبية المهنية وكان أولها سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) وتتابع إنشاء المدارس الفنية والمهنية حتى ظهرت الحاجة إلى تأسيس المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني لتكون مسؤولة عن كل ما يتعلق بهذا النمط من التعليم، مع وضع الخطط والبرامج الخاصة به، كان ذلك سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

التعليم النسوي (تعليم المرأة):

وهي الخطوة الأهم والأصعب في نشر التعليم، فقد كانت تلك المتعلقة بالتعليم النسوي حيث لم تكن فكرة التعليم النظامي للذكور مقبولة لدى كثير من أبناء المجتمع خاصة كبار السن منهم، فما بالك بتعليم المرأة، حتى إنه حين اقترح أمين

الريحاني في زيارته لجلاله الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ البدء بتعليم المرأة، رد عليه الشاعر عبد العزيز العلجي – رحمه الله –[1] بقوله:

ولـقـد عـجـبـنـا والـعـجـائـب جـمـة
مـن فـريـة جـاءت عـن الـريـحـانـي

زعـم الجـهـول بـأن إخـفـاء الـنـسـا
مـن مـوجـبـات الـذم والـنـقـصـان

إنشاء الرئاسة العامة لتعليم البنات:

ولكن الحكومة قررت سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) إنشاء الرئاسة العامة لتعليم البنات التي بدأت عملها منذ العام الأول لتأسيسها بإنشاء مدارس ابتدائية نظامية قوبلت بالرفض في مناطق، وبالترحيب في مناطق أخرى من هذه المملكة، وقد حدثني والدي (حفظه الله) شخصياً عن تلك الحقبة وعن البدايات حيث كان ممن اختارهم الشيخ / عبد العزيز بن ناصر الرشيد، وهو أول رئيس عام لتعليم البنات، لافتتاح مجموعة من المدارس في منطقة نجد حيث تمكن مع مجموعة من معاونيه ذلك الحين من افتتاح أول مدرسة ابتدائية حكومية في شقراء ثم المجمعة ثم عنيزة ثم الرس ثم حائل، وحين سألته عن مدينة بريدة أفادني بأن أهلها لم يكونوا بعد متقبلين لفكرة تعليم المرأة فكان توجه الملك سعود ـ رحمه الله ـ أن يتركوا حتى يروا أثر تعليم المرأة وإيجابياته في المناطق المجاورة.

كما خصصت الدولة ميزانية كبيرة لتعليم البنات، ساهمت في توسيع دائرة تعليم المرأة حيث تتابع إنشاء مدارس البنات المختلفة وحتى الكليات المتخصصة التي انشئت أولاها سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧١م) تحت مسمى كلية التربية للبنات بالرياض.

(١) د. عبد الفتاح محمد الحلو، شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، مطبعة المجالة، القاهرة، ١٣٧٨هـ (١٩٥٩م).

الاهتمام بالجانب الزراعي: (الثقافة الزراعية)

كانت التغيرات الاجتماعية المتسارعة تؤدي إلى مزيد من التغير والتحول، ومن ذلك توطين البدو الذي ساهم في نشر التعليم، وكان له أثره في تنامي الاهتمام بالزراعة، خاصة وأن أهالي البادية في السنوات الأولى لتوطينهم لم يكن لهم أي عمل، خاصة بعد استتباب الأمن واستقراره، وهذا شجع الدولة على إدخال ثقافة الزراعة لأهالي تلك الهجر الجديدة والتي لم تكن معروفة لديهم أصلاً، ورغم أن تلك الفكرة قوبلت بالرفض والمقاومة في بادئ الأمر، بحجة أن الزراعة من الأمور الدنيوية التي ستشغلهم عن طاعة اللّه وهذه الأفكار تحديداً كانت موجودة لدى من يسمون بالإخوان في ذاك الوقت، إلا أن الدولة كانت مصرة على تغيير تلك الأفكار التي كانت تتمحور حول الهجرة والتنقل، إلى فكر وثقافة أخرى تقوم على الاستقرار وحب الأرض والموطن، ولم يكن هناك أفضل من تعليم الأهالي فنون الزراعة لتحقيق تلك الغاية، واضطر الملك عبد العزيز إلى إرسال طلبة العلم يجوبون الهجر الجديدة يعلمونهم أمور دينهم من جهة ومن جهة أخرى يحفزونهم على العمل والتجارة والزراعة، وأنها غير متناقضة مع الإسلام، بل العكس فالإسلام يحث على البذل والعطاء والإنفاق وكل ذلك لا يأتي دون موارد مالية كافية، والزراعة والتجارة يمكن أن تكون مصدراً للمال.

وبالفعل بدأ الأهالي يمارسون الزراعة بشكلٍ عشوائي وبسيط جداً في البداية، مما اضطر الدولة إلى استقدام المتخصصين في هذا المجال من البلدان العربية المجاورة، كما تم تأسيس مديرية للزراعة تحولت إلى وزارة الزراعة في سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) أي بعد أقل من سبع سنين فقط من عمر المديرية، وهذا ساهم في إدخال الآلات الزراعية التي لم تكن معروفة من قبل، كالحراثات والجرارات، والتي كانت تباع على المزارعين بنظام التقسيط دون فوائد؛ دعماً لهم ليستمروا في هذا المجال، كما تم جلب أنواع جديدة من أشجار الفاكهة التي لم تكن معروفة لدى معظم الأهالي، كما سهلت إجراءات الحصول على الأراضي إما بنظام استخراج وثائق الملكية لمن يملكون الأراضي ولكن لم يكن لديهم ما يثبت ذلك، أو عن طريق المنح

المباشرة، أو من خلال تأجير الأراضي مقابل نسبة من المحصول، كما سعت الدولة إلى توفير السيولة بأيدي المزارعين فأقرت نظام الإقراض الزراعي، وبنت السدود، وأقامت عدداً من المشروعات الزراعية في مختلف أرجاء المملكة، وكل ذلك أسهم إلى حدٍ لا بأس به في استمرار توطين البادية من جهة وتغيير ثقافة نسبة كبيرة من المجتمع والتي كانت تعتمد على الغزو والسلب كطريقة رئيسية لكسب الرزق، تحولت بفعل الجهود والمشاريع التي تطرقت إلى شيئ منها إلى ثقافة أخرى تعتمد في كسب قوتها على الرزق الحلال إجمالاً.

الطرق والمواصلات:

بعد أن تم توطين البدو من خلال إنشاء الهجر والقرى، بالإضافة إلى الحواضر القديمة، ونظراً لظهور الحاجة الماسة لربط أطراف البلاد ببعضها؛ فقد قامت الدولة في عام ١٣٥٥ (١٩٣٦م) بإنشاء مصلحة الأشغال العامة تابعة لوزارة المالية والاقتصاد الوطني، وكانت تعنى بشؤون الأشغال العامة، بما في ذلك الطرق التي يمكن أن نقول بأنها شبه معدومة ولم يكن هناك استخدام حقيقي للطرق المعبدة، والتي لم ينجز منها منذ تأسيس المصلحة حتى بداية السبعينات الهجرة (الخمسينات الميلادية) سوى أقل من ٢٥٠كم من الطرق المعبدة في كافة أرجاء البلاد، ولكن الحال تغير بعد إنشاء وزارة المواصلات في عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) والتي صارت تشرف على كل ماله علاقة بالمواصلات من طرق وسكة حديد وموانئ (في البلاد) وكانت أولى مهام وزارة المواصلات إنشاء شبكة من الطرق الرئيسية المعبدة لربط المناطق الرئيسية بالمملكة ولخدمة أكبر قدر ممكن من المدن والقرى والتجمعات السكنية في مختلف أنحاء المملكة. وبالفعل فقد تمكنت تلك الوزارة من تعبيد ما يزيد على ثمانية آلاف كيلو متر حتى عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠م) بالاضافة إلى حوالي (٣٥٠٠)كلم من الطرق الزراعية الممهدة (الترابية). ثم ارتفع هذا الرقم حتى بلغ مجموع أطوال الطرق ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) ما يزيد على (٥٦) ألف كلم ما بين طرق سريعة ومزدوجة ومفردة.

كما صدر نظام للنقل العام في عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) يهدف إلى تنظيم كل ما يتعلق بشؤون النقل البحري والبري، بالإضافة إلى إنشاء وكالة متخصصة لإصدار رخص النقل والأجرة، كما تهتم تلك الوزارة بتنظيم كل ما يتعلق بالنقل البحري، وفي عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣ م) تم تغيير مسمى الوزارة إلى وزارة النقل[١].

وقد ساعدت تلك المشاريع في تقريب المسافات وسهولة التنقل التي كانت إلى وقت قريب تستغرق وقتاً طويلاً جداً، حيث كان المسافر من منطقة نجد يمكث عدة أيام قبل وصوله إلى مكة، وهو راكب وليس راجلا، ولكن نظراً لانعدام الطرق المعبدة وكثرة المعوقات الطبيعية التي كانت سبباً في عزوف الأهالي عن السفر إلا لمن كان مضطراً فإنه يركب الصعب، حتى وصلت درجة الصعوبة إلى أن تمتزج بثقافة المجتمع من خلال أحاديثهم وأمثالهم ومنه قولهم: (المهتوي يقطع المستوي) وهو مثل يضرب لمن يفعل المستحيل من أجل تحقيق ما يريد، وهو ما كان يفعله أهالي القصيم حين سفرهم إلى منطقة الوشم ومرورهم بمنطقة رملية وعرة تسمى المستوي التي لا يمكن أن يسلكها إلا السائق الحاذق الذي لم يكن ليخاطر بنفسه وسيارته دونما فائدة يرجوها تكون محفزاً له على قطع تلك الكثبان الرملية، ومما يذكر أيضاً قصة كان يتداولها أهالي محافظة الرس بأن أحد الأشخاص ممن كان يقوم بنقل المسافرين تمكن في أحد أيام رمضان من تناول طعام السحور في مدينة الرياض والإفطار في محافظة الرس، وهذا مؤشر على مدى معاناة الناس في ذلك الوقت وما يواجهونه من مصاعب في التنقل بعكس وقتنا الراهن الذي قربت خلاله المسافات وزاد التواصل لدرجة ذهبت معها كثير من الفروقات الاجتماعية التي كانت تميز بعض المناطق.

وسائل النقل الأخرى:

لم يقتصر العمل على الخطوط البرية فقط بل كان الاهتمام منصباً أيضاً على الوسائل الأخرى حيث تم إنشاء خط سكة حديدية وذلك في عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنصح بالرجوع إلى موقع وزارة النقل على الإنترنت www.mot.gov.sa

يربط بين بعض مدن ومحافظات المنطقة الشرقية وفي عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) تم ربط الرياض بالمنطقة الشرقية من خلاله.

كما تم افتتاح العديد من المطارات الدولية مثل مطار الملك خالد الدولي، ومطار الملك عبدالعزيز الدولي، ومطار الملك فهد الدولي، بالإضافة إلى عدد كبير من المطارات المحلية الموزعة على مدن المملكة إلى أن بلغ عددها عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) خمسة وعشرين مطاراً.

وبالنسبة للنقل البحري فقد تم إنشاء العديد من الموانيء مثل: ميناء الدمام لاستقبال البضائع التي تصل إلى المملكة من الخارج عن طريق الخليج العربي بالإضافة إلى تصديرها من خلاله، وميناء جدة الإسلامي على البحر الأحمر، لاستقبال الحجاج القادمين من الخارج إضافة لاستقبال البضائع المستوردة التي تصل إلى المملكة عن طريق البحر الأحمر، وميناء رأس تنورة لتصدير النفط،، وغيرها من الموانئ الأخرى.

الاهتمام بصحة المواطن يسبق حقبة التأسيس:

وبالنسبة للصحة فقد تطرق النظام الأساسي للحكم إليها في المادة رقم (٣١) بما نصه تعنى الدولة بالصحة العامة وتوفر الرعاية الصحية لكل مواطن[(١)]. وهذا النص امتداد لخطوات سابقة بدأت سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) بإنشاء مديرية للصحة العامة والإسعاف، وتبعه إصدار نظام لها كان من ضمن مواده الالتزام بإصلاح الأحوال الصحية واتخاذ التدابير الواقية اللازمة لمكافحة الأمراض الوبائية ومعالجة المصابين بها. وشكلت تلك الالتزامات نقلة نوعية للمجتمع البدائي الذي لم يعرف في الغالب غير الأعشاب والكي وسيلة للتداوي والاستشفاء إلى مجتمع يسير بخطى متسارعة ليصبح قبلة في بعض التخصصات الطبية النادرة.

ولعلي أشير هنا إلى أن أول ميزانية رصدتها الدولة للصحة كانت تمثل ٢,٧٪ من الميزانية العامة الأولى للدولة والتي بلغت في عامها الأول سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م)

(١) النظام الأساسي للحكم ١٤١٢هـ (١٩٩٢م)، الصادر بموجب المرسوم الملكي رقم أ/٩٠ بتاريخ ٢٧شعبان١٤١٢هـ (١٩٩٢م).

(٩,٦) مليون ريال واستمر الوضع كما كان عليه حتى تحسنت المداخيل وظهرت الحاجة إلى إنشاء وزارة متخصصة بالصحة وتم ذلك بالفعل في سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) وبعدها قامت وزارة الصحة بإنشاء العديد من المستشفيات في مختلف مدن ومحافظات المملكة، حتى وصلت إلى ٥٨ مستشفى عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٥م) وبعد عشر سنوات تضاعف العدد تقريباً ليصل إلى أكثر من مئة مستشفى، ولكن لم تكن كلها تابعة لوزارة الصحة، بل كان هناك ما يدار من قبل القطاع الخاص وبعض الجهات الحكومية الأخرى كوزارة الداخلية والدفاع وشركة أرامكو[1]. هذه الطفرة الصحية ساهمت في الإقلال من نسبة الوفيات بين المواليد وأمهاتهم، كما أن حملات التطعيم التي بُدئ العمل بها منذ وقت مبكر جداً أسهمت هي الأخرى في حماية الأهالي وتحصينهم من الأمراض المميتة كالجدري والملاريا ثم شلل الأطفال، حملات التطعيم تلك وغيرها من اللقاحات المتنوعة ساعدت على خلق اهتمامات جديدة لم تكن موجودة أصلاً والتعرف على ثقافات والانفتاح عليها مما أحدث نقلة نوعية أخرى.

بداية الاهتمام بالجانب الثقافي:

مع عمليات الاستقرار المتوالية والخطوات الحثيثة المتزامنة كان هناك عمل يتعلق هذه المرة بفكر المواطن وثقافته وكيفية حمايتهما من الأخطار المحدقة بهما والمتأتية هذه المرة ليس من السيف والبندقية كما كان يحدث في السابق ولا من الفيروسات والأمراض التي كانت تفتك بالإنسان قبل سنوات توحيد هذا البلاد ولكن الخطر هذه المرة من الغزو الإعلامي الثقافي خاصة والمملكة صارت محاطة بثقافات عربية متنوعة لديها وسائل متقدمة نسبياً تستطيع من خلالها إيصال ما تريد، سواء من خلال الصحف التي كانت تطبع في مصر والعراق والشام، أو من

(١) د. عثمان بن عبد العزيز الربيعة، السياق التاريخي لاتجاهات تمويل الخدمات الصحية في المملكة وتوجهات المستقبل، دراسات اقتصادية: السلسلة العلمية لجمعية الاقتصاد السعودية، المجلد الخامس، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).

خـلال الإذاعة التي كانت في زمن توحيد البلاد فتيـة ولم يبدأ بثها في البلدان المجاورة إلا في أواسـط الخمسينات الهجرية (الثلاثينات الميلاديـة) ولهذا فقد تم تأسيس أول صحيفة رسمية للبلاد سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) تحمل اسم أم القرى لتكون النواة الأولى في منظومـة الإعلام السعودي، وهي تنشر كل ما يصدر عن الدولة من قرارات وبيانات حكوميـة وتخص المواطن السعودي، وفي عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) جرى تأسيس مجلس للدعاية والحج يتبع وزارة المالية بغرض إطلاع العالم الخارجي وخاصة الإسلامي على حقيقـة الأوضاع في المملكـة، لمواجهة الحملات المغرضة ضد المملكـة، والتي أشار إليها الملـك في أكثر من مرة من خلال أحاديثه وخطبه بقوله «أشاع الترك الشيء الكثير عن عقائدنا، وشنعوا عليها من قبل، وكذلك فعل من جاء بعدهم، وبلغني أنهم قالوا في جملة ما كذبوه عنا إننا لا نصلي على محمد، وإننا نعد الصلاة عليه شركاً بالله، نعوذ بالله من ذلـك أو ليست الصـلاة على محمد ﷺ ركناً من أركان الصلاة، وأنها لا تتم بغيرها؟» وقولـه: «إننـا لم نطع ابن عبـد الوهاب ولا غيره، إلا بما أيده مـن كتاب الله وسنة نبيه، محمد ﷺ. أما أحكامنا فنسير فيها، طبق ما اجتهد فيه الإمام أحمد بن حنبل»[1].

تلك الحروب الإعلامية زادت من سرعة الخطى الحثيثة من أجل اقتناء الوسائل التي تحمي ذلك المجتمع الفتي من الحرب الإعلامية المغرضة التي كانت تستهدفه، ثم صدر مرسوم ملكي ١٣٦٨هـ، (١٩٤٩م) بإنشاء إذاعة سعودية تهدف إلى ربط المملكة بالعالم الخارجي ونشر الثقافة والمعرفة في البلاد، والتي كانت النواة الأولى لوزارة الإعلام السعودية التي أنشئت سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) بعد أن سبقتها المديرية العامة للإذاعة التي تأسست سنة ١٣٧٤هـ، (١٩٥٥م) كما صدر نظام المطبوعات والنشر في نفس العام، وبعد ذلك التاريخ بما يزيد على عقدٍ كاملٍ تم إطلاق أولى إشارات بث التلفزيون السعودية وكان ذلك في عام ١٣٨٥هـ

(١) للمزيد حول خطب الملك عبد العزيز، أنظر موسوعة مقاتل من الصحراء، النسخة العاشرة، ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م)، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، القسم الرابع عشر: من خطب وأقوال الملك عبدالعزيز.

(١٩٦٦م) من محطتي الرياض وجدة.[1] ثم تزايدت القنوات الحكومية تبعتها الطفرة بسنوات الطفرة الفضائية الهائلة التي نعيشها اليوم والتي كانت شديدة التأثير في تغير المجتمع السعودي وتعريفه بثقافات جديدة نهل من بعضها وأعرض عن أخرى، وسوف آتي إلى ذلك في حديثي عن مظاهر التغير الثقافي في المملكة العربية السعودية.

التقنية الحديثة وطفرة الاتصالات والمعلومات:

كانت التقنية الحديثة وما زالت عاملاً رئيساً في عمليات التحول التي طرأت على المجتمع، وأنا هنا أخص التقنية الحاسوبية وربيبتها الإنترنت، كما أعني التقنية الاتصالاتية والاختراعات المتسارعة التي أعانت على سرعة انتشار المستجدات بسرعة كبيرة لدرجة أن ما يحدث في البعيد من البلدان يمّثل أمام ناظريك في لحظته، كما أن كثيراً مما يجري ويدور في دهاليز المكاتب من مخاطبات وأسرار يتلقفه المتصفح العادي من خلال الإنترنت ورسائل الجوال.

ولو نظرت إلى حداثة تلك الوسائل التي لم تبلغ عقدها الثاني بعد فنحن الآن في السنة الثانية والثلاثين بعد الأربعمائة والألف، (٢٠١١م) ولو عدنا إلى السنة الحادية عشرة من نفس القرن (١٩٩١م) لم يكن أحدٌ في مجتمعاتنا يعرف شيئاً عن الإنترنت أو الهواتف الجوالة، ولا حتى القنوات الفضائية، إلا أن التقنية وتسارعها المذهل سحرت الناس وصارت متوافرة في يد الصغير قبل الكبير، ولا أدل على ذلك من القول بأن بلداً كالمملكة العربية السعودية يبلغ تعداد سكانها قرابة ثمانية وعشرين مليوناً ولكن أرقام الهواتف الجوالة تربو على أربعين مليون خط هاتفي.

أولى محاولات الرفض للمستجدات التقنية:

لعلي هنا أشير إلى أن معظم التقنيات التي سمحت الدولة بإدخالها كالتلفزيون والهاتف والبث الفضائي وقبلها المذياع والسيارة والطيارة وغيرها قوبلت في بداياتها بالرفض والاستنكار حتى ألفها المجتمع وأصبح يتعاطى معها بشكل طبعي.

(١) للمزيد: يمكن الرجوع إلى موقع وزارة الثقافة والإعلام على الإنترنت www.info.gov.sa

ولو أخذت الهاتف الثابت كمثال على ذلك حيث كان ما يعرف بالتلغراف النواة الأولى للاتصالات الحديثة التي نراها اليوم بدأت في مدينة الرياض قبل عملية توحيد المملكة بعقدين حيث يذكر الرحالة الدنماركي باركلي رونكيير أن الملك عبد العزيز أنشأ أول مقر للبرقيات عام ١٣٣١هـ (١٩١٢م) وقد قوبل بالرفض من قبل بعض الأهالي وقلة من طلبة العلم بحجة أنه نوع من السحر، إلا أنه وبمساعدة بعض العلماء استطاعوا إقناعهم وتوضيح حقيقة تلك التقنية لهم، ويذكر الدكتور عبداللطيف الحميد، أن عبد الله فلبي (هاري سانت جون فلبي) في كتابه «العربية السعودية من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء»[١] أشار إلى أن الملك دعا معارضيه إلى استعمال الهاتف بأنفسهم كما أمر أحد الأشخاص بأن يقرأ القرآن من خلاله، وهذا يفند مزاعمهم، فهم يعلمون أن الشياطين التي زعموا أنها تستخدم في إيصال الأصوات لن تستطيع نقل كلام الله وستفر بمجرد سماعه. ثم توالى افتتاح مقار البرقية حتى بلغت ٦٠ موقعاً في عهد الملك عبد العزيز[٢]، كما تم ابتعاث مجموعة من الأشخاص إلى بريطانيا لدراسة كيفية التعامل مع تلك التقنية، وقد أوردت جريدة الشرق الأوسط خبراً عن قيام الأمير طلال بن عبد العزيز، بترميم أحد أقدم أبراج البرقية في حي جبرة في مدينة الرياض يعود تاريخه إلى سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).[٣]

وكانت مديرية البرق والبريد والهاتف قد أنشئت قبل ذلك التاريخ بخمس سنين أي سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) تلا ذلك ببضع سنوات إدخال الهاتف الثابت اليدوي (ما يعرف بأبو هندل) وتوالت التطورات في هذا المجال حتى تجاوزت أعداد

(١) هاري سانت جون فلبي، العربية السعودية من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٢هـ (٢٠٠٢م).

(٢) مجلة الحرس الوطني، العدد ٢٤٤ بتاريخ ١٥ شعبان ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م).

(٣) صحيفة الشرق الأوسط، العدد ١٠٩٣٧ بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٤٢٩هـ.

الخطوط الهاتفية أربعة ملايين خط في سنة ١٤٢٩هـ (٢٠٠٩م)[١] بعد أن كانت لا تتجاوز (٨٥٤) خطاً موزعة على عدد محدودٍ من المدن الرئيسية (الرياض، ومدن ومحافظات الحجاز: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف) وذلك في عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م).[٢] وحين أنشئت وزارة المواصلات سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) ضُمت مديرية البرق والبريد والهاتف إليها، قبل أن تتحول إلى وزارة في سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) بنفس مسمى المديرية حتى تم تعديل المسمى إلى وزارة الاتصالات وتقنية المعلومات عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م)[٣].

أكتفي بالحديث عن الهاتف، ولكن قبل أن أقفل ملف التقنية لابد أن ألمح ولو بشكلٍ يسير إلى ثورة الإنترنت التي كانت وما تزال من الأسباب الرئيسية التي أبرزت التباين الفكري بين مختلف أطياف المجتمعات؛ لما أتاحته من حرية نشر وتعبير عن الرأي لم تكن معروفة قبل ذلك، على الرغم من أن هذه التقنية برمتها لم يتجاوز عمرها عقداً ونصف العقد منذ أن سمح لعامة الناس بالانتفاع بها بعد التصريح بدخولها في شعبان ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) حين ارتبط مستشفى الملك فيصل التخصصي بشبكة الإنترنت العالمية كأول جهة في المملكة ترتبط بهذه الشبكة. وبتاريخ ١٤١٧/١٠/٢٤هـ (١٩٩٧م) صدر قرار مجلس الوزراء رقم ١٦٣ القاضي بالموافقة على إدخال خدمة الإنترنت إلى المملكة تحت إشراف مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية بالتنسيق مع جهات أخرى. ثم في شهر رجب ١٤١٩هـ (١٩٩٨م) تم الترخيص لـ٤١ جهة للعمل كمزويدي خدمة بشكلٍ تجاري[٤].

---

(١) كتاب حقائق العالم، يمكن الوصول إليه من خلال شبكة الإنترنت على الرابط التالي: https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/sa.html وهذا الكتاب عبارة عن منشور سنوي تصدره وكالة المخابرات الأمريكية ابتداء من عام ١٣٨١هـ (١٩٦٢م)، ويحوي حوالي صفحتين إلى ثلاث عن كل دولة تعترف بها الولايات المتحدة. ابتداء من العام ١٣٩١هـ (١٩٧١م)، أصبح هذا الكتاب غير سري. وبالرغم من أنه مخصص لأن يستعمل من قبل دوائر الحكومة الأميركية، فهو كثيراً ما يستخدم من قبل المنظمات الأميركية المختلفة لسهولة الوصول إليه ولأنه ضمن الملكية العامة حيث لا تشمله حقوق الطبع (الموسوعة الحرة).

(٢) موقع وزارة الاتصالات وتقنية المعلومات. http://www.mcit.gov.sa/arabic/

(٣) للمزيد حول نشأة قطاع الاتصالات في المملكة يمكن الرجوع إلى موقع الوزارة على الإنترنت www.mcit.gov.sa

(٤) د. إياس بن سمير الهاجري، تاريخ الإنترنت في المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

إنشاء المكتبات:

بعد الانفتاح الثقافي بدأت حتمية الرأي الأوحد تتلاشى وصارت المصادر الثقافية متاحة بدءاً بالتعليم الذي كان حكراً على عينات من المجتمع، ولكن مع الجهود التي بذلت لفتح المدارس والجامعات وتوفر التعليم لكافة أبناء المجتمع السعودي ثم إتاحة المجال للمرأة لتنهل من نفس النبع ولتسهم في خلق وجه جديد للثقافة لم تكن معلومة من قبل، كما أن دخول الوسيلة الإعلامية كان له دور مؤثر في التعدد الثقافي، إضافة إلى إنشاء المكتبات العامة؛ حيث تأتي مكتبة الحرم المكي الشريف على رأس تلك المكتبات وإن كانت نشأتها تعود إلى بدايات العهد العباسي سنة ١٦٠هـ (٧٧٧م) حيث سماها الخليفة محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور (قبة بيت المحفوظات).

وقد اهتمت بها الحكومة السعودية وأوقفت بها عدداً كبيراً من الكتب، كما أن الملك عبد العزيز هو من سماها بهذا الاسم سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) بعد أن كانت تسمى مكتبة السلطان عبد المجيد، كما ضم إليها عددٌ كبيرٌ من المكتبات كمكتبات الشرواني، والدهلوي، والكيلاني، والشنقيطي وغيرها.[١] وكان في منطقة الحجاز مكتبات أخرى أشهرها: مكتبتا مكة المكرمة، ومكتبة المسجد النبوي، وغيرهما من المكتبات، التي اهتمت بها الدولة السعودية وكانت تجلب لها الكتب من خارج البلاد كالهند ومصر.[٢]

ولم تعرف نجد المكتبات العامة إلا في سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) حين افتتحت مكتبة عنيزة تلتها مكتبة أنشأها الأمير مساعد بن عبد الرحمن - رحمه الله - في مدينة الرياض سنة ١٣٦٤هـ[٣] (١٩٤٥م) قبل أن يصدر قرار مجلس الوزراء بتأسيس دور الكتب العامة سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) تابعة لوزارة المعارف ثم غير مسماها إلى الإدارة العامة للمكتبات. وفي سنة ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م) نقلت لتصبح

---

(١) موقع الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي. http://www.gph.gov.sa/

(٢) عبد العزيز بن أحمد الرفاعي، عناية الملك عبد العزيز بنشر الكتب، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).

(٣) مقالة نشرت في صحيفة الجزيرة - المجلة الثقافية - العدد ١٨٥ بتاريخ ١٧ محرم ١٤٢٨هـ للكاتب / محمد بن عبد الرزاق القشعمي.

تحت إشراف وزارة الثقافة والإعلام[1] كما تم تأسيس عددٍ من المكتبات، ومن أبرزها مكتبة الملك فهد الوطنية سنة ١٤١٠هـ (١٩٩٠م) ومكتبة الملك عبد العزيز سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، سنة ١٤٠٣هـ، (١٩٨٣م) ودارة الملك عبد العزيز، سنة ١٣٩٢هـ (١٩٧٣م) [2]. وغيرها الكثير من المكتبات العامة التي أسهمت في بداية نهضة ثقافية شمولية لم تكن موجودة من قبل حين كانت القراءة حكراً على أشخاص بعينهم.

دور السينما في بداية تأسيس الدولة السعودية:

ولئلا يقتصر حديثي على المكتبات فتختزل الثقافة بالكتاب، أشير هنا ولو على عجالة إلى السينما كأحد المصادر التي تستقي المجتمعات منها بعضاً من عاداتها وقيمها وأساليبها في العيش، ففي بدايات نشأة الدولة كانت شركة أرامكو تقوم بتصوير أعمال التنقيب عن النفط وذلك سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) لتعرض في المناسبات الوطنية، ومنه فيلم وثائقي يتحدث عن اكتشاف النفط في المملكة العربية السعودية حضر الملك عبد العزيز وولي عهده الملك سعود - رحمهما الله - مراسم تدشين العرض الأول له، وكان ذلك سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) ثم افتتحت بعض دور السينما في جدة والطائف عام ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) منها سينما الشثة، وسينما نادي الضباط وغيرها، إلا أنها أغلقت عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)،[3] على الرغم من أن دور العرض كانت موجودة في الكثير من الأماكن، وفي معظم مناطق المملكة، وكانت تتبناها جهات مختلفة مثل: شركة أرامكو، الأندية الرياضية، الأندية الأدبية، بعض السفارات الأجنبية[4]. وفي عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) أنتج فيلم

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد ١١٢٦٤ بتاريخ ١٠ شوال ١٤٣٠هـ

(2) Directory of Public Libraries In the Kingdom of Saudi Arabia. Dr. Saad A. Al-Dobaia. Riyadh. 1994/1415AH

(٣) صحيفة الجزيرة العدد ١٣٢٥٨ بتاريخ ١٨ محرم ١٤٣٠هـ تعقيب من الأستاذ / عيسى علوي القصير.

(٤) كانت بعض السفارات الأجنبية تعرض الأفلام السينمائية ومنها السفارة النيجيرية والسفارة الإيطالية، ذكر ذلك الأستاذ / خالد ربيع السيد، في كتابه، الفانوس السحري: قراءات في السينما، الصادر عن نادي حائل الأدبي بالتعاون مع دار الانتشار العربي ببيروت.

سينمائي بعنوان (اغتيال مدينة) للمخرج عبد الله المحيسن، يتحدث عن بيروت وما لحق بها من دمار بسبب الحرب الأهلية، وهذا من باب تثقيف المجتمع بما يدور من خلال هذه الوسيلة، ثم توقف العمل السينمائي تماماً مع بداية القرن الهجري الحالي ١٤٠٠هـ (بداية الثمانينات من القرن الميلادي المنصرم) حتى عادت بعض الاجتهادات الفردية منذ عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٦م) تحاول تقديم بعض الأفلام الروائية الطويلة والقصيرة ومنها الوثائقي والكرتوني والإعلاني التي بلغ عددها عام ١٤٢٩هـ ٤٤ فيلماً شاركت في مهرجان جدة السينمائي في دورته الثالثة. وكانت نسخته الأولى انطلقت عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٦م) قبل أن يصدر قرار وزارة الداخلية بإلغاء النسخة الرابعة منه؛ بسبب ما رفع من قبل سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية الشيخ / عبد العزيز آل الشيخ، حول أضرار دور السينما وما قد تسببه من فتن على المجتمع. مع العلم بأنه كان مقرراً للنسخة الرابعة أن تنطلق يوم السبت ٢٦ رجب ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م) بمشاركة ٧١ فيلماً خليجياً وعربياً منها ٤٥ فيلماً سعودياً.

الأندية الأدبية والجمعيات الثقافية:

عند الحديث عن الثقافة في المملكة يصبح لزاماً عليّ أن أشير إلى الأندية الأدبية ودورها في التغير الثقافي الذي طرأ على المجتمع السعودي وما قامت به تلك الأندية من عقد الندوات والمحاضرات وإصدار المطبوعات الثقافية المتنوعة بالإضافة إلى إقامة الأمسيات الشعرية، وهدفها الأساسي بث الوعي الثقافي لدى الشباب على وجه التحديد، وصاحب فكرتها الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز - رحمه الله - حيث وضع لها نظاماً سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) وبُدئت بخمسة أندية كانت في مدن ومحافظات كلٍّ من: الرياض، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجيزان، وجدة، كلها كانت تحت إشراف الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ثم تضاعف العدد إلى عشرة أندية أدبية،[١] ثم استقر في الوقت الراهن على ستة عشر نادياً أدبياً، وفي سنة ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م) جرى إلحاقها بوزارة الثقافة والإعلام.

(١) صحيفة الجزيرة، المجلة الثقافية العدد ١٤٨ بتاريخ ١٢ ربيع أول ١٤٢٧هـ مقالة بعنوان الأندية الأدبية بين الأمس واليوم للكاتب / محمد بن منصور الشقحاء.

كما أن الأنشطة الثقافية لم تكن مقصورة على الأندية الأدبية فقط حيث تم إنشاء العديد من الجمعيات الثقافية المتخصصة كجمعية الثقافة والفنون، وجمعية التشكيليين، وجمعية المسرحيين، وجمعية المصورين، وهيئة الصحفيين، وهناك مطالبات بإنشاء العديد من الجمعيات والهيئات المتخصصة. بالإضافة إلى ما تقوم به بعض الأندية الرياضية من جهود في المجال الثقافي وتأتي المحاضرات الثقافية كأبرز تلك الجهود رغم قلتها.

الرياضة السعودية:

ولعل حديثي عن الأندية يجرني إلى الحديث عن الرياضة السعودية بشكل عام وأثرها في تغير المجتمع السعودي، فعلى الرغم من أن الرياضة كانت تمارس من قبل الأهالي في منطقة الحجاز حيث تخبر جريدة البلاد بتاريخ ٤ شوال ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م) عن وجود بعض المدارس والفرق الرياضية سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) التي كانت تأخذ الإذن بممارسة كرة القدم من شرطة مكة، كما ساهم افتتاح المدارس وإدخال مادة الرياضة البدنية في بدء ممارسة الرياضة بشكل عام بين أبناء المملكة، وفي سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) تأسس فريق الحجاز الرياضي بجدة، كأول نادي رياضي رسمي، ثم انقسم في السنة التالية إلى فريقين أحدهما ما يعرف حالياً بنادي الاتحاد، ثم توالى بعد ذلك تأسيس الأندية التي صارت تمارس عدداً متنوعاً من الرياضات وليس كرة القدم فقط، وفي سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) أنشئت أول هيئة رياضية في المملكة وسميت الإدارة العامة للرياضة البدنية والكشافة، وكانت تتبع وزارة الداخلية، كما نظمت العديد من البطولات التي حملت أسماء ملوك هذا البلاد مثل: كأس الملك وكأس ولي العهد، وكأس المؤسس التي أقيمت سنة ١٤١٩هـ/١٤٢٠هـ (١٩٩٩م) بمناسبة مرور مئة سنة على قيام الدولة السعودية الثالثة، كما كان الملك يشرف بعض المناسبات الرياضية، وفي إحداها وجه بتغيير مسمى النادي الأولمبي إلى نادي الهلال، وهذا مؤشر على الاهتمام باللغة العربية كهوية دينية ووطنية ووسيلة اتصال ثقافية يجب المحافظة عليها.

كما أقيم أول سباق للدراجات سنة ١٣٧٤هـ (١٩٥٥م) وللخيل سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٩م) تبعه أول سباقات الهجن سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٤م)، كما عرفت كرة السلة أول مرة من خلال المدارس والمعاهد سنة ١٣٦٧هـ(١٩٤٨م)، أما الكرة الطائرة فكانت بداياتها سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م)، وكرة اليد سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) بالإضافة إلى تأسيس إتحاد خاص برياضة المعاقين وذلك سنة ١٤١٢هـ (١٩٩٢م)، وغيرها الكثير من الألعاب المختلفة، وتشرف عليها الرئاسة العامة لرعاية الشباب التي كانت تسمى إدارة رعاية الشباب التابعة لوزارة العمل منذ سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م)، بعد سلخها من وزارة المعارف حين كانت تسمى اللجنة الرياضية العليا، حيث لم يدم هذا المسمى سوى سنتين فقط ما بين ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) حتى ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) أما الفترة التي سبقت ذلك منذ ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) فكانت كما أسلفت تسمى الإدارة العامة للرياضة البدنية والكشافة وكانت تابعة لوزارة الداخلية.

كما جرى تأسيس اللجنة الأولمبية السعودية عام ١٣٨٤هـ (١٩٦١م).[١] وشيدت المنشآت الرياضية كإستاد الملز بالرياض سنة ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) والذي تغير مسماه فيما بعد إلى إستاد الأمير فيصل بن فهد، وتشييد إستاد الملك فهد، أو ما يحلو للرياضيين تسميته بدرة الملاعب، الذي جرى افتتاحه سنة ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م)، بالإضافة إلى عدد كبير من المرافق الرياضية التابعة لجهات حكومية مختلفة أو لأندية وتشرف عليها الرئاسة العامة لرعاية الشباب.

الحركة العمرانية:

ولعل الحديث عن المنشآت يقود إلى الحركة العمرانية التي شهدتها المملكة منذ قيامها حتى لحظة كتابة هذه الأسطر ١٤٣٢هـ (٢٠١١م)، فقبل أن يتم توطين البادية تم بناء الهجر للقبائل السعودية المختلفة والتي أشرت إليها حين تحدثت عن توطين البادية، وهذا تطلب بناء مساكن بطرق حديثة - في وقتها - يتوسطها المسجد حيث يتم التحقق من حضور جميع سكان الهجرة أو الحي لأداء الصلاة خاصة

(١) تركي عجيبي حكمي، وعبد الوهاب أحمد عريشي، دراسة بعنوان: الرياضة في المملكة العربية السعودية تأسيسها وتطورها، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

صلاة الفجر، قبل أن تنحصر في بعض البلدات ثم تختفي مع مطلع القرن الهجري الحالي. وبعد أن كانت حياة أهل البادية تقوم على الحل والترحال ينصبون بيوت الشعر في المكان الذي يناسبهم مدة من الزمن، ثم ينقضونها للبحث عن مكان آخر، ولكن بعد عمليات التوطين وبناء البيوت الطينية البسيطة لهم والتي تحولت في بنائها بعد ذلك بما يعرف بالبيوت الإسمنتية المسلحة، اختفت تقريباً حركة الحل والترحال البدوية.

ولعلي في هذا المبحث ألمح على عجل إلى المسكن الذي اتخذه الملك عبد العزيز لنفسه ولإدارة شؤون دولته الفتية[١]، حيث شيد قصر المربع سنة ١٣٥٧هـ (١٩٤٨م)، حيث استخدم في بنائه الطين والتبن والجص وخشب الأثل والحصى، وكان مؤلفاً من طابقين، وقد تم تحويله إلى متحف، وتشرف عليه دارة الملك عبد العزيز. كما شيد قصر مشرف ببلدة السيح بالقرب من محافظة الخرج سنة ١٣٤٩هـ (١٩٦٠م)[٢]، وكذلك قصر خزام بمحافظة جدة، وقد تم تشييده سنة ١٣٥١هـ (١٩٦٢م)، وهو يحاكي الطابع المعماري لمنازل جدة في ذلك الوقت، وتم تحويله إلى متحف وتشرف عليه وزارة التربية والتعليم حالياً، بالإضافة إلى قصور أخرى أحدث كقصر الملك سعود وقصر اليمامة وقصر الصفا، أو قصور قديمة جداً وما تزال موجودة حتى اليوم كشاهد على عصور من الأحداث والتحولات، كقصر المصمك في مدينة الرياض الذي بني سنة ١٣١٢هـ، (١٨٩٣م) وقصر النيابة في الطائف الذي بني سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٥م) وقصر شبرا في الطائف أيضاً والذي بني سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٣م).[٣]

(١) موقع الإدارة العامة للتخطيط العمراني، وكالة التعمير والمشاريع، أمانة مدينة الرياض. http://ur-plandep.alriyadh.gov.sa/ARA/

(٢) سمي قصر مشرف بهذا الاسم لأنه كان يشرف على ما حوله من البلدات التابعات لمحافظة الخرج مثل: السلمية، واليمامة.

(٣) تقرير بعنوان السعودية: القصور الأثرية للملوك والأمراء تتحول إلى متاحف ومقرات للجامعات، نشر في صحيفة الشرق الأوسط العدد ٨١٠٤ بتاريخ ١٠ ذي القعدة ١٤٢١هـ (٢٠٠١م).





تغير مادي ملحوظ: فهاتان الصورتان تحكيان شيئاً من قصص التغير التي حدثت في مدينة الرياض وهي المدينة التي تمثل كغيرها من المدن والمحافظات صورة من صور التغير المادي المتسارع الذي شمل المملكة في زمن لا يزيد عن أعمار الرجال، حيث تمثل الصورة اليمنى ستينات القرن الهجري (الأربعينات الميلادية). لاحظ نقطة قد يُغفل عنها تتمثل في أن شوارع الرياض والمدن السعودية كانت قديماً تعج بالمارة من المشاة، أما الآن ومع التغيرات التي أحدثها توافر وسائل النقل الحديثة فيندر أن تجد المشاة في الشوارع، إلا في مناطق محددة.

وقد كانت بيوت الرياض في ستينات القرن الهجري المنصرم (أربعينيات القرن الميلادي الماضي) مبنية من الطين واللبن وقليل من الحجارة، وطريقة البناء لا تسير على نظام معين أو طريقة محددة، ولهذا كثرت فيها الشوارع الضيقة والمتعرجة، وفي الغالب كان البناء يتكون من طابقين، يوجد به غرف صغيرة أكبرها «الديوانية»، أو ما يعرف بالمجلس وفي الطابق العلوي هناك «الروشن» أو الملحق العلوي.

ولكن بعد إزالة سور الرياض عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م)، ونظراً لاتساع المدينة ونموها وتزايد عدد سكانها، وما واكب ذلك من إنشاء أمانة الرياض عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م)، ثم المجلس البلدي عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م) حيث ساهمت هذه التطورات التنموية في الرياض في تغير النمط العمراني للمدينة، فلم يعد هناك عشوائية في البناء والعمران، بل كان هناك حركة عمرانية كبيرة، وتخطيط جيد للشوارع والأراضي والمرافق العامة، والاتجاه نحو التوسع الأفقي للتخطيط، وظهور أحياء جديدة، حيث بدأ الناس في التخلي عن البناء الطيني والاتجاه نحو البناء

المسلح بالحديد والحجارة، ثم انتشر العمران بشكل كبير ومختلف في التسعينات (سبعينات القرن الميلادي) مع بداية الطفرة الاقتصادية للمجتمع، وأخذ يتطور بشكل مختلف مع تطور الحياة الاجتماعية والانفتاح الحضاري الذي واكبه دعم حكومي من خلال صندوق التنمية العقاري(١) الذي تأسس سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) بغرض مساعدة المواطنين على إقامة مساكن خاصة بهم، وبحسب بيانات وزارة المالية في المملكة العربية السعودية فإن الصندوق خلال الخمس وعشرين سنة من إنشائه ساهم في بناء ما يزيد على (٤٤٣٨٤٢) وحدة سكنية في أكثر من (٣٩٧٦) مدينة ومحافظة وقرية وهجرة في مختلف أنحاء المملكة، وبلغ إجمالي القروض في تلك الفترة ما يزيد على مئة وعشرين مليار ريال(٢).

ورغم النقلة النوعية التي أحدثتها التقنيات المستحدثة في ذلك الوقت، وتغير الطراز المعماري، وأساليب ومواد البناء، إلا أن هناك من كان يعترض على البناء الإسمنتي الحديث، وربما لا يدخله ومنه ما ذكر في إحدى تراجم الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم(٣) - رحمه الله - أنه كان لا يدخل البيوت الإسمنتية؛ ويقول: هذه كبيوت الفراعنة، وفي إحدى المناسبات ذهب مع الشيخ محمد بن إبراهيم – رحمه الله – بعد خروجهم من المسجد وحين وصلوا إلى بيته الذي كان قد تم الانتهاء من تشييده مؤخراً رفض دخوله وعاد إلى منزله، بحجة اجتهاده في تحريم استخدام تلك المواد المستحدثة التي لم تكن معروفة زمن النبي ﷺ.(٤)

---

(١) مقتطف من لقاء أجرته صحيفة الرياض في عددها رقم ١٤١٣٤ بتاريخ ١٦ صفر ١٤٢٨هـ مع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الموسى.

(٢) وزارة المالية السعودية، معلومات حول صندوق التنمية العقاري. http://www.mof.gov.sa

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، من كبار علماء الدولة السعودية الثالثة ولد سنة ١٣١٢هـ وتوفي سنة ١٣٩٢هـ من أبرز مؤلفاته حاشية الروض المربع ٧ مجلدات، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٧ مجلد، والدرر السنية في الأجوبة النجدية ١٦ مجلد وغيرها كثير. ومن ابرز تلاميذه الشيخ عبد الله بن جبرين - رحمنا الله وإياهم أجمعين.

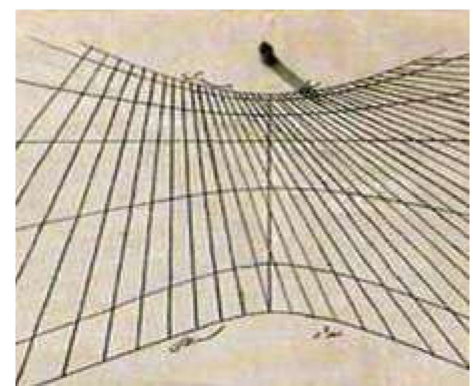
(٤) مقالة بعنوان ابن قاسم: الفلاح الزاهد والفقيه المؤرخ، لحفيده الكاتب الدكتور / يوسف بن أحمد بن عبد الرحمن القاسم، نشرت في موقع الإسلام اليوم http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-34-12566.htm

ومع التطور المطرد في المواد المستخدمة ظهرت أول مرة في المملكة البنايات الشاهقة التي ترتفع إلى ما يزيد على عشرين طابقاً، وتسع آلاف الناس، في العديد من مدن المملكة، وكان أولى تلك البنايات ما يعرف بأبراج الخالدية وسط مدينة الرياض والتي أنشئت في أواخر القرن الهجري الماضي، والتي ظلت فترة طويلة أحد معالم مدينة الرياض حتى ظهر برجا المملكة والفيصلية ويصل ارتفاع الأول منهما إلى (٣٠٠م) وبه مسجد الملك عبد الله في الطابق (٧٧) ويصنف على أنه أعلى مسجد في العالم.

عمارة الحرمين:

كانت أولى اللمسات المعمارية معنوية وليست مادية، تمثلت في أمر الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بمنع تعدد الجماعات في المسجد الحرام والاكتفاء بجماعة واحدة خلافاً للبدعة التي كان معمولاً بها قبل عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)[١] وهذا تحول اجتماعي وتغير فكري مهم جداً، أراه وأظنه من أجلّ أعمال الملك عبد العزيز وتبرز أهميته في توحيد المسلمين على أمام واحد في بيت الله الحرام كما كان عليه الحال في عهد رسول الله عليه السلام والخلفاء الراشدين من بعده.

(١) ورد في صفة المسجد الحرام وذرعه وما فيه من الصنع في كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، لكاتب مراكشي من كتّاب القرن السادس الهجري، الذي نشره وعلق عليه الدكتور / سعد زغلول عبد الحميد، استاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة الأسكندرية ثم بكلية الآداب بجامعة الكويت: أن للمسجد الحرام أربعة أئمة: فالإمام الشافعي، إلى المقام، والإمام المالكي إلى الركن الغربي، والإمام الحنفي إلى الميزاب، والإمام الحنبلي يصلي إلى الركن اليماني. هذا بالنسبة للحرم المكي الشريف أما بالنسبة للحرم النبوي، فيذكر الإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المتوفى بالمدينة المنورة عام ٩٠٢هـ في كتابه التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة الصادر في مجلدين عن دار الكتب العلمية في بيروت سنة ١٤١٤هـ (١٩٩٣م)، أن الحرم النبوي كان مقتصراً على إمام واحد حتى أحدث محراب للحنفية عام ٨٦١هـ (١٤٥٦م) بجانب المحراب الشافعي، وقد رأى الإمام نور الدين السمهودي في كتابه وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: أن حالة تعدد الأئمة في الحرم النبوي قد انتقلت إليه من الحرم المكي.





المزولة التي كانت تستخدم لتحديد وقت دخول الصلاة في المسجد الحرام واستمرت فترة طويلة تزيد على ٥٠٠ سنة حتى أمر الملك عبد العزيز رحمه الله بوضع ساعة كبيرة حديثة، وعند مقارنة هذه المزولة بالساعة الحالية (التي تظهر في الصورة اليسرى) سنعلم أن التغير المادي الذي حدث كبير جداً ولا يمكن لأحدٍ قياسه.

ثم توالت جهود العمارة بعد ذلك حيث تم تبليط المسعى كاملاً سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) وهي المرة الأولى التي يتم فيها ذلك العمل، كما تم ترميم الأروقة وطلاء الجدران سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، وفي سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) تم وضع ساعة كبيرة بارتفاع خمسة وعشرين متراً بجانب المسجد الحرام واعتمدت كمرجع للوقت هناك، كما أعيد سقف المسعى سنة ١٣٦٦هـ، (١٩٤٧م) ثم أجريت توسعة شاملة في سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٨م) كان من أبرز معالمها إعادة بناء المسعى من طابقين واستمرت عمليات التوسعة حتى صار الحرم المكي في سنة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م) يتسع لأربعمائة ألف مصلٍّ، ثم زيدت الطاقة الاستيعابية من خلال عمليات التوسعة حتى بلغت في الوقت الراهن أكثر من مليون مصلٍّ في المسجد وساحاته وأسطحه، وذلك في أوقات الذروة، مع إضافة عدو بوابات رئيسية وعدة مآذن، كما رممت الكعبة المشرفة سنة ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) وكان آخر ترميم لها قبل (٣٧٥) عاماً. كما أجريت العديد من التعديلات والترميمات والتوسيعات على الحرم النبوي الشريف بدءاً من سنة ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) حين تم إصلاح أرضية الأروقة مروراً بالتوسعة التي عملت سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) ثم عملت مظلات للمصلين سنة ١٣٩٧هـ

(١٩٧٧م) حتى التوسعة الأكبر التي بدأت سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) وانتهت سنة ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).[١]

الحالة الدينية قبل قيام الدولة السعودية:

لم تكن التغيرات التي أحدثت في الحرمين الشريفين سوى أحد المؤشرات على التحولات الدينية التي حدثت في المجتمع السعودي، وما شهده الحرمان الشريفان يعد انعكاساً لحالة التدين التي تعم المجتمع، والتمسك بالثوابت التي كانت هي العلامة المميزة لحكام هذه البلاد وبالتالي ظهور أثره على كافة أطياف المجتمع، مما تطلب القيام بنهضة عمرانية شملت المساجد، ومنها الحرمان الشريفان اللذان ضاقا بأهلهما بعد أن كانت الأعداد الوافدة إليهما قليلة جداً بسبب ضعف الالتزام بتعاليم الدين في الداخل والخارج في المرحلة السابقة لتأسيس هذه الدولة، ويؤكد ذلك قلة أعداد الحجاج القادمين إلى البقاع المقدسة حتى وصلوا إلى ٧٠،٠٠٠ عام ١٢٢٩هـ (١٨١١م) (حسب تقدير بروكارت)، ثم إلى ٣٠،٠٠٠ عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٨م) (حسب تقدير مالتزان)، كما أن الصلاة لم تكن تقام بصفة منتظمة في بعض المناطق حتى بين الحجاج، خاصة بعد غزو نابليون لمصر، والانهيار والتمزق المتتالي للإمبراطورية العثمانية، مما حدا ببعض الساسة والمستشرقين الغربيين إلى التنبؤ باختفاء الإسلام تماما في غضون سنوات قليلة[٢]، إلا أن عملية توحيد المملكة أعادت الروح الإسلامية مرة أخرى، وهذا - وبتجرد تام - يجعل المطّلع العارف بخفايا الأمور لا يساوره شك في أن الملك عبد العزيز لم يكن مؤسس دولة فقط بل ومجددٌ لهذا الدين الإسلامي الحنيف، والذي منه انطلقت رياح الخير لتشمل العالم الإسلامي بأسره، وليعود الحجاج مرة أخرى لتلبية النداء القديم

(١) للمزيد حول توسعة الحرمين الشريفين، تفضل بزيارة موقع الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، بوابة الحرمين الشريفين، موسوعة الحرمين، التوسعات في العهد السعودي. (مرجع سابق). وحتى لو تنبأ أولئك المستشرقون باختفاء الإسلام، فإن كلامهم غير صحيح؛ لأن الله قد تكفل بحفظ هذا الدين ونصره.

(٢) د. مراد هوفمان، الإسلام عام ٢٠٠٠، ترجمة وتحقيق: عادل المعلم، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).

وليصل تعدادهم لما يزيد على مليوني حاج بعد أن تقلص إلى ثلاثين ألفاً عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٨م).

وكما أن الوضع الديني لم يكن بالشكل الذي يرضى عنه الله ورسوله قبل التوحيد، فقد كان أحد العوامل التي مكنت للملك عبد العزيز وأعانته على توحيد هذه البلاد وجمع أطرافها المتباعدة، ويعود ذلك إلى أن علماء نجد لم يكونوا راضين بالحالة التي كانت عليها بلادهم ذلك الوقت رغم قيامهم ببعض الجهود الجليلة المتمثلة في محاولة نشر الدين الصحيح ومحاربة البدع المنتشرة من خلال المؤلفات والرسائل، أو الوعظ المباشر، وكانوا مهتمين بمسألة إقامة دولة إسلامية تأخذ على عاتقها إقامة حكم الله، ومبايعة من يرونه أهلاً للإمامة، منذ عهد بعيد جداً، وكانوا يتناصحون فيما بينهم ويذكرون بعضهم بأهمية ذلك، حتى صارت تلك الوصايا تركة يتوارثها العلماء ولا ينفكون عن التذكير بها ومنها رسالة الشيخ عبد الرحمن بن حسن[1] - رحمه الله - المتوفي عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٧م) إلى العلماء ومما جاء فيها قوله: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الرحمن بن حسن إلى من يصل إليه من الإخوان، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: تفهمون أن الجماعة فرض على الإسلام، وعلى من دان بالإسلام كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[2] ولا تحصل الجماعة إلا بالسمع والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين، وفي الحديث الصحيح عن العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي)[3]

وحين تم فتح الحجاز اتفق علماء مكة وعلماء نجد حول ما يجب على الأمة

---

(١) عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، ولد في محافظة الدرعية سنة ١١٩٣هـ وشهد سقوط الدولة السعودية الأولى وقيام الدولة السعودية الثانية. (نقلاً عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا).

(٢) (١٠٣) سورة آل عمران

(٣) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، الإيمان والرد على أهل البدع (مطبوع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام، الجزء الثاني)، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).

الإسلامية اعتقاده من توحيد الله - سبحانه وتعالى - وإفراده بالعبادة وتحذيرها من كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كدعاء غير الله، والاستغاثة والاستعانة بالأموات، وطلب الشفاعة منهم، والذبح والنذر لغير الله، وكالحلف بغير الله، وتعظيم القبور بغير ما شرع الله من البناء عليها واتخاذها مساجد، وشد الرحال إليها، والطواف حولها، والتبرك بها. وتم نشر ما تم الاتفاق عليه في جريدة أم القرى في أجزاء متفرقة في سنة ١٣٤٣هـ، (١٩٢٤م) ثم جمعت في رسالة تحت عنوان: (البيان المفيد فيما اتفق عليه علماء مكة ونجد من عقائد التوحيد) وطبعت عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م).[(١)]

ومن المهم أن نعرف أن أوضاع الجزيرة العربية قبيل عهد الملك عبد العزيز - رحمه الله - سيئة للغاية في مجالات كثيرة وعلى الأخص ما يتعلق بتفشي البدع والضلالات ويتضح ذلك من رسالة كتبها الشيخ سعد بن عتيق[(٢)] ـ رحمه الله ـ مع مجموعة من العلماء في رسالتهم الموجهة إلى زعماء الإخوان لتذكيرهم بنعم الله، يصف حال الجزيرة قبيل عهد الملك عبد العزيز، حيث جاء في هذه الرسالة: «اعرفوا نعمة ربكم واشكروه عليها فإنكم كنتم أولا في جاهلية عريضة، وحالة عن الحق بعيدة، رؤساؤكم أكثرهم طواغيت كبار، وعوامكم جناة أشرار، لا تعرفون حقائق دين الإسلام ولا تعلمون من الحق إلا بما تهوى نفوسكم، مع ما كان بينكم من سفك الدماء ونهب الأموال وقطيعة الأرحام وتعدي حدود الله وغير ذلك من المحرمات وعظيم المنكرات، ثم هداكم الله لمعرفة

(١) د. صالح بن عبد الله العبود، عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٣هـ صدرت طبعتها الأولى سنة ١٤٠٨هـ ضمن مطبوعات المجلس العلمي بالجامعة، وأعيدت طباعاتها سنة ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

(٢) الشيخ سعد بن حمد بن علي بن عتيق، ولد في بلدة الحلوة من قرى محافظة حوطة بني تميم سنة ١٢٦٧هـ (١٨٤٩م). وحين دخل الملك عبد العزيز الأفلاج سنة ١٣٢٩هـ، (١٩١٠م)، كان ابن عتيق قاضياً بها، فقال عنه الملك: «وجدت دُرة في بيت خرب» ونقله معه إلى الرياض ليكون قاضياً هناك. ومن مؤلفاته رسالة أسمها: عقيدة الطائفة النجدية) ورسالة أخرها اسمها: (حجة التحريض في النهي عن الذبح للمريض) من أبرز طلابه سماحة الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ رحمنا الله وإياهم ـ توفي عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) (من ترجمة للشيخ عبد الفتاح أبو غدة ،تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧هـ (١٩٩٧م).

دينه والعمل بتوحيده وسلوك مسلك أهل الإسلام والتوحيد، وانتشرت بينكم كتب السنة والآثار ومصنفات علماء الإسلام[١]».

والسؤال الذي يهمني هنا يتعلق بالكيفية التي تحول معها الحال من مجتمع له تلك الصفات الموغلة بالجهل والبعد عن الدين إلى مجتمع تنطلق منه الفلول لنشر دين الله ويتحول إلى منارة يقصدها أبناء العالم الإسلامي من كل حدبٍ وصوب لتلقي العلم الشرعي من علمائه وفي جامعاته؟ ويعود الفضل في ذلك بعدً الله إلى حكام هذه المملكة؛ الذين منذ ساعة توحيدها وفي كل مناسبة يؤكدون على أن هذه المملكة دولة عربية إسلامية دينها الإسلام ودستورها كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وقد صدّق حديثهم أمور عديدة أهما: تقديرهم علماء الدين، الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنشاء مؤسسات التعليم الديني، العناية بكتاب الله، عمارة المساجد وتأسيس مكاتب الدعوة والمؤسسات الدينية الأخرى. وسوف أتحدث عن ذلك في الأسطر التالية:

علاقة العلماء الشرعيين بالدولة:

علاقة الدول السعودية بالعلماء ليست جديدة فقد بدأت قبل قيام الدولة السعودية الأولى حين حصل التحالف بين الأمام محمد بن سعود، والشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، واستمرت هذه العلاقة حتى قيام الدولة السعودية الثالثة التي لا تذكر إلا ويذكر بعض العلماء الأجلاء ممن أسهموا في مناصرة الملك عبد العزيز ومنهم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، والشيخ محمد بن عبد اللطيف، والشيخ سعد بن عتيق، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد الله بن حسن، وغيرهم كثير ممن كانت لهم جهود كبيرة في التدريس، والإفتاء، وبعث الرسائل والنصائح، والتأليف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخطابة، وغيرها ـ رحم الله الجميع رحمة واسعة[٢].

(١) د. عبد الرحمن بن إبراهيم الجريوي، بحث بعنوان: (عناية الملك عبد العزيز بالدعوة والدعاة وآثارها) مقدم إلى ندوة علمية نظمتها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بمدينة الرياض بتاريخ ٢٣ صفر ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م) بعنوان: (الدعوة في عهد الملك عبد العزيز).

(٢) د. حمود بن أحمد الرحيلي، أثر الدعوة السلفية في توحيد المملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م).

وكان الملك حريصاً على تأكيد اهتمامه بالدين الإسلامي وكثيراً ما كان يردد بأنه لا يريد إلا العودة إلى دين الإسلام الصحيح القويم، البعيد عن العقائد الوثنية التي ليست من الإسلام في شيء، وأنّ عقائده هي عقائد أجداده الأطهار الأتقياء، وعاداته هي عاداتهم، وشعائره هي شعائرهم، مع التأكيد على العودة في كل شيء لأحكام القرآن والسنة، ومحاولة العيش كما عاش الخلفاء الراشدون، والبغية أن يتحد العلماء المسلمون فيتحد العالم الإسلامي، ويخضع لأحكام القرآن والسنة.[1]

هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تكن مستحدثة من قبل الدول السعودية، كما يسعى بعض المغرضين إلى تصويرها، ولا يخجل البعض حين يصرحون وينادون بإلغائها فهي ما يميز هذا الدين وأتباعه، بل إن هناك من يراها الركن السادس من أركان الإسلام وكثيراً ما قرنها الله في كتابه بالصلاة والزكاة ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾[2] وفي موضع آخر أهمية تخصيص فرقة مهمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ ﴾[3] وفي موضع ثالث يقرن هذه الفريضة بأجل العبادات﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢ ﴾[4] وفي موضع آخر يبين أنها ضمن أهم الوصايا﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾[5] أما خيريتنا فلم تأت من أننا من القومية

---

(١) عبد المنعم الغلامي، الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م).

(٢) الآية (٤١) سورة الحج.

(٣) الآية (١٠٤) سورة آل عمران.

(٤) الآية (١١٢) سورة التوبة.

(٥) الآية (١٧) سورة لقمان.

الفلانية أو العرق الفاضل بل إننا كأمة لن نتفضل على غيرنا إلا حين نؤدي هذه الفريضة كما ينبغي ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] ولهذا فقد اهتم الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بهذه الفريضة وأسس لها جهة تقوم بها قبل إعلان توحيد المملكة بست سنوات كان ذلك عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) وكلف الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ رئيساً لها في منطقة نجد، ثم تلاها إنشاء الهيئة في الحجاز سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) ثم في سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) تم إنشاء الهيئات في بقية مدن الحجاز، ووضع نظاماً لها مع ربطها بمديرية الشرطة، قبل أن تلحق برئاسة القضاء سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م)، ثم بمجلس الوزراء مباشرة سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م)، وفي السنة التالية انشئت الهيئات في بقية المناطق كنجران وجازان والباحة وتبوك وغيرها وكانت مهامها تتمثل في تتبع أحوال الناس من جهة المعاملات والعادات، فما وافق الشرع منها يقر، وما خالفه أزيل، ومنع تداول الألفاظ البذيئة في الأسواق، مع حث الناس على أداء الصلوات الخمس جماعة، ومراقبة المساجد من جهة أئمتها ومؤذنيها ومواظبتهم، كل ذلك يتم من خلال الحكمة والموعظة الحسنة، وإذا أعياها أمر من الأمور، رفعته فيه إلى أولي الأمر. وظلت الهيئات مستقلة عن بعضها حتى سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) حين تم توحيدها تحت مسمى الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) صدر نظام جديد للهيئات ينظم عملها من حيث التشكيل والصلاحيات والواجبات وغيرها، وقد أولت الحكومة السعودية مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اهتماماً بالغاً، حتى إن الفقرة الثالثة والعشرين من النظام الأساسي للحكم الصادر سنة ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م) نص على «تحمي الدولة عقيدة الإسلام، وتطبق الشريعة، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم بواجب الدعوة إلى الله[2]».

(١) من الآية (١١٠) سورة آل عمران.
(٢) [illegible] .http://www.pv.gov.sa.

ومن هنا يتضح أن مسألة وجود هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس أمراً طارئاً على المجتمع السعودي، فهي متجذرة فيه حتى قبل إعلان قيام المملكة العربية السعودية، وفي نفس الوقت ينص النظام الأساسي للحكم على أن من مهام الدولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه أظنها كافية للرد على قلة من الأصوات التي خرجت في العقد الأخير مع التغيرات الاجتماعية المتوالية والانفتاحات المتلونة لتطالب في غير مناسبة ووسيلة بإلغاء هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان حديثي ليس مجاله الدفاع عن الهيئات أو الرد على المطالبين بتقويضها، ولكن من باب بيان الصورة ليس إلا، أقول أوليست الخيرية الأممية التي وصفنا بها المولى -عز وجل - في كتابه متأتية من فعلنا هذا؟ وما نصت عليه المادة الثالثة والعشرون من نظامنا الأساسي للحكم، فمن يرد الارتقاء والرفعة والأفضلية والخيرية فعليه أن يعض بنواجذه على هذه الفريضة، أما من أراد غير ذلك فأخشى عليه من أن يكون ممن قال الله - سبحانه وتعالى - فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[1] ولكي لا يتأول أحدٌ كلامي؛ أبين أن الفاحشة والمعصية بشكل أعم لا تذهب إلا بأمر بمعروف ونهي عن منكر، وحتى لو لم ينته صاحب المعصية، فمع هذه الشعيرة يحجر على المعصية حتى لا تكاد ترى، ويتحقق بها صيانة عامة الناس من فعل المعصية - بتوفيق الله - مع ردع الضُلال عن الدعوة إليها، ويعلم الله إن من أهم أسباب تغير المجتمع السعودي وتحوله بطريقة متوازنة إلى حد كبير وجود أولئك الرجال الفضلاء الذين يعملون بإخلاص ويبذلون محتسبيًن همهم المحافظة على الفضيلة في الأمة الأكثر خيرية بين الأمم، وإن ما يرتكب من أخطاء تنسب لقلة من منسوبي ذلك الجهاز من السهل على المنصف تفسيره ليس بوجود بعض الدخلاء المتحمسين فقط ولكن الأهم حجم العمل الذي يؤديه ذلك الجهاز مقارنة بالهفوات المعلن عنها، والتي أجزم أنها أشبه ما تكون قطرات في بحرٍ لجي.

---

(١) (١٩) سورة النور

إنشاء المعاهد العلمية:

بغرض تخريج معلمين يتسلمون زمام التعليم في ذلك الوقت ويقومون بنشر ما تعلموه بين الطلاب في المدارس وبين الأهالي، تم إنشاء المعهد العلمي الإسلامي بمكة المكرمة سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) وحين تخرجت أولى دفعاته قابلهم الملك عبد العزيز بنفسه سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) ومما جاء في خطابه إليهم: « اعلموا أن العلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر وأن العلم كما يكون عوناً لصاحبه يكون عوناً عليه[1] » واستمر ذلك المعهد حتى سنة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م) حيث حلت مكانه معاهد المعلمين، كما سبق ذلك تأسيس مدرسة دار التوحيد سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م).

الاهتمام بالمساجد ومكاتب الدعوة:

لم يُكتف بما تطرقت إليه من أجل ترسيخ تعاليم الدين، بل قامت المملكة بإنشاء مكاتب للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات، حيث تم إنشاء أول مكتب سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) بمدينة بريدة، وسمي مكتب توعية الجاليات، تلاه مكتب البطحاء سنة ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م) وتوالى افتتاح المكاتب في أنحاء المملكة حتى تجاوزت مئة وخمسين مكتباً[2].

كما كان هناك اهتمام بعمارة المساجد وتوظيف الأئمة والمؤذنين وتأمين الحراس لها حتى بلغ تعدادها حالياً ما يزيد على ثلاثة وسبعين ألف مسجد في كافة أرجاء المملكة، علاوة على الاهتمام بعمارة الحرمين، وهو ما تطرقت إليه في حديثي عن النهضة العمرانية في المملكة.

العناية والاهتمام بتحفيظ القرآن وطباعة المصحف الشريف:

من أهم ما يحسب للمملكة في مسألة الاهتمام بالدين الإسلامي الحنيف قيامها بإنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) وكان الهدف منه طباعة المصحف وتسجيل تلاوة القرآن بالروايات المشهورة في العالم

---

(١) عبد الله عبد المجيد بغدادي، الانطلاقة التعليمية في المملكة العربية السعودية، دار الشروق، جدة، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

(٢) مجلة البيان، العدد ٢١٢ ربيع ثاني ١٤٢٦هـ

الإسلامي، مع ترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره، والعناية بعلوم القرآن الكريم، والعناية بالسنة والسيرة النبوية، والعناية بالبحوث والدراسات الإسلامية[1].

ومن باب الاهتمام بحفظ القرآن الكريم وتعليمه، تم إنشاء مدارس متخصصة بتحفيظ القرآن تابعة لوزارة التربية والتعليم وكانت أولاها مدرسة أبي بن كعب الابتدائية في المدينة المنورة سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) التي كانت تسمى معهد القراءات، ثم افتتحت مدرسة تحفيظ القرآن الأولى المتوسطة في الرياض سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) تبعها افتتاح مدرسة أبي زيد الأنصاري الثانوية في مكة المكرمة سنة ١٣٩٦هـ، (١٩٧٦م) وكانت ابتدائيتها قد تأسست سنة ١٣٧١هـ (١٩٥٢م)[2].

ولم يكتف بالمدارس النظامية لتعليم القرآن بل جرى إنشاء الجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم وكان ذلك سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٧م) حين عرض مفتي الديار السعودية في ذلك الوقت سماحة الشيخ / محمد بن إبراهيم، على الملك فيصل - رحمهما الله - فكرة إنشاء الجمعية، حيث وافق عليها مباشرة وقام بدعمها مالياً، وكان قد سبقها الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن في منطقة مكة المكرمة وهي الأقدم وتأسست سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م)، وكذلك جمعية المدينة وجمعية القصيم سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) ثم جازان سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م) وفي سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) تم ربطها جميعاً بجامعة الإمام محمد بن سعود[3]، والحقيقة فإن هذه الجمعيات كان لها الأثر الكبير في تغيير المجتمع السعودي، ونشر ثقافة الإلتزام الديني والأهم من ذلك اكتفاء البلد ذاتياً بائمة المساجد التي كما أسلفت زاد عددها على (٧٣٠٠٠) مسجد، كما أن أنشطة كثيرٍ منها لم تقتصر على تعليم القرآن في المسجد فقط بل كان هناك برامج أسبوعية ورحلات متنوعة.

---

(١) موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. http://www.qurancomplex.org/

(٢) مجلة التوثيق التربوي العدد ٣٣ التابعة لوزارة التربية والتعليم.

(٣) تقرير بعنوان جمعيات تحفيظ القرآن والمستقبل المشرق، من إعداد عبد العزيز بن عبد الرحمن الشبرمي، نشر في موقع الإسلام اليوم بتاريخ ١٧ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ.

إنشاء مزيدٍ من الهيئات الدينية:

ومع كثرة المؤسسات والجهات التي تقوم بخدمة هذا الدين تم إنشاء وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد سنة ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) لتتولى كل ما له علاقة بالشؤون الإسلامية وشؤون الأوقاف والمساجد والإرشاد والدعوة إلى الله، مع الاهتمام بالقضايا الإسلامية، والتواصل مع الجمعيات والمراكز الإسلامية[١]، بعد أن كانت كل تلك المهام موكلة إلى وزارة الحج.

كما تم إنشاء دار للإفتاء والإشراف على الشؤون الدينية والمعاهد في سنة ١٣٩١هـ (١٩٧١م) التي سميت بعد ذلك بالرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، حتى سنة ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) حين تأسست وزارة الشؤون الإسلامية، فتغير المسمى إلى الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، ومهمتها إصدار الفتاوى التي تهم أفراد المجتمع بالإضافة إلى إصدار البحوث العلمية المتخصصة.

التغيرات الاقتصادية والمالية:

ما كانت تلك المشاريع المتنوعة والجبارة لتتم لو لم يكن هنا دعم مادي هائل مستند إلى اقتصاد قوي، ومن هذا المنطلق فقد اهتمت المملكة بتدعيم اقتصادها وتنوعيه، بعد أن كان في بدايته يعتمد على الرعي وبعض الزراعة الخفيفة وصيد السمك وما يأتي من الحج، وظل على هذا الحال حتى تم اكتشاف النفط وتصدير أول شحنة زيت خام من ميناء رأس تنورة وكان ذلك في شهر ربيع من عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) وعلى الرغم من قلة تلك الكميات المصدرة التي كانت لا تتجاوز عشرين ألف برميل يومياً، إلا أنها كانت بداية نقطة التحول في الاقتصاد السعودي والذي انعكس أثره بالطبع على المجتمع برمته وأفراده ونشاطاتهم وحتى على غيرهم من الشعوب القريبة والبعيدة.

(١) موقع الإسلام www.al-islam.com.

وكانت التعاملات التجارية على بساطتها تتم باستخدام عملات متنوعة كانت هي السائدة قبل عملية توحيد المملكة ومن تلك العملات: التالر النمساوي، ويعرف بـ(دولار ماريا تريزا) ويشتهر بين عامة الناس في ذلك الوقت بالريال الفرانسي، ومن العملات ما يعرف بالريال المجيدي، نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد خان، بالإضافة إلى الجنيه الإنجليزي الذي كان يعرف بجنيه جورج نسبة إلى الأمبراطور جورج، وكذلك يعرف بالجنيه أبو خيّال؛ لوجود صورة رجل يمتطي صهوة جواد على ظهر القطعة. واستمرت تلك العملات متداولة على نطاق ضيق جداً بعد وضع نظام نقدي في البلاد سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) ومما جاء فيه تسميته بنظام النقد الحجازي النجدي، ويعبر عنه بالنقد العربي، وبه بطل التعامل بالريال العثماني، وجعل الجنيه الإنجليزي هو المقياس لأسعار العملة الجديدة، حيث كان الجنيه يعادل عشرة ريالات فضة. ثم جرت إعادة سكه مرة أخرى بجميع فئاته وذلك سنة ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) وبعد توحيد المملكة تم طرح العملة الجديدة التي حملت اسم البلاد الجديد على أحد وجهيها وذلك سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) وتوالت عملية سك هذه العملة والتعديل بفئاتها حتى سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) حين جرى سك أول جنيه ذهبي سعودي وكان يحمل اسم (جنيه عربي سعودي واحد) إلا أن الاقتصادي الأمريكي آرثر يونغ الذي كان يرأس بعثة أمريكية تواجدت في المملكة في تلك الفترة؛ بغرض تقديم المشورة لتطوير النظام النقدي بشكل خاص والاقتصادي للمملكة بشكلٍ عام، أشار على المعنيين في ذلك الوقت بتأخير طرح الجنيه حتى تأسيس مؤسسةٍ تدير شؤون البلاد النقدية، وبالفعل تم طرح الجنيه الجديد الذي كان يعادل أربعين ريالاً فضياً، وذلك سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) بعد سنة واحدة من إنشاء مؤسسة النقد العربي السعودي،[١] التي قامت في أول سنة عمل لها

(١) صدر المرسومان الملكيان رقم ١٠٤٦/١/٤/٣٠ ورقم ١٠٤٧/١/٤/٣٠، بتاريخ ١٣٧١/٧/٢٥هـ بإنشاء مؤسسة النقد العربي السعودي، واعتماد نظامها الأساسي. الذي حدد أهم وظائفها في تثبيت قيمة العملة السعودية، ودعمها داخل البلاد وخارجها، ومعاونة وزارة المالية بتوحيد المركز الذي تودع فيه إيرادات الدولة، وتقديم المشورة للحكومة فيما يتعلق بسك النقود وطرحها، ومراقبة الجهاز المصرفي من مصارف تجارية، وصيارفة يتعاملون في بيع وشراء العملات الأجنبية.

بطباعة إيصالات ورقية من فئة عشرة ريالات ليستخدمها الحجاج أثناء تواجدهم في المشاعر المقدسة وكانت تلك الإيصالات نواة العملة الورقية التي صدر منها فئة الخمسة ريالات سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) ثم فئة الريال سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م).[١]

كل تلك الجهود أعطت الاستقرار التام للوضع النقدي في المملكة وتوالت عملية إصدار الفئات النقدية، حيث صدر أول إصدار نقدي ورقي رسمي سنة ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م) وكان يتضمن فئات: ريال، وخمسة، وعشرة، وخمسين، ومئة ريال، ثم طبع الإصدار الثاني سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م) بنفس الفئات، وكذلك الإصدار الثالث سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)، أما الإصدار الرابع الذي صدر سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) فاشتمل على فئة الخمسمائة ريال أول مرة إضافة إلى بقية الفئات الأخرى، ثم الإصدار الخامس سنة ١٤٢٨هـ، (٢٠٠٨م) كما كانت هناك إصدارات خاصة بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة وكانت تلك الإصدارات من فئتي عشرين ريال ومائتي ريال تم إصدارهما سنة ١٤١٩هـ (١٩٩٩م) [٢].

(١) للمزيد حول مؤسسة النقد راجع المصادر التالية: مؤسسة النقد العربي السعودي إصداراتها من النقود، ومقتنياتها من النقود القديمة والإسلامية، الرياض، مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤١١هـ. مؤسسة النقد العربي السعودي، الأنظمة والتعليمات، الرياض، مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤١٤هـ. محمد سعيد الحاج، مؤسسة النقد العربي السعودي إنشاؤها، مسيرتها وإنجازاتها، الرياض، مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤٢١هـ. مؤسسة النقد العربي السعودي، تطور النقود في المملكة العربية السعودية، الرياض، مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤١٩هـ. إضافة إلى موقع مؤسسة النقد العربي السعودي على الإنترنت، العملة، الإطار التاريخي للنقود السعودية. http://www.sama.gov.sa

(٢) موقع مؤسسة النقد العربي السعودي على الإنترنت، (مرجع سابق).



في أول سنة عمل لها، قامت مؤسسة النقد عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) بطباعة إيصالات ورقية من فئة عشرة ريالات ليستخدمها الحجاج أثناء وجودهم في المشاعر المقدسة وكانت تلك الإيصالات نواة العملة الورقية. ويلاحظ كتابتها بعدة لغات.

وكان قد صاحب وضع أول نظام نقدي للبلاد سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) إنشاء مديرية للمالية العامة، بغرض إدارة أمور البلاد المالية وحفظ أموال الدولة وجباياتها وتأمين طرق وارداتها ومصروفاتها، ثم تحولت إلى وزارة المالية سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) لتكون ثاني وزارة بعد وزارة الخارجية، ثم أسند إليها الإشراف على كل ما له علاقة بالنفط من خلال المديرية العامة للبترول والمعادن وذلك سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) قبل أن تنشأ وزارة البترول والثروة المعدنية سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) والعجيب في وزارة المالية أنها لم تكن النواة الأولى لوزارة البترول فقط، بل كانت نواة لمديرية الزراعة سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) ووكالة شؤون المواصلات سنة ١٣٧٤هـ (١٩٥٥م) ومديرية البرق والبريد التي سبقتها بالتأسيس سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)

ثم ألحقت بها بعد تأسيسها، ويمكن تسميتها تجاوزاً بأم الوزارات، خاصة إذا ما أضفنا إليها وزارة الاقتصاد والتخطيط، حيث كان الاقتصاد جزءاً من الوزارة قبل أن يفصل الاقتصاد عن المال سنة ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م) لتصبح وزارة التخطيط وزارة الاقتصاد والتخطيط والثانية وزارة المالية، وليسند إليها العديد من المهام كان من أبرزها: الإشراف على تنفيذ السياسة المالية والنقدية للدولة ومراقبة تنفيذها من قبل الأجهزة المختصة، وإعداد الميزانية العامة للدولة ومناقشتها مع الأجهزة الحكومية، ومراقبة تنفيذها، والإشراف على أعمال إيرادات الدولة، والتأكد من أنها تجري وفقاً للقواعد والأنظمة الخاصة بها، بالإضافة إلى متابعة تنفيذ سياسة الدولة في تقديم القروض المالية للمواطنين والشركات الوطنية في مختلف المجالات الإنمائية عن طريق البنوك والصناديق التي تتبعها، وهي البنك الزراعي، وبنك التسليف، وصندوق التنمية الصناعية، وصندوق التنمية العقارية، وصندوق الاستثمارات العامة[١].

الصناعة والتجارة:

لتنظيم الأمور المتعلقة بالتجارة في البلاد تم تشكيل هيئة تجارية لفض الخلافات بين التجار، سميت مجلس التجار وذلك سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)، وفي سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) صدر نظام الغرفة التجارية الصناعية بجدة وهي بموجب نظامها مؤسسة تعمل على تحسين التجارة والصناعة في البلاد وحمايتها من التنافس الأجنبي. ونتيجة لتوسع الأعمال والأنشطة التجارية، تم إنشاء وزارة التجارة سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) وعهد إليها تنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتنميتها. ثم في سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) تم تقسيم الوزارة إلى وكالتين إحداهما للصناعة والأخرى للتجارة والتموين. وفي سنة ١٤١٦هـ (١٩٩٦م) أسند للوزارة الإشراف على انضمام المملكة لمنظمة التجارة العالمية، واقتراح إصدار الأنظمة واللوائح التجارية والإشراف على تطبيق مختلف الأنظمة التجارية: كالنظام

(١) موقع وزارة المالية، معلومات عن الوزارة، (مرجع سابق).

التجاري، ونظام الشركات، ونظام السجل التجاري، ونظام الوكالات التجارية، ونظام الغرف التجارية، ونظام العلامات التجارية، ونظام الفنادق، ونظام الأوراق التجارية، ونظام مكافحة الغش التجاري، ونظام مكافحة التستر، وغيرها كثير من الأنظمة، بالإضافة إلى قيامها بمهام أخرى مثل: دعم الإجراءات التي تساعد على تنمية الصادرات غير النفطية، والعمل على إيجاد أسواق للمنتجات الوطنية في الخارج، وتقديم الخدمات لرجال الأعمال والجهات الحكومية المتخصصة وتزويدهم بالبيانات والإحصائيات والمعلومات، وبالتقارير الصادرة من جهات خارجية، فيما يهم المملكة من شؤون اقتصادية وتجارية ومالية وصناعية ودراسة وتحليل المعلومات ومدى تأثيرها في الاقتصاد السعودي، وتقدير احتياجات المملكة من السلع والمواد، وأعداد الخطط اللازمة لتوفيرها، مع مراقبة الجودة النوعية للسلع والمواد، وإجراء الفحص والاختبارات المعملية للمواد الغذائية والحديد والعطورات والأدوية، وفحص الإشعاع وغير ذلك من السلع والمواد المستوردة، والتأكد من جودة صلاحيتها للاستهلاك ومطابقتها للمواصفات الصناعية السعودية والعالمية، ودراسة طلبات تأسيس الشركات، ودراسة طلبات تسجيل العلامات وفحصها موضوعياً وشكلياً وتصنيفها وتسجيلها وحمايتها[١].

وهناك الكثير من المهام المناطة بهذه الوزارة، وإن كانت ومن خلال استقراء سريع للشارع السعودي تجدها من أكثر الوزارات تعرضاً للانتقاد بسبب ضعف الرقابة خاصة فيما يتعلق بمسألة احتكار السلع وارتفاع الأسعار، ومكافحة الغش التجاري خاصة ما يتعلق بالتقليد، فهذه يمكن أن تحدِّث عنها دون حرج.

طفرة الأسهم وهيئة سوق المال:

كانت أولى بدايات تداول الأسهم في المملكة بشكلٍ رسمي ومنظم مع بدايات العقد الأخير من القرن الهجري المنصرم ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) حيث لم يكن عدد

(١) موقع وزارة التجارة والصناعة. http://www.commerce.gov.sa/

الشركات المدرجة يتجاوز أربع عشرة شركة مساهمة، وكانت عمليات البيع والشراء تتم من خلال الاتصال المباشر بين الطرفين أو عن طريق مكاتب الوساطة التي كانت قليلة جداً، إلا أنها زادت بشكل كبير بعد سنوات الطفرة التي شهدتها البلاد نتيجة لزيادة أسعار النفط، حيث زاد عدد مكاتب الوساطة مع بداية القرن الهجري الحالي على خمسين مكتباً في مدينة الرياض.

وكان قد سبق ذلك ظهور أول شركة سعودية مساهمة تسمى شركة السيارات العربية حيث طرحت أسهمها للاكتتاب سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) قبل أن تتم تصفيتها، كما أن شركة الإسمنت العربية التي طرحت أسهمها للاكتتاب سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) تعد أقدم الشركات الموجود حالياً[(١)].

ومع تزايد الإقبال على تداول الأسهم تم إنشاء لجنة مكونة من وزارة المالية ووزارة التجارة ومؤسسة النقد وذلك سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) بغرض الإشراف على سوق الأسهم قبل أن تسند إلى مؤسسة النقد سنة ١٤٠٥هـ(١٩٨٥م)، ثم دخلت التقنية إلى هذا السوق من خلال تطبيق نظام الكتروني لعمليات التداول والتسويات والمقاصة وذلك سنة ١٤١٠هـ (١٩٩٠م)، بعد أن كانت عمليات البيع تتم من خلال الشهادات البنكية التي تعطى للشخص وتوضح عدد الأسهم التي بحوزته، وحين يريد البيع يذهب مع المشتري إلى البنك وتتم عملية البيع بعد عرض الشهادة وإحضار الأوراق الثبوتية اللازمة ثم يتم دفع المبلغ نقداً، وبالتأكيد فإن معظم السعوديين قد دخلوا موجه الأسهم سنوات الطفرة، ولاحظوا الفرق بين ما ذكرته من إجراءات معقدة، وبين عمليات البيع والشراء التي كان بإمكانهم إجراؤها بلمسة زر الفأرة عن طريق الإنترنت أو الاتصال الهاتفي وهذه قفزة نوعية أسهمت في انجذاب الناس لهذا السوق مما ترتب عليه طفرة فكرية اجتماعية جديدة.

وبالطبع فإدخال الأنظمة وتحديثها كان يجري ويتسبب في جذب المزيد من الناس ومن ذلك نظام تداول الإلكتروني الذي أطلق سنة ١٤٢٢هـ (٢٠٠٢م)، تلاه

(١) موقع شركة السوق المالية السعودية (تداول) http://www.tadawul.com.sa

مباشرة صدور نظام للسوق المالية السعودية سنة ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م) بهدف إعادة هيكلة السوق ومنح مزيدٍ من الشفافية على ما يدور داخله، ومن أبرز ما اشتمل عليه النظام الجديد إنشاء هيئة سوق المال في نفس العام مرتبطة بمجلس الوزراء مباشرة وكان الهدف منها تنظيم السوق المالية من خلال إصدار اللوائح والقواعد والتعليمات[١].

أعود مرة أخرى إلى طفرة الأسهم؛ فهي مهمة جداً وأحدثت تغييرات كبيرة في المجتمع السعودي خلال سنوات معدودة جداً حتى صارت حديث الشارع خاصة في الفترة ما بين عامي ١٤٢٤هـ و١٤٢٦هـ (٢٠٠٤م) (٢٠٠٦م) حيث صادف ذلك البدء في تداول ٩٠ مليون سهم من أسهم شركة الاتصالات السعودية التي طرحت في ذي القعدة ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م) بقيمة ٤,٥ مليار[٢] وهذه غيرت السوق بشكلٍ كبير، ولعلي أبين حال المؤشر وكيف كان قبل طرح أسهم شركة الاتصالات ثم حال المؤشر بعدها. حيث كان المؤشر في رمضان ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م) بحدود (٢٠٠٠) نقطة[٣] وفي شهر شوال ١٤٢٢هـ (٢٠٠٢م) بلغ (٢٤٠٠) نقطة[٤] وفي ذي القعدة من عام ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥م) تجاوز المؤشر (٨٢٠٠) نقطة[٥] أي بعد سنتين من تداول سهم الاتصالات السعودية وبعد فترة وجيزة من طرح أسهم شركة اتحاد الاتصالات. ثم واصل المؤشر قفزاته المجنونة حتى وصل إلى أعلى مستوى له في تاريخ الأسهم السعودية وذلك في نهاية شهر محرم ١٤٢٧هـ (فبراير٢٠٠٦م) حيث وصل المؤشر (٢٠٦٣٤,٨٦) نقطة[٦]، وهي أعلى درجة في تاريخ الأسهم السعودية ولم يعد إليها مطلقاً، أي أنه تضاعف ١٥٠٪ في أقل من أربعة عشر شهراً. ثم بدأ بالتقهقر المجنون كما كان حال ارتفاعه، حيث فقد ما يزيد عن ٤٠٪ من قيمته

(١) موقع هيئة السوق المالية، المهام والمسؤوليات. http://www.cma.org.sa/Ar/Pages/home.aspx
(٢) صحيفة الشرق الأوسط العدد ٨٧٩٦ بتاريخ ١٤٢٣/١٠/٢٣هـ
(٣) صحيفة الجزيرة العدد ٩٩٦٥ بتاريخ ١٤٢٠/١٠/٤هـ
(٤) صحيفة الجزيرة العدد ١٠٦٨٧ بتاريخ ١٤٢٢/١٠/١٧هـ
(٥) صحيفة الجزيرة العدد ١١٧٨٣ بتاريخ ١٤٢٥/١١/٢٠هـ
(٦) صحيفة الشرق الأوسط العدد ٩٩٥٢ بتاريخ ١٤٢٧/١/٢٧هـ

ليصل إلى (١٤٤٠) نقطة[١] خلال شهر واحد فقط وهو شهر صفر ١٤٢٧هـ (مارس٢٠٠٦م) والذي أظنه الأكثر حزناً بالنسبة لشريحة كبيرة من المواطنين السعوديين، ثم توالت الخسائر حتى نهاية السنة حيث هبط المؤشر إلى ما دون (٨٠٠٠) نقطة[٢] بمعنى أنه عاد إلى أقل من النقطة التي كان عليها في نهاية عام ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥م) ولكم أن تتخيلوا خلال تلك الفترة كم من الأحداث المحزنة والآهات والعبرات التي سببتها تلك الخسائر لكثير من أبناء المجتمع السعودي.

حيث تشير بعض الأخبار والتقارير والدراسات التي تناولت تلك الفترة إلى حدوث زيادة ملحوظة في حالات الإصابة بالاكتئاب والأمراض النفسية بسبب خسائر سوق الأسهم، حيث راجع العيادات النفسية أكثر من ٣٧ ألف سعودي خلال التسعة أشهر التي تلت تقهقر أسعار الأسهم، وذلك لم يكن حكراً على منطقة دون أخرى، بل في مختلف مناطق المملكة بما يفوق طاقة العيادات النفسية المتخصصة، ولم تقتصر أعداد المراجعين على الرجال فقط، بل كانت هناك نسبة كبيرة من النساء، وتذكر إحدى المتخصصات في الطب النفسي: بأن من أصعب الحالات التي راجعتها كانت لسيدات فقدن كل ثرواتهن في السوق، وتعرضن إلى تهديد من أزواجهن بالطلاق بسبب دخولهن سوق الأسهم بدون موافقتهم، وأشارت إلى أن كثيراً من الحالات فقدت أموالها أو منازلها أو مجوهراتها بسبب سوق الأسهم وتعاني من متاعب نفسية هستيرية.[٣]

وفي ورقة عمل قدمها في ملتقى الأسهم السعودية يذكر الدكتور عبد الله محمد الفوزان أستاذ علم الاجتماع المشارك بجامعة الملك سعود: « أن دراسة سعودية حديثة توصلت إلى أن ٨٧٪ من المتعاملين في سوق الأسهم السعودية، يواجهون مشكلات اقتصادية بعد تدهور أسعار الأسهم التي نتج عنها خسائر بلغت نحو

(١) صحيفة الجزيرة العدد ١٢٢٣٨ بتاريخ ١٤٢٧/٣/٣هـ
(٢) صحيفة الجزيرة العدد ١٢٥١٥ بتاريخ ١٤٢٧/١٢/٢٠هـ (٢٠٠٧م).
(٣) صحيفة الشرق الأوسط العدد ١٠٢٥٨ بتاريخ ٨ ذي الحجة ١٤٢٧هـ (٢٠٠٧م).

٩,١ تريليون ريال. ويضيف الفوزان بأنه مع الانهيار المفاجئ لسوق الأسهم برزت المشكلات الاجتماعية والنفسية، والتي تتضمن اتساع دائرة الفقر في المجتمع، وتفشي الجريمة بكافة أنواعها وزيادة القابلية للانحراف، وتزايد معدلات التفكك الأسري نتيجة سجن العائل بسبب تراكم الديون وعجز الأسرة عن تلبية متطلباتها الأساسية، وتزايد معدلات الطلاق والعنف داخل الأسرة بسبب المشاجرات والخلافات الزوجية الناجمة أصلا عن غضب الزوج وشعوره بالإحباط وفقدان القدرة على التحكم بالأعصاب نتيجة الخسارة في سوق الأسهم ومن ثم عجزه عن تلبية مطالب أسرته أو فشل أحلامه وطموحاته المستقبلية. وانتشار الأمراض النفسية والصحية على نطاق واسع وأهمها نوبات البكاء والاكتئاب والقلق والضيق والضجر والتوتر والإحساس بالندم والشعور بالغبن والرغبة في الانتقام والعدوانية والعنف والخوف من المستقبل المجهول واضطرابات النوم وفقدان الشهية وارتفاع ضغط الدم والإصابة بالجلطات والسكتة القلبية والدماغية والإصابة بداء السكري وتذبذب مستوياته، بالإضافة إلى أن انهيار الأسهم تسبب في ركود اقتصادي ناتج عن ضعف القدرة الشرائية لدى المواطن مما يدفع إلى إغلاق المحلات التجارية أو تقبيلها، واكتظاظ السجون؛ بسبب الديون المتراكمة على المقترضين وعجزهم عن السداد، وفقدان الثقة بالاقتصاد الوطني والعزوف عن الاستثمار فيه أو هروب رؤوس الأموال إلى الخارج بحثا عن بيئة استثمارية أكثر أمانا، مع اتساع دائرة البطالة بسبب فشل بعض المشروعات الصغيرة وتسريح عمالها، وارتفاع معدلات العنوسة في المجتمع نتيجة عدم القدرة على تحمل تكاليف الزواج»[١].

ويشير تحقيق بعنوان: (البورصة والعولمة تصيبان السعوديين بالاكتئاب) صدر بعد أزمة الأسهم بوقت قصير، إلى أن من أبرز المشكلات النفسية التي يعاني منها المجتمع السعودي القلقَ والاكتئاب، وذلك ناتج عن عدة عوامل أهمها اللهاث وراء الثراء السريع، وما حدث حين انخفضت أسعار أسواق الأسهم السعودية من بروز

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد ١٠٢٥٨ بتاريخ٨/١٢/١٤٢٧هـ

أكوام من المحبطين، الذين يعاني بعضهم من حالات نفسية صعبة للغاية. يقول عنهاً الإخصائي النفسي عبد الرحمن الحازمي، مدرب التنمية الذاتية والبرمجة اللغوية العصبية بجدة: لا أستطيع أن ألقي باللوم على الأسهم والبورصة، فهي ليست المشكلة، وإنما المشكلة تكمن في البحث عن الثراء السريع، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها مشكلة المساهمة في البطاقات الهاتفية المسبقة الدفع، والمشاريع العقارية الوهمية التي تسبح بالمستثمرين في خيالات الثراء السريع، ويكتشفون بعدها أنها أوهام وأحلام زائفة[١].

وفي تحقيق نشرته صحيفة الرياض تذكر إحدى السعوديات: بأنها من ضحايا أزمة الأسهم وما زالت تعاني من تبعاتها على الرغم من مرور عدة أعوام على تلك الأزمة، وتضيف بأني لا أنسى أن حلم الثراء السريع كلفنا الكثير، فبعد أن سمعنا عن دخول الناس لهذه السوق واستثماراتهم فيها وأمام رغبتنا في تحقيق هذا الثراء وتأمين مستقبلٍ جيد لأولادنا، كان لابد من المغامرة، فحسبنا حساب الربح ولم نتخيل الخسارة.. لقد قمت أنا وزوجي باقتراض قروض بنكية وبيع ما نملكه من عقار ومجوهرات، فكان إجمالي المبلغ مليوني ريال، لكن كانت صدمتنا قوية في فبراير الأسود، ومن هنا نشأت الخلافات المادية بيننا وأصبحنا نعيش ضغوطاً نفسية وصحية أثرت على أولادنا، بل حتى على عطائنا في العمل وما يؤلم أكثر هو مغامرة زوجي فيما تبقى لدينا من مال في العودة مجدداً لسوق الأسهم فقد تكررت الخسائر وتكررت المشكلات؛ والسبب أننا نملك جزءاً بسيطاً من مرتبنا وذلك بسبب الأقساط البنكية، فما يبقى لا يكاد يلبي احتياجات أبنائي الأساسية فقد حرموا من الذهاب للملاهي كما عودناهم سابقاً، وقد حرمت أنا من زيارة عائلتي في جنوب المملكة بعد أن كانت عادتي هي السفر لهم في جميع الإجازات، أما الآن فما يجمعني بهم هو الاتصال الهاتفي من قبلهم، فأنا لم أعد كما كنت في السابق من حيث شراء متطلباتي، حتى الخادمة قمت بترحيلها. وتضيف: قد يستغرب

(١) تقرير بعنوان البورصة والعولمة تصيبان السعوديين بالاكتئاب نشر على موقع الإسلام أون لاين.

كثيرون أن الحال وصل بي كمعلمة إلى أن أخفف من كمية حليب طفلي الرضيع! بسبب امكاناتنا المالية القليلة التي لا يمكنها تحمل أي طارئ، والمؤسف بأن هذا الوضع سيستمر سنوات طويلة، ولهذا فأنا أقف مكتوفة الأيدي، لا أعلم ماذا أفعل أمام هذه المشكلات المتجددة يومياً[1].

ما أوردته نموذج أو عينة لآلاف الحالات المشابهة التي انكوت بنيران تلك الأزمة، وهناك العديد من الدراسات والتحقيقات والتقارير التي ناقشت تلك الأزمة التي أسهمت بشكلٍ مثير في تغير طبيعة الحياة في المجتمع السعودي، حتى صارت موضوع النقاش الأبرز بالنسبة لمعظم مجالسهم على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم وأجناسهم.

وقفة لمراجعة أثر تلك التحديثات المادية:

بعد كل تلك التحديثات المادية، خاصة التحديثات المتأخرة المتعلقة بالتقنية والاتصالات، تغيرت ثقافة المجتمع بشكل كبير، وازداد الوعي، واختلفت الاهتمامات من جيل لآخر، ولم يكن التغير الثقافي وتحولاته وليدة اليوم، ولا للآلة الإعلامية وحدها - وإن كان لها الفضل في تسريع وتيرته - إلا أن بدايات الممانعة الثقافية تعود إلى عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) حين قررت إدارة التعليم بمكة المكرمة تدريس الرسم الذي يفضي إلى تعليم الطلاب رسم ذوات الأرواح، واللغة الإنجليزية لغة غير المسلمين، ومادة الجغرافيا التي تتحدث عن كروية الأرض وهو المفهوم الذي يرفضه بعض طلبة العلم ذلك الوقت، إلا أن الدولة مضت في أمرها وحاولت إقناع من عارض فاقتنع بعضهم ورفض آخرون، ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً[2]، حيث تم اعتماد أحد أول التغيرات الثقافية المباشرة.

---

(١) صحيفة الرياض العدد ١٤٨١٣ بتاريخ ١٤٣٠/١/١٦هـ

(٢) د. عبد الله بن محمد الغذامي، من الخيمة إلى الوطن، سؤال الثقافة في المملكة العربية، منشورات علي العمير، جدة ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

ومنذ سنة توحيد المملكة وحتى يومنا هذا وكثير من الناس في صراعات فكرية وفلسفية ومذهبية متنوعة ناتجة عن السماح باستيراد ما لدى الآخرين من ثقافات، بعد أن كان الأسلاف منهمكين في تأمين لقمة العيش، وحراسة الأسرة من الذئاب البشرية، قبل الحيوانية، التي كانت في حقبة مضت تقتل الرجل ثم تنوح على الرصاصة التي قتلته؛ لأن ما معه من متاع لم يكن يغطي ثمن تلك الرصاصة، وبالطبع كان هناك علماء وطلبة علم شرعيون كانت آراؤهم قريبة وإن اختلفت، وغالباً ما تكون تلك الاختلافات غير مؤثرة؛ لكون المخالف يقطن في منطقة بعيدة، ولا يشكل رأيه خطراً على المجتمع الآخر.



المبحث الرابع

التغير في المجتمع السعودي

(مظاهر التغير الثقافية)

التغير في المجتمع السعودي

المظاهر الثقافية :

حين أتحدث عن الثقافة بشكل عام، فهي ذلك الشيء المشتمل على كل شيء، أو كما يعرفها السير إدوارد تايلور: ذلك الكل الديناميكي المعقد الذي يشتمل على المعارف والفنون والمعتقدات والقوانين والأخلاق والتقاليد والفلسفة والأديان والعادات التي اكتسبها الإنسان من مجتمعه بوصفه عضواً فيه[1]. وإن كان تايلور يدخل معها الدين ويتفق معه في ذلك كثيرٌ من المختصين في علم الاجتماع إلا أني أختلف معه فيما يتعلق بالدين الإسلامي، فهو استثناء؛ لأنه يهيمن على كل شيء في الحياة بما فيها الثقافة، لدرجة تصبح الأشياء مقبولة أو مرفوضة بحسب موقف الدين الإسلامي منها، وهذا ما لا يتوافر لكل الأديان التي كما يرى تايلور ليست سوى شكل من أشكال الثقافة لا يمكن لها أن تحتوي بقية الأشكال، أما بالنسبة للدين الإسلامي فهو لا يحتوي تلك الأشكال فقط بل ويحكمها أيضاً، فيقر ما يتفق معه، و يبطل ما يخالفه، والأدلة على ذلك كثيرة، وأبدؤها بقول المولى – عز وجل – ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾[2] وهذا يعني أن كل شيء نهى عنه الدين ومبلغه –عليه السلام– فيجب تركه واجتنابه، ومع الوقت يتلاشى وينته وحتى لو لم ينتهي سيبقى ولكن يبقى موقف الدين منه واضحاً صريحاً.

وبالطبع فأنا حين أتحدث عن الثقافة في هذا البحث أو الكتاب، فإنه لا يمكنني أن ألم بكافة جوانبها في عدة بحوث، فما بالك في باب من كتاب؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ما يهمني هو ذلك المتعلق بالمجتمع السعودي، لبيان مظهر التغير

(1) Edward Burnett Tylor Primitive culture: researches into the development of mytho - ogy, philosophy, religion, art, and custom, Gordon Press, Beddington, 1974

(٢) من الآية (٧) سورة الحشر.

فيه، ومن هنا فأظن بأن اختياري لأشكال ونماذج ثقافية أبين من خلالها كيف تطور المجتمع في التعاطي معها سيكون كافياً بإذن الله، ولهذا سأركز في حديثي حول الثقافة على مجموعة من الأشكال الثقافة، وأقصد هنا بالطبع الأشكال التي سأتناولها في هذا المبحث، وإلا فأشكال الثقافة لا حصر لها، ومن هنا فأنا أبين ما يهمني في هذا المبحث:

تسلسل	المظهر الثقافي	وظيفته
١.	اللغة	الأداة التي تحمل الثقافة وتعبر عنها سواء بالحرف أو اللسان.
٢.	الفكر والأدب	ويمثلان شكلاً من أشكال الصياغة والإنتاج والفهم للمكنون الثقافي.
٣.	الميادين الفكرية والثقافية	وسيلة لنشر وتعميم المنتج الثقافي، كالإعلام، والملتقيات الأدبية، والفعاليات والأنشطة والمهرجانات الفكرية والثقافية.
٤.	الأطياف الفكرية	وتمثل تصنيفات من يتعاطون مع المستجدات والقضايا الثقافية والدينية من حيث القبول والرفض. (أرجأت الحديث حولها إلى المبحث الخامس)

المظاهر الثقافية

(اللغة)

اللغة هي الهوية، وهي أداة التعبير الأولى عن الفكر، ومن يفقد لغته فلا هوية له، ولا يعرف التاريخ أقواماً سادوا حين استبدلوا لغة غيرهم بلغتهم. وما من شيء بعد الدين أقوى من اللغة في زيادة الترابط والتلاحم، وكم من أعداء هذه اللغة ممن حاولوا إقصاها وتنحيتها إلا أنها ظلت وما تزال سامقة رغم محاولات التهميش التي تطالها بصفة مستمرة وبشكلٍ مطرد.

وفي مجتمع كالمجتمع السعودي يعد قلب اللغة العربية حيث يعيش فوق الأرض التي تنزل عليها الوحي بالقرآن العربي المبين، وسكنها النبي العربي الأمي - عليه السلام - ، وعاش الناس قبله يفاخرون بلغتهم، ولا يرون لغة تضاهيها في الجمال والقدرة على توصيل أفكارهم وحمل معاني أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم، كل ذلك رغم ضعفهم وهوانهم على الناس في ظل هيمنة الفرس والروم تلك الأزمان؛ ورغم هذا بقيت الرؤوس مرفوعة وفخورة بتلك اللغة ولم يذكر التاريخ أن أحداً منهم حاول أو فكر أن يخاطب قومه بغير لغته العربية الفصيحة.

أما في وقتنا الحالي فقد تغير ذلك الاعتزاز شيئاً فشيء حتى وصل ببعضنا إلى تهميش اللغة في كثير من جوانب حياة المجتمع السعودي لدرجة تصل ببعضنا إلى القول إنك حين تعيش في بلدٍ مثل المملكة العربية السعودية، وبالأخص مدنها الكبيرة فأنت تحتاج لغة أخرى غير العربية لتخاطب كثيراً من العاملين في القطاعات الخاصة وبعض القطاعات الحكومية؛ وذلك نظراً لانتشار العمالة الوافدة بشكل كبير، وسآتي لاحقاً إلى الاسباب التي أدت إلى تهميش اللغة العربية ولكن قبل ذلك لعلي أستعرض بعضاً من أوجه الحياة التي يتم فيها التعدي على اللغة العربية ومن ذلك:

أولاً: مرافق عامة وتجارية (فنادق ومطاعم ومستشفيات):

والحقيقة هنا أن أياً من أبناء المجتمع السعودي لم يكونوا يتعاملون بأية لغة غير العربية حتى أتى زمن الطفرة المالية التي بدأت آثارها تبرز على السطح مع بداية القرن الهجري الخامس عشر (ثمانينات القرن الميلادي المنصرم)، حيث وفدت العمالة من أقطار الأرض فاضطر معها أفراد المجتمع إلى التخاطب معهم بلغة مكسّرة شبيهة بتلك التي ينطقون بها، ولا أعلم شعباً على وجه الأرض تساهل في هذا الأمر كما هو حال الشعب العربي وخاصة السعودي فأنا شخصياً سافرت إلى بعض البلدان ورأيت بعض المتعصبين للغتهم ممن يتعمد عدم الفهم في حال نطقت جملة واحدة بطريقة خاطئة، أما بقية الأشخاص فمن الممكن أن يشعرك بفهمه مرادك رغم ركاكة اللغة المستخدمة تقديراً منه بأنك لست من أهل اللغة وفي طور التعلم، ولكنه يجيبك بلسان سليم ليس به تكسير حتى لو تبسّط باللغة وذلك من باب اعتزازه بلغته أولاً ثم رغبة بعضهم في مساعدة غير الناطقين بلغتهم على التعلم من خلال ممارسة اللغة بشكلٍ صحيح.

وفي المقابل فإن أبناء مجتمعنا لا يكتفون بعدم مساعدة غير العرب على تعلم لغتهم، بل يزيدون عليه بأن يجيبوهم بطريقة مكسّرة شبيهة أو أشد ركاكة من الطريقة التي يتحدث بها الوافد غير العربي، وقد سألت كثيرين عن سبب تمسكهم بهذه الطريقة الركيكة المكسرة عندما يخاطبون تلك النوعية من الوافدين، فيجيبون بأنهم لا يفهمون إلا بهذه الطريقة؛ فهي أسهل، وحين أسألهم بالله عليكم هل الجملة النشاز المكسرة (أنت فيه روح) أسهل وأجمل من فعل الأمر (اذهب)! أو (أنت فيه جدار أنا يبني) أم (أبني جدارك) وعلى تلك الجمل الركيكة المكسرة يمكن أن تقيس.

أما الشكل الأقبح فهو حين تتصل بأحد الفنادق لتحجز غرفة، فيرد عليك موظف الاستقبال بلغة إنجليزية صرفة، وحينها يضطر كثيرون منا لطلب مترجم، سواء من المحيطين بهم أو من الفندق، وإلا إقفال خط الهاتف ومعاودة الاتصال لاحقاً لعل وعسى، والإشكال أن كثيراً من الفنادق لدينا صارت لا ترد إلا بلغة

إنجليزية فقط، كعلامة للرقي والتقدم، وما علم أولئك أن هذا دليل تخلف وجهل، بل إن ما يحزنك أكثر أو لأقل يحزنني شخصياً حين أتذكر اتصالي باستعلامات أحد فنادق المدينة المنورة ليرد علي التحية بالإنجليزي بلكنة عربية فقلت له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد علي بلسان عربي فصيح فقلت له: لمَ لا تحيي نزلاء الفندق بتحية الإسلام؟ ولم لا تكلمهم بلغة القرآن؟ خاصة وأنك تتحدث في بقعة تحدث بها جبريل إلى محمد عليهما السلام بمنطقٍ عربي مبين، وهي على أسوأ الاحتمالات المكان الذي يجب أن لا يضطر مريدوه من المتحدثين باللغة العربية إلى أن يستعينوا بمترجم لينقل رغباتهم في عقر دارهم. فأقر بأني محق ولكنها رغبة الشركة التي تدير الفندق، فأقسمت بالله لو أن الشركة ظنت ولو ١٠٪ أنها سوف تكون عرضة للمحاسبة على تلك الفعلة العنصرية لما تجرأت على اقترافها، ولكنّا نعيش في زمن صار بعضنا فيه لا يبالي إلا بما تهوى أنفسهم، بغض النظر عن قيمة تلك الرغبات وما يقابلها من تهميش لأمور كثيرة مهمة، لا يكترثون لفداحة الغفلة عنها، حتى لو كانت الخسارة بحجم فقدان الهوية، الذي لا تبرز تبعاته إلا بعد عقدين من الزمن أو تزيد، وهو بالمناسبة أول ما تحاول البلدان المحتلة فعله مع الشعوب المغلوبة، ويشهد التاريخ أن نابليون أحضر مطابعه معه حين احتل مصر، وما هو أنكى منه فعل بالجزائر حين حرم تدريس اللغة العربية أو التعامل بها زمن الاحتلال، وكان من شروط الإنجليز على كمال أتتاتورك بعد سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) وقيام الجمهورية التركية على أنقاضها أن يتخلى عن الحرف العربي والألقاب العربية وحتى المفردات العربية في اللغة التركية.

وما يحز في النفس أيضاً قيام شركة بحجم الاتصالات السعودية بتغيير اسم شهرتها من الاتصال السعودية إلى (STC) وإن بقي مسمى الشركة كما هو لم يمس، إلا أنه لم يعد دارجاً كما كان في السابق، فهل هذا تغير نحو الأفضل؟ حتى وإن ظن البعض ذلك فأنا لا أؤمن بذلك على الإطلاق، وليعذرني القارئ الكريم، ففي البحث العلمي يجدر بالباحث أن يكون محايداً متخلياً عن أهوائه ورغباته،

بحيث يطرح الموضوع بإيجابياته وسلبياته مقروناً بالأدلة والبراهين ثم يترك للقارئ الحكم، أما أنا فلن أكون محايداً في مثل هذا الموقف؛ فالحياد هنا خنوع، ومن يتخلى عن لغته وهي أهم وأعز ما يملك بعد الدين الإسلامي ويستبدل أخرى بها، فاقل ما يقال عنه بأنه غير مصيب ويجب أن يوجه ويعلم فمن يفرِّط بهويته لأي سبب سوف يفرِّط بما سواها لأتفه سبب.

ولعلي هنا أستشهد بآيسلندا البلد الذي قد لا يعرفه كثير منا، وبالتأكيد أن ندرةً من الناس يعلمون أن عدد سكانه يبلغ خمسمئة ألف نسمة فقط (كتبتها حرفاً؛ كي لا يلتبس على بعض الأحباب القراء أن العدد ربما يكون خمسة ملايين) هؤلاء الناس حين قامت شركة مايكروسوفت بتوزيع إصدارها الجديد من برنامج التشغيل وندوز، رأى المسوقون في الشركة أن سوقاً صغيراً بهذا الحجم لا يستحق أن يقوموا بترجمة النظام إلى لغته، وبناء على تلك النظرة التسويقية قرروا توزيع الإصدار باللغة الإنجليزية، خاصة وأن معظم الشعب الآيسلاندي يتحدث اللغة الإنجليزية كلغة ثانية، ولكن الأمناء والشرفاء في ذاك البلد الصغير خافوا على لغتهم التي حافظت على قواعدها اللغوية وطريقة نطق أحرفها أكثر من ألف سنة (عمر قصير جداً، إذا ما قورن بلغة عتيقة كاللغة العربية) وكان من المعارضين لتوجه مايكروسوفت أستاذ اللغة الآيسلاندية كرستيان أرناسون Kristijan Arnason الذي وصف ذلك بقوله: «إنه خطر كبير؛ لأن طلبة المدارس يحتاجون الحاسب ولغته ستصبح اللغة الأكثر شيوعاً، وهذا سيهدد لغتنا بشكل مباشر». كل تلك الاعتراضات استدعت الحكومة الآيسلاندية للتدخل ضد مايكروسوف التي لم تستجب في بداية الأمر، ولكن حين هددتها الحكومة بمنع المنتج واستخدام نظام التشغيل الخاص بشركة «أبل» المنافسة التي قامت بإصدار نسخة من منتجها باللغة الآيسلاندية، رضخت مايكروسوفت وأصدرت نسخة من نظام تشغيلها وندوز باللغة الآيسلاندية[١].

(١) جاك غولد سميث وتيم وو، من يحكم الإنترنت؟ أوهام بلا حدود، ترجمة: فاطمة غنيم، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م).

ولن أعلق على ذلك، ولكن من باب التذكير فإن متحدثي اللغة العربية يبلغون (٣٠٠ مليون) إنسان وهي لغة القرآن الكريم، ولغة خاتم الأنبياء والمرسلين، وهي اللغة الأكثر مرونة والأغنى مفردات والأجمل صياغة، والأدق تعبيراً ولكن بها عيباً وحيداً، إلا أنه كبير يحد من انتشارها وشيوعها بالشكل الذي تستحق، ذلكم الخلل بعض أهلها الذين يتمادون في خذلانها، والشواهد كثيرة جداً، ولو كان جميع أهلها صادقين في حبها لرأيتها اليوم تتبوأ المكانة التي تليق بها.

وكما أسلفت فالشواهد كثيرة والخلل لا يتوقف والتجاوز على الهوية في بلد العربية ومهبط الوحي يجري التمادي به وليس حكراً على جهة دون غيرها، وأذكر بأني اتصلت بإحدى شركات توصيل البريد السريع؛ بغرض استلام رسالة بريدية وصلت إلي فرد علي جهاز الرد الآلي بعبارة: «اضغط واحد للعربية، وإثنين للإنجليزية». فاستبشرت وبمجرد طلبي التحدث باللغة العربية رد علي موظف الاستقبال السعودي وحياني باللغة الإنجليزية، فقلت له: أظن أني أخطأت وبدلاً من أن أطلب الرقم (١) طلبت الرقم (٢) فقال: لا لا.. لقد طلبت الرقم الصحيح، وأنا في خدمة عملائنا متحدثي العربية، فقلت له: ولمَ لا ترد علي بالعربية، فبدأ يعتذر وأننا تعودنا وأن كثيراً من عملائنا لا يبالون بذلك. فقلت هذه المصيبة فنحن أمام ثقافة مجتمع بأكمله تغيرت خلال أقل من ثلاثة عقود حتى باتت لا تميّز بين الخطأ والصواب، وهنا يأتي دور المصلحين ورجال الفكر والدين الذين انصرفوا عن معالجة مثل هذا الخلل إلى ما هو أقل منه شاناً.

أما المستشفيات، فحدث ولا حرج، وأبو حنيفة لن يكتفي بمد رجله في هذا المقام، فالنسبة العظمى من طاقم التمريض من الأجانب غير الناطقين بالعربية، ومن يجيدها منهم في الغالب فهو يكسّرها كالبقية من سباك وكهربائي ونجار وغيرهم، بل إن ما يحزن هنا أن الأطباء العرب حين يتحدثون مع بعضهم فإنهم يستعرضون مهاراتهم اللغوية ومدى إتقانهم للغة الإنجليزية، بل إنهم دون أن يدركوا ذلك يزيدون أوجاع بعض مرضاهم حين يقف عند رؤسهم مجموعة من

الأطباء العرب فيرطنون دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة يفهمها المريض ثم يخرجون، فيزيدون همه هماً آخر، ولا يتوقف مسلسل هجران اللغة عند حد بل إن وصفة الدواء لم أرها تكتب مرة واحدة بالحرف العربي مع أن الطبيب عربي والصيدلي عربي والمريض عربي واسم الدواء مكتوب على العبوة بالعربي، ثم يُنحّى كل ذلك لتسود الإنجليزية وتحل مكان العربية في بلاد العرب.

ثانياً: هيئات تعليمية (كليات الطب والحاسب والعلوم):

لا أعلم بلداً عربياً باستثناء سوريا يدرس العلوم باللغة العربية، وإلا فبقية البلدان العربية رأت اللغة العربية غير قادرة على احتواء معاني تلك العلوم، فلجأوا إلى اللغة الإنجليزية كبديل، وصاروا يتوسعون في ذلك، وبعد أن كانت قبل سنوات كليات الطب هي الوحيدة التي تدرس بغير العربية، قلدتها بقية الكليات العلمية الأخرى، وصار الطالب في المملكة يحتاج إلى سنوات أطول من نظيره في بقية البلدان ليتخرج في كلية الطب مثلاً، حيث يتوجب عليه أن ينهي السنة التحضيرية التي يفخر القائمون عليها في إحدى الجامعات بأن طاقم التدريس بها كلهم من غير الناطقين بالعربي، وما علم أولئك أنهم يخطئون في حساباتهم تلك، حتى لو اتفق أغلبيتهم وجلهم من الأكاديميين المؤهلين ونافحوا عن وجهة نظرهم تلك، إلا أنها ستبقى خاطئة، والحال الذي نعيشه يؤيد ذلك، والطالب لدينا يبدأ دراسة المادة من مستوى تحت الصفر؛ بسبب حاجز اللغة حتى يتمكن من فك طلاسمها بعد معاناة ليصل إلى مستوى الصفر فيبدأ دراسة المادة من الناحية العلمية ولكن لا أحد يسأل كم من الوقت قضي وأهدر للترجمة والاستيعاب، ثم وهذا هو السؤال الأهم هل كفاءة الطالب حين يقرأ ويفكر ويتأمل ويستنتج تكون أفضل بلغته أم بلغة أجنبية؟ وهل جميع الطلاب لديهم ملكة وهواية تعلم اللغات الأخرى؟ وكم من الطلاب الذين خسرناهم بسبب تجني حاجز اللغة الإنجليزية عليهم، وإلا لأجادوا في مجالهم ولربما تفوقوا على أقرانهم، وكثيراً ما ناقشت بعض المتحمسين لقضية تدريس العلوم بغير اللغة العربية ودائماً ما تتمحور حجتهم حول أمرين لا ثالث لهما:

الأول: أن اللغة العربية لا يمكنها أن تستوعب تلك العلوم! وهذا تجن واضح لا يليق بأبسط الناس تعليماً تبنيه فما بالك بأشخاص يحملون مؤهلات علمية متقدمة، والحقيقة التي يجب التأكيد عليها في هذا المقام أن لغتنا العربية أغنى اللغات بمفرداتها وجذورها، ولا أبني كلامي هنا على العاطفة، بل أستشهد بما يذكر الدكتور عبد الرحمن وجيه في كتاب القاموس الوجيز في الجذور العلمية، من تمتع اللغة العربية بثروة مفردات وجذور هائلة تفوق ثروة مجموعات لغوية بأكملها، حيث يقارن بين أعداد الجذور في اللغة العربية والجذور في لغات أخرى فيشير إلى أن عدد جذور معجم لسان العرب يبلغ ٩٢٧٣ جذرًا، متفوقة على جميع اللغات الهندية - الأوربية مجتمعة[١]. وتلك اللغة القديمة تضم حوالي ٤٤٣ لغة ويتحدث بها أكثر من ثلاثة مليارات إنسان[٢]، بما فيها اللغة الإنجليزية التي نحجّم لغتنا أمامها. وهذا دليل صغير على أن ما تتعرض له لغتنا من حملات تشويه غير منطقية وتفتقد للمصداقية والموضوعية، وأن العيب والخلل والسبب الرئيس في هذا التقهقر لتلك اللغة العظيمة يعود إلى أهلها الذين صغُر بعضهم حتى لم تعد تلك اللغة تناسبهم فنادوا باستعارة مصطلحات لغوية بدلاً من مصطلحاتها، وفي مناسبات أخرى زهدوا باللغة كلها وسعوا إلى فرض الإنجليزية مكانها.

أما الحجة الثانية: فتتمثل في قولهم إن دراسة الطالب بلغة إنجليزية سوف تساعده على الإطلاع على مزيدٍ من المراجع باللغة الإنجليزية، وهذا الكلام صحيح لو لم يكن هناك ترجمة، فما المانع من ترجمة كل تلك العلوم؟ ويعلم الله أن التاريخ لم يشهد لأمة نهضت من خلال التعلم بغير لغتها، ولكن الأمم تنهض حين تدرس

(١) د. وجيه حمد عبد الرحمن، القاموس الوجيز في الجذور العلميه: لاتيني، يوناني ، انجليزي، عربي، مكتبه لبنان، بيروت، ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).

(٢) مقالة في موقع الموسوعة الحرة (الويكيبيديا) بعنوان (List of Indo-European languages) قائمة باللغات الهندية الأوربية وهي بالمناسبة اللغة الأم القديمة التي تفرعت منها معظم اللغات الأوربية والآسيوية. وللمزيد حول ذلك انصح القارئ بزيارة الرابط التالي http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_Indo-European_languages كما يمكن زيارة موقع الموسوعة الحرة (الويكيبيديا) العربي والبحث عن (لغات هندية أوروبية) لتحصل على معلومات حول تلك اللغات.

وتعلم أبناءها باللغة التي نشأوا وتربوا عليها، ثم تقوم بترجمة تلك العلوم ويكفي أن نعود إلى حجم الكتب التي تقوم كثيرٌ من البلدان بترجمتها عن مختلف اللغات، ومن باب العلم بالشيء فقط فإن ما تترجمه أسبانيا وحدها يفوق ما تقوم بترجمته الدول العربية مجتمعة، ثم إن إحدى أعظم النهضات العلمية التي عرفتها البشرية منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا ما قامت إلا على دار الحكمة التي أنشاها المأمون، وتلك الدار ترجمت كثيراً من الكتب العلمية والفلسفية من اليونان والهند، وعلى الرغم من سلبيات بعض ما جاء في تلك الكتب إلا أن إيجابياتها كانت أكبر بكثير، وأثرها بادياً على كثيرٍ من المنجزات البشرية الحالية، ولهذا فأنا أؤكد على أن بلداً مثل المملكة العربيةً السعودية لن يظهر رقيها الحقيقي وتميزها إلا حين يزيد اهتمام أهلها بلغتها من خلال دعمها وفرضها وتعلمها وتعليمها والترجمة منها وإليها، أما خلاف ذلك فسوف يستمر التغير ولكن لمستويات أدنى وأقل وهذا ما لا يرضي محبيها والغيورين عليها.

وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور محمد يونس الحملاوي[1] أن اللغة الانجليزية أقل كفاءة من اللغة العربية في التعبير عن المعارف والعلوم، وأن هناك كثيراً من الدراسات تشير إلى أن كثيراً من الكلمات الانجليزية تعود إلى أصولٍ عربية، وينادي إلى تعريب لغة التعليم بجامعاتنا العربية تنفيذا لقرارات وزراء التعليم العالي والصحة العرب، مشيرا إلي أنه يقوم بتدريس مادة شديدة التخصص وهي الحاسبات بكلية الهندسة باللغة العربية، ولم يجد أي مشقة في ذلك والطلبة يحققون معدلات علمية عالية مقارنة بنظرائهم في الجامعات الأخرى، ويقترح أن تكون البداية عن طريق التعريب بإلزام طلاب الدراسات العليا بكتابة ملخص لأطروحاتهم العلمية باللغة العربية إلي جانب الإنجليزية، وفي خطوة لاحقة تكون الرسائل العلمية العليا باللغتين العربية والإنجليزية، مع عقد بعض المؤتمرات العلمية التخصصية باللغتين العربية والانجليزية كخطوة لإعداد أجيال

(١) أستاذ الحاسبات بكلية الهندسة جامعة الأزهر والأمين العام للجمعية المصرية لتعريب العلوم في ورقة ألقاها أمام ندوة (التعريب ما له وما عليه) التي عقدت في مقر الجمعية العلمية الطبية بجامعة الأزهر بالقاهرة يوم الأربعاء ٨ربيع ثاني١٤٣١هـ (٢٠١٠م).

من أساتذة الجامعات يتقنون العربية والتدريس بها، ويؤكد على أن كل ادعاءات معارضي التعريب غير صحيحة، فالمراجع في أغلب التخصصات باللغة العربية موجودة ومجامع اللغة العربية في البلاد العربية أنجزت معاجم المصطلحات العربية للمقابل لها باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ويضيف الحملاوي بأن منظمة الصحة العالمية لديها الكثير من كتب الطب والصيدلة المعربة، وسبق أن أعلنت استعدادها لتوفيرها لأساتذة الجامعات الذين يريدون التدريس باللغة العربية والأمر لا يحتاج إلا إلى الرغبة لدى الأستاذ الجامعي والبدء فورا في التنفيذ . ويستنكر إصرار أساتذة الجامعات العربية على الاستمرار في التدريس بغير العربية لافتا إلى أن كل دول العالم لا تدرس العلوم إلا بلغاتها الوطنية، حتى إسرائيل تدرس العلوم التطبيقية بالعبرية التي تعد من اللغات الميتة، والآن الجامعات الإسرائيلية من أجود الجامعات في العالم. ثم يربط بين التدريس باللغة الوطنية وبين التقدم العلمي موضحاً أن الدراسات الميدانية تشير بوضوح إلى أن هناك علاقة قوية بين التدريس باللغة الأم وبين التقدم العلمي والتقني، ففي الدول المتقدمة التي تدرس بلغتها القومية نجد معدل براءات الاختراع مرتفعا ففي هذه الدول توجد ٤٠ براءة اختراع لكل مليون مواطن في حين أنها اقل من ذلك بكثير في بلدٍ مثل مصر. وما يؤلم أكثر حديثه عن وجود دراسة تؤكد أن المكون العلمي للطلاب خريجي المدارس الثانوية يفوق نظرائهم من خريجي مدارس اللغات الملتحقين بالكليات العملية ومنها كلية الطب بجامعة عين شمس وأن الطلاب الذين درسوا علم الأحياء بالعربية في المرحلة الثانوية حققوا معدلات دراسية أعلى في دراستهم، ويحذر من أن الاستمرار في هذا التوجه المتمثل بالتدريس بغير العربية يمثل خطراً شديداً على مستوى الخريجين وعلى مستقبل التعليم لافتا إلى حقيقة تاريخية تؤكد أن الطب في مصر كان يتم تدريسه بالعربية حتى جاء المحتل الانجليزي ففرض التعليم بالانجليزية عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م).[1]

(١) تحقيق بعنوان (التدريس باللغات الأجنبية سبب تخلفنا العلمي والتقني) أجراه المحرر علي عليوة، ونشر في شبكة الإعلام العربية (محيط) بتاريخ ١٠/٤/١٤٣١هـ (١٩٩٢م). www.moheet.com/

ثالثاً: أنشطة وفعاليات رسمية (ندوات ومؤتمرات):

جميل جداً تبادل الخبرات والتجارب من خلال عقد اللقاءات والندوات والمؤتمرات، وسواء كان عقدها في بلادنا من خلال دعوة المختصين والخبراء أو في بلدان أخرى يذهب بعض مختصينا للالتقاء بنظرائهم في نفس المجال والتخصص، ولكن ما ألاحظه في الآونة الأخيرة وكشكلٍ من أشكال التغير السلبي الذي حدث في مجتمعنا وطال لغتنا الحبيبة[1] أن هناك بعضاً من منظمي تلك الفعاليات يجعلون غير اللغة العربية هي اللغة الرسمية لذاك المؤتمر أو تلك الندوة، وهذا لا يصح ولا يليق بأشخاصٍ ينتمون لهذه الأرض والشواهد على ذلك كثيرة، ولعلي هنا آخذ منتدى جدة الاقتصادي وأكتفي به كشاهد على التحول والتغير السلبي الذي حدث ليس على لغتنا العربية فقط وإهانتها بتعميد اللغة الإنجليزية لغة رسمية لذلك المنتدى الذي لا يبعد غير عشرات الكيلومترات عن مهبط الوحي، بل إن ذاك التغير السلبي يطال أموراً أخرى لابد أن أشير إليها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر استعمال التقويم الميلادي للمنتدى بدلاً من الهجري، وهذا مخالف للأنظمة والقوانين التي تعمل بها المملكة العربية السعودية وارجع إن شئت للمادة الثانية من النظام الأساسي للحكم الصادر بتاريخ ١٤١٢/٨/٢٧هـ (١٩٩٢م) والتي نصت على: (عيدا الدولة.. هما عيد الفطر والأضحى.. وتقويمها هو التقويم الهجري.) وكان من المفترض بالمنظمين لذلك المنتدى وهم بالتأكيد من أبناء هذا البلد أن يراعوا هذا الأمر ولا يخالفوه، وقد يستهين بعضنا بمسالة التقويم الهجري وإحلال الميلادي مكانه، ولتعرف الفرق ما عليك سوى المفاضلة بين مولد عيسى - عليه السلام - «المزعوم» وبين تاريخ هجرة نبينا محمد عليه السلام، وبالتأكيد وبلا تردد فأنا أجزم أن أي مسلم سيختار هجرة محمد التي هي النقلة الحقيقية وبداية

(١) أؤكد على أن محبة اللغة العربية من باب الديانة لله وليس قومية، فمحبة هذه اللغة جزءٌ من محبة القرآن الذي تنزل بها وحفظها الله به وجزءٌ أيضاً من محبة هذا الدين السماوي العظيم، وجزءٌ من محبة نبي الإسلام عليه أزكى صلاة وسلام ذاك النبي العربي الأمي أزكى وأقدس لسان نطق العربية وحدها لا غير.

التحول وتأسيس دولة الإسلام، ولكني في نفس الوقت أتساءل لمَ يتناسون ذلك ويفضلون التاريخ الميلادي على الهجري؟ وهذا مع الأسف ليس فقط في منتدى جدة الاقتصادي الذي أخذته كشاهد على التغير السلبي الذي وقع على لغتنا العربية، بل إن هناك أكثر من مضمار صار أهله يهمشون التاريخ الهجري لدرجة أن بعض صغار السن من أبنائنا حين يتحدثون عن الشؤون الرياضية ومواعيد المباريات والمناسبات الرياضية لا يستخدمون غير التواريخ الميلادية، وباستثناء المخاطبات الحكومية الرسمية والجهات التعليمية فإني أرى أن التاريخ الميلادي صار يزاحم الهجري في بلد الهجرة.

أعود إلى اللغة العربية وهي محور حديثي في هذه الورقات لأضيف أن مما لحق بها امتناع أهلها عن استخدامها حتى في المحافل الدولية، لدرجة أني حين أشارك في بعض المؤتمرات الدولية ألحظ عزوف بعض زملائي من السعوديين عن استعمال اللغة العربية على الرغم من دعم اللغة العربية في ذاك المؤتمر، وإحضار مترجمين متخصصين لهذا الغرض، وهذا بالمناسبة ليس حكراً على السعوديين فقط، بل يمتد إلى غيرهم من أبناء الشعوب العربية لدرجة أني أذكر أن المنظمة الدولية للإنتربول كادت أن تلغي اعتمادها اللغة العربية كأحد لغاتها الرسمية؛ بسبب قلة استعمالها ولكن تدخل الغيورين على هذه اللغة حال دون ذلك.

رابعاً: مجالات إعلامية (بعض وسائل الإعلام المختلفة):

لعلي أبدأ بما هو إيجابي حول وسائل الإعلام؛ فقط لأخرج القارئ من السلبيات المتراكمة التي صرت أقذف بها فأكدر خاطره وأرجو أن يصفح عني، لأقول إن من الإيجابيات أن انتشار القنوات الفضائية أسهم بشكل جيد في إيجاد لغة عربية فصيحة مبسطة يتداولها العرب، يفهمونها ويجيدون التحدث بها خاصة في البرامج الحوارية، والأهم من ذلك أن إطلاق بعض القنوات الفضائية الموجهة إلى الإطفال والتي تبث مسلسلات وأفلام كرتونية ناطقة بلغة عربية فصيحة أسهمت أيضاً وبشكلٍ كبير في الارتقاء بلغة الأطفال، ولكن ما يؤسف له

أن بعض القنوات المحسوبة على ملاك عرب وتدار بعقول غير عربية لم يعجبها ذلك فاستبدلت اللهجات المحلية باللغة الفصيحة، وهذا مع الوقت سيؤثر سلباً على الأجيال الجديدة التي من حسنات الفضائيات أنها زرعت لديها محبة اللغة الفصيحة واستساغتها منذ الصغر، ولكن تدخل المفسدون مرة أخرى محاولة لبتر هذا التواصل الذي لم يعجبهم.

الأمر المزعج حقاً والذي صرنا نلحظه في الآونة الأخيرة يتمثل في انتشار استعمال اللهجات العامية حتى غير السعودية مع كتابتها في الصحف واللوحات الإعلانية بنفس الطريقة كأن تكتب يالله (يللا) وغيرها الكثير، إضافة إلى انتشار استخدام الإعلان عن منتجات تحمل أسماء أجنبية بعد إقصاء الاسم العربي مثل إعلان أحد مطاعم الوجبات السريعة العربية عن إحدى وجباتها الجديدة (تشيكن رينغ) بمعني حلقات الدجاج ولا أدري ما الذي سيضيفه الاسم الأجنبي لتلك الوجبات؟ أم إن القائمين على تلك المطاعم لاحظوا الرغبة الجامحة لدى فئام من المجتمع السعودي ولهثهم خلف كل ما يبعدهم عن لغتهم العربية، فركبوا الموجة وصاروا يسمون منتجاتهم بتلك الأسماء، وأعود هنا مرة أخرى إلى أهمية تدخل الجهات السعودية المختصة كوزارة التجارة في المقام الأول كجهة منظمة للأسواق التجارية، إلا أن ما أشاهده وألاحظه أن تلك الجهة لا تبالي بمثل تلك الأمور والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة، وإن شئت فادخل أحد الأسواق التجارية الكبيرة لترى بنفسك كيف انقلبت أسماء المحال التجارية إلى أسماء بلغات أخرى غير العربية، لدرجة يخيّل إليك أنك في إحدى البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية ولست في المملكة، وكل ذلك حدث ويحدث في العقدين الأخيرين، وهذا ما لم نكن نعرفه قبل ذلك، وهذا شكل من أشكال التغير المجتمعي السلبي الذي أسميته بالقهقري، وما لم يكن هناك تدخل فعلي من تلك الجهات ومطالبات شعبية يقودها المصلحون فإن الوضع سيستفحل لدرجة نصير معها لا نشاهد أي ملامح تدل على أنك تسير في بلدٍ عربي.

وكم تمنيت لو تدخلت وزارة التجارة ووزارة الثقافة والإعلام ووضعتا أنظمة لأسماء المحلات التجارية وكذلك لأسماء المنتجات بالإضافة إلى الإعلانات التجارية التي صارت كما أسلفت تسيء للغة وللمجتمع، ويخشى أن تقود إلى نشوء جيل لا يعرف من لغته إلا القشور، وإلا فملبسه ومشربه ومطعمه كل ذلك يحمل مسميات أجنبية ليست من لغته في شيء.

وأرى أن أبسط الحلول التعاون مع بعض المختصين في اللغة العربية للاطلاع على أي إعلان تعتزم أية جهة نشره في أية وسيلة إعلامية والتحقق من خلوه من المخالفات اللغوية ومن ثم إجازته بعد ذلك مقابل مبلغ مادي رمزي يحدد بحسب عدد الكلمات أو خلافه، وبهذه الطريقة نكون قد حمينا اللغة وذائقة المتلقي من الانحدار اللغوي المطّرد حدوثه خاصة في السنوات الأخيرة، كما أن من الأهمية بمكان وحفاظاً على اللغة أن لا ينشر إعلانٌ واحد في مطبوعة عربية بغير اللغة العربية وإن كان ولابد من نشره في لغة أخرى، فيتم ذلك من خلال نشره بلغتين العربية واللغة الثانية شريطة أن لا تتجاوز مساحة الإعلان لتلك اللغة ٢٥٪ من الحجم الأساسي المحدد، وأن يكون تحت الكتابة العربية. وهذا فيه احترامٌ للمتلقي الذي دفع من جيبه الخاص ليقرأ ما تحويه الصحيفة بلغته الأم وليس من حق أحد أن يقتطع منها مساحة وينشر بها كلاماً بلغات أخرى.

خامساً: مجالات رياضية (معلقون ومحللون ولاعبون وغيرهم):

مع بداية الاهتمام بالنقل الإذاعي والتلفزيوني للألعاب الرياضية خاصة كرة القدم كانت كثيرٌ من المصطلحات الرياضية المستخدمة إنجليزية (آوت، فاول، كورنر بنلتي) وغيرها الكثير حتى قام الغيورون في تلك الفترة وعلى رأسهم الأمير فيصل بن فهد ـ رحمه الله ـ بتوجيه المعلقين لإستعمال المصطلحات العربية فاستبدلت جميع المصطلحات دون استثناء وحل محلها نظيرتها العربية، وكان ذلك في بداية القرن الهجري الحالي (الثمانينات الميلادية) وأذكر أنا شخصياً أنني استنكرت تلك المصطلحات رغم أنها عربية قحة؛ لكوني استمرأت وغيري

تلك المصطلحات الأجنبية وأخذت فترة ليست بالقصيرة حتى أعتاد مصطلحات مثل (ضربة ركنية، بدلا من كورنر، وخطأ بدلاً من فاول، وضربة جزاء بدلاً من بنلتي، وتمريرة بدلاً من باس) ولكن مع مرور الوقت ألفنا تلك المصطلحات وجاءت أجيال لاحقة لنا لم تعرف سوى تلك المصطلحات، ولم تتعامل بغيرها والفضل بعد الله في ذلك للقرار الصارم من قائد الرياضيين في تلك الفترة الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز.

ولكن مع انتشار القنوات الفضائية وكثرة المعلقين بدأت الأسطوانة تعود لما كانت عليه وأشد وجرى تغريب المصطلحات الرياضية بدرجات أكبر مما كانت عليه في السابق وصرنا نسمع مصطلحات يتشدق بها المعلقون مثل: (برسنغ، بدلاً من الضغط، وكاونتر أتتاك، بدلاً من هجوم معاكس، وسيمي فاينال بدلاً من نصف النهائي) وغيرها الكثير من المصطلحات التي يستعرض أصحابها عضلاتهم أمام المشاهدين أو المستمعين كدليل على الفهم والتميز، وما علموا أن ذلك لا علاقة له من قريب أو بعيد بإجادة الصنعة، بل إن وبالاً يصب عليهم وسيصب كلما جاء الحديث عن خذلان اللغة العربية فهم من أرباب خذلانها في هذا المحفل، وهذا المبحث مناسبة لبيان عوارهم والقول بأنهم لم يصيبوا، كما أنه مناسبة للإشادة بمن كان سبباً في حث الإعلام الرياضي على استعمال المصطلحات العربية، وأظن أن الكرة الآن في مرمى الرئاسة العامة لرعاية الشباب فهي الأقدر على معاودة الكرة ومطالبة القنوات الفضائية الناقلة باستخدام المصطلحات العربية الرياضية كشرط أساسي لنقل أي مناسبة رياضية تقام تحت مظلتها.

سادساً مستجدات تقنية (الحاسب الآلي والإنترنت):

قبل أن أتحدث عن استخدامات شبابنا للإنترنت، لابد أن أؤكد على أن هناك كثيراً من المتحمسين لنشر اللغة الإنجليزية وجعلها إن لم تكن لغة الشعوب الأساسية مع العولمة، فعلى أقل تقدير أن تكون اللغة العالمية الوحيدة التي تستخدم في الإنترنت، وقد كتب وتحدث عن ذلك كثيرون ومنهم على سبيل البرت الغور نائب الرئيس الأمريكي الأسبق، الذي قال وبسعادة كانت بادية للعيان، في كلمة أثناء

زيارة له في وسط آسيا: «إن رئيس غيرغستان أخبره أن ابنه الذي يبلغ من العمر ثمانية أعوام طلب منه تعلم اللغة الإنجليزية، بحجة أن الحاسب يتحدثها». وهناك كثيرون انتقدوا محاولات الولايات المتحدة فرض اللغة الإنجليزية على الإنترنت ومنهم الرئيس الفرنسي جاك شيراك الذي وصف ذلك بأنه خطرٌ جسيم يهدد الإنسانية. والفكرة ببساطة أن الولايات المتحدة حاولت جعل اللغة الإنجليزية لغة التواصل بين البشر على الإنترنت مثلما هو الحال فيما يسمى بلغة (بروتوكول) (تي سي بي/آي بي (TCP/IP) لغة التخاطب الخاصة بالأجهزة التي تستخدم الإنترنت. ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل حيث كانت اللغة الإنجليزية تسيطر في حقبة التسعينات من القرن الميلادي المنصر (١٤١٠هـ ١٤١٩هـ) على أكثر من ٨٠٪ من محتوى الإنترنت وكان المتحمسون يسعون لزيادة تلك النسبة، إلا أنه مع مطلع الألفية الميلادية تناقصت تلك النسبة لتصل إلى ٥٠٪ فقط عام ١٤٢٢هـ (٢٠٠٢م) وفي عام ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥م) تراجعت إلى أقل من ٣٥٪ ويعود السبب في هذا التراجع إلى أن مستخدمي الإنترنت في بداياتها كانوا في الولايات المتحدة فقط فكان من الطبعي أن تكون النسبة الطاغية من المستخدمين يتحدثون الإنجليزية، ولكن مع تسارع الناس في استخدام الإنترنت تقهقرت الإنجليزية التي لا يمثل متحدثوها سوى ٨٪ من سكان العالم إلى مستويات أدنى[١]. وكشاهد صغير فقط على سرعة تنامي مستخدمي الإنترنت لك أن تتخيل أن مستخدميها في المملكة العربية السعودية عام ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م) لم يتجاوز مئتي ألف وفي نهاية عام (١٤٣١هـ) (٢٠١٠م) وصل عدد المستخدمين في المملكة إلى (١١,٢ مليون) مستخدم[٢].

أعود إلى حديثي عن كيفية استخدامات الشباب في المجتمعات العربية والسعودية على وجه التحديد للإنترنت وطريقتهم في التخاطب مع بعضهم بطريقة أو بلغة لو أن أحداً من الذين عاشوا في قرون مضت أو من كبار السن قرأها فلن

(١) كتاب من يحكم الإنترنت؟ أوهام بلا حدود، جاك غولد سميث وتيم وو. (مرجع سابق).

(٢) للمزيد حول الإنترنت في المملكة العربية السعودية، تفضل بالرجوع إلى المبحث الرابع (المظاهر الثقافية)، الميادين الثقافية، الإنترنت.

يفهم كثيراً منها، بل إن بعضاً من مستخدمي الحاسب الآلي لو ألقى نظرة على أساليب التعبير التي يستخدمها أصحاب غرف الدردشة ورأى كيف يتخاطبون بلغة هجين بين العربية والإنجليزية معنى وكتابة ولديهم مختصراتهم الخاصة التي لا يمكن حتى لبعض الملمين باللغة الإنجليزية أن يفهموها إلا بعد الاستعانة ببعض أرباب تلك الأساليب الهجين ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر كلمات مثل: (برب، لول، تيت، وب، فيّ) وغيرها الكثير ولعلي أوضح بعضاً منها في الجدول التالي:

مبتدع عربي	مبتدع إنجليزي	معنى عربي	معنى إنجليزي
لول	LOL	تعبير عن الضحك بصوت عالٍ	Laughing Out Loud
برب	BRB	سأعود قريباً	Be Right Back
تيت	TYT	خذ وقتك (خذ راحتك)	Take Your Time
وب	WB	اهلا بعودتك	WelcomeBack
بتو	BTW	بالمناسبة أو على فكرة	By The Way
فيّ	FYI	لمعلوميتك	For Your Information
اتو	ATW	على طول	Way All The
فتو	FTW	لتحقيق النصر	For The Win
إمو	IMO	وجهة نظري	In My Opinion
إمهو	IMHO	رأيي المتواضع	In My Humble Opinion
تي	TY	شكراً	Thank You
يو	YW	عفواً	You are Welcome
تك	TC	انتبه لنفسك	Take Care
إسا	ISA	إن شاء الله	In Shaa Allah
سيّو	CY	نراك	See You
يوتو	Y2	وأنت كذلك أو لك بمثل	You Too

ولم يقتصر الابتداع على المعنى فقط بل لقد قام (المدردشون) - وهو اللفظ الذي يطلق على هواة التحدث من خلال غرف المحادثة «الدردشة»[١] - باستبدال الأحرف الإنجليزية بنظيرتها العربية في بعض مخاطباتهم وبما أن الحرف الإنجليزي لا يدعم بعض الحروف العربية حيث لا يوجد نظير لها؛ قاموا بسن أحرفهم الخاصة بحيث لا يمكن لأحد أن يقرأ الكلمة المكتوبة إلا إن كان عارفاً بما ترمز إليه البدائل مثل رقم (٢) عوضاً عن الهمزة ورقم (٧) عوضاً عن الحاء وهكذا ولعلي أبين في الجدول التالي نماذج لتلك التغيرات التي طرأت على الحرف العربي أحد الضحايا الذين نال منهم التغير بعد دخول التقنية:

الحرف العربي	الرمز المقابل	لاتيني	عربي
ء	2	(so2al)	سؤال
ع	3	3omr	عمر
غ	<3	da2<3	غداء
ط	6	6aha	طه
ظ	<6	alem<6	ظالم
ش	S^	S^ms	شمس
ح	7	7ob	حب
خ	<7	yl<7	خيل
ص	9	9yam	صيام
ض	<9	b<9	ضب

رأي المؤلف حول أسباب تهميش اللغة العربية والتغير السلبي الذي اعترى مكانتها في المجتمع السعودي:

١. السبب الرئيس الوهم الذي أصاب ثلة من مثقفي المجتمع وجعلهم يظنون أن اللغة الإنجليزية هي اللغة «الوحيدة» القادرة على احتواء العلوم والفنون

(١) غرف المحادثة «الدردشة»: عبارة عن صفحات خاصة على الإنترنت يدخلها الشخص باستخدام برامج معينة مستخدماً اسمه الشخصي أو أي اسم آخر يتحدث صوتاً وكتابة مع غيره ويمكن أن يكون لتلك الغرف رقم سري فلا يدخل إلا أشخاصٌ مرغوبٌ في حضورهم.

بأشكالها فبدأوا التعليم بها مقصين لغتهم الأم، رغم أن معظم البلدان الأكثر تطوراً والأقرب إلى بريطانيا وطن اللغة الإنجليزية لم تفعل ما فعلنا ومع ذلك فهم أكثر تطوراً وتقدماً منا وخذ مثلاً فرنسا، وألمانيا، واليابان، وكوريا.[١]

٢. اشتراط بعض المؤسسات والشركات الخاصة على المتقدمين لشغل الوظائف لديهم أن يكونوا ملمين باللغة الإنجليزية كشرط أساسي للتوظيف، وهذا أسهم بشكلٍ كبير في نزع ثقة المواطن البسيط (وهم كثر) في لغتهم ومدى قدرتها على تأمين (أهم) المطالب وهي الوظيفة التي يرونها المفتاح لكل شيء، فلا زواج ولا مسكن ولا قيمة اجتماعية بغير الوظيفة، والإشكال أن الوظيفة مربوطة بتعلم اللغة الإنجليزية، فأي دعم أقوى من هذا الدعم؟! وأي إقصاء وعنصرية أقسى من تلك؟!.

٣. الضعف الشديد في الجانب التوعوي والرقابي وقلة الدراسات والبحوث التي تبين أثر وعواقب إحلال اللغة الإنجليزية ومصطلحاتها ومسمياتها مكان اللغة الأم، وهنا تقع الملامة في المقام الأول على المختصين في اللغة العربية خاصة من المنتسبين لكليات اللغة العربية في مختلف الجامعات، بالإضافة إلى المعاهد والمدارس، فلا يرى لمعظمهم دور أو بذل في هذا الجانب ويعلم الله لو وقف عشرهم في وجه الواهمين لاستطاعوا كسب المعركة بل وحسمها بكل سهولة ولكن النسبة العظمى استكانت فتحمل وزر ذلك اللغة والأجيال الجديدة وإن استمر الوضع كما هو عليه لربما رأينا استمرار التغير السلبي مع توالي السنون لدرجة نصل معها إلى استمرائه وعدم إنكاره البتة.

---

(١) كتبتها (فرنسا، ألمانيا، اليابان، وكوريا)، فكتب مدقق اللغة العربية الأستاذ الفاضل / إبراهيم المهنا معاتباً: «أنت هنا - مع احترامي - تأثرت باللغة الإنجليزية في تركك حرف العطف حتى آخر كلمة» وبما أن أحبتنا من المختصين في اللغة العربية الحبيبة لا يقبلون هذا التقليد، فإني أرجع عنه وأستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى، وأسأل الله أن نتقبل جميعنا النقد البناء وأن نأخذ به، وأن نحسن الظن بالمجتهد غير المصيب وأن نقومه، وإني علي يقين أنه سيتقبل التوجيه ويفرح به ويتبناه، فكلنا محب لهذه اللغة ونحتسب أن يكتب ذلك في موازين أعمالنا.

٤. قلة الجهود المخلصة التي تقوم بتعريب المصطلحات الجديدة وبيانها للناسٍ وتعميمها ونشرها من خلال وسائل الإعلام المختلفة، ولكم بحثت شخصياً عن معجم يضم مصطلحات متخصصة في بعض المجالات الحية والمهمة فلا أجده، مما يضطر الواحد منا لأن يستخدم المفردة الإنجليزية بدلاً منها، والأمثلة على ذلك كثيرة، وحتى إن وجدت أحياناً فليس هناك توعية وتشجيع كافيان يجعلان الناس يستخدمون تلك المصطلحات العربية، وخذ مصطلحات الحاسب الآلي كمثال.

٥. ترويج بعض الأشخاص المحسوبين على التيارات المحافظة والمنتمين إليها لتلك المصطلحات الإجنبية، فكثيراً ما حضرت مجالس يحضرها بعض الأخوة المحافظين من المختصين في مجالات علمية كالطب والحاسب ولاحظت كثرة استخدامهم للمصطلحات الإنجليزية كنوع من استعراض العضلات والتباهي بقدرتهم وتمكنهم وتميزهم في مجال اختصاصهم، والغريب أنك تجد أولئك الأشخاص من أكثر الناس غيرة على أمور دينهم ومنافحة عنها، ولو تحدثت مع أحدهم في مواضيع خلافية كقيادة المرأة للسيارة أو في مسائل متعلقة بالاختلاط بمفهومه الدراج في المجتمع السعودي وغيرها من المسائل لوجدت الأغلب والأعم منهم ينافح عن الآراء المحافظة التي قيلت في تلك المسائل، ولكن حين يأتي الأمر إلى اللغة العربية ينسحب ويتملص منها وكأنها ليست من الدين في شيء، وأرى بأنه إن كان بعض الأشخاص ممن يحسبون على الطيف الفكري المحافظ هم من يقصون لغتهم دون وعي منهم، فما بالك بسواهم، سواء كان فعلهم ذاك دون قصدٍ أو بطريقة ممنهجة.

والإشكال أن فعل من يحسب على التيارات المحافظة أثره على اللغة أثر مركب سلباً في ثلاثة أوجه:

أولها: أنه لم يكتف بالصمت على ما يطال لغته من إقصاء وتهميش، بل زاد وأيد المقصين واستخدم نفس المصطلحات التي يستخدمون.

ثانيها: أن الأثر السلبي لا يتوقف على الشخص نفسه بل يطال أشخاصاً أغراراً يرون فيه قدوة.

ثالثها: يتمثل في أنه كان يفترض ويجدر به أن يكون معول بناء وأن يصحح ما يراه، وأن يتحالف مع الثلة الغيورة في سبيل إيقاف مسلسل التغيير السلبي الواقع على مجتمعه في هذه النقطة وهي من أهم الأمور في نظري، أو على الأقل إن لم يساهموا في عملية التصحيح أن يصمتوا على أسوأ الأحوال، لا أن يعينوا على إقصاء لغتهم في عقر دارها.

٦. يظن بعض الناس حتى من المختصين أن إقصاء اللغة العربية من كثيرٍ من جوانب حياتنا الحيوية عائدٌ إلى ضعف الأمة الإسلامية بصفة عامة، وأنا أختلف مع أصحاب هذا الرأي، لأني أرى عدم وجود علاقة حتمية بين هذا وذاك من جهة ثم إن بلداً مثل المملكة العربية السعودية له مكانة متميزة بين مصاف دول العالم وعرف عن مجتمعه المحافظة والتمسك بخصوصيته في أمور كثيرة منها الملبس الرسمي الذي لم يتغير، ومنها التمسك بتعاليم الإسلام بشكلٍ كبير، وخذ قضية الحجاب وإغلاق المحلات والأسواق التجارية وقت الصلاة كمثالٍ على ذلك خاصة الأخيرة التي لو وجد تهاون لانتهكتها العمالة الوافدة التي لا يفكر معظمهم إلا بكيفية الكسب وزيادة المداخيل، ولو استشعر أصحاب الشأن وذوو الحل والعقد أهمية اللغة العربية والخطورة المتأتية من انتهاكها لفزعوا وقوموا الاعوجاج الحاصل، ولكن يبقى عدم الإدراك وعدم المبالاة واحداً من أهم عوامل التغير السلبي الذي حل باللغة العربية وأخذ يهمش دورها في المجتمع السعودي.

٧. من الأسباب أيضاً التعالي وعدم التنازل المطلق من قبل أرباب اللغة فهم لا يريدون اعتماد بعض الكلمات والمصطلحات التي ألِفها الناس منذ عشرات السنين، ويمتنعون عن إضافتها إلى قواميس اللغة العربية كمفردة رسمية يمكن استخدامها في الخطاب والكتاب الرسمي، وكدليل على ذاك

الامتناع ما يقال أن علماء اللغة اجتهدوا في تعريب مفردة ساندويتش وبعد جهد توصلوا إلى أنها (شاطر ومشطور وبينهما طازج أو كامخ) وبغض النظر عن صحة الرواية فقد اختفت جملة التعريب وبقيت الكلمة الأجنبية تستعمل بشكلٍ واسع حتى الآن وإن كان هناك بديل جميل لكنه لم يعمم مثل (شطيرة) ولكن لم يسع أحدٌ للترويج لها بشكلٍ كبير فبقيت حبيسة العقول، حتى لو استخدمها بعضنا في بعض المناسبات على استحياء. والأمر الآخر في الدلالة على تصلب بعض علماء اللغة عدم إجازتهم لبعض العبارات الجديدة التي صارت تستعمل في الصحف والمكاتبات الرسمية مثل (حيث) حين تستخدم للتعليل أو ما يسمى في المكاتبات الرسمية بالحيثيات أو في القانون بحيثيات الحكم، فما زال كثيرٌ من النحويين يعدون ذلك شكلاً من أشكال اللحن في اللغة، وهذا بالتأكيد دليل واضح على عدم اجتهاد النحويين وتقوقعهم إلى حيث انتهى سيبويه والكسائي، فلا زيادة ولا نقص، وهذا ربما أسهم بشكلٍ أو بآخر في تهميش تلك المجاميع اللغوية وعدم الرجوع إليها؛ بحكم أنها لا تجاري الزمن الذي يعيشونه وتريد جرهم إلى أزمانٍ غابرة يصعب على الأجيال الحاضرة التكيف مع طريقتها في التعاطي مع اللغة، ولو أخذنا اللغة الإنجليزية كمثال على تجدد المصطلحات وسرعة اعتماد المفردات الجديدة بشكلٍ رسمي، دون النظر إليها على أنها مصطلحات أجنبية أو مبتدعة يستخدمها عامة الناس، وما عليك سوى الرجوع إلى أحد القواميس الإنجليزية وقراءة المقدمة لتعرف ما يتم إضافته من كلمات في كل طبعة، حيث يشار إلى عدد الكلمات والمصطلحات التي استخدمت في الطبعة الأحدث، وفي كل سنة يتم إضافة المزيد من الكلمات، ومن ذلك على سبيل المثال كلمة غوغل (google) محرك البحث المشهور أصبحت مرادفة لفعل (بحث، يبحث)[1] في الإنترنت(search) فصاروا يقولون يمكنك أن

---

(١) الطريف أن كلمة قوقلة عربية فصيحة تعني بحثه أو قلّبه على وجوهه المختلفة. كما إن أحد الصحابة - رضوان الله عليهم - يدعى النعمان بن قوقل، وقيل بأنه شهد بدراً (المدقق اللغوي).

تبحث عنه (you can google it) ومن باب العلم بالشيء فسنوياً يضاف قرابة (٨٠٠) كلمة ومصطلح جديد إلى اللغة الإنجليزية.

رأي المؤلف للمحافظة على اللغة العربية وحمايتها من التهميش والتغير السلبي:

أرى أهمية النظر في مسألة حظر استخدام غير اللغة العربية في جميع المجالات، فكما أصدرت ولايات أمريكية قرارت تحظر استخدام اللغة الإسبانية في التعاملات اليومية مع وجود جاليات كبيرة من أمريكا الجنوبية؛ حماية للغة الإنجليزية. كما أطالب بحماية اللغة العربية من أبنائها قبل غيرهم؛ الذين استخدموا لغة أخرى محلها في مواضع دون ضرورة لذلك، فكما أن المسؤولين سنُّوا أنظمة تحافظ على نقاء أسماء المواليد وحموها من أي أسماء دخيلة، ومنعوا تدريس السعوديين في مدارس أجنبية؛ حفاظاً على لغتهم وثقافتهم، كما منعوا دخول المنتجات التجارية دون وجود ترجمة عربية، فأنا هنا أطالب ولا أوصي فقط - لكون الضرر يطالني مباشرة - أن تتخذ الخطوات نفسها ويمنع استعمال الأسماء الأجنبية في المجمعات التجارية، وفي الفنادق، والمستشفيات، والمطاعم، والإعلانات الصحفية، وفي المرافق العامة، مع تعريب العلوم المختلفة، وحظر التدريس بغير اللغة العربية في الجامعات السعودية.

وأنا هنا لا أدعو إلى منع اللغة الإنجليزية بشكل كامل، ولكني لا أريدها أن تكون الخيار الأول، بل يجب أن تكون خياراً ثانياً، بعد اللغة العربية، بل وأتمنى أن يكون هناك من يتحدث عدة لغات مثل: الفرنسية والإسبانية والألمانية، كخيارات ثانوية متاحة وليس اللغة الإنجليزية فقط.

وكل ما أبحث عنه أن أسمع من موظف الاستقبال في الفندق أو المطعم أو في خطوط الطيران من يحييني ويلبي طلبي بلغتي الأم، والأهم من هذا كله تنبيه أفراد المجتمع على أهمية اللغة العربية وعدم الانسياق خلف من يروجون مقولة: «إن من التحضر والتمدن استخدام لغة أجنبية بدلاً من اللغة العربية» وأنا أقول هنا إن الإعجاب بثقافة الغير والانبهار بها تقود إلى تقليدها ومحاكاتها، وهذا يقود إلى

الانصهار والتمازج وعدم القدرة على الانفكاك والتخلص والرجعة، وكل ذلك يقود إلى اندثار الثقافة وتغييبها وإحلال ثقافة أجنبية مكانها.

وإن لم يتدارك الغيورون ذلك، فسيأتي زمن يصبح المنكر فيه معروفاً والمعروف منكراً، وأظن أن المتأمل بدأ يلاحظ ذلك من الآن، وكمثال صغير على ما عنيته: هناك فئات من مجتمعانا لا تعيب على أطفالها عدم حفظ قصار السور أو معرفة كيف يتوضأ ويصلي بقدر انتقادهم للطفل الذي لا يتعلم اللغة الإنجليزية في مدرسته، وقد شاهدت بعض الآباء يباهون بقدرة أبنائهم على التحدث بلغة إنجليزية مقبولة، غير مبالٍ بعدم قدرة بعضهم على استحضار بعض قصار السور القرآنية، وأخشى أن يتطورٍ ذلك الفهم المغلوط ليشمل المجتمع بأسره! وهذه إحدى صور التغير السلبي التي لا أريد رؤيتها في مجتمعنا المسلم.

وأخيراً أرى أن من أهم الحلول تكاتف جميع أبناء المجتمع ووقوفهم صفاً واحداً مؤازرين ومؤيدين لهذه اللغة الحبيبة العظيمة، ولن يتأتى ذلك دون استشعارهم أهمية المبادرة لحمايتها مما يحاك ضدها بقصد أو بدونه، والسبيل الوحيد لإحداث يقظة أقوى من الغفوة التي مايزال اغلبنا يغط بهاً، أن يقوم الغيورون بالتكاتف وإنشاء جمعية خاصة باللغة العربية، ويعلم الله أن لي حلماً قديماً أسأل الله أن يتحقق، يتمثل في إنشاء جمعية باسم (جمعية نصرة العربية) ينضم تحت لوائها أبناء العربية كلهم من الخليج إلى المحيط، ويقفون صفاً واحداً متكاتفين، ليس لهم همّ سوى مناصرة هذه اللغة الجليلة، وفرضها واقعاً لا مفر منه، وجعلها خياراً أولاً في جميع شؤون حياتنا، وإن كنّا لم نتوحد كما يجب تحت مظلة السياسة والرياضة فعسى أن توحدنا اللغة العربية كما فعلت مع أسلافنا، ويعلم الله أن فيها من القوة ما يكفي لتوحد العالم الإسلامي أجمعه، وليس العالم العربي فقط، ولكن متى نلتفت ونتحد ونلتم حولها كما يحيط السوار بالمعصم، أو كما يحيط من قرصهم البرد بالنار كل يريد البحث عن فجوة ليكون إليها أقرب، ويعلم الله أني متفائل بشكلٍ لا حدود له، وقد قمت بحجز اسم نطاق لموقع على الإنترنت لعل وعسى أن يكون النواة لعمل جماعي نتكاتف من خلاله لنصرة هويتنا وأحد أسباب عزتنا.

المظاهر الثقافية

الحركة الأدبية والفكرية:

بداية يجدر بي أن أوضح مسألة أراها في غاية الأهمية وكثيراً ما سمعتها من بعض الإخوة المحسوبين على الثقافة حين يطلقون مصطلح الثقافة والفكر كالحركة الثقافية والفكرية مثلاً وهذا - في ظني - لا يصح؛ فالفكر جزءٌ لا يتجزأ من الثقافة، ولو استخدمنا مصطلح الأدب لكان هو الصواب؛ لأن الأدب جزء من الثقافة ويمثل المادة المنتجة وهو المكمل للفكر الذي يمكن أن نطلقه على الأشياء غير المحسوسة أو غير الملموسة، وبمعنى آخر الفكر يتمثل في صياغة الفكرة أو العمل وبلورته، ومن ثم فهمه بعد طرحه. أما الأدب فيتمثل في المنتج نفسه بغض النظر عن شكله، ومن هنا أرى أن العمل الأدبي بلا فكر يصوغه بطريقة إبداعية، أو بدون عقول تفهمه بعد طرحه لا قيمة له. وكذلك الحال مع الفكر إن بقي حبيس العقول ولم يظهر على شكلٍ أعمال أدبية متنوعة تنهل منها عقول المتلقين فلا قيمة لها.

تصنيف المؤلف لمتلقي المادة العلمية والثقافية:

امتداداً لما ذكرته في الفقرة السابقة فلعلي أعطي المتلقي الكريم مثالاً لأزيد الفكرة وضوحاً فأقول بأن أفراد المجتمع بمختلف شرائحهم ومشاربهم من المهتمين بجانبٍ أدبي أو علمي أو بعدة جوانب يعدّون متلقين وهم على ثلاثة أصناف:

تصنيف المؤلف لمتلقي المادة العلمية والثقافية

الواعي	مطلع: ينهل من تخصص واحد، ولا يهتم كثيراً بالمجالات الأخرى مثقف: مطلع على كل ما يجري ويدور في المجتمع، لكنه لا يطرح أفكاراً.
المفكر	يهتم بمجال أو عدة مجالات، ويشارك برأيه وقد يتميز بغزارة الإنتاج.
المصلح	يهتم بمجال أو عدة مجالات، يطرح رأيه كتابة، وله إسهامات ميدانية.

النوع الأول من المتلقين: الواعي، وينقسم إلى قسمين أحدهما يمكن أن يطلق عليه مطّلع؛ فهو متابع لما يطرح في مجال تخصصه أو غيره من المجالات ولكنه لا يهتم ببقية الأشكال الثقافية الأخرى، أما الثاني فأطلق عليه مثقفاً؛ لما بجعبته من فهم في العديد من أشكال الثقافة فتجده مجيداً للغة، عارفاً بالأدب، مطلعاً على القضايا الاجتماعية المختلفة وحتى لو لم يغط كافة الجوانب الثقافية وهذا يستحيل؛ لأن الثقافة كما يقول عنها تيلور ذلك الكل المركب الذي يشتمل على كل شيء: (معتقدات، تقنيات، آداب، لغة، وغيرها) إلا أنه مطلعٌ على جوانب كثيرة منها، ولكن ما يعيب هذا النوع من المتلقين (المطّلع، والمثقف) أنه انشغل بالتلقي عن الإنتاج فصارت أفكاره حبيسة رأسه فهو أشبه ما يكون بالنملة التي تجمع الحبوب وتكنزها، كذلك الحال بالنسبة للمثقف لا يمكن لغيره خاصة البعيد عنه أن ينتفع بفكره، وربما استفاد جلساؤه من طرحه وأفكاره ولكنها لا تترجم إلى أعمالٍ أدبية تثري الساحة وينتفع بها المتلقون بمختلف أطيافهم.

النوع الثاني من المتلقين: المفكر، وهو من وجهة نظري أعلى درجة من المطّلع والمثقف؛ لأنه مع اطلاعه وثقافته، فهو في نفس الوقت منتج، حيث يعمل عقله في تحليل ما تلقاه، ثم يعيد أو يبتدع أفكاراً وآراء جديدة من خلال التأليف بين الآراء التي اطلع عليها، ثم يقوم بعد ذلك بإخراج تلك الأفكار لتصبح أعمالاً أدبية يتلقفها المتلقون، وبهذا تستمر الحركة الأدبية والفكرية في المجتمع، وما لم تواصل العجلة وتستمر في دورانها بين متلقٍ ناقد ومفكرٍ منتج، وإلا فإن الحركة الأدبية والفكرية تتوقف أو تذبل بحسب قوة دوران العجلة ومدى تفاعل المتلقين وعددهم، بالإضافة إلى وجود بيئة صحية داعمة لتلك الحركة الأدبية والفكرية وهو محور حديثي في هذا المبحث، ولكن قبل ذلك لعلي أتطرق إلى الصنف الثالث من المتلقين.

النوع الثالث من المتلقين: المُصلِح، بغض النظر عن تصنيفه هل هو اجتماعي أم ديني أم سياسي، أم خلافه، إلا أنه الأسمى منزلة بين المتلقين فهو لا يكتفي بمتابعة ما يدور في مجتمعه وما يطرح من أفكار وما يستجد من قضايا ويطرأ من

أحداث، ولا حتى قيامه بعرض أفكاره وطرحها للمتلقي كما يفعل بقية المفكرين، بل إنه يتجاوز ذلك إلى قيامه بأعمال ونشاطات في مجاله أو أكثر من مجال في سبيل تحقيق تلك الأفكار ونشرها بين الناس وتحفيزهم والعمل على إقناعهم ليتبنوها ويأخذوا بها، ومن هنا فإنتاجه الفكري ربما يكون أقل ولكنه دقيق جداً ويسعى بكل ما أوتي من قوة لتلافي الخطأ مهما كان صغيراً؛ لأن ذلك لو حدث فسيفشل مشروعه ويسقطه، وهو في هذا الجانب يخالف المفكر الذي يلقي الفكرة ليبحث عن أخرى ولا يضيره أصابت تلك الفكرة أم أخفقت تلقفها المتلقون أم أهملوها، فهي بالنسبة له فكرة وليست مشروعاً، ومتى ما تحولت الفكرة لمشروع وسعى المفكر لنشرها فإنه يتحول إلى خانة المصلحين وربما المفسدين بحسب الفكرة وموقف الشريعة الإسلامية منها.

ولا أنسى أن أشير هنا إلى البسطاء والعامة من الناس وهم أولئك الذين وإن كان لهم اهتمامات بما يدور في الساحة من حراكات متنوعة إلا أن تلقيهم من خلال ما يطرح بوساطة وسائل الإعلام المختلفة وآراءهم تُبنى، وتوجهاتهم تُحدد، بحسب ما يطرحه المفكر الذي اتخذوه رمزاً وقائداً ورأى معظمهم أن الحق يجري على لسان، فما يقوله صواب، أما ما سواه فهو خطأ، وهذه الشريحة هي المعيار الحقيقي لمدى تقدم أو تخلف أي مجتمع، ويرى بعض المفكرين في زيادتها كسباً له ليقود الجماهير بالطريقة التي يريد دون تفكير من خلال تجييش عواطفهم وشحنها لقمع مخالفيه، على الرغم من الخسائر المعنوية والمادية التي يتكبدها المفكر في حال زيادة تلك الشريحة التي لا تتذوق ما يطرحه بشكل سليم وهذه خسارة معنوية، كما أنها لا تقتني إنتاجه بل تكتفي بما يقول من خلال وسائل الإعلام المختلفة، وفي هذا خسارة مادية.

أعود إلى الحركة الأدبية والفكرية التي عرفها إنسان الجزيرة منذ العصر الجاهلي وبرع خلالها في الشعر العربي الذي يعد أحد الأشكال الأدبية والفكرية، وحين أوحي إلى محمد ﷺ، بهر النص القرآني المقدس أرباب اللغة في تلك الفترة

وبرزت معه الخطابة بالإضافة إلى استمرار قيمة الشعر، وفي ذلك يقول الرسول - عليه السلام- في الحديث الذي يرويه كعب بن مالك: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل[1]) وهذا دليل على أهمية وقيمة العمل الأدبي وتوظيفه في محاربة الأعداء بجانب السلاح.

ما أوردته سلفاً ليس سوى دليل على أهمية العمل الأدبي وقيمته عند العرب منذ القدم ولو يتسع المجال للاستفاضة لفعلت، ولكني أكتفي بما ذكرت كشاهد، وأعرج على حال الأدب والأدباء في عهد الملك عبد العزيز - مؤسس البلاد عليه رحمة الله - حيث عرف عنه تقديره واحترامه لرجال العلم والأدب، وتشجيعهم على التفرغ لتعليم أبناء المملكة الفتية خاصة الهجر الجديدة التي كان أهلها عطشى للنهل من ينابيع المعرفة بكافة أشكالها خاصة العلوم الدينية منها.

ولعلي أعرض لطريقة الملك عبد العزيز حين يضم إلى سلطنته - في ذلك الوقت - مدينة أو منطقة جديدة، وأستشهد بالمدينة المنورة كأحد النماذج، فبمجرد ما بايع أهلها الملك عبد العزيز - رحمه الله - في شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) حتى قام ابنه الأمير محمد الذي عُين والياً للمدينة بدعم حلق العلم في المسجد النبوي، وفتح مزيد من المدارس الحكومية وتشجيع المجالس الثقافية، كما قام باستقطاب العلماء من مختلف البلدان الإسلامية للتدريس في حلق الحرم وباجتماع أولئك العلماء صار هناك مزيج ثقافي متنوع من أقطار إسلامية عديدة كالشام ومصر والمغرب العربي وغيرها، وهذا أسهم في توافد الطلاب من مختلف أرجاء المملكة للدراسة على أيدي أولئك العلماء الذين تخصصوا في مختلف العلوم والآداب، ولم تكن حلق الحرم النبوي تقتصر على مجال بعينه بل كانت تشتمل على عدة مجالات: بدءاً بالقرآن الكريم، والتفسير، والسنة النبوية المطهرة، وعلوم اللغة العربية المختلفة.

ما ذكرته عن المدينة أراه أنموذجاً لعدد غير قليل من المدن السعودية والكيفية التي جرت بها النقلة الأدبية والطفرة الفكرية التي شهدتها حياة المجتمع السعودي

(١) مسند الإمام أحمد، الحديث رقم (٢٧٢١٨)

بعد توحيد هذه البلاد مباشرة، وإن لم يكن المجال يسمح في ذلك الوقت بتغطية كافة أرجاء المملكة بنفس الطريقة التي عملت مع المدينة المنورة وبعض المدن الرئيسية، إلا أن هذا لم يحل دون توافد أبناء الهجر والمدن الأخرى ممن أنهوا دراستهم وتعليمهم الأولي للنهل من تلك المراكز الكبيرة كحلق المسجد الحرام والمسجد النبوي، بالإضافة إلى بعض المراكز العلمية المتقدمة ذلك الوقت والتي كان تأسيسها متأخراً حين نقارنها بحلق الحرم ومنها دار التوحيد التي تأسست سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) بالإضافة إلى معاهد علمية أخرى أثرت الحركة الأدبية والفكرية السعودية في كافة أرجاء البلاد. كما لقيت مدن أخرى نفس الاهتمام الذي لقيته مدينة رسول الله - عليه السلام- من الناحية الثقافية ومنها محافظة الطائف التي شهدت نشأة أول مكتبة في العهد السعودي سنة ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م)، بالإضافة إلى مكتبة المؤيد التي أنشئت سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) والتي كانت بمثابة منتدى للمثقفين من أرجاء المملكة ومن الجزيرة العربية، حيث يتدارسون البلاغة وصنوف الأدب والتاريخ حتى تأسس النادي الأدبي عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)، أسسه عدد من مثقفي الطائف منهم: الدكتور حمد الزيد وعلي العبادي ومحمد خلف الزايدي ومحمد سعيد كمال وعبدالله المهنا ونخبة من الأدباء، وكانت قبل ذلك كله قد اتخذها الملك عبد العزيز مصيفاً منذ سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) وأسهم ذلك في النهضة الأدبية التي شهدتها تلك المحافظة حيث كان رحمه الله يجمع الأدباء والشعراء[١].

كما كان للملك عبد العزيز مجلسان: الأول خصص للعلماء يعقد في صباح يوم الخميس من كل أسبوع تقديرا للعلم وأهله. والثاني عام لجميع أفراد الرعية، وهذا المجلس مفتوح لمن أراد أن يسلم على الملك أو يطلب منه معونة أو يتظلم من أحد، ولم يقتصر المجلس على هذا الأمر بل كان منبرا ثقافيا من الدرجة الأولى، ومصدراً للأخبار العامة والسياسية والاجتماعية وغيرها والتعليق عليها، ومكانا

(١) نقلته بتصرف من حوار أجرته صحيفة الرياض مع الكاتب والمؤرخ / عيسى علوي القصير، ونشر في عددها ذي الرقم ١٤٧٦٧ الصادر بتاريخ ١٤٢٨/١١/٣٠هـ.

للأدب والشعر حيث تلقى فيه بعض القصائد، وكان أيضا مجلسا للقضاء والإدارة والحكمة[١].

وحين أتحدث عن الأدب والفكر[٢] لدى المجتمع السعودي أرى أن من المهم أن أتطرق إلى بعض الحراك الفكري الذي يظن بعض المتلقين أنه حديث على المجتمع السعودي وهو ليس كذلك. وقد قمت بتقسيم هذا الحراك الفكري منذ فترة ما قبل التأسيس بقليل حتى يومنا هذا إلى أربع مراحل، وهذه المراحل تخدم متلقي الدراسة في تصور شيئ من المتغيرات الثقافية، مع العلم أنه بالإمكان التوسع في تقسيم المراحل لتشمل جوانبً كثيرة لم أشر إليها وقد قصدت من استشهاداتي ونقولاتي إعطاء نماذج للمتغيرات الثقافية في جانبي (الفكر والأدب)، وقد كانت المراحل على النحو التالي:

المرحلة الأولى للتغير الثقافي: ١٣٤٠هـ إلى ١٣٨٠هـ (١٩٢١م) ١٩٦١م)

حيث عرفت مصطلحات فكرية ما زالت متداولة حتى اليوم ـ كالحداثة[٣]

(١) مجلة الحرس الوطني العدد ٣١٧ بتاريخ ١٤٢٩/٩/١هـ مقالة بعنوان (منهج الملك عبد العزيز في تأسيس المملكة العربية السعودية) للكاتب منصور بن صالح اليوسف.

(٢) أرى أن الأدب يمثل المادة الثقافية بأنواعها، أما الفكر فهو من يصنع المادة الأدبية ويتلقاها وينتقدها.

(٣) الحداثة مفهوم شائك كلٌ يراه بطريقته ومن الصعب جداً أن تجد مجموعة من الباحثين يتفقون على تعريف له، وبناء عليه تختلف طرق التعاطي مع هذا المفهوم بحسب نظرة الشخص للحداثة والتعريف الذي يتبناه ويرى أنه مناسب له ، فعلى سبيل المثال حين هاجم الدكتور عوض القرني الحداثيين في كتابه الحداثة في ميزان الإسلام، كان يرى بأن أصل الحداثة ونشأتها مذهب فكري غربي، انتقل إلى بلاد المسلمين، وأن الحداثيين العرب حاولوا بشتى الطرق والوسائل أن يجدوا لحداثتهم جذوراً في التاريخ الإسلامي، فما أسعفهم إلا من كان على شاكلتهم من: ملحد أو فاسق أو ماجن مثل : الحلاج، وابن عربي، وبشار، وأبي نواس، وابن الراوندي، والمعري، والقرامطة، وثورة الزنج، ويضيف القرني: بأن كل ما يقوله حداثيونا، ليس إلا تكراراً لما قاله حداثيو أوربا وأمريكا، ورغم صياحهم وجعجعتهم بالإبداع والتجاوز للسائد والنمطي ـ كما يسمونه ـ إلا أنه لا يطبق إلا على الإسلام وتراثه، أمّا وثنية اليونان وأساطير الرومان وأفكار ملاحدة الغرب، حتى قبل مئات السنين، فهي قمة الحداثة وبذلك فهم مجرد نقلة لفكر أعمدة الحداثة في الغرب. وبنفس المعنى يفهمها آخرون كالنحوي والبازعي، بل إن هناك من يقول إن من معاني الحداثة إقصاء الدين من الحياة لأنه قائم على غيبيات لا يمكن التثبت منها. وعلى الجانب الآخر يقف الدكتور عبد الله الغذامي الذي يصر على أنه ليس للحداثة تعريف محدد، ويذكر في كتابه (حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية): أن الحداثة حالة فكرية كلية تشمل الأفكار والوعي مثلما تشمل أنماط المعاش والإدارة، ولكل بيئة اجتماعية أو فكرية تعريفها الخاص بها ، بل إن لكل حداثي تعريفه الخاص به الذي لا يشترك فيه معه أحد سواه، فمثلاً أدونيس، وزوجته خالدة =

وما بعد الحداثة[1] ـ اللتان تأتيان على رأس تلك النقلات الفكرية حيث عرفت

= سعيد اشتغلا بالحداثة، ولكل منهما تعريفه الخاص، بل إن أدونيس نفسه يقدم تعريفات متنوعة، تبلغ أحيانا حد التناقض، ويبسط الغذامي معنى الحداثة فيقول: إنها التجديد الواعي. ومن هنا فأنا أظن بأن الحداثة التي يستخدمها المفكر السعودي ذو الفطرة السليمة تختلف بالتأكيد عن تلك التي يتبناها المفكر الغربي الملحد، إذا استثنينا كتابات عبد الله القصيمي. وأرى بأن الحداثة ـ حتى لو اختلف معي بعض المختصين ـ ما هي إلا الوجه القديم لما يتبناه المتحررون السعوديون في زمننا الراهن، فأنت إن أخذت الليبرالية السعودية وقستها بالليبرالية الغربية ستجد البون شاسعاً، وأظن الشيء نفسه بالنسبة للحداثة الغربية والحداثة السعودية التي لا تختلف حداثتها عن ما بعد حداثتها. ولهذا فإن جميع الأدباء والمفكرين السعوديين الذين أستشهد بهم في هذا الكتاب، (باستثناء من صرح بكلام يخرج عن الملة بالإجماع) لا أراهم سوى متحررين من نسق مسيطر في وقته ولم يكن تحررهم ومطالباتهم لتدخل ضمن المفهوم الذي يتبناه القرني، الذي رأى الحداثة بمفهومها الغربي، ولكن أظن من الإنصاف أن لا نطبق ذاك المفهوم على من يشهد الجماعة ويصوم ويصلي ويظهر محبته وإخلاصه لدينه ووطنه ويسعى للإصلاح والتغيير والتجديد بطريقة لا تتنافى مع الدين، حتى ولو تنافت مع النمطية السائدة.

(١) امتداداً لحديثي حول الحداثة واختلاف الآراء حولها، رغبت أن أعطي القارئ الكريم أحد الآراء التي تطرقت لمفهوم الحداثة وما بعد الحداثة، حيث يقول الدكتور راشد بن حسن العبد الكريم في بحثه الموسوم بأثر ما بعد الحداثة في التعليم: بأن المنهج ما بعد الحداثي لا يرفض الغيبيات أو يقلل من قيمتها كما تفعل الحداثة، بل يعترف بها وربما يشجعها، لكن ليس على أنها حق، أو حقائق مطلقة، بل على أنها ثقافة شكلتها منظومة اجتماعية خاصة. ويجب أن لا تتعدى إطار تلك المنظومة. فموقف ما بعد الحداثة من الدين يختلف عن موقف الحداثة. ففي حين أن الحداثة تنظر إلى الدين على أنه أمر غير علمي، حيث إنه قائم على افتراض وجود كائنات غيبية (ميتافيزيقية) لا تدخل تحت ما يمكن التحقق منه بالحواس وإدخاله تحت نطاق التجربة، فأصبح في حس الحداثيين أن الدين خرافة بمعنى أنه مناقض للعلم. أما مذهب ما بعد الحداثة فيرى صحة جميع الأديان. لا من حيث إنه يعترف بالوحي أو بوجود الإله، بل من حيث أنها جميعا بنى ثقافية، ولا أحد يملك أن يحكم عليها بأنها خطأ. فكل أصحاب دين يعدّ دينهم حقاً بالنسبة لهم. لذلك لا تحارب ما بعد الحداثة الأديان بل تشجعها، بأي شكل كانت، وتدعوا للتعايش بين الأديان جميعها دون استثناء، وترى أنها سواسية، إذ إنها ترى أنه ليس لدى أحد معيار مطلق يمكن أن يقاس به الدين الحق من الباطل. ومن المهم أن أنوه هنا عن أن من يفهم منه مثل هذا الكلام يجب أن يستوضح مراده وأن يبين له من خلال النقاش والحوار الهادف، بأن هذا الكلام حول الأديان لا يصح، وأنها ليست سواسية كما يقول ما بعد الحداثيين، والكلام في هذا يحتاج لتفصيل، وليس المقام يصلح له، ولكني أنصح أضداد الحداثة بالتروي وعدم الاستعجال، كما أشير على من اندفع من أنصار الحداثة وما بعدها بمزيد من التبصر ومناقشة العلماء في كل ما يتعلق بالأمور الشرعية، فإن وجدت خلافاً فلا حرج بأن تأخذ بالقول الذي تطمئن به نفسك، أما إن كان الأمر مجمعاً عليه فالزم الجماعة ولا تتخلف عنها وتذكر أن (الذئب يأكل من الغنم القاصية). وهذا لا ينازع حق الباحثين والمفكرين والمبدعين في الابتكار والتجديد ولكن وفق الضوابط الشرعية.

الأولى منذ عهد الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وكان أبرز روادها في تلك الفترة الأديب محمد حسن عواد[1] ، الذي يقول عنه علي الدميني: «وحين أفتح صفحات التاريخ الذي لم أعايشه، فإنني أود الإشارة إلى تجربة رائد التجديد والنزوع نحو الحداثة في بلادنا، وهو الأستاذ المرحوم محمد حسن عواد الذي عبَّر عن ذلك التشوف الحي نحو الحداثة ونافح عنه، واحتمل تبعات موقفه الثقافي والجمالي والسياسي. ومحاولته بحسب الشاعر إبراهيم الحسين بخطاب إخراج المجتمع من معضلة التمركز حول الذات، وأن يؤسس منذ زمن بعيد لخلق مناخ ثقافة الحوار والعقلانية والانفتاح على الآخر، ولكن قوى المحافظة أفرادا وجماعات وأدت تلك الصرخة العقلانية المبكرة، وقادت حملة شعواء ضد صاحبها، حيث منع كتابه من التداول، وكاد ان يودع السجن لولا تدخل بعض العقلاء، حسب ما أورده ضياء عزيز في حوار معه لمجلة النص الجديد».[2] ويذكر المؤرخون أن محمد حسن عواد قد خاض في حياته العديد من المعارك الأدبية الحامية التي اندلعت في الحجاز بين المجددين والتقليديين، وفيما بين المجددين أنفسهم، لعل أشهرها سجاله الحامي مع حمزة شحاتة ـ الذي سأعرض لشيءٍ من حياته في الصفحات القادمة. وقد عرّضته جرأة طرحه إلى تكفير المؤسسة الدينية الرسمية له والمطالبة بنفيه إلى خارج البلاد بعد طرحه لكتاب خواطر مصرّحة.[3] بل وصل الأمر إلى قيام بعض

(١) محمد حسن قاسم عواد، من مواليد محافظة جدة عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٥م) وتوفي بها عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م) يعدّ واحداً من أبرز الشعراء السعوديين الأوائل، كان عضوًا بمجلس الشورى ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) ورئيساً لتحرير مجلة الحج ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م)، وشارك في تأسيس النادي الأدبي بجدة الذي كان نواة لما أنشئ من نواد أدبية فيما بعد في المملكة. له عديد من الدواوين، منها: آماس وأطلاس، وفي الأفق الملتهب، وقمم الأولمب وغيرها الكثير من الدواوين الشعرية، من أبرز مؤلفاته: (خواطر مصرحة) صدر عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)، ويعد من الشعراء الساعين للتجديد في القصيدة العمودية، عدّ واحدًا من رواد قصيدة التفعيلة ومن رواد حركة التنوير. انظر (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين).

(٢) مقتطف من ورقة ألقاها علي الدميني كمحاضرة في ملتقى رابطة أدباء وكتاب البحرين بتاريخ ٢١/١٠/١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م). نشر شيء منها في العدد ٤١ من المجلة الثقافية الصادرة بتاريخ ٦/١١/١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).

(٣) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) محمد حسن عواد.

معارضيه بمراسلة الملك عبد العزيز يطالب برأس عواد أو سجنه على الأقل أو نفيه بسبب أفكاره، إلا أن الملك أحال الرسالة إلى نائبه في الحجاز آنذاك-الأمير فيصل- فكان رده أن الفكر يقارع بالفكر.[1]

ولو تساءلنا عن سبب تلك المعارضة والمطالبة بالتكفير والنفي والسجن لوجدناها تتضح أولاً من فكر محمد حسن عواد الذي يقول في كتابه المثير للجدل (خواطر مصرحة) «كم جلبت لنا من المصائب تلك العمائم المشيدة فوق الرؤوس»، وفي موضع آخر يقول للنساء: «زحزحن بأيديكن الحجاب الدخيل على عادات العرب ومبادئ الدين».[2] بينما يراها الدكتور سحمي الهاجري، من وجهة أخرى فيها الكثير من التسامح والتبرير لعواد حين يكتب قائلاً: بعد صلاة الظهر في أحد أيام عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)، وقف مدير مدرسة الفلاح بجدة الشيخ حسين مطر، وأعلن أمام الطلاب أن محمد حسن عواد كان تاجا على رأس هذه المدرسة، ولكنه بعد أن أصدر كتابه (خواطر مصرحة) فقد مكانته فيها. كانت هذه هي اللحظة الفاصلة والشرارة الأولى في خطاب التنوير النقدي والإبداعي، حيث تكشف عبارة مدير المدرسة كيفية اشتغال المنظومة التي تحكم المجتمع في ذلك الوقت، كان يراد للعواد أن يظل (تاجا على رأس المدرسة) أي مجرد (إكسسوار)، أما وقد تعرض بعمق للمنظومة السائدة فإنه قد فقد حتى هذه الميزة الشكلية.[3] ولكن بين هذا وذاك يتحدث عواد بنفسه فيقول: وجدنا في تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب النور والحرية والإشراق والصراحة، وأخذ الدين كرباط ونظام، ووجدنا في تعاليم مدرسي مدرسة الفلاح العبث وإضافة الخرافات والتزيدات والمزايدات التي ما أنزل الله بها من سلطان. ويعلق الدكتور الهاجري على ذلك فيقول: كانت

(١) تحقيق أجرته قناة العربية بواسطة محررها حيان نيوف ونشرته في موقعها على الإنترنت بتاريخ ١٤٣٠/١٠/٤هـ (٢٠٠٩م) مع مجموعة من المؤرخين، وكان بعنوان (مسيرة الكتاب السعودي في عهد مؤسس الدولة السعودية الثالثة الملك عبدالعزيز آل سعود).

(٢) تحقيق قناة العربية (مرجع سابق).

(٣) مقالة للدكتور سحمي الهاجري نشرت في مجلة الجزيرة الثقافية الاثنين ١٤٢٥/٩/٤هـ العدد ٨١.

البلاد في حالة تأخر شديد، ويكفي للتدليل على ذلك أن العواد في هذا الكتاب كان يتمنى أن تكون جدة وأهلها في مستوى أسمرة، أو السويس، أو بور سودان؛ وهذا جعل الملك عبد العزيز ينتهج سياسة واقعية مبنية على معرفته العميقة بتعقيدات المعادلة المحلية والإقليمية والدولية، فاتجه نحو الإنجاز الهادئ المتدرج، وبناء الدولة على أسس حديثة مما ألهم قوى الشعب الحية المتطلعة إلى حياة أفضل وجاء ذلك على المستوى الإجرائي بإعطاء هامش من الحرية للأدباء الشبان اتضح أثره في تعبيراتهم. ويقول العواد في استرجاعه لذكريات تلك الفترة: لقد أصبح هناك عملية فرز، وروحية جديدة في البلاد، مع وجود حالة جديدة خلقتها رغبة السلطة السياسية في إرساء دعائم الدولة الناشئة، ويضيف: ولكن انفتاح السلطة السياسية، يقابله انغلاق اجتماعي شديد، وبالرغم من إرادة قومي تجرأت، وهذا يدل على أن هامش الحرية الذي وفرته الدولة لم يكن يقابله تسامح اجتماعي، وهو ما عناه العواد حين وصف نفسه في موضع آخر من كتابه بأنه كاتب حجازي محدود الحرية، ولكن حين يكون تغول المجتمع شديدا ضد الفرد، أو مجموعة أفراد متجانسين، يتحول جزء من تغول الدولة في العادة إلى منافسة تغول المجتمع، لأنه لا يجتمع سيفان في غمد، وفي هذه المنطقة تلتقي بالمصادفة البحتة مصلحة هؤلاء الأفراد المتنورين مع مصلحة الدولة، كان هذا ما حدث في تلك الفترة، ولذلك كان الظرف السياسي مواتيا لتكون لهذه المجموعة من الأدباء شخصيتهم المستقلة، وصوتهم المسموع، حتى ولو كان معاكسا لعادات المجتمع وممارساته.[١]

ومن يذكر محمد حسن عواد، لابد أن يذكر رفيقه وخصمه حمزة شحاتة[٢]، الذي ولد في مكة المكرمة عام ١٣٢٨هـ (١٩٠٩م) وكان من رواد الحداثة والمؤسسين

(١) مقالة للدكتور سحمي الهاجري، (مرجع سابق).

(٢) حمزة شحاتة شاعر وأديب سعودي من رواد الشعر الحداثي في المملكة، من أبرز مؤلفاته الرجولة عماد الخلق الفاضل- محاضرة أخلاقية، نشرتها دار تهامة عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م)، رفات عقل- نثر فلسفي رائد، حمار حمزة شحاتة - نثر فلسفي، إلى ابنتي شيرين- تحفة في أدب الرسائل الرومانسية، إضافة إلى العديد من القصائد والأعمال النثرية الفلسفية والآراء الفكرية. (الموسوعة الحرة، ويكيبيديا).

لها، وكتبت عنه حليمة مظفر تصف فحولته وغزارة ما لديه: بأنه ألقى محاضرة وسمها بـ (الرجولة عماد الخلق الفاضل) في جمعية الإسعاف الخيري بمكة المكرمة منذ ما يزيد عن نصف قرن استمرت خمس ساعات، وكان حينها في الثلاثين من عمره، وهو ما أثار اندهاش شيوخ ومثقفي تلك الفترة في بلاغة الرجل رغم صغر سنه، حتى أن الحضور كانوا قد صفقوا له أكثر من ٣٠ مرة بحسب إشارة صديقه الأديب الراحل عزيز ضياء وكان ذلك دليلا أكيدا على ما حمله الرجل من أبعاد فكرية عبقرية لم يُعن بها.[(١)]

يقول محمود عبد الغني صبّاغ: أهديت الشاعر أدونيس مختارات أدب الرواد بالسعودية، ليأتي اتصاله فيما بعد، مُنوهاً بقراءته لديوان حمزة شحاتة كاملاً، وعنها يقول في شهادة تبدو جوهرية وحاسمة، إلى أن «حمزة شحاتة أهم من كل شعراء مصر في فترته، مُضيفاً، أنه لا يبالغ إذا صنفه من قيمة أحمد شوقي، ومحمد مهدي الجواهري، هذا إن لم يبزهما». ويعلل صباغ أهمية تلك الشهادة لما لأدونيس من قيمه كأحد أكابر مثقفي الحداثة في وقتنا الراهن، في مجالات الشعر، والفكر، والابتكار الإبداعي وفي نقد التراث ومُساءلته. ويضيف صباغ: بأن بيان حمزة شحاتة الشعري يتموضع في صميم الحداثة، ولا يصح أن يفقد مكانته المركزية في الأدب العربي؛ فقط لأجل جهل المشهد العربي بمصادر الأدب السعودي، كما أن حداثة الشعر لدى الشحاتة تكمن في انفتاحه على الحضاري المُتنوع. وفي مشروع النهضة، الذي مَثلَه بيانه الشعري، بكل تجلياتها الفكرية والسياسية والأيديولوجية. إن شعره كان تأسيساً، لا مجرد تعبير. إذ يختلف شعر الشحاتة، عن شعرِ أغلب الرواد، في أنه لم يكن وسيلة تبشير بضوء ما، بل كان هو الضوء نفسه.

---

(١) انظر مقالة بعنوان (حمزة شحاتة بطل الخطيئة والتكفير رحل إلى السماء حاملا غربته معه) نشرت في صحيفة الشرق الأوسط العدد ٩٩٦٩ الصادر بتاريخ ١٤٢٧/٢/١٤هـ (٢٠٠٦م).

الشحاتة كان صاحب الأسئلة الخلاّقة التي تُربك النسق والنمط، وتخوض المغامرات الشعرية والنثرية الكبرى. فلا تصالح أطر الثقافة السائدة على حساب الضروري الحضاري، ويورد الصبّاغ وصية أدونيس: أن نعتني بالشحاتة، ويذكرها نصياً: «لديكم هذا العملاق. أخرجوه من عزلته، جالبٌ للحسرة أن تبقوه عُرضة للطمس والتهميش». ثم يختم صبّاغ مقالته بقوله: كان أدونيس يشدّ على يديّ، مُبتهجاً، كما روحه الشابة المُحلّقة المُتفائلة دائماً: «إن أمل المستقبل منوطٌ بكم معشر الناشئة والشبان، لا تلتفتوا لمثبطات التقليديين ولا تنتظروا مبادرات الموظفين في مؤسسات الثقافة الرسمية».[1]

ومن أقوال حمزة شحاتة: (الرذيلة لا تنتصر إلا متى كان صوتها قويا، وصوتها لا يكون قويا إلا إذا نفخت في بوق الفضيلة.) وقوله: (كانت القوة في الرجل مصدر الإعجاب والتقديس، والقوة ما تعرف الهوادة في تأمين سبيل حياتها ومطالبها).[2]

وحين الحديث عن الأدب والفكر وحتى الحداثة لابد من الإشارة إلى عبد الله بن علي القصيمي[3]، الذي يحتار كثيرون في تصنيفه؛ فهل يمكن أن يصنف على

(١) مقالة بعنوان مئوية حمزة شحادة، وشهادة أدونيس، للكاتب محمد عبد الغني صبّاغ، نشرت في صحيفة الوطن العدد ٣٢٥٢ الصادر بتاريخ ١٤٣٠/٩/٤هـ.

(٢) هذه الأقوال وردت في خطبته الشهيرة (الرجولة عماد الخلق الفاضل) التي كما ذكرت أمضى خمس ساعات كاملة وهو يلقيها. نقلاً عن الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)

(٣) التحق عبد الله القصيمي بجامعة الأزهر في القاهرة عام ١٣٥٦هـ (١٩٤٧م)، ولكنه فصل منها بسبب تأليفه لكتاب (البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية) رداً على مقالة عالم الأزهر يوسف الدجوي (التوسل وجهالة الوهابيين) المنشورة في مجلة نور الإسلام الصادرة عام ١٣٥٠هـ ١٩٣١م، له العديد من المؤلفات المثيرة للجدل وعلى رأسها كتاب هذه هي الأغلال، وكتاب شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام، وكتاب الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم، وكتاب مشكلات الأحاديث النبوية، وكتاب العالم ليس عقلاً، وكتاب كبرياء التاريخ في مأزق، وكتاب هذا الكون ما ضميره، وكتاب أيها العار إن المجد لك، وكتاب فرعون يكتب سفر الخروج، وكتاب الإنسان يعصي..لهذا يصنع الحضارة، وكتاب عاشق لعار التاريخ، وكتاب الكون يحاكم الإله، وغيرها من المؤلفات. وبسبب ما أثارته تلك المؤلفات من إشكالات ثقافية تناولته دراسات أكاديمية منها رسالة دكتوراه لأحمد السباعي بعنوان (فكر عبد الله القصيمي)، ودراسة للألماني «يورغن فازلا» بعنوان (من أصولي إلى ملحد).

أنه مفكر حداثي متمرد، أم بما هو أبعد من ذلك بكثير، والحقيقة أنني كنت مترددا ًجداً في أن استشهد به؛ فهو شخص اتفق الجميع على أنه مختلف ومشكل في الوقت نفسه، ولكني ملت إلى أن أذكر شيئاً حوله؛ بحكم أنه يمثل فكراً مختلفاً وأعده حالة من حالات التغير في المجتمع السعودي في حقبة التأسيس الأولى، ومؤثراً حتى في الأجيال التالية وما رأيت أثناء بحثي بأكمله شخصاً مثيراً للجدل أكثر منه، ولا أجدني أشفقت على أحد أكثر مما أشفقت عليه؛ لأسباب ستجليها الأسطر التالية من الحديث حوله، كما أني وجدت أن له أنصاراً ومعجبين وعناية بكتبه ومؤلفاته واحتفاءً لم أجد أحداً من أقرانه في الفكر - رغم البون الشاسع بينه وبينهم - يحظى بها.

ولد عبد الله القصيمي في مدينة بريدة عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٥م) وتوفي ودفن في مصر عام ١٤١٦هـ (١٩٩٦م)، يعد واحداً من أكثر المفكرين العرب إثارة للجدل بسبب انقلابه من موقع النصير والمدافع عن السلفية إلى واحدٍ من أكثر الناس اختلافاً معها، وبسبب مؤلفاته التي تهاجم العرب، ومن أشهرها العرب ظاهرة صوتية[1].

ألف كتاباً أسماه الصراع بين الإسلام والوثنية عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) فأعجب به كثيرون ممن قرأوه ومنهم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح أمام المسجد الحرام وخطيبه ومدير دار الحديث بمكة فقال فيه قصيدة:

ألا في الله ماخط اليراع لنصر الدين واحتدم الصراع
صراع لا يماثله صراع تميد به الأباطح والتلاع
صراع بين إسلام وكفر يقوم به القصيمي الشجاع
خبير بالبطولة عبقري له في العلم والبرهان باع
يقول الحق لا يخشى ملاماً وذلك عنده نعم المتاع
يريك صراعه أسداً هصوراً له في خصمه أمر مطاع

(١) للمزيد حول القصيمي انظر الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

كـأن بيانه سيل أتـيّ تفيض به المسالك والبقـاع
لقد أحسنت في رد عليهم وجئتهم بما لا يستطـاع[١]

يقول القصيمي في كتابه المثير للجدل (هذه هي الأغلال): إن المسلمين يقفون أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يستفيدوا من التراث العلمي للبشرية أو أن يبقوا متخلفين جهلة، ولكي يتخلصوا من الركود الذي هم فيه، ما عليهم إلا أن يعرفوا أنه لا يوجد معرفة ضارة ولا جهل نافع، وأن كل الشرور مصدرها الجهل وكل الخير مصدره المعرفة.

كتب عنه العراقي حمزة الحسن ومما قال: قيل عن القصيمي أكثر من مرة لو أن الأجيال العربية درست القصيمي في المدارس لدخلنا عصر الحداثة. ولكن المؤسسة العربية عرفت بعد طول خبرة كيف تحمي نفسها من هذا المتمرد وأمثاله وكل سلالات العصيان إما بالاغتيال المادي، تصفية الجسد، أو بالاغتيال الرمزي أي تصفية الصوت، أو بالتشنيع الأخلاقي، وهذا الأخير ـ حسب المفكر ميشيل فوكو ـ هو شكل قديم من أشكال الاغتيال الاجتماعي القذر الذي يقوم لا على إخفاء الجسد ولا إخفاء الصوت، بل على التلويث والوصم، لكي يدخل في نسيج البشاعة العام.[٢]

وفي مقدمة الحوار الذي أجراه معه الشاعر والمفكر أدونيس في مجلة (لسان الحال) عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م) تحت عنوان (الخرافة، الغباء، الطغيان) يقول أدونيس: لا تستطيع أن تمسك بالقصيمي ـ فهو صرّاخ يقول كل شيء ولا يقول شيئا. يخاطب الجميع ولا يخاطب أحدا. إنه الوجه والقفا، ثائر ومتلائم، ملتزم وغير ملتزم، بريء وفتاك، وأنت عاجز عن وصفه؛ فهو بركان يتفجر، والحمم

(١) مقتطف من مقالة كتبها من يسمي نفسه صخرة الخلاص بين عامي ١٤١٩هـ ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م) ونشرت في موقع صيد الفوائد وبها معلومات وافرة حول القصيمي ويمكن الوصول إليها على الرابط التالي http://www.saaid.net/arabic/ar74.htm

(٢) مقالة للكاتب العراقي حمزة الحسن، بعنوان (عبد الله القصيمي، المتمرد القادم من الصحراء) نشرت في العدد ٣٥٧ من مجلة الحوار المتمدن – الصادرة ١/١١/١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م).

كلمات تحرق، لكن فيما تزرع العشب، فهو تيار جامح مهيب من المد والجزر، من الانقراض والانبعاث، مسكون بشحنة الاحتجاج، متناقض ومنطقي، معتم وصاف، كأنه الرمل وقطرة المطر، هكذا تتقاطع في صوته أصداء كثيرة: من هيراقليطس، وحتى العبثية مرورا بنيتشه وماركس، لكنه يبقى غريباً أصيل النبرة والبعد، حتى ليصعب أن يوصف العربي الذي لا يقرأه بأنه مثقف أو بأنه يحيا على هذه الأرض. فعبد الله القصيمي في الفكر العربي حدث ومجيء؛ حدث لأن صوت هذا البدوي الآتي من تحت سماء المدينة ومكة، صوت هائل فريد؛ ومجيء لأن في هذا الصوت غضب الرؤيا والنبوءة.[1]

يشبّه خالص جلبي القصيمي بنيتشه فهو ذلك المزيج العجيب من العبقرية والجنون، فليس هناك من رجل يمثل مأساة مزيج العبقرية والجنون مثل نيتشه؛ فقد بدأ حياته ثائرا، ثم كتب ما تفوح منه رائحة العبقرية وختم حياته بالجنون.[2]

ولتكتمل الصورة حول المفكر القصيمي كأحد أبرز النماذج التي أسهمت في نوع من التحول بالنسبة لمجتمعنا في بداياته وما زال تأثيره قائماً حتى لو أنكره بعضنا، فالروايات اختلفت حول نهاية ذلك المفكر فمنهم من قال: بأنه ختم حياته بهدوء يقدم النصائح ولا ينفك عن قراءة القرآن وهو ما تذكره السيدة آمال عثمان المسؤولة الإدارية عن قسم كبار السن في مستشفى فلسطين في مصر الجديدة، الذي كان يتعالج فيه المفكر القصيمي، وفيه قضى نحبه، تقول: لقد كان العم عبد الله القصيمي، طيباً محترماً يخاطبنا نحن العاملين القائمين على خدمته بلغة راقية شاعرية، وكان يقول: إنكِ إذ تمشين فإن الأرض تدعو لك، وكان يدعو لنا بالتوفيق، ونصحنا كثيراً بأن نعيش بسلام ووئام، وأن نترفع عن الصغائر والضغائن، وقال لنا: إن الله يراقبنا من فوق، فعلينا أن نطهر قلوبنا من الحقد والحسد، وأضافت

---

(١) مقالة الكاتب العراقي حمزة الحسن (المرجع السابق)

(٢) مقتطف من مقالة لخالص جلبي، بعنوان (السباحة بين العبقرية والجنون) نشرت في صحيفة إيلاف بتاريخ ١٤/٥/١٤٣١هـ الموافق ٢٨/٤/٢٠١٠م.

السيدة آمال تقول: دخل الشيخ عبد اللّه المستشفى في يوم ١٤١٦/٧/٢٠هـ (١٩٩٥/١٢/١٢م) وخرج بعد شهر تقريباً، وعن الكيفية التي كان المفكر يقضي بها وقته إذا لم يكن لديه زائرون، قالت: كان يقضي وقته في قراءة القرآن الكريم، الذي كان بجانبه طيلة إقامته في المستشفى، وأضافت تقول: إنه في بعض الأحيان يقرأ القرآن الكريم بصوت مرتفع ويرتله ترتيلاً، ويؤكد تلك النهاية للقصيمي ابنه محمد القصيمي حيث يقول: بأن والده قضى أيامه الأخيرة في مستشفى فلسطين يقرأ القرآن الكريم أغلب الوقت.[١]

ولكن على الجانب الآخر يذكر عبد اللّه القفاري بأنه سأل صديق القصيمي، المحامي المصري إبراهيم عبد الرحمن، عن صحة تحول القصيمي عن فكره في آخر أيام حياته وهو على فراش الموت، وأنت القريب منه حتى تلك الساعات الأخيرة في مستشفى فلسطين حيث ودع الحياة. فأجابه: بأن تلك كذبة جميلة، روج لها البعض ليمرر اسم القصيمي على صفحات الصحف في وقت كانت الكتابة عن القصيمي مشكلة بحد ذاتها، لقد حسم عبد اللّه القصيمي منذ وقت مبكر خياراته، لقد كانت كذبة جميلة تستهوي من يبحث عن فكرة التائب العائد لكنها ليست هي الحقيقة على الإطلاق.[٢] ورغم ذلك فيذكر القفاري بأن القصيمي كتب يوماً يقول: «إيماني باللّه والأنبياء والأديان ليس موضوع خلاف بيني وبين نفسي أو بيني وبين تفكيري. ولا ينبغي أن يكون موضوع خلاف بيني وبين قرائي.. ولو أردت من نفسي وعقلي أن يشكا لما استطاعا، ولو أرادا مني أن أشك لما استطعت. ولو أني نفيت إيماني لما صدقت أقوالي. فشعوري أقوى من كل أفعالي، إن الحقائق الكبرى لا تسقطها الألفاظ، كذلك الإيمان باللّه والأنبياء والأديان من الحقائق القوية التي

---

(١) انظر الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) نقلاً عن صحيفة إيلاف الإلكترونية.

(٢) مقالة بعنوان (خمسون عاماً مع عبد اللّه القصيمي) للكاتب عبد اللّه القفاري، نشرت في ثلاث حلقات في صحيفة الرياض كانت تحمل تساؤلات للكاتب أجاب عنها صديق المفكر عبد اللّه القصيمي، المحامي المصري إبراهيم عبد الرحمن اقتطفت منها شيئاً مما جاء في الحلقة الثالثة التي نشرت في العدد ١٤٦٠٢ بتاريخ ١٤٢٩/٦/١٢هـ (٢٠٠٨م).

لا يمكن أن تضعفها أو تشك فيها الكلمات التي قد تجيء غامضة أو عاجزة أو حادة لأن فورة من الحماس قد أطلقتها. إن إيماني يساوي: أنا موجود، إذن أنا مؤمن. أنا أفكر، إذن أنا مؤمن. أنا إنسان إذن أنا مؤمن».[1]

ولا يمنع هنا أن أقول بأن رأيي الشخصي يرجح أن القصيمي انتقل من هذه الدنيا مؤمناً موحداً لسببين: أولهما شهادة البسطاء في المستشفى الذين لا يهمهم فكر القصيمي، والذي ربما (وأؤكد على ربما) يخشى بعض معتنقي الفكر اندحاره بتخلي أحد رواده عنه، ولهذا قد تأتي شهادتهم مجافية للحقيقة بغض النظر عن أية عواقب أخرى فهمهم في المقام الأول الترويج للفكر الذي اعتنقوه، وتمسك الرواد والأتباع وموتهم عليه هو سبيل نشره والترويج له. والأمر الآخر: أن من عرف الحق حتى ولو ابتعد عنه فيرجى له أن يعود إليه خاصة وأن للقصيمي محاولة للعودة في عهد الملك عبد العزيز، ولكن لم يكتب لها التوفيق وسأعود إليها لاحقاً. ولكن المهم بالنسبة للمتلقي (فكر القصيمي) لا شخص القصيمي، ففكره قسمان قسم منه سلفي بحت أظنه إن لم ينفع القارئ فلن يضره ويشمل كتبه أثناء وجوده في المملكة وبدايات سفره إلى مصر أي ما قبل ١٣٦٥هـ (١٩٤٧م). أما القسم الثاني من فكره فأنصح القارئ باجتنابه إلا إن كان باحثاً له غايات تستدعي الاطلاع على ذاك الفكر، أما من يريد قراءة الفكر لمجرد الاطلاع فأنصحه بعدم فعل ذلك، فمهما فعل الإنسان خاصة صغير السن وقليل العلم فلابد أن يصاب بلوثة مما يقرأ والله - عز وجل - يقول: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾[2] ويقول: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[3] وكلامي هذا وتفصيلي في حال القصيمي لأن فكر

(١) المرجع السابق
(٢) الآية (١٤٠) سورة النساء
(٣) (٦٨) سورة الأنعام

القصيمي أو غيره ممن هم مثله قد يحدث خللاً في أي مجتمع، وهذا يترتب عليه آثار سلبية لا تتوقف عند حد، وقد حدث ذلك بالفعل، ليس في المجتمع السعودي وحده بل حتى في اليمن ومصر ولبنان وكان الموقف تجاه القصيمي عنيفاً جداً، كما أن تأثير فكر القصيمي في بعض أبناء مجتمعنا واضح خاصة بعد السماح بتداول اسمه مما أدى بشكل أو بآخر إلى تغير مجتمعي سلبي بدأ قبل خمسين سنة وما زال أثره باقياً حتى الآن، رغم أن فكر القصيمي وكتبه لم يؤذن لأحد بالتطرق إليها حتى وقت قريب بل كان كل من يقتنى كتاباً للقصيمي فهو يقرأه بصمت ومن يعجب بفكره لا يصرح بذلك؛ لأن ذاك من المحظورات، ولكن مع التغيرات التي طرأت في مجتمعنا ومساحة الحرية التي سنحت، صار الحديث عن القصيمي ممكناً، وحين فتح المجال ظهر عشرات المفكرين والكتاب يبدون إعجابهم بما كتب القصيمي وبعضهم وقف على النقيض، ولكنه ما يزال حتى يومنا هذا قضية.

وحين سئل المفكر إبراهيم البليهي عن التفات المثقفين إلى فكر القصيمي، أجاب: الاهتمام بفكر القصيمي كان ومازال اهتماماً فردياً فالمثقفون كانوا يتابعون ما يكتب هذا الناقد الحاد الساخط الجارح منذ ظهوره سواء من يوافقه أو من يخالفه، بل كانوا يقرأون مؤلفاته ليس بالضرورة إعجاباً به ولا تأييداً له وإنما بقصد معرفة ماذا قال وماذا يريد فهو كاتبٌ متدفّق وتعجبك قدراته حتى لو كنت ترفض أفكاره أو بعضها لكن لم يكن الحديث عنه في السابق مسموحاً به عَلَناً إلا لتبخيسه ونفيه وتسفيهه والهجوم عليه أما الآن فهامش الحرية المتاح قد أتاح الكتابة حوله مدحاً وقدحاً فالاهتمام به ليس التفاتاً طارئاً وإنما الشيء الطارئ هو الحديث عنه علناً وقراءته جهراً أما في السابق فقد كان الراغبون في الإطلاع يقرأونه في الخفاء ويتحدثون عنه همساً فلا جديد في الموضوع سوى الجهر بما كان يجري في الخفاء.[1]

(١) حوار أجراه المحرر طامي السميري، مع المفكر إبراهيم البليهي، ونشر في صحيفة الرياض العدد ١٥١٩٣ بتاريخ ١٣/٢/١٤٣١هـ (٢٠١٠م).

وأعود إلى السؤال الأهم والمتعلق بالكيفية التي جوبه بها فكر أولئك الحداثيين الأوائل وكيف كانت يتم إدارة الصراعات الفكرية ذاك الزمن؟ وهل هي مختلفة عن الطريقة التي تجري في زمننا الراهن؟ (وهو سؤال لن أجيب عنه الآن وأترك للقارئ استشفافه من خلال قراءته لبقية المبحث حول صراعات الحداثة) ولعلي أبدا من حيث انتهيت بالقصيمي وكيف جرى التعاطي معه في ذلك الوقت، فحين أصدر القصيمي كتابه (الصراع بين الإسلام والوثنية عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) فأعجب به كثيرون ممن قرأوه ومنهم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح أمام المسجد الحرام والذي قال قصيدة يمدح بها القصيمي أوردت أبياتاً منها في الصفحات السابقة، ولكن بعد تأليفه لكتاب (هذي هي الأغلال[١]) عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) جاء الرد عنيفاً جداً على القصيمي وربما لدرجة لم يكن يتوقعها ويمكنني أن أصنف الردود على ثلاثة:

الصنف الأول: من خلال الرد على فكره، حيث صدر العديد من الكتب والمقالات في ذلك الوقت ترد على فكر القصيمي، ومن أبرزها كتاب (بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال[٢]) للشيخ إبراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي، صادر عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) وكتاب (ليلة في جاردن ستي[٣]) للشيخ أبي عبدالرحمن بن عمر الظاهري، حيث جرى الحوار عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م). وقصيدة للشيخ راشد بن صالح بن خنين، مما جاء فيها:

هـذا القـصيمـي في الأغـلال قـد كفرا

وفـاه بـالـزيـغ والإلحـاد مـشـتـهـرا

---

(١) كتاب هذي هي الأغلال، ألفه عبد الله القصيمي، عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) ثم أعيدت طباعته ونشره عن طريق منشورات الجمل، كولونيا-ألمانيا، عام ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م).

(٢) كتاب بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال، للشيخ العلامة إبراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي، القاضي الشرعي ورئيس محاكم المقاطعة الشمالية (في العلا وتبوك وملحقاتها) صدر في جزئين عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) وطبعته المطبعة السلفية ومكتبتها في القاهرة.

(٣) كتاب (ليلة في جاردن ستي.. وسويعات قبلها أو بعدها، حوار مع عبد الله بن علي القصيمي) للشيخ محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل ـ المعروف بـ(أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري) صادر عن دار ابن حزم للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ (١٩٩٥م).

من بعد نصرته للدين في كتب
أضحى يفنده يا بئس ما ابتكرا
واسم الكتاب دليل الخبث متضحٌ
ما فيه بسملة إذ خيره بُترا
يا ابن القصيمي هداك الله شرعتنا
أترك زهوك وادع الله معتذرا

كما تحدث عنه الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) ومما قاله: إن من جملة أضاليل هذا الزائغ المفتون قوله أن الخطب كل يوم جمعة إحدى النكبات؛ لتكررها كل أسبوع فاستطاعت أن تجعل تخديرها مستمراً مضموناً متجدداً. كما تم الرد عليه في كتاب (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله[1]) للشيخ عبدالرحمن بن سعدي. وغيرها الكثير من الردود.

الصنف الثاني: من خلال الشكاوى وتواترها التي رفعت إلى الملك عبد العزيز، مما أغضب الملك عليه وأمر بعدم السماح له بالعودة إلى المملكة، وحين ضاق الحال بالقصيمي ذهب إلى الوزير المصري محمد علي علويه باشا، ليشفع له عند الملك عبد العزيز، لعله يصفح عنه بعد كتابه (هذه الإغلال)، فكتب إلى الملك عبد العزيز كتاباً بتاريخ ١٣٦٦/٣/٢٧هـ (١٩٤٧م) يرجوه فيه الصفح عن القصيمي. إلا أن الملك عبد العزيز رد عليه خطياً بتاريخ ١٣٦٦/٤/١٠هـ (١٩٤٧م) ومما جاء فيه: تعلمون سعادتكم أن المذكور هو من رعايانا، ونحن الذين أحطناه بمساعدتنا ومعاونتنا، وكنا نُعنى بأمره العناية التامة، ولا قصّرنا عنه في شيء حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه، ولكنه حاد أخيرًا عن سبيل الحق، وتنكب الطريق السوي، فأصدر كتابه (هذه هي الأغلال)، الذي ملأه بما يمس الدين، ويخالف عقيدة المسلمين.

(١) كتاب (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله) للشيخ عبدالرحمن بن سعدي، كتبه ونشره عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) وأعادت طباعته دار ابن الجوزي عام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٧م).

ولما كان المذكور من رعايانا وخاصتنا، صار لزامًا علينا أن ندعوه إلى الحق. ونحن إذا رأينا أمرًا يمس الدين قاومناه، ولا نبالي أيًا كان الفاعل، سواء كان القصيمي أو غيره. وقد دعوناه إلى التوبة والرجوع إلى الحق، ولكنه لم يفعل. لذلك فمن المستحيل أن نرضى عن المذكور إلا إذا رجع إلى الصواب وخطّأ نفسه. و تعلمون أننا لسنا ممن يتعصبون في أمور لا فائدة منها، إذ إن هنالك كتبًا لا تُحصى مطبوعة، مشحونة بالعقائد الفاسدة. أما أن يصدر مثل ذلك من أحد رعايانا، وممن ينتسب إلينا، فلا نقدر على السكوت عليه، و نبرأ إلى الله منه. فالقصيمي إذا رجع إلى الصواب كان بها، وإلا فلا.[1]

الصنف الثالث: من خلال محاولة القضاء عليه واغتياله وفي ذلك يذكر الكاتب عبد الله القفاري أنه سأل الدكتور راشد المبارك - وهو صديق لعبد الله القصيمي - عن محاولة اغتياله بعد صدور كتاب (هذي هي الأغلال)، فأجابني: تلك محاولة لم تكتمل، وهي حقيقة سمعتها بتفاصيلها من عبد الله القصيمي في القاهرة، حيث قال: كان ضمن يومياتي في المساء أن أتردد على مقهى قريب من منزلي، وذات مرة رأيت شاباً باللباس العربي النجدي يجلس في زاوية منه. استرعى انتباهي فدعوته وجلسنا سويا وبدأت أتحدث معه، سألته من هيئتك العربية ولهجتك أنت قادم من السعودية على ما أظن، فأجاب: نعم. فسألته مرة أخرى هل جئت في تجارة قال: لا، قلت هل جئت للدراسة، فأجاب بالنفي. كان شاباً من هيئته وحديثه يبدو أن لديه علماً شرعياً وأسلوباً متعلماً. تجرأت عليه، وقلت له لماذا أنت في القاهرة؟ تردد بعض الشيء، إلا انه ربما بدأ يثق بمحدثه فقال جئت أبحث عن شخص يدعى عبد الله القصيمي وعلمت أنه يسكن قريبا من هنا. سألته وماذا تريد منه؟ أجاب: لقد ألف كتاباً يخرجه من الإسلام، وقد أُفتينا بأنه زنديق يحل قتله، ومن يفعل فإنه ينال الأجر العظيم. سألته هل تعرفه؟ قال: لا. هل جلست إليه؟ قال: لا. قلت لـــه

(١) هذه القصة أوردها الأديب والمؤرخ محمد علي رفاعي، في كتابه رجال ومواقف الجزء الثاني، الصادر في القاهرة عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ١٠٥٤٩/٥٨/١/٢١

التاريخ ١٣٦٦/٤/١٠

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى صاحب السعادة محمد علي علويه باشا سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد تلقينا كتاب سعادتكم المؤرخ ٢٧ ربيع الاول ١٣٦٦ واحطنا علما بما جاء فيه، ونحن اذ نشكر لكم عواطفكم وحسن مقاصدكم نحب ان نوضح لكم حقيقة قضية عبد الله القصيمي.

تعلمون سعادتكم ان المذكور هو من رعايانا ونحن الذين احطناه بمساعداتنا ومعاونتنا وكنا نعنى بامره العناية التامة ولاقصرنا عنه في شيء حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه ولكنه حاد اخيرا عن سبيل الحق وتنكب الطريق السوي فاصدر كتابه (هذه هي الاغلال) الذي ملأه بما يمس بالدين ويخالف عقيدة المسلمين ولما كان المذكور من رعايانا وخاصتنا صار لزاما علينا ان ندعوه الى الحق ونحن اذا راينا امرا يمس بالدين قاومناه ولانبالي ايا كان الفاعل سواء كان القصيمي اوغيره وقد دعوناه الى التوبة والرجوع الى الحق ولكنه لم يفعل. لذلك فمن المستحيل ان نرضى عن المذكور الا اذا رجع الى الصواب وخطأ نفسه، وتعلمون اننا لسنا ممن يتعصبون في امور لافائدة منها اذ ان هنالك كتبا لاتحصى مطبوعة مشحونة بالعقائد الفاسدة اما ان يصدر مثل ذلك من احد رعايانا وممن ينتسب الينا فلا نقدر على السكوت عليه ونبرأ الى الله منه فالقصيمي اذا رجع الى الصواب كان بها والا فلا. وسعادتكم تعلمون عقيدتنا هي واضحة مثل الشمس ولانقبل ولا نوافق على مسها او تبديلها هذه هي حقيقة القضية شرحناها لسعادتكم

مقتطف من رسالة الملك عبد العزيز - رحمه الله - إلى محمد علي علوية باشا بخصوص القصيمي. بتاريخ ١٠/٤/١٣٦٦هـ (١٩٤٧م). أوردها محمد علي رفاعي، في كتابه: رجال ومواقف

هل قرأت كتابه؟ قال: لا. قلت له: إذا كان بعض هؤلاء يرون الأجر العظيم بقتل هذا الزنديق أليس هم أولى بالظفر به. هل يحبونك أكثر من أنفسهم أو أبنائهم

لتظفر أنت فقط بهذا الأجر العظيم وحدك؟ هل يؤثرونك على أنفسهم؟ ألا ترى أنك يمكن أن تزهق نفسا بغير خطيئة وأنك تسير بالوكالة عن قاتليه؟ لقد كان هذا الحوار مفتاحا مناسبا لإثارة عقل هذا الشاب، فرأيت أنه فعلا بدأ يستعيد وعيه بهذا المعنى. وبعد عدة أيام كشفت له عن شخصيتي بعد أن شعرت أن مشروعه بدأ يفقد أهميته لديه، بل إنه اعتذر عنه.[١]

ما أسلفته من تصنيفات هي أبرز الطرق التي قوبل بها القصيمي من المجتمع السعودي ذلك الوقت، ولم أعلم من السعوديين من تجرأ في الثناء عليه أو تبني فكره؛ بسبب الموقف الرسمي الحازم تجاهه، وربما يكفي موقف الملك عبد العزيز الذي أوردته كدليل على وجود محاولات جادة لإجهاض فكر القصيمي في مهده، وأظن بأنه لو لم تكن تلك الوقفة من رجال السياسية ورجال الدين، لربما تسبب ذلك في تفشي الفكر بين أبناء المجتمع الفتي، ولبرز عشرات المفكرين ممن يجاهرون بأفكار مشابهة، ولأدى ذلك إلى تغير مجتمعي صارخ وحاد، ربما كان سيتسبب في مجتمع سعودي ليس كالذي نراه الآن، خاصة وأن القصيمي أو ظاهرة القصيمي لم تكن سعودية فقط، بل إن تأثيره طال بلداناً عربية أخرى كما أسلفت، وأكثر الدول التي كانت لها مواقف مضادة لفكره مصر ولبنان وهي أكثر البلدان العربية انفتاحاً وحرية، بالإضافة إلى اليمن، بل إنه أبعد من مصر ثم أقصي من لبنان قبل أن يسمح له بالعودة لمصر ليمضي بها بقية عمره ويموت ويدفن هناك.

كما أن الساحة الفكرية لم تكن حكراً على ما ذكرت من مفكرين بل كان هناك قامات فكرية أخرى يأتي محمد سرور الصبان، وزير المالية ثم أمين رابطة العالم الإسلامي وأول من تبنى فكرة نشر الكتاب في المملكة، قيل عنه بأنه زعيم الحركة الأدبية في الجزيرة العربية منذ نشأتها، والأب الروحي للنهضة الأدبية والثقافية

(١) نقلتها بشيء من التصرف من مقالة للكاتب عبد الله القفاري، بعنوان (عبد الله القصيمي والسعوديون: محاولات اغتيال القصيمي.. حقيقة أم ادعاء؟) نشرت في صحيفة الرياض العدد ١٥٢٦٠ بتاريخ ١٤٣١/٤/٢٠هـ (٢٠١٠م).

في الحجاز، ومؤسسة جمعية الإسعاف الخيري عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م)، والتي تعد نواة المؤسسات الثقافية والأدبية في المملكة، عرف عنه مناداته بالإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام. وقد كلفته آراؤه الصريحة، ومطالبه بالإصلاح سجنه قرابة سنتين، قبل أن يطاله العفو.[١]

كما كان هناك أدباء ومفكرون منهم المفكر والأديب عبد الكريم الجهيمان المولود عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) صاحب جريدة (أخبار الظهران) أول صحيفة تصدر في المنطقة الشرقية، التي أوقفت بعد أعداد قليلة، حين نشر الجهيمان بعض المقالات التي تعتبر جريئة في ذلك الوقت، ومنها مقال يدعو إلى (تعليم المرأة) ولم تكن هناك مدارس لتعليم الفتيات في أي منطقة من المملكة آنذاك. تعرض الجهيمان أثناء حياته للسجن أكثر من مرة؛ بسبب طرحه الفكري، الذي لم يكن مقبولاً في ذلك الوقت. كما أنه صاحب صراعات فكرية حتى مع أقرانه من الأدباء والمفكرين ومنهم حمد الجاسر، حيث لم تمنعهما صداقة السبعين عاماً من الصراع على صفحات جريدة الرياض، وقد استمرت تلك الصراعات مدة ثلاثة أشهر، إلى أن أوقفت بتدخل أحد المصلحين.[٢] بالإضافة إلى مجموعات أخرى من الأدباء والمفكرين الذين أثروا الساحة الفكرية والأدبية في المجتمع السعودي ذلك الوقت.

وألخص القول في حديثي عن تلك الحقبة بما قاله الدكتور عبد الله الغذامي: بأن قدرات ذاك الجيل واحتكامه إلى ثقافة تقليدية، وتعامله مع واقع محافظ؛ كل ذلك لم يمكّن من نشوء وعي ثقافي تنويري أو تحديثي.[٣] وأضيف إلى ذلك وأظنه العامل الأهم أن موقف الملك عبد العزيز، الصارم من أي تغييرات ثقافية لا يقرها

(١) هناك العديد من المراجع التي تتحدث عن الصبان، منها الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)

(٢) أنظر موقع عبد الكريم الجهيمان الرقمي www.aljhaiman.com

(٣) د. عبد الله بن محمد الغذامي، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

علماء الدين ذلك الوقت كانت عاملاً مهماً في سيطرة الثقافة المحافظة، على الرغم من وجود ثقافة منفتحة ولكنها كانت تحت الرقابة الشديدة، ومن يشطح في تفكيره عن المألوف سيحاسب لا محالة ولو على الأقل بالشكوى والتشهير والتنديد كما حصل مع محمد حسن عواد، أو بالإقصاء والإبعاد كما هو مصير عبد الله القصيمي.

وعلى الرغم من أن الدكتور الغذامي يقول: بأن شحاتة وعواداً لم يكونا كافيين لقيام ثقافة تغييرية؛ بسبب انكسار شحاته وانسحابه، ولتواضع تجربة عواد. إلا أن ذلك لم يمنع أن يكون الأخير رمزاً معلناً للجيل التالي من المبدعين الجدد: كمحمد العلي، وسعد الحميدين، وأحمد الصالح، وعلي الدميني، وهذا ما يؤكده الغذامي في كتابه حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية.[١]

المرحلة الثانية للتغير الثقافي: ١٣٨٠هـ إلى ١٤٠٠هـ (١٩٦١م) (١٩٨٠م)

يأتي بعد ذلك جيل الثمانينات الهجرية حيث ظهرت أسماء جديدة غير سابقتها كمحمد العلي، المولود في محافظة العمران في الأحساء عام ١٣٥١هـ، (١٩٣٢م) وبها نشأ، حتى غادرها إلى النجف للدراسة الدينية، وبعد أن انتهى من دراسة بعض المقدمات، استهواه الأدب والشعر فتحوّل لدراسة اللغة العربية، ثم عاد إلى المملكة عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) حيث اشتغل بالتدريس ثلاث سنوات في مدرسة ثانوية الدمام ثم في لجان وإدارات وزارة التربية والتعليم (وزارة المعارف) حيث أمضى ١٩عاما، وخلال هذه الفترة تمت إعارته إلى وزارة الإعلام كرئيس تحرير لجريدة اليوم مدة عامين، حيث تم إيقافه من وظيفته بسبب بعض مقالاته الصحفية، ثم انتقل عام ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) ليعمل مشرفا تربويا في الهيئة الملكية في مدينة الجبيل حتى تقاعد من التعليم عام ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).[٢] وفي عام ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥م) قامت عزيزة فتح الله بجمع قصائده وزواياه الصحفية وحواراته

---

(١) المرجع السابق

(٢) صحيفة الشرق الأوسط العدد ١٠٣٦١ بتاريخ ١٤٢٨/٣/٢٣هـ (٢٠٠٧م).

ومحاضراته في كتابين، صدرا معا تحت عنوان (محمد العلي دراسات وشهادات)، (محمد العلي: شاعرا ومفكرا).[1] وفي لقاء أجرته صحيفة الجزيرة أجاب حين سُئل عن أن هناك من أتى بعدك ونظّر للحداثة، وكتب حكايتها كالدكتور عبدالله الغذامي على سبيل المثال، لأن هناك من يقول إن الغذامي سحب البساط من كل من أتوا قبله، لأن الرجل بكل بساطة قدم نتاجاً؟ فأجاب: نحن باقون ولا يمكن أن يأتي أحد ويأخذ مكاننا، فحينما بدأنا الحداثة كان الغذامي طالباً في الجامعة ولم يتخرج بعد، ولكنه في كتابه (حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية) نسب كل شيء لنفسه.[2]

وغير الأستاذ العلي هناك أسماء أخرى برزت في تلك الفترة منها على سبيل المثال لا الحصر: عبد الله نور المولود عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) وبدأ الكتابة في الصحافة عام ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) في مجلة (الرائد) لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين.[3] وعلي الدميني، المولود في الباحة عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) لديه ديوانان شهيران: رياح المواقع، وبياض الأزمنة.[4] وفوزية أبو خالد المولودة في مدينة الرياض ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م)، وحاصلة على دكتوراه في علم الاجتماع، لها العديد من المؤلفات (إلى متى يختطفونك ليلة العرس) ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م)، و(قراءة في السر لتاريخ الصمت العربي) عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م)، و(ماء السراب) عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م)، وغيرها.

وهناك الكثير من الأسماء التي يمكن أن تحسب على تلك الفترة وهي وبعض ما ذكرته من أسماء استمر عطاؤها إلى وقتنا الحالي، ولكني أستطيع القول إن

---

(١) مجلة اليمامة العدد ١٨٦٥ بتاريخ ١٤٢٦/٦/١٠هـ (٢٠٠٥م).

(٢) حوار أجراه أحمد الهلال ونشر في المجلة الثقافية العدد ٢٥٥ بتاريخ ١٤٢٩/٧/١١هـ (٢٠٠٨م) وهذا يمثل نوعاً من التنافس على زعامة الحداثة (إلى حد ما) بين جيل الثمانينات الهجرية وجيل الثمانينات الميلادية ويمكن أن تتضح الصورة بشكلٍ أكبر حينَ تقرأ حول الدكتور الغذامي في الصفحات القادمة من ثنايا هذا الكتاب.

(٣) انظر مقالة للأستاذ علوي طه الصافي، نشرت في المجلة الثقافية العدد ٨٨ بتاريخ ١٤٢٥/١١/٨هـ (٢٠٠٤م).

(٤) أنظر الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

فترة الثمانينات الهجرية وما بعدها إلى بدايات القرن الهجري الجديد (ستينات وسبعينات القرن الميلادي المنصرم) شهدت ركوداً نسبياً فيما يتعلق بالصراعات الفكرية، وربما يعود ذلك إلى تميز تلك الفترة بالعديد من الأحداث السياسية المختلفة التي أشغلت المثقفين قبل غيرهم، بالإضافة إلى أنها تعد مرحلة التأسيس الحقيقية لمعظم البنى التحتية الداعمة للفكر والثقافة بشكلٍ عام، حيث تأسست معظم الجامعات والصحف والإذاعة والتلفاز والتعليم النسوي وغيرها الكثير، وفوق ذلك كله جاء في نهايتها الطفرة المادية التي سلبت ألباب المجتمع وصرفت الغالبية منه إلى جمع المال والاهتمام بالتجارة والعقار وغيرها من المناشط المادية، وربما أن تلك العوامل أسهمت بالركود رغم كونها فترة، كما أسلفت، هي الأهم من حيث التأسيس والبناء، ولهذا فقد استمرت تلك الأسماء إلى ما بعد تلك الفترة وبعضها ما يزال حتى عصرنا الحالي، ولكني حين أستشهد بها هنا لأدلل فقط على وجود أسماء كانت هي الأبرز على الساحة تلك الفترة، وعلى سبيل المثال لو أننا قلنا بأن محمد العلي وغازي القصيبي يعدان تقريباً جيلاً واحداً رغم تقدم العلي في العمر إلا أن نشاط الأخير في فترة الثمانينات (الستينات الميلادية) كان أبرز من نشاط القصيبي على عكس فترة ما بعد غزو الكويت حيث لم يكن اسمٌ أبرز من القصيبي في تلك الفترة، ونفس الأمر يقال عن الغذامي والدميني اللذين ولدا في نفس الفترة تقريباً، ورغم ذلك فنشاط الدميني في فترة التسعينات الهجرية (السبعينات الميلادية) لا يقارن بالغذامي، والصخب الذي أحدثه الغذامي منذ عودته من دراسته خارج المملكة لا يقارن باي من المثقفين الآخرين، ولذا فأنا هنا أصنف وفق منهجية ترتبط بالإنتاج الثقافي والمعرفي كما هو الحال مع من تحدثت عنهم وكما هو الحال مع محمد حسن عواد الذي يحسب على مراحل التأسيس رغم أنه عاصر حتى بدايات المرحلة الثالثة ولكن تأثيره ووقع صوته مقارنة بمن عاصروه جعلني أصنفه على تلك الفترة أكثر من تصنيفه على فترة أخرى. ونفس الأمر ينطبق على فوزية أبو خالد، التي كانت علامة فارقة في زمنها؛ حيث ظهرت في وقت لم يعترف بعض معاصريه بحق المرأة في ملامسة الورق فما بالك بالقلم،

ولم تكن فوزية وحدها بل هناك العديد من الأسماء التي برزت في تلك الفترة تأتي الدكتورة خيرية السقاف كواحدة من أولاهن وتمتاز بالعديد من الأسبقيات في مجالات مختلفة. بالإضافة إلى الشاعرة ثريا قابل، صاحبة أول ديوان شعري نسائي فصيح (الأوزان الباكية) ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) وهذه الأسماء وغيرها الكثير ممن يحسبن على تلك الفترة وليس المجال لسردها جميعاً ولكني أوردت بعضها من باب الاستشهاد وإلا فالأسماء كثيرة ولا يمكن حصرها.

المرحلة الثالثة للتغير الثقافي: (١٤٠٠هـ إلى ١٤٢١هـ) (١٩٨٠م)(٢٠٠١م)

أما الجيل الآخر من رواد الانفتاح والتحديث فهم كثيرون أيضاً ويأتي الدكتور غازي القصيبي، على رأسهم؛ حيث لا أعلم أحداً كان أشد على التيار المحافظ منه، ولم أجد العلماء وطلبة العلم كتبوا محذرين وقادحين في أحدٍ كما كتبوا في غازي القصيبي، إلا أن الجديد في موضوع الكتابة حوله دخول مفردة جديدة لم تكن تطرح من قبل، تلك كانت العلمانية[1] والتي ما زالت إلى وقتنا الراهن تستخدم

(١) العَلْمانيّة ـ بفتح العين ـ مشتقة من الكلمة عَلْم، وهي مرادفة لكلمة عالَم. وهي في اللغة العربية ترجمة مستعارة من السريانية لأن السريان اشتقوها أولا في لغتهم ترجمة مستعارة عن اليونانية أيضاً. وتعني العالم، الدهر، الدنيا، فالعلماني في السريانية هو «الدنيوي، الدهري، ولا علاقة لهذا المعنى بالعلم (بكسر العين). وفي تعريف آخر للعلمانية: هي رفض أية سلطات تشريعية أو تنفيذية في الدين تتدخل بحياة الفرد. فالدين في العلمانية ينتهي عندما يخرج الفرد من المسجد أو من الكنيسة. مثال للتوضيح: لو حكم على شخص بالإعدام على أساس ديني فهذا الحكم مرفوض في النظرة العلمانية. فيجب أن يكون الحكم مبنياً على قانون قضائي وطني تضعه حكومة الدولة ولا يتدخل رئيس الدولة فيه؛ لأنه يجب أن يكون القضاء مفصولاً عن الحكم. وهناك من يرى بأن مصطلح «العَلْمَانيّة» ترجمة غير دقيقة، بل غير صحيحة لكلمة «Secularism» في الإنجليزية، وهي كلمة لا علاقة لها بلفظ «العلْم» ومشتقاته، على الإطلاق. فالعلْم في الإنجليزية والفرنسية يعبر عنه بكلمة «Science»، والمذهب العِلْمي، نُطلق عليه كلمة «Scientism»، والنسبة إلى العِلْم هي «Scientific» ، والترجمة الصحيحة للكلمة هي «الدنيوية»، وتقول دائرة المعارف البريطانية بأن «Secularism»: حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف الناس، وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة، إلى الاهتمام بالدنيا وحدها، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ « Sec-larism» تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة. أما من الناحية السياسية، فالعلمانية حركة في اتجاه الفصل بين الدين والحكومة (وغالباً ما كان يطلق عليه الفصل بين الكنيسة والدولة). أما بالنسبة للعالم الإسلامي والعربي على وجه التحديد فقد ارتبط مصطلح العلمانية في بعض المجتمعات العربية والإسلامية «بالكفر» و«الإلحاد» و«الزندقة» وأرى =

لوصم من يخرج عن النسق المحافظ ويختلف عنه خاصة في مجتمعنا السعودي الذي يرى أن مصطلح العلمانية مرادف للكفر والخروج عن الدين، خاصة وأن تعريف العلمانية الذي تعلمناه في صغرنا والذي كان وما يزال يتداول حتى الآن بأنه فصل الدين عن الدولة أو السياسية، أو كما قيل: (ما لقيصر لقيصر، وما لله فهو لله) وهذا غير مقبول في الشريعة الإسلامية التي تفرض سلطة الدين على كل مناحي الحياة، فما يوافق الدين يقبل، وما يخالفه يرد، ويحكم على المخالف بأنه من العصاة على اختلاف مراتبهم. ولهذا فإن هناك من يرى أن من يتبنى الفكر العلماني فهو يسعى لتهميش الدين في سائر جوانب الحياة بحيث لا يخرج صوته ولا تعاليمه عن المسجد والجامع وبقية المؤسسات الدينية. بينما هناك آخرون لا يرون العلمانية بهذا الشكل، حيث يظنون بأنها يمكن أن تكون حلاً ووسيلة لتعايش الأديان والمذاهب المختلفة في بلد واحد، وهذه وإن كانت جيدة بالنسبة للأقلية المسلمة التي تقطن بلداناً غير إسلامية، إلا أنها غير مقبولة على الإطلاق في البلدان الإسلامية؛ لأن من يعلم حقيقة الشريعة ويقرأها بشكل منصف سيجد أنها توفر لغير المسلمين كافة الحقوق التي يحتاجها أي مجتمع آخر، ولهذا فإنه يؤسفني أن أقول إن من العته أن يطالب المسلم باستبدال العلمانية بشريعة الإسلام، وهذا الكلام يرمي إلى الفكرة نفسها ولا يقصد به شخوص بعينهم.

أعود إلى غازي القصيبي[1] المولود في محافظة الهفوف عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) المتوفى في مدينة الرياض عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) والذي يعرف بأنه الشاعر والروائي

= السبب الرئيسي في ذلك إضافة إلى التعريفات التي تقول بأن العلمانية تعني فصل الدين عن الدولة، عدم احترام قيم الشعب وازدراؤها من النخب العلمانية في الدول العربية والإسلامية. وقد نقلت التعريف بتصرف وللمزيد حول العلمانية أنظر الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

(١) للدكتور غازي القصيبي عددٌ كبير من المؤلفات من أبرزها (شقة الحرية)، و(أبو شلاخ البرمائي)، و(العصفورية)، و(سعادة السفير) و(الجنيّة). بالإضافة إلى دواوين شعرية منها: (معركة بلا راية)، و(أشعار من جزائر اللؤلؤ)، و(للشهداء)، و(حديقة الغروب). وله أيضاً كتاب (حتى لا تكون فتنة)، أما أشهر كتبه فهو (حياة في الإدارة) وللمزيد حول الدكتور القصيبي يمكن الرجوع لموقعه على الإنترنت (www.galgosaibi.com) وكذلك الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

والمفكر والإداري والوزير. تحدث عنه كثيرون ومنهم عبد العزيز المقالح[1] فقال: قليل هم الشعراء العرب المعاصرون الذين تقترب حالهم من القول المشهور في أبي الطيب المتنبي: (مالئ الدنيا وشاغل الناس)، ولن أكون مبالغاً أو مجاملاً إذا ما قلت إن الشاعر الكبير غازي القصيبي يعد واحداً من هؤلاء القلائل الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس لا بوصفه شاعراً مميزاً وواحداً من رواد التحديث الشعري في الجزيرة العربية فحسب، وإنما بوصفه أيضاً روائياً وكاتباً وسياسياً مرموقاً يدرك خطورة الكلمة ويعترف بما لها من قيمة عالية في الحياة، وبما تحمله من طاقات التنوير والإصلاح ومقاومة الجمود والتقليد وبناء الإنسان واغتناء وجدانه، سواء كانت الكلمة شعراً أم نثراً أدباً أم فكراً.

وحيث تردد في المجالس في فترة ما بعد حرب الخليج الثانية ١٤١١هـ (١٩٩٠م) أن غازي القصيبي استهزأ بالدين وسخر بتعاليمه مستشهدين بمقولة تنسب إليه: إن الجزيرة العربية لم تر النور منذ ثلاثة آلاف سنة[2]، ويردون عليه بأن هذا مخالف لقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾[3] وقد قال الشيخ ابن باز رحمه الله: إن مثل هذا القول كفر، كما قال بذلك بعض الدعاة وعلى الأخص الشيخ د. ناصر العمر والشيخ د. سلمان العودة والشيخ د. عايض القرني.

ومن التهم الموجهة إليه أيضاً الإعجاب بشعراء الضلالة ورواد الحداثة. اختزال إنجازات الصحوة في اللحية والحجاب. الدعوة إلى أن تكون الشريعة قابلة

(١) الدكتور عبد العزيز المقالح أستاذ الأدب والنقد ومن أنصار الحداثة في اليمن ترأس جامعة صنعاء حتى عام ١٤٢١هـ (٢٠٠١م) ويرأس حالياً مركز الدراسات والبحوث اليمني (www.ycsr.org)

(٢) سمعت من ينسب تلك المقولة إلى القصيبي في مقابلة يقال بأنها أجريت معه ونشرت في صحيفة النيويورك تايمز ونشرتها في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٨/٤/٢٤م (١٣٩٨هـ) وقد بحثت عنها في أرشيف الصحيفة فلم أعثر عليها.

(٣) الآية (١٥) سورة المائدة

للنقاش. تصوير حياة الإنسان على أنها جهد ضائع وعبث لا طائل من ورائه. وقد رد عليه الشيخ عبد الله بن جبرين ـ رحمه الله ـ في كتابه (رسالة الإسلام)، كما رد عليه الشيخ ناصر العمر في محاضرة بعنوان (السكينة السكينة)، ولم يسمه كما تحدث حول نفس الموضوع الشيخ عايض القرني، من خلال شريط له سماه (سهام في عين العاصفة) ولم يسم شخص القصيبي، وكذلك الشيخ سلمان العودة، في عدة إصدارات. قبل أن يرد القصيبي بكتابه (حتى لا تكون فتنة) وفيه رد مباشر وموجه إلى (العمر، والقرني، والعودة) ومما قال فيه: بأنه لا يصدق أن يتهم بالعلمانية ويعتبر ذلك تهمة عظيمة؛ ثم يعرف العلمانية ناقلاً عن الموسوعة الحرة للأديان، بأن العلمانية دعوة لإقامة الحياة على غير الدين، وبعد أن يستفيض في بيان العلمانية يخلص إلى أنها كفر يخرج من الملة، ثم يسأل من رماه بالعلمانية هل ما زلتم مصرين على رميي بها. والحديث حول ذلك طويل، ويمكن الرجوع إليه في كتاب القصيبي الذي أشرت إليه، والذي لم يسمح بفسحه ذلك الوقت، وذاك الكتاب وما جاء فيه لم يمنع من صدور كتاب بعنوان (العلمانية في العراء، القصيبي شاعر الأمس، وواعظ اليوم[1]) تضمّن ثلاث رسائل لثلاثة من طلبة العلم: وهم الدكتور وليد الطويرقي والدكتور محمد سعيد القحطاني، والدكتور سعيد بن مبارك آل زعير وقد كتب المقدمة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ـ رحمه الله ـ وبتوصية من الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ ومما جاء فيه كشاهد على قوة الصراع بين الطرفين ذلك الوقت قول الدكتور الطويرقي في مدخله: ودع العالم قبل مدة القرن الرابع عشر الهجري، واستقبل القرن الخامس عشر الهجري، وكانت التغيرات التي شهدتها الأمة الإسلامية في هذا القرن تغيرات كبيرة وضخمة. ففي هذا القرن: سقطت الخلافة وتقسمت الأمة الإسلامية إلى كيانات ضعيفة لا حول لها ولا قوة. وفي هذا القرن: زُرع اليهود في قلب العالم الإسلامي على أرض فلسطين الحبيبة. وفي هذا القرن : كان المسلمون في صراع مع هجمة صليبية جديدة وجهُها

(١) العلمانية في العراء، القصيبي شاعر الأمس، وواعظ اليوم، دار الكتاب، ١٤١١هـ (١٩٩٠م).

العسكري هو الاستعمار ووجهُا العقائدي هو الغزو الفكري لم يكد القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ينتصف حتى ظهرت في المسلمين دعوة جديدة تستبدل الرابطة الدينية بالرابطة العرقية، وتبشر بالمنهج الغربي بدلاً عن المنهج الإسلامي. ثم يضيف إلى هذا الجيل، جيل الهزيمة، ينتمي الدكتور غازي القصيبي. ومن بين أنقاض جيل الهزيمة وجيل التغريب وجيل العلمانية، جيل الخمسينات والستينات، خرج جيل جديد هو جيل الصحوة وجيل الأصالة، وجيل المستقبل بعد ذلك بإذن الله. وبدأت الأمة تستفيق من نومها وإن لم تسترد بعد كامل عافيتها، فاستردت كرامتها المسلوبة على ربى أفغانستان الصابرة وعادت إليها روح التحدي والتصميم على أرض فلسطين الجريحة. وإلى هذا الجيل جيل الصحوة ينتمي الكثير من العلماء الأفاضل الذين رفع عليهم القصيبي سيف الخصومة وخنجر الاتهامات لذلك فإن الحوار أو الجدل بيننا وبين الدكتور غازي القصيبي والتيار الذي ينتمي إليه هو نموذج من نماذج الحوار والجدل بين جيلين جيل الهزيمة وجيل الصحوة، وهو مثال مصغر لأمثلة الصراع بين المنهج العلماني والمنهج الإسلامي.[١]

والملاحظ هنا أن كلمة العلمانية الدخيلة لم تكن معروفة في القرن الهجري الماضي، وما كثر استخدامها إلا بعد حرب الخليج الثانية أو ما تسمى باحتلال الكويت، حيث شاع هذا المصطلح وصار يستخدم بكثرة ضد من يفكرون بطريقة القصيبي، وكثيراً ما عنى التكفير غير المصرح به، وبالمناسبة فالقصيبي لم يكن وحده بل معه أشخاص كثيرون استماتوا في الدفاع عنه عبر الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية وغيرها، وبالمقابل لم يقف أضداد القصيبي أو فكر القصيبي على وجه التحديد وحدهم بل كان هناك من يناصرهم ويساندهم عبر المنابر والمحاضرات والشريط الإسلامي الذي كان في ذلك الوقت في أوج ذروته، ولم تتوقف تلك الصراعات الفكرية على تلك الوسائل بل امتدت لتصل إلى ردهات

(١) المرجع السابق

الجامعات والمجالس الخاصة، التي تحولت ما بين مؤيد ومعارض لكل فريق بغض النظر عن النسبة المؤيدة والمعارضة لكل طرف، إلا أن ما حظي به القصيبي من تأييد يختلف تماماً عن المفكرين السابقين في الخمسينات الهجرية (الثلاثينات الميلادية) الذين لم يجدوا أحداً يقف معهم ولا وسيلة يوصلون بها أصواتهم مقارنة بزمن القصيبي حيث توافر الأنصار وتوافرت وسائل البلاغ وتنوعت.

يأتي الدكتور عبد الله الغذامي، كشخصية لم تكن الحرب عليها أقل ضراوة من الحرب على القصيبي وإن كانت على جبهتين جبهة التيار المحافظ من جهة وجبهة المختلفين ممن يتبنون فكرة الحداثة حسب فهمه (التجديد الواعي) من جهة أخرى. والغذامي المولود عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) في محافظة عنيزة، متخصص في اللغة العربية، ومؤسس لقسم اللغة العربية وكلية الآداب في جامعة الملك عبد العزيز، عمل نائبا لرئيس النادي الأدبي الثقافي بجدة، منذ ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) مدة اثنتي عشرة سنة، وأسهم في صياغة المشروع الثقافي لهذا النادي في المحاضرات والندوات والمؤتمرات ونشر الكتب والترجمة.[١] قال عنه الكاتب عبد الله الزيد: «إني أرشحك أن تكون جبيننا المرفوع أمام المبدعين الآخرين، ووجهنا المضيء في كل احتفال مبهج بالكلمة والإيقاع، تماماً كما عبد العزيز المقالح في اليمن، وعز الدين إسماعيل في مصر، وماجد السامرائي في العراق، وكما أدونيس في الوطن العربي كله»[٢]. وكما أسلفت فالغذامي لم يسلم من النقد وحتى القدح في شخصه منذ بداية القرن الهجري الحالي حيث تميز الصراع معه بطول المدة من جهة وتعدد جبهات الصراع من جهة أخرى بالإضافة إلى تنوع الخصوم، أما بالنسبة لطول الصراع فقد بدأ الصراع أثناء عرض مسوّدة كتابه (الخطيئة

---

(١) للدكتور الغذامي العديد من المؤلفات منها: الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية، الموقف من الحداثة، الكتابة ضد الكتابة، ثقافة الأسئلة، المرأة واللغة، ثقافة الوهم، مقاربات عن المرأة واللغة والجسد، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، وغيرها الكثير من المؤلفات المتاحة في موقعه على الإنترنت حيث من خلاله يمكن معرفة المزيد عن شخص الغذامي وتنزيل كامل مؤلفاته. www.alghathami.com

(٢) د. عوض القرني، الحداثة في ميزان الإسلام، الرياض، ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م).

والتكفير)، وفي ذلك يحكي الغذامي أن الدكتور سعيد السريحي أمطره بوابل من الأسئلة حيث كان في حال انفعال وصار يطرح أسئلة، يقول الغذامي بأنها هي ما كان يخشاه وبدا وكأنه يدشن المعركة قبل صدور الكتاب، مما جعلني أتوجس خشية التأثير على فسح الكتاب الذي ما زال في مراقبة المطبوعات. ويضيف الغذامي لقد كانت أسئلة السريحي مؤدلجة بشكلٍ مخيف.[١] كل هذا حدث في البدايات، قبل أن يصبح الدكتور السريحي من أنصار الحداثة، ويتسبب ذلك في سحب درجة الدكتوراه التي منحتها له جامعة أم القرى عام ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م) بحجة أن أفكاره مخالفة لمنهج الجامعة.

يقول الغذامي بأن المعركة أو ما يسميها هو «ردود الأفعال» كانت داخل الرواق الأكاديمي إلى أن جاء محمد عبد الله مليباري ـ رحمه الله ـ فوسع دائرة المعركة لتشمل التيار المحافظ، حيث كتب المليباري ثلاثين مقالة في جريدة الندوة، لم يكن يناقش فيها فكرة الحداثة فحسب، بل أضاف إليها اتهامات وشكوكاً ماسونية، شيوعية، علمانية إلى آخره، وهذه جرت الفكرة أو النقاش من فكر، وفلسفة، وتطوير على مستوى النظرية، وتطوير على مستوى المعرفة، إلى أن الفكرة من أساسها مؤامرة ضد جذور الأمة، فصرت أمام شعارات ولست أمام قيمة علمية.[٢]

ثم جاء الدكتور عوض القرني ـ الذي يقول عنه الدكتور الغذامي بأنه جاهل في الحداثة[٣] وأنه عالة على فكر الميباري ـ فكتب (الحداثة في ميزان الإسلام)

---

(١) د. عبد الله الغذامي، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية. (مرجع سابق).

(٢) حوار أجراه تركي الدخيل في برنامجه إضاءات مع الدكتور عبد الله الغذامي، بتاريخ ٢٧/٤/١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).

(٣) منذ صدور كتاب الحداثة في ميزان الإسلام، للدكتور عوض القرني، عام ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م) والدكتور الغذامي يصفه بالجهل في الحداثة ويرفض الرد عليه أو محاورته في موضوع الحداثة، واستمر على ذلك حتى آخر حوار معه في (برنامج البيان التالي)، الذي يقدمه الدكتور عبد العزيز قاسم وبثته قناة دليل على الهواء مباشرة في شهر رجب ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) وكان الغذامي دائماً ما يردد حين يُسأل عن عدم مناقشة الدكتور عوض القرني فيقول: أنا لا أرد إلا على شخص تتوفر عنده الأدوات العلمية والمعرفية للنقاش المعرفي والدكتور القرني لا تتوفر لديه تلك المعرفة ولا بنسبة ١٪، الرجل بعيد عن هذه القضية، يعني أنت تحتاج إلى لغات أجنبية، تحتاج إلى بعد فلسفي وفكري ومعرفي وتخصصات، هذه مسائل علمية ومعرفية لازم تتوفر الأدوات المعرفية عند الرجل إذا كنت تريد أن تناقشه، واحد لا =

عام ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م) وقدم له سماحة الإمام عبد العزيز بن باز - رحمه الله - ومما جاء في تقديمه قول سماحته: "وكنا إلى حين اطلاعنا على هذا الكتاب القيم الذي قام بتأليفه فضيلة الشيخ عوض بن محمد القرني، والذي نقدم له بهذه النبذة المختصرة - بسبب عدم الاطلاع - نظن أن قصيدة النثر المتسمة بالغموض الملقب بالحداثة المحاط بهذه الهالة الإعلامية، نظن ذلك كله أنماطاً من التغيير في الشكل، ولا علاقة له بمضمون الشعر، ولا بمعانيه ولا بمحتواه الفكري، لكن الكتاب كشف لنا أن الشكل لم يكن في ذاته هو هدف هذا التغيير وإنما جعل الشكل الجديد الملفوف بالغموض ستاراً لقوالب فكرية شحنت في كثير من نماذجها بالمعاني الهزيلة، والأفكار الهابطة والسهام المسمومة الموجهة للقضاء على الفضيلة والخلق والدين. ثم يقول سماحته: أحمد الله الذي قيض لهؤلاء الحداثيين من كشف أستارهم وبين مقاصدهم وأغراضهم الخبيثة وأهدافهم الخطيرة بهذا الكتاب الذي يقدمه مؤلفه فضيلة الشيخ عوض للقراء، فقد كشف لنا القناع عن عدو سافر يتربص بنا ويعيش بين ظهرانينا ينفث سمومه باسم الحداثة، وهو بهذا الكشف والبيان يلقي مسؤولية عظيمة وجسيمة على علماء هذا البلد وقادته ورجاله وشبابه وغيرهم للتصدي لهذا الخطر، وإيقاظ الهمم، وتنبيه الغافل عنه، ونصح وتوجيه الواقع فيه".

وبالطبع هذا الكتاب أحدث دوياً هائلاً لم تحدثه أي مادة إعلامية مضادة للحداثة لأسباب أربعة:

الأول: أن الناس لم تكن تعرف كثيراً عن الحداثة وكانت السجالات في غالبها أكاديمية حتى جاء هذا الكتاب ونقلها بقوة إلى المجتمع من خلال التيار المحافظ.

= تتوفر فيه هذه الخصائص كيف تناقشه؟ والعلم يجب أن يصان، والإمام الشافعي – رحمه الله – قال: ما جادلني عالم إلا غلبته، وما جادلني جاهل إلا وغلبني. والدكتور القرني جاهل في موضوع الحداثة، وفي أمور أخرى هو مرجع فيها، في علم الشريعة أنا ما أفهم في علم الشريعة أرجع إليه، لكن في هذا العلم ليس له في هذا العلم شيء، لذلك الدخول معه في حوار خطأ علمي يعني لا أقول مضيعة للوقت خطأ علمي من حيث المبدأ، العلم يجب أن يُحترم. (قالها الدكتور الغذامي في الحوار الذي أجراه تركي الدخيل، في برنامج (إضاءات) على قناة العربية، وردد نفس القول في برنامج البيان التالي) لعبد العزيز قاسم، على قناة دليل).

الثاني: تفضل سماحة الإمام عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ بتقديم الكتاب وما قاله من كلام حول خطر الحداثة (أوردت شيئاً منه لأشعر القارئ بقوة الكلمة، وأثرها خاصة حين تأتي من رجل بقامة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله) أعطى الموضوع أهمية كبيرة جداً بالنسبة للمتلقين.

الثالث: صدور الكتاب في الفترة الذهبية وقمة العنفوان بالنسبة للتيار المحافظ، حيث لم تمر فترة قبلها ولا بعدها كان التيار أقوى خلالها من تلك الفترة، فتلقفه المتلقون بنهم شديد حتى نفدت الطبعة الأولى منه وطبع عدت طبعات.

الرابع: الدعم الإعلامي الذي حظي به الكتاب والتركيز الشديد على مسألة الحداثة في ذلك الوقت، فهي ومتبنوها كانوا الخصم الوحيد تقريباً الذي يملك وسيلة إعلامية وحيدة تمثلت في المادة المطبوعة (صحيفة، مجلة، كتاب)، مقابل عدة وسائل أخرى بالنسبة للتيار المحافظ الذي كان يستخدم الشريط الإسلامي، والمنبر، والمحاضرات، بالإضافة إلى (الكتاب والمجلة) وكانت الإذاعة والتلفاز تحظر الحديث عن مثل تلك المواضيع، أما الإنترنت فلم تعرف بعد[١].

أعود إلى كتاب الحداثة في ميزان الإسلام وأذكر أن مما جاء فيه قول الدكتور عوض القرني: ومن هذه الأفكار التي ابتليت بها الأمة وبدأ خطرها يظهر في ساحتنا مذهب فكري جديد يسعى لهدم كل موروث، والقضاء على كل قديم، والتمرد على الأخلاق والقيم والمعتقدات، وهذا المذهب أطلق عليه كهانه وسدنة أصنامه اسم (الحداثة)، ثم يضيف، ولأن كثيراً ممن كان المفترض فيهم من العلماء الأفاضل

(١) هناك أيضاً أروقة الجامعات التي كانت تعد بمثابة ميادين للنقاش حول المواضيع الفكرية، كما أن المدارس كانت مكاناً للتحذير من الأفكار الدخيلة حيث كانت بيد التيار المحافظ وكذلك المراكز الصيفية، وحلق التحفيظ التي كانت في بداياتها، أما الأندية الأدبية فكانت بيد التيار المنفتح ولكن لم يكن تأثيرها كبقية الوسائل الأخرى.

والمفكرين النابهين، أن يكونوا أول المتصدين لهذه الموجة الفكرية العارمة، وقفوا منها موقف المتفرج غير المبالي، أو ردوا عليها في مقالات محدودة في بعض الصحف، ثم نسي الأمر، وأنا أستثني هنا الكاتب الفاضل محمد عبد الله مليباري، وسهيلة زين العابدين، ومحمد المفرجي، فجزاهم الله خيرا، لجهدهم وجهادهم. ويذكر بأن الحداثيين سيطروا على كثير من الأقسام الثقافية في الصحافة المحلية وتغلغلوا في غيرها من النوادي الأدبية والأندية الرياضية وفروع جمعيات الثقافة والفنون، واتخذوا حيال أي فكر غير فكرهم سياسة قمعية دنيئة كما يقول أحد التائبين منهم[1]، فكان لا بد من الرد عليهم بواسطة النشر في الكتب، بعد أن سدوا جميع المنافذ أمام غيرهم، وكان نصيب أي مقالة رد عليهم أو حتى عتاب لهم هو سلة المهملات.

وقبل صدور كتاب عوض القرني (الحداثة في ميزاني الإسلام) كان قد صدر شريط للدكتور سعيد الغامدي بعنوان (الحداثة:حقائق وثوابت) ليس بعيداً في مضمونه عن كتاب القرني، قبل أن يتخصص الغامدي في قدح الحداثة نفسها ويحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة الإمام بن سعود الإسلامية في هذا المجال عن رسالة له بعنوان (الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها[2]) كان سماحةُ الشيخِ عبدِ العزيزِ بنِ عبدِ اللهِ آل الشيخ، مفتي عام المملكة العربية السعودية، مشرفاً ومقرراً للجنة التي ناقشت الرسالة، ومعالي الشيخ أ. د. صالح بن عبد الله بن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى، عضواً، والشيخِ الدكتور ناصر بنِ

(١) تحدث الدكتور القرني عن الكاتب عبد الله سلمان، وأشار بأنه كتب في ملحق المدينة الأسبوعي (الأربعاء) العدد ٢٠٥ مقالة ضد الحداثيين رفاقه بالأمس، وكان عنوانها (سيرة الحداثة من الداخل) أخذت أربع صفحات من الصحيفة، تحدث خلالها عن سيطرة الحداثيين على الملاحق الأدبية والثقافية في أغلب الصحف وتوجيهها لخدمة فكرهم ومناوأة ومحاربة غيرهم، ويختلف مدى تغلغلهم في الصحف والمجلات من واحدة إلى أخرى.

(٢) صدرت الرسالة في ثلاث مجلدات (١٧٤٩صفحة) بعنوان (الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها... دراسة نقدية شرعية)، عن دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

عبدِ الكريم العقل، عضو هيئة التدريس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عضواً، والدكتور حسن بن فهد الهويمل، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم، ورئيس نادي القصيم الأدبي - ذلك الوقت -، عضواً. ومما قاله الدكتور الغامدي في مقدمة تلك الرسالة: إن الحداثة نبتة غريبة جيء بها لإكمال أدوار التسلط الاستعماري التي مارسها الغرب ضد بلاد المسلمين في القرون المتأخرة؛ فهي فكرة مستعارة، وعقيدة مستوردة، كتبت بأقلام عربية الحرف أجنبية الولاء، وأن من أهم أغراضها الهدم والتخريب وإحداث الفوضى في العقائد والأخلاق وفي النظم والعلاقات، كما أنها ليست مجرد تجديد في الأشكال والأساليب والمناهج الفنية، بل هي عقائد وإيديولوجيات شتى، تجتمع تحت مقصد واحد هو: مضادة الدين الحق، ومناقضة الإيمان واليقين، وغرس الضلالات والإلحاد والشكوك، وهي لا تخالف الإسلام فحسب بل تناقضه تمام المناقضة، وتسعى في هدمه وإزاحته من القلوب والعقول والأعمال، أو على أقل الأحوال التشكيك في ثبوته وصحته وجدواه. والكلام يطول حول ما قاله الدكتور الغامدي في الحداثة ويكفي أن أقول إن رسالته طبعت في ثلاث مجلدات زادت صفحاتها على (١٧٠٠) صفحة.

كما أن المعركة مع الغذامي لم تتوقف على كتابٍ أو شريط بل امتدت إلى ملاحقته حتى في الفعاليات التي يدعى إليها، ومن ذلك حين قام الدكتور الغذامي بإلقاء ورقة بتاريخ ١٤٢٧/١١/٥هـ (٢٠٠٧م) في ندوة بعنوان (أزمة الثقافة العربية المعاصرة) ضمن فعاليات الأسبوع الثقافي الذي نظمته كلية اليمامة حضر بعض خصومه المحافظين إلى مقر الكلية منذ وقت مبكر وناقشوا آراءه وردوا عليها في حينها واستمرت النقاشات حتى بعد نهاية فعاليات الندوة، ولم تكن الأجواء هادئة بل كانت مشحونة بنسبة كبيرة، وهناك من أشار إلى أن الغذامي ما استطاع الخروج من مقر الندوة إلا بكل كلفة وصعوبة.

وكان قد سبقها أيضاً متابعة الدكتور الغذامي من قبل مجموعة من خصومه المحافظين أيضاً أثناء مشاركته في ندوة (التعليم ودوره في ثقافة الإصلاح) التي

أقيمت بتاريخ ١٤٢٧/٢/٢هـ (٢٠٠٦م) ضمن الفعاليات الثقافية لمعرض الكتاب الدولي بالرياض، حيث بدأ الدكتور الغذامي حديثه حول قصاصة أحضرها من إحدى الصحف المحلية نشرت في اليوم الذي سبق إقامة الندوة وفيها أن بعض من سيحضرون الندوة جاءوا لتلقين الغذامي «درسا» وأوضح أنه على أتم استعداد لتلقي الدرس ووعد بأن يكون مستمعاً جيداً، لأنه يقرأ «تلقين الدرس» من المنظور التعليمي والأكاديمي، لا بالمفهوم الذي خرج إليه بعد ذلك وأصبح يدل على الاعتداء.

أما المناسبة الثالثة التي استشهد بها فتتمثل في إلغاء محاضرة كان الدكتور الغذامي سيلقيها في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بعنوان (النظرية النقدية إشكاليات المنهج) والتي كان من المقرر أن تقام يوم الثلاثاء ١٤٣٠/٥/١٧هـ (٢٠٠٩م) ولم تُفصح الجامعة عن الأسباب التي جعلتها تتخذ قرار الإلغاء، إلا أن هناك من أشار إلى وجود ضغوطات كبيرة مارسها عدد كبير من المشايخ والعلماء وطلبة العلم على عمادة الجامعة، وطلبوا إلغاء المحاضرة بسبب الفكر الحداثي الذي يحمله الدكتور الغذامي، وخشيةً من حدوث إصطدامات أو تجاوزات أمنية قد تخرج عن السيطرة قررت الجامعة إلغاء المحاضرة وتقديم الاعتذار للدكتور الغذامي.[١]

ولعلي قبل أن أختم حديثي عن تلك الصراعات أعرض لتأثيرها على المتلقين خاصة من أنصار التيارات المحافظة مستشهداً بما قاله سلطان الجميري[٢]: بأنه تعرف على د. عبدالله الغذامي أول مرة بعد قراءته (كتاب الحداثة في الإسلام) للدكتور عوض القرني، كان ذلك في السنة الأولى من الجامعة، وتسبب ذلك في تشويه صورة الغذامي لديه، وتزامناً مع هذا الشحن النفسي كان يسمع من بعض أصدقائه أن الغذامي من المحافظين على صلاة الفجر في المسجد! وأن لديه موقفاً

(١) نقلاً عن صحيفة الوفاق الإلكترونية.

(٢) بعض مما جاء في مقالة لسلطان بن عبدالله الجميري (إمام وخطيب ومشرف حلق تحفيظ قرآن) نشرها في مدونته بعنوان (الجميري)، على الرابط التالي http://aljumeri.net/wp

من بعض الحداثيين الشاطحين عقدياً كأودنيس وغيره؛ فكانت مثل هذه الأخبار تحدث لديه تناقضاً حول هذه الشخصية الجدلية، فمن صورة قاتمة جعلت بعض الخطباء يدعوه من على المنبر بحاخام الحداثة إلى صورة الرجل الذي يحافظ على صلاة الضحى قبل ذهابه إلى مكتبه. يضيف سلطان: قمت بشراء مجموعة من كتبه ذلك الحين، وقرأتها، ووجدت ما يمكن اعتباره مخالفاً لما كنت أعتقده، لكنه لا يصل به إلى أن يكفر الرجل، ويخرج من الملة، فيحال تارة إلى (الماسونية) وتارة أخرى إلى العمالة الأجنبية، فاستعظم بعض الأحكام تجاهه، ولكنه بقي كما يقول كغيره لا يخرج عن إطار المجتمع والتيار الذي يقوده، فبقيت متبنياً هذا الموقف الإقصائي تجاه الرجل، تشكلت هذه النظرة القاتمة للبيئة المشحونة، وفي جو كان الآخر فيه مسحوقاً تماماً، فبقي أسيراً لتلك الكتابات والوصايات التي كانت تحاصر الأتباع، ويضيف سلطان على الرغم من قراءتي لبعض كتب الغذامي إلا أني لم أكلف نفسي سماع آرائه؛ لأنه لم يكن هناك من يحث على البحث والنقاش العلمي، كان هناك «ثقافة القطيع» وهذه إشكالية كبيرة وخطيرة في نفس الوقت، وهي نوع من الحجر الذهني والحقيقة أني سبق أن قلت في هذا المبحث بأهمية تجنب الكتب ذات المعتقدات والأفكار الفاسدة، وأنا هنا أؤكد أن الحكم على الكتاب أو المادة الإعلامية بالفساد ليس حقاً حصرياً على أشخاص بعينهم، بل هو متاح للجميع، بشرط أن يكون الشخص قادراً على التمييز بين ما فيه مخالفة واضحة وصريحة لا تقبل التأويل، وبين تلك الأفكار التي تحمل عدة معاني ويمكن تأويلها من خلال السياق، فتظهر وتتضح أما ما يقوم به بعض المجتهدين؛ ولأغراض في نفوسهم فيقتطعون جملة من سياقها الذي وردت فيه ثم يقولون فلان قال كذا فلا تسمعوا له فهذا أشبه ما يكون بمن ينهى عن الصلاة مستشهداً بقول الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ دون أن يكمل قول الحق -سبحانه وتعالى- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ

﴿وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾[1] وخلاصة كلامي أن أي مادة إعلامية ليس بها تعد على الذات الإلهية عن كل قولٍ أو فعلٍ لا يلق به. أو استهزاء بالرسل والأديان أو مخالفةً دينية صريحة، فلا أرى بأساً من اقتنائها ومطالعتها (حتى لو اختلف معي من اختلف فكلامي واضح ولا يحتمل التأويل) أما تلك التي تحمل أي نوع من المخالفات التي أشرت إليها ففر منها فرارك من المجذوم.

أعود لحديثي حول تجربة الأخ سلطان كشاهد حي على التحجير الفكري الذي كان وما زال يمارس وإن كان بشكلٍ أقل مما كان عليه، وهذا عائد بالطبع إلى الثقافة المجتمعية التي نشأنا عليها، وليست حكراً على مجتمع دون غيره، بل هي موجودة في كافة المجتمعات والأديان والمذاهب، وإن اختلفت حدتها من مجتمع لآخر، ومن وقت لوقت، وكشاهد عليه قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[2] والشواهد على ذلك كثيرة وليس المجال للبسط في ذلك، ولكن ذاك التحجير لم يزد سلطاناً سوى أن يستزيد من سماع كل ما ينسف الرجل وآراءه؛ لإثبات مزيد من الولاء للتيار الذي ينتمي إليه، ينقطع حديث سلطان وينتقل مباشرة ليعلق على قرار جامعة الإمام إلغاء محاضرة الغذامي ويبدي اعتراضه على قرار الجامعة ويقول: بأنه لا يدافع عن الغذامي، ولكنه لا يحب أن يظل تيار يلقننا كراهية رجل ومن ثم لا يتيح له المجال ليدافع عن نفسه، ويختم حديثه بقوله: ربما تخاف علينا جامعة الإمام وعلى عقولنا أن يسممها رجل واحد في سويعات! إذا كنا بهذه الهشاشة، فسحقاً لنا ولكل طلاب الجامعات الذين يملكون عقولاً كالريش تتقاذفها الريح في كل الاتجاهات. ويبدو لي أن سفر سلطان للدراسة خارج المملكة قد أسهم وبشكلٍ كبير في التحول النوعي لفكره، وأنا هنا أتحدث عن تخلصه من مسألة البرمجة أو الأدلجة المسبقة وسياسة ما أريكم إلا ما أرى واستعداده التام لسماع الآخر المختلف معه، وهذا لا يعني أنه

(١) الآية (٤٣) سورة النساء

(٢) الآية (٢٦) سورة فصلت

تخلى عن مبادئه بل العكس هذا هو المنهج الرباني الذي يدعو للحوار والمجادلة بالتي هي أحسن المنهج الذي يقول ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1] وقوله ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾[2] فإن كانت هذه الآيات وغيرها تدعو للحوار والرفق واللين مع غير المسلمين، فأتباع هذه الملة أحق بمنحهم الفرصة وسماع ما لديهم والرفق بهم والدعاء لهم بالهداية إن رأينا خطأهم واختلافهم معنا في أمرٍ مقطوع به وليس محل خلاف. والحوار والمجادلة مع المفكر الجاد الذي يحترم نفسه ويمد يده مسالماً مصافحاً، من الأمور المحمودة، أما المفكر الظالم المستهتر الذي لا يردعه عن هواه دين ولا حياء فهذا يجب الإعراض عنه وفي ذلك يقول الله -سبحانه وتعالى- ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾[3] ويقول -سبحانه وتعالى- في موضع آخر ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[4] ولهذا كان علي أن أنوه إلى ذلك؛ لأن كثيراً من التحولات والتغيرات الاجتماعية نشأت عن صراعات فكرية تمخض عنها انشقاقات ما كانت لتوجد لو تم احتواء المخالف من البداية بما يضمن سلامة توجهه.

أعود مرة أخرى إلى مسألة قدرة بعض الأشخاص على التأثير على الأتباع وشحنهم ضد المخالف واستشهدت بما قال سلطان وهناك كثيرون أمكن التاثير

(١) من الآية (٦٤) سورة آل عمران
(٢) (٤٦) من الآية سورة العنكبوت
(٣) الآية (١٤٠) سورة النساء
(٤) من الآية (٦٨) سورة الأنعام

عليهم بنفس الطريقة وقد سمعت منهم مباشرة نفس الحكاية وبالتأكيد أنكم قد سمعتم مثل ذلك، وهذه أيضاً ليست بعيدة عن قول المولى - عز وجل - ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[١] وهذا المعنى ورد في غير موضع من القرآن الكريم، والإنسان ميّال لاتّباع سلفه بغض النظر عن سلامة منهجه؛ ولهذا فالله -سبحانه وتعالى- يخاطب في كتابه أصحاب العقول والألباب، المتفكرين؛ لأنهم الأقدر على التحليل والفهم والاستنباط، أما من أعار عقله لغيره فلا أظنه قادراً على التمييز بين الغث والسمين، بل يغمض عينيه، ويمسك بأذيال رهبانه، شيخه، سمّه ما شئت ولكن في النهاية التابع دون تبصر كمن لا بصيرة له.

الإشكال الأكبر من ذلك حين يقر الشيخُ تلاميذه على أمرٍ لم يتثبت منه بعد، وهذا ما حدث بالضبط مع سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، حيث كتب مقدمة كتاب الدكتور عوض القرني دون أن يطلع عليه أو يتثبت مما جاء فيه، ويظهر ذلك في بداية تقديمه حيث يقول سماحته رحمه الله: «والذي نقدم له بهذه النبذة المختصرة - بسبب عدم الاطلاع» ووجهة نظري هنا تتمثل في أنه ربما كان لسماحته فهم أعمق، ويعلم الله أني أقول هذا الكلام لا محاباة لأحدٍ؛ بل إن الشيخ عبد العزيز بن باز[٢] رحمه وهو الذي لن يقرأ هذا الأسطر، أحب إلي من جميع

(١) (٢٢) من الآية سورة الزخرف

(٢) نشر على صفحات الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) تعريف بالكتاب ومما ورد حوله: «تم إصدار الكتاب في أوج فترات الحداثيين وهيلمان التيار التغريبي. وكانت الكتب التي تتحدث عن هذه الظاهرة أشبه بالنادرة أو المعدومة إن صح التعبير. وعندما خشى الشيخ أن يضيع جهد الكتاب في حال تم منع نشره قام بتسجيله صوتياً. وقام بطلب من مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبدالعزيز بن باز بكتابة تقريض للكتاب، وتم ذلك. وتم تقديم الكتاب للجهة المختصة ليتم التصريح بنشره، وعندما لوحظ أن الكتاب بدأ بتقريض الشيخ وثنائه على الجهد المبذول تم الموافقة على طبعه ولم تراجع صفحات الكتاب وفهرسته، رغم قوة الكتاب وطرحه الجريء لتلك الأفكار والتي كانت ترفض أن تُطرح بهذا الشكل، ولكن لما للشيخ ابن باز من مكانة كبيرة تمت الموافقة على ذلك بدون مراجعة أو استدراك للكتاب وأفكاره». وهنا يظهر أحد أسباب الاستعانة بالإمام ابن باز - رحمه الله - لتقديم الكتاب وإعطائه حصانة أمام جهات الرقابة، وهذا ما حدث بالفعل.

معاصريه ممن أوردتهم في هذا المبحث وإن اطلّع أحدهم على هذا الكتاب، ولكنها شهادة حق أردت أن أدلي بها في هذا المقام؛ لأني رأيت أن موافقة العالم أو المصلح لأتباعه دون تثبت دائماً ما ينتج عنها تغيرات مجتمعية سلبية ناتجة عن فتاوى أو آراء أو تصرفات غير مدروسة، ونحن مأمورون بالتثبت قبل الشروع في المسألة والله -سبحانه وتعالى- يخاطب نبيه بقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[١] ويأمر بالتثبت قبل الإقدام على ما فعل - عليه السلام - ، ونفس الحال أراه ينطبق على سماحة الشيخ رحمه الله، خاصة وأن المسألة خطيرة، وقد شنع الكتاب بالعديد من الأسماء ومنهم الدكتور الغذامي، دون وجه حق، حيث قرأت الكتاب كاملاً فلم أجد فيه استشهاداً واحداً صريحاً يدين الغذامي، ولكن الكتاب كان يأتي بمقولات ثم يفسرها بطريقته الخاصة، وربما انطلت على البعض حين يقرأها، أما من قرأها بتبصر فلا يمكن أن يطبق الوصف السيئ للحداثة بمفهومها الإلحادي الذي يقصي الدين عند بعض معتنقيها على ما ينادي به الغذامي، وهذا خطأ منهجي خطير وموافقته لا تصح ولعلي أسوق مثالاً واحداً مما أورده الكتاب مستشهداً به على خبث طوية الغذامي: يقول عبد الله الغذامي في مقابلة أجرتها معه صحيفة الشرق الأوسط في ١٠/٣/١٩٨٧م (١٤٠٧هـ) الصفحة ١٣: «يجب أن نفصل الآن بين الأيديولوجية والممارسة النقدية» ثم يفسر الكاتب مقولة الغذامي على اعتبار أن الإيديولوجية[٢] تعني العقيدة فيقول: وهكذا يرى الغذامي أنه يجب ألا تدخل العقائد والمذاهب الفكرية عند نقدنا للنصوص، لكنه يؤكد أن ذلك مطلوب الآن فقط. وهذا ما يشير إلى أنه مجرد مرحلة يسعون لتجاوزها، بعد أن يخدروا بمقولاتها من سيكون عقله قابلاً للتخدير، بل ذلك هو ما كشف عنه الغذامي وباح به في نفس المقابلة حين قال : «الذي نعرفه نحن أن من طبيعة الإبداع التمرد على كل ما هو سابق من قبل،

---

(١) الآية (٤٣) سورة التوبة

(٢) الأيديولوجية ideology كما يعرفها كارل ماركس: مجموعة منظمة من الأفكار تشكل رؤية متماسكة وطريقة لرؤية القضايا والأمور التي تتعلق بالأمور اليومية أو تتعلق بمناحي فلسفية معينة سياسية بشكل خاص. أو قد تكون مجموعة من الأفكار التي تفرضها الطبقة المهيمنة في المجتمع على باقي أفراد المجتمع. (أنظر الموسوعة الحرة ويكيبيديا)

فكيف بي أفرض سائداً سابقاً على نص متمرد، هذا السابق يشمل الأيديولوجية، ويشمل الفلسفة ويشمل المبدأ المقرر سلفا». انتهى كلام الكاتب ولو رجعنا إلى حديث الغذامي ما وجدناه تطرق للعقيدة، التي أظنه يعتنقها ويجلها من خلال تواتر الحديث حول تمسكه بدينه وحضوره الجماعة واختلافه مع من يشطح في فكره عن المبادئ العقدية المسلم بها، بل إن أدونيس الذي شبه الكتاب الغذامي به يرى بأن الغذامي إمام مسجد أكثر منه ناقداً.

كما أن الإشكالات أيضاً حين يقوم العامة أو الطلاب بتوجيه العامة وانتزاع الفتوى منهم انتزاعاً، وأذكر بهذا الصدد أمرين الأول مقولة سمعتها في الإذاعة لفضيلة الشيخ عبد العزيز المسند: يقول فيها إني لأعرف توجه الشخص تجاه المسألة من خلال طريقة طرحه لها فإن زينها وأثنى عليها علمت أنه يريد دعمها بفتوى تبيحها، وإن ذمها وقدح بها علمت أنه غير راغب بها ويريد تحريمها، وما لم يتثبت المفتي ويتحقق بنفسه، وإلا فإنه سيوافق هوى المستفتي.

الأمر الأخر: حدثني أحد طلبة العلم فقال: أتاني مجموعة من الشباب وطلبوا مني إصدار فتوى بتحريم الاهتمام بإحدى المناسبات التي خُصص لها أسبوعٌ للاحتفاء بها، فناقشتهم وطلبت منهم إطلاعي على أوجه التحريم، فلم تكن مقنعة، فغضبوا وذهبوا من عندي إلى شيخ آخر فأعطاهم مرادهم، وصاروا يتداولون فتاواه ونشروها في كل مكان أمكنهم النّشر من خلاله.

وتلك الفتاوى والبيانات المصبوغة بصبغة شرعية كثيراً ما تعاطف معها الناس وسلموا بها، ومن هنا فأنا أود التأكيد على مسألة تثبت العالم قبل تبنيه لأية مسألة كانت ولا يمنع من تراجع العالم إن ثبت له خلاف ما ذهب إليه أسوة بنبي اللّه داوود حيث يقول المولى – عز وجل – : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

(١) الآية (٢٤) سورة ص

أما الشكل الذي أرى أن فيه غشاً وتدليساً فيتمثل بقيام العالم أو المفكر بإيهام الجماهير أن رأي مخالفه يعني إقراره بأمور محرمة مقطوع بتحريمها فيترك موضوع الخلاف ويدندن حول ذلك المحرم، وأذكر حين أفتى الشيخ عادل الكلباني بجواز الغناء، تحدث حول ذلك جمع كثيرٌ من المشايخ وطلبة العلم منهم من عارض الشيخ وبين أدلته في ذلك، ومنهم من انتقص من الشيخ وطعن في شخصه، وصنف ثالث قال: بأن الشيخ يجيز الفيديو كليب الذي يأتي عادة مصاحباً للأغاني الغزلية، وراح يفصل في الفيديو كليب وأنه رجل يحتضن امرأة ويتراقص معها ويقبلها أمام المشاهدين فهل يجوز هذا، ثم يعود للشيخ الكلباني ويتساءل بدهاء كيف بالله يجيز الشيخ كل ذلك، مع أن الشيخ الكلباني لم يفت بجواز الفيديو كليب ولم يتطرق إليه ثم إن مسألة الفيديو كليب لا تحتاج لمن يفتي بتحريم بعض المشاهد التي فيها فلو سألت أحد الأطفال في مدرسة ابتدائية لقال بأن بعض تلك المشاهد مخلة بالحياء ولا يجوز النظر إليها، ولكن تأتي المشكلة حين يحتال المخالف فيؤول رأي مخالفه بطريقة تجعل العامة وبسطاء الناس يجزمون أن الشيخ صاحب الرأي الجديد افتأت على الدين وأنه أحل محرماً، مع أنه لم يقل به، كل ذلك يفعله بعض أصحاب الإيديولوجيات بغرض المحافظة على نمطية من الآراء ألفوها فتبنوها ولا يريدون أحداً أن يخرج عنها، خاصة إن كان ذاك الأحد واحداً من المحسوبين على التيار نفسه، فسيتم التشنيع به والتقول عليه حتى يتعرى أمام الجماهير فتسقط قيمته الفكرية ويتخلص منه ويكون ذلك درساً له وعبرة لغيره ممن فكر في الخروج عن النسق، ولعلي أؤكد أن هذا الفعل ليس حكراً على تيارٍ بعينه بل هو موجود كما ذكرت سلفاً في كل مكانٍ وزمان.

أعود إلى الغذامي مرة أخرى، وأقول: أما بالنسبة لخصومه ممن يحملون نفس التوجه فهم كثيرون أيضاً ويأتي الشاعر محمد العلي كأحد أبرز الخصوم من

نفس التيار. وعن ذلك يقول تركي الحمد إن هذه الخصومة صراع على الزعامة[1]. حيث يقول العلي عن الغذامي: بأنه لص يسطو على مجهودات النقاد والمفكرين من نظريات وأفكار وحين يسرق هذه النظريات فإنه يتوهم أنها من ثمار قريحته المجدبة، ويضيف بأن الغذامي يتسلق إلى الشهرة على سلم ازدراء الآخرين، من أمثال المتنبي الذي يصفه بالمتسول، ثم يستشهد بشعره! وكذلك أدونيس وسواهما ممن أضاؤوا تاريخنا.

فيما يقلل الغذامي من شأن العلي، ويرى بأنه لا يستحق أن ينازله، أو يدخل معه في صراع أو حتى اختلاف. كما أن الخصومة امتدت إلى أدونيس أيضاً الذي يصفه الغذامي، بأنه يمثل الحداثة الرجعية، وبالتالي خطابه ظاهره حداثي ولكن باطنه رجعي. فالخلاصة العميقة لخطاب ادونيس تفضي إلى رجعية وليس إلى تقدمية، بمعنى أن مجموع افكاره، والمعطى الشعري لنصوصه، والمحصلة

---

(١) تطرق إلى ذلك تركي الحمد في لقاء معه في صحيفة الشرق الأوسط العدد ١٠٩٦٤ بتاريخ ١٤٢٩/١٢/٥هـ (٢٠٠٨م) ومما جاء في ذلك الحوار قول الحمد: بأنه ليس هناك تيار حداثي أو ليبرالي في السعودية بالمعنى الدقيق؛ حيث شهدت فترتا الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، ظهور مجموعة من الشباب لهم توجهات حداثية، وكانت بالتحديد حداثة أدبية، ولكن لم يكن لديهم مشروع حداثي شامل، لأن الحداثة لا تؤخذ مجزأة. ويضيف الحمد: اصطلح على تسمية هذه المجموعة من المثقفين والأدباء بتيار الحداثة، لكنهم في الواقع ليسوا أكثر من مجموعة أفراد يهتمون بالحداثة الأدبية فقط، إضافة إلى أنهم لا يشكلون تياراً متماسكاً له منطلقات ثابتة وأفكار ورؤية يطرحها. هناك مثقفون لهم أطروحات معينة لكنها لم تدخل في صميم الحداثة الحقيقية وإنما تعاملت مع الحداثة بجانبها الأدبي فقط، وكان تأثيرهم محدوداً، لأنهم كانوا يطرحون قضايا بعيدة عن اهتمام السواد الأعظم من المجتمع، ولم يكن إنتاجهم الأدبي يلقى رواجاً لأنهم كانوا مغرقين في الرمزية. ويشير الحمد إلى أن قضية الصراع ليست ذات علاقة بقضية الحداثة التي يعتبر العلي والغذامي من رموزها الأبرز، إنما الصراع له علاقة بقضية الزعامة، الذي يدل على أن هذه المشكلة موجودة لدى كثير من المثقفين السعوديين؛ فالمثقف السعودي لديه هاجس الزعامة لأنه يعتقد أن كسبها لا بد أن يكون على حساب الآخرين، أو أن الآخرين سيكسبونها على حسابه. ويشدد على أن السقطة التي وقع فيها السجال الذي دار بين الغذامي والعلي، هي الشخصنة، لأنه كان يمكن لهذا السجال أن يضيف إلى الساحة الثقافية، لو تمت مناقشة الأفكار وطرح رؤى جديدة من الطرفين، إلا أن هذا الطرح تحول إلى مهاترات، عندما لجأ الخصمان إلى ماضي كليهما للبحث عما يدينه.

النهائية لإجاباته الإعلامية، سواء كانت صحافية أو تلفزيونية إذا ما فحصنا تلك الخطابات الثلاثة لأدونيس يتبين لنا أنه إنسان مطلق، ومتعالي الأنا، وملغ للآخر، وإنسان يقول بمقولة إن «لا عقل لي»، ويصف الحداثة بأنها «لا عقل لي»، وبذلك نقول إن الخطاب اللاعقلاني لا يمكن أن يحرر المجتمع عقلياً وفكرياً وليبرالياً. لذلك فمشروع ادونيس ليس مشروعاً تحريرياً للعقل، بل إنه نفي للعقل، كما أن تضخيم الأنا، وجعلها مطلقة على صواب دائم، وغيرها على خطأ دائم، يعزز فكرة الطاغية، سواء كان الطاغية السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي. وهنا أقول لو أن أدونيس حكم العالم العربي فسيكون حاكماً مستبداً، لأن المقولات الثقافية عنده تقوم على الاستبداد المطلق. ولو طلب مني أن أسك عملة، لوضعت في جهتيها اليمنى صورة صدام حسين واليسرى أدونيس. أما أدونيس فيرى بأن الغذامي إمام مسجد أكثر منه ناقداً.[١]

ختام حديثي عن الغذامي-الذي لا يعرفني ولا أعرفه-إلا من خلال كتاباته فأقول بأنه خاض معارك شرسة متنوعة الخصوم، والساحات، والوسائل المستخدمة، ولم أر أحداً من خصومه استطاع التغلب عليه أو ثنيه عن آرائه، ومثلما كان الهجوم عليه سبباً في بناء صورة ذهنية مشوهة عنه لدى المتلقي البسيط الذي لن يطلع على ما يطرحه سواء قبله أم لم يقبل، حيث أن هذا المتلقي - كما أسلفت - يحب السماع والوجبة الثقافية الخفيفة وينتهي، ولهذا فطرح الغذامي لم يكن مناسباً له، وفي المقابل فإن تلك الحملات أسهمت في زيادة إشهار اسمه والإقبال على فكره ليس في هذه المملكة فحسب بل حتى في مختلف أصقاع العالم العربي، وأرى بأن الغذامي أنموذج صحي للأستاذ الجامعي الذي يمارس دوره كما ينبغي منه، فهو

(١) وردت تلك المقولات في عدة مناسبات مختلفة منها في بعض كتب الغذامي، وفي أمسيات عقدت في جامعة الملك سعود والنادي الأدبي بجدة، وفي عدة حوارات صحفية أجريت في صحف مختلفة تأتي صحيفة دار الحياة كأكثرها تناولاً لتلك الخلافات ومنها مجموعة من الأعداد التي نشرت في شهر ذي القعدة، والعدد المنشور بتاريخ ١٤٢٩/١١/٢٥هـ (٢٠٠٨م)، وجاء فيه الحوار مع الغذامي الذي أجراه المحرر ناصر البراق.

حاضر في الجامعة وفي الساحة الثقافية، وفي الإثراء المعرفي من خلال مؤلفاته العديدة، وأنا حين أقول ذلك فهذا لا يعني أني أحتكر المثالية عليه فقط، بل هو نموذج ضمن عشرات النماذج المشرقة من أساتذة الجامعات بمختلف انتماءاتهم، على النقيض من آخرين كانت همومهم بعيده جداً عمّا هو مفترض بهم كأساتذة جامعات، بدليل فقرهم الإنتاجي حيث يمضي بعضهم أربعين سنة كان خلالها عبئاً على الجامعة وعلى الطلاب وعلى المجتمع بأسره، وهذه العينة من أسباب التغير القهقري للمجتمعات.

ويجب هنا أن أؤكد على نقطة أراها في غاية الأهمية تتمثل في أن اختلاف بعض طلبة العلم مع الدكتور الغذامي، لا يلزم البقية بتبني موقفهم منه، بل يجدر بكل واحدٍ منا أن يعتز بنفسه ويعتد برأيه ولا يتبنى أي موقف تجاه أي أمرٍ خاصة ما يتعلق بالأشخاص إلا بعد أن يتثبت من حقيقة ذلك الخلاف وهل هو مبني على حقائق محسومة، أم مجرد اجتهادات شخصية، وهذه إشكالية كبيرة كثيراً ما حدثت في مجتمعنا السعودي وأثرت سلباً في تركيبة المجتمع وأحدثت انقسامات بدأت صغيرة ثم تطورت حتى استفحلت وسآتي عليها في حديثي عن المظاهر الدينية، وكل ذلك بسبب الإقصائية والأنانية التي غلبت على فئات من مجتمعنا، لدرجة صار معها المخالف في الفروع والتوجه في قفص الاتهام ولا يتوانى بعض المتحمسين من لمزه في المنابر والتعريض به في المجالس، ولعلي استشهد بشخصيات عايشتها وأعرفها بشكلٍ جيد كنت أرى من أفعالها ما يسر الخاطر ويبهج النفس ولكني أسمع إشاعاتٍ تطلق عنها مخالفة لذلك ومن تلك الشخصيات معالي الدكتور إبراهيم العواجي، وكيل وزارة الداخلية سابقاً، فهذا الرجل أنموذج في سلوكياته وخلقه وتصرفاته لما ينبغي أن يكون عليه المسلم الحق، ويعلم اللّه أني لم انتفع (معنوياً) بشخصية عاصرتها بعد والديّ - عفا اللّه عنهما - كما انتفعت من شخص الدكتور العواجي فهذا الرجل مثالٌ حقيقيٌّ للانضباط في عمله ومجتمعه

واستيقاظه ونومه ولو كان مجتمعنا كله أو معظمه على قلب ذاك الرجل لأصبحنا في وضع وحالٍ أفضل كثيراً مما هو عليه اليوم. الأمر الآخر: بر هذا الرجل بوالدته - رحمها الله - ليس له حدود، ولكم حقرت فعلي مع والديّ عند فعله ويكفي أن أقول بأنه كان بشكلٍ يومي يأتي من عمله في وزارة الداخلية حيث يصل وقت أذان العصر تقريباً ثم بعد الصلاة يذهب مباشرة إلى والدته في منزلها وهذا يتكرر بشكلٍ يومي، رغم المشاغل والمسؤوليات، ولو أبرزت مثل هذه الصور للمجتمع بشكلٍ صادق وأخذت تلك النماذج العملية الصادقة ليحتذى بها، لما احتاجت البلاد بطولها وعرضها لدورٍ للمسنين. الأمر الثالث السعي في أمور القريب والبعيد وبذل جاهه لمن يطلب وهذه من الخصال التي تحمد له ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾[1] وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنه: «لأن أسعى في حاجة أخي خير من أن اعتكف في مسجدي هذا - يقصد مسجد رسول الله ﷺ شهراً»[2] ولم يتوقف بذل الجاه حين ترك العمل بل استمر وما زال الناس يأتون إليه يطلبون شفاعته، ومما أذكره موقف حدث قريباً جداً - أثناء إعداد هذا الكتاب - حيث كنت في مناسبة وتأخر الدكتور العواجي؛ وليس من عادته التأخر، فأخبرنا أنه يزور الأمير نايف بن عبد العزيز، وحين حضر اتضح لي أن ذهابه كان بغرض الشفاعة لأحد الأشخاص، ومن يعرف الأمير نايف وانشغاله بحكم كثرة ارتباطاته وطبيعة أعماله وصعوبة مقابلته؛ بسبب كثرة راغبي مقابلته على اختلاف مشاربهم ومقاماتهم ومكاناتهم ومهامهم، يعلم حجم التضحية التي قدمها الدكتور العواجي في سبيل قضاء حوائج الآخرين، وأنا حين أسوق حديثي هذا ليس لأي غرض غير التدليل على أن مجتمعنا حرم من نماذج حية كان يمكن أن يستشهد بها، بدلاً من إقصاء تلك النماذج الطيبة لمجرد الاختلاف معها في بعض الأمور، ومن أهم أساليب الإقصاء تشويه السمعة والطعن بتدين الشخص، وكثيراً ما سمعت وسمع

---

(١) من الآية (٨٥) سورة النساء.

(٢) رواه الحاكم وحسنة الألباني .

غيري كلمات وعبارات تردد حين يرد ذكر بعض الأشخاص، ويعلم الله لو رزق بعضنا بما يكفي من الفهم لاستفاد من بعض تلك الشخصيات وأفعالها وسيرها وطريقة عيشها، إن كان هناك سعي حقيق للإصلاح، أما الزعم بالإصلاح وفعل ما يخدم الإيديولوجية فهذا ليس إصلاحاً بدليل ما نراه في واقع المجتمع السعودي والتقهقر الذي يحدث لكثيرٍ من شبابه، وكل ذلك بسبب ندرة المصلحين رغم كثرة الدعاة والمنظرين، الذين غلب معظمهم الحماس وحاسبوا أشخاص ووضعوهم في أقفاص اتهام وسعوا ليحجروا عليهم ولم يبرزوا من صفاتهم إلا ما يختلف مع توجهاتهم بعد أنّ يبينوا للمتلقين والعوام أن هذا الفعل لا يريد صاحبه بالأمة خيراً فيصير اسمه لا يرد إلا مقروناً بصفاتٍ ودعواتٍ أترفع عن ذكرها.

وأيضاً محاولات التشويه غير المبررة والتي ما قادت إلا إلى نتائج سلبية على المجتمع بأسره طالت أشخاصاً كثيرين منهم معالي الدكتور محمد بن أحمد الرشيد، وزير التربية والتعليم سابقاً الذي قيل في ذمه الكثير، لدرجة أن بعض العوام لا يصدق عينيه حين يرى الدكتور الرشيد في المسجد يصلي مع المسلمين، حيث صورت تلك الشخصيات وكأنها لا تدين بالإسلام، وفي ذلك يقول الرشيد في كتابه (مسيرتي مع الحياة): إني قابلت من كان يعجب حين يراني أصلي مع الجماعة أو في الحرم المكي الشريف، بل إن بعضهم قال له: «والله كنت أظنك لا تأتي لمثل هذه الأماكن» طبعاً يقصد الحرم المكي؛ وذلك بسبب كثرة ما سمع عن الشخص من معلومات مغلوطة حتى صورته لدى بعض العوام وكأنه متحرر من الدين وتعاليمه، ولهذا فليس من المستغرب حين يشدد الدكتور الرشيد في أكثر من موضع في كتابه على أهمية الالتزام بالقيم خاصة حسن الظن وعدم التعدي على النيات أو الطعن في الأشخاص وإخراجهم من الملة بسبب مظاهرهم أو الاختلاف معهم، وحول ذلك يذكر الرشيد: بأن والده كان يغضب من الذين تفوتهم صلاة الجماعة ولكنه لم يصل به الحد إلى مقاطعتهم، كما لم يقل لأحد أخل بالسنن الدينية أو حصل منه خطأ بأنه ليس مسلماً. كما يرى أنه من المحالً توحيد فكر

الناس كافة واجتماعهم على مقولة واحدة ويؤكد على قول الإمام الشافعي (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري عندي خطأ يحتمل الصواب)[١].

أما الشخصية الثالثة التي أرغب الحديث عنها هنا فهي ليست أقل من سابقيها في إثارة الجدل وانقسام الآراء حولها، تلكم هي شخص الدكتور تركي بن حمد الحمد، من مواليد الأردن عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) كاتب وروائي، له العديد من المؤلفات[٢] التي أثار بعضها كثيرا من الجدل، نتيجة لتعرضها إلى موضوعات حساسة في المجتمع السعودي كالدين والجنس والسياسة، ترتب عليها قيام بعض طلبة العلم بتكفير الحمد وإهدار دمه بسبب بعض ما ورد في تلك المؤلفات.[٣]

ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن وكتب الدكتور الحمد ممنوعة من التداول داخل المملكة، ولكن التغير الذي طرأ حدث في معرض الرياض للكتاب عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) حين قام معالي وزير الإعلام الدكتور عبد العزيز خوجة بزيارة دار الساقي اللبنانية في جناحها في المعرض ليسأل عن كتب الدكتور الحمد، التي لم تحضر الكتب من ضمن ما أحضرته من إصدارات. ويعلق على ذلك الدكتور الحمد: بأن دار الساقي، أبلغته بأنها تلقت تحذيراً من جهات أو مسؤولين لهم علاقة بالمعرض تحذرهم من إحضار كتبي، ثم أجد وزير الإعلام جاء ليسأل عن كتبي في نفس جناح الدار، وهو أمر أشكره عليه ولكنني في حيرة في تفسير الأمرين.

(١) د. محمد بن أحمد الرشيد، مسيرتي مع الحياة، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

(٢) الحركات الثورية المقارنة، دراسات أيديولوجية في الحالة العربية، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير، أطياف الأزقة المهجورة (ثلاثية روائية: العدامة، الشميسي، الكراديب)، الثقافة العربية في عصر العولمة، والكثير من المؤلفات غيرها. (انظر الموسوعة الحرة) والحقيقة أني أظن بأن بعض كتابات الحمد لا تليق بمنهم في مثل سنه، ويعلم الله أني أخجل من قراءة بعضها منفرداً، ولا أنصح القارئ الكريم بقراءة الثلاثية ففيها ما يخدش الحياء ويثير الغرائز الشيء الكثير، وأعلم أن بعض من يقرأ هذه السطور سيقول بأنه نوع من توظيف الجنس لخدمة الحبكة الروائية، وأنا أقول بأن هذا التوظيف هابط، والتخلص منه كان أجدى بدلاً من توظيفه لنشر الرذيلة في أواسط القراء. ويعلم الله أني من محبي التغيير والتجديد ولكن التجديد الراقي الذي حتى لو اختُلف عليه يجد صاحبه عروة شرعية يتمسك بها وأرضية يمكن أن يقف عليها، أما بتلك الطريقة التي وردت في العدامة والشميسي فلا أظنها غير تجديد في الطرح ولكنه هادم وليس بانياً.

(٣) أنظر الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

ويضيف بأنه أخذ كتبه إلى وزير الإعلام شخصياً، الذي قال له: إنه لا يوجد ما يمنعها من النشر ولن تمنع، لكنني من وقتها أعرف وينقل لي ويؤكد لي أيضاً أنها ممنوعة بالفعل من دخول السوق السعودي، وفي المنافذ الحدودية والمطارات تتم مصادرتها على الفور، إذ إنها من ضمن لائحة إصدارات ممنوعة تصدرها وتحدثها وتشرف عليها وزارة الإعلام حسب علمي. ويعيد أسباب هذا التضارب إلى صغار الموظفين ممن ليس لديه ما هو أسهل من كلمة (لا)، وهؤلاء يعرقلون أو يبطئون تنفيذ القرارات أو تعطيل تمريرها بشكل أو بآخر، كما أن هناك جهات أخرى مثل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يهمها كثيراً حظر مؤلفاتي[1].

وعلى الرغم من أن الحمد كثيراً ما كان يشطح بفكره إلى حد غير مقبول خاصة في تجاوزاته تجاه الذات الإلهية - سبحانه وتعالى - عمّا يقولٍ أو حتى في إغراقه في التوصيف الجنسي لحد الابتذال، لدرجة تشعر معها بالارتياح لمنع بعض كتبه، وهو مصنف من قبل خصومه من التيار المحافظ على أن جميع كتاباته سيئة نتيجة مدخلاته الفكرية غير النقية، وتلك المؤلفات حتى لو لم تقرأ فيحكم عليها بالسوء بمجرد تطريز اسمه في خانة التأليف على غلافها، وفي ذلك يقول الدكتور الحمد: بأن أحد أصدقائه أخذ كتابه المعنون بـ(السياسة بين الحلال والحرام) ونزع الغلاف وقدمه لبعض الشباب المتحمس من التيار المحافظ، وبعد قراءته قالوا والله هذا كتاب طيب ويطرح أفكاراً جيدة وإلى آخره، ولكن حين أخبرهم ذلك الصديق أن الكتاب لتركي الحمد، قالوا: لابد أن نقرأه مرة أخرى فهذا الكاتب يدس السم في العسل، ويعلق على ذلك بقوله إن هذه مشكلتنا أننا نربط أي كلمة بالشخص نفسه، إذا اتُخذ موقف من شخص اتُخذ الموقف من كافة كتاباته وأقواله وهذا خطأ، فعلي بن أبي طالب يقول: (الرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال) ولكن هذا غير مطبق عندنا للأسف.[2]

(١) حوار أجراه معه موقع قناة العربية بتاريخ ١٤٣١/٣/٢٨هـ (٢٠١٠م) بوساطة المحرر محمد عطيف.

(٢) من حوار أجرته مع الدكتور الحمد قناة العربية، بتاريخ ١٤٢٩/٢/١٠هـ (٢٠٠٨م) في برنامج (روافد) الذي يقدمه المذيع أحمد بن علي الزين.

من أبرز من انتقد الدكتور الحمد، إمام وخطيب الحرم المكي الشريف فضيلة الشيخ الدكتور سعود الشريم، حيث قال: «وجاء عند الطبراني مرفوعا إلى النبي ﷺ (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها)، ومع ذلك فمن الناس جحّاد بالله الخالق، يعيشون بأنفسهم فحسب، تجدوهم أيأس الناس ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[١] نظروا إلى الدنيا وإلى الناس وإلى حكمة الله بمنظار أسود قاتم، يرون الأرض غابة والناس وحوشا والعيش عبثاً لا يطاق، ليس للأماني الصادقة محل في أفئدتهم حتى ولا جنة الخلد، فهم لا يبكون ميتا، ولا يفرحون بمولود، ويرون أن الميت للدود، وأن المولود لدود، وحاصلهم أن لا أمنية لديهم في أن يكون لهم أمنية فعبروا عن قنوطهم وكفرهم بالله بما يبثونه من اللغط والخلط من خلال محادثات ومقالات في الصحافة تارة، ومن خلال روائيات تارات وتارات يعدمون بها إنتاجهم للدين بالعدامة، ثم يشمسون أرواحهم لتفوح جيفهم فتخطفهم الطير أو تهوي بهم الريح إلى كراديب في شرق الوادي السحيق. والله المستعان، ولا غرو أيها المسلمون في انتشار الأماني الكاذبة والطموحات الساذجة والتطلعات الدنيئة في هذه العصور المتأخرة التي ضعف فيها الوازع الديني الزاجر.[٢]

قال عنه الدكتور عوض القرني: أنا متابع لإنتاجه منذ سنوات أحتفظ له بأكثر من مائتي مقالة، وقرأت رواياته كلها، وهو مفكر علماني ابتدأ حياته ناصرياً فبعثياً ملتزماً فشيوعياً ثم انتهى إلى الليبرالية المادية التي أصبح من مفردات خطابه من خلالها تنحية الأخلاق عن الفكر والسياسة فهو يتحدث في رواياته عن سيرته الذاتية ويذكر بالتفصيل المشاهد الجنسية مع غير الزوجة مرات متعددة وشرب

(١) من الآية (٨٧) سورة يوسف.

(٢) من خطبة للشيخ الشريم في ١٠/٢/ ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) وكانت بعنوان (فقه الأماني)، وما زلت أحتفظ بتسجيل للخطبة. ويظهر أن الشيخ الشريم قصد الدكتور الحمد من خلال ذكره لمجموعة من عناوين مؤلفاته.

الخمور والسخرية بالدين والمتدينين، وكذلك من لوازمه الفكرية سابقاً وحاضراً الهجوم على الإسلام ودعاته ومفكريه والحقد على شعائره وأحكامه وتاريخه في كل فرصة تتاح لذلك.

ومن أبرز من تحدث وكتب حول الدكتور تركي الحمد، الدكتور سليمان الخراشي، الذي ألف كتاباً وسمه بـ (تركي الحمد في ميزان أهل السنة والجماعة) ومما جاء فيه قوله: بأن تركي الحمد قد خلط بجهل بين أمور الدين وأمور الدنيا، فجعل التخلف الدنيوي دليلاً على التخلف الديني! وجعل التقدم الدنيوي دليلاً على التقدم الديني[1]! ففضل الكافرين على المسلمين، ولم يرتض للمسلمين أن ينظروا لإسلامهم على أنه المهيمن على سائر الأديان، وهذا كفر، لا يمحوه إلا التوبة النصوح إلى الله، والانتهاء عنه. وفي موضع آخر يقول: لا يرتضي الحمد لنا أن نأخذ بحضارة الغرب (المادية) لأنها مرتبطة (بثقافتهم)، فإما أن نأخذهما جميعاً، أو نذرهما جميعاً؛ حيث يقول: (إن التاريخ العربي الحديث والمعاصر يبين أن عملية التوفيق عملية كمية وليست كيفية، بذلك نعني محاولة دمج ما لا يدمج ومزج ما لا يمزج وذلك وفق مقولة « نأخذ منهم ما يتفق وقيمنا ونترك الباقي » وقد ترجمت هذه العبارة في كثير من الأحيان على أساس «استيراد» المنتجات المادية لحضارة الغرب المعاصر دون التعرض لمسألة القيم والايدولوجيا (وفق الفهم الشمولي). بمعني آخر فإن هذا الموقف يفصل ما بين منتجات الحضارة المادية وما بين منتجاتها أو إفرازاتها الثقافية والأيديولوجية، ويدعو إلى أخذ الأولى ورفض الثانية. وهذا الموقف، في رأينا يشكل استحالة منطقية واجتماعية في آن واحد؛ فالحضارة أية حضارة، هي عبارة عن كل واحد ليست إفرازاتها المادية إلا نتاج لإفرازاتها الثقافية والإيديولوجية وهذه بدورها ليست إلا إفرازاً للنتاج

(١) د. تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير، دار الساقي، بيروت، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

المادي وذلك في وحدة جدلية فاعلة ومنفعلة في آن معاً[1]. والاستحالة تنبع، من الناحية السوسيولوجية، من استحالة الجمع «الكمي» بين الشق المادي لحضارة ما والشق الثقافي الإيديولوجي لحضارة أخرى.[2] ويرد عليه الخراشي بقوله: يحاول الحمد من خلال هذا القول (الكاذب) أن يسد جميع المنافذ على الأمة، ويحاول أن يقودها إلى ما يريد، فإن هي التزمت بدينها وصمها بالتخلف والانغلاق، وفضل

(١) مع احترامي لرأي الدكتور الحمد، إلا أن هذا الكلام غير منطقي، ولا يقبله عقل، ولعلي فقط أسوق مثالاً في غاية السهولة، يوضح العلاقة بين جانبي المنتج الثقافي والمادي، فالشوكة والسكين - مثلاً - قيمة أو منتج مستورد له طرفان مادي وثقافي، نرى بعضنا يستخدمها كما رأى الغربي يستخدمها تماماً؛ بحيث يمسك السكين في بيده اليمنى والشوكة بيده اليسار، ومن يفعلون ذلك مع الأسف ليسوا قلة وهم في فعلهم هذا أخذوا قيمة مادية وجلبوا معها ثقافة غربية، تتعارض مع الدين الإسلامي الذي يأمر أتباعه باستخدام اليمين في الأكل، فعَنْ عُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ قالَ : قالَ لي رَسُولُ اللَّه ﷺ : «يَا غُلامُ سَمِّ اللَّه وَكُلْ بَيَمينِكَ وكُلْ ممَّا يَليكَ» مُتّفقٌ عَلَيه. وقول رسول الله ﷺ: «لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِه وَلا يَشْرَبْ بِشِمَالِه فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِه وَيَشْرَبُ بِشِمَالِه» صححه الترمذي. وبالمقابل هناك من راقت له فكرة استخدام الشوكة والسكين أثناء تناول الطعام، وهي عادة غربية ولكنه وظفها بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية، وطرحي لهذا المثال على بساطته ما هو إلا استدلال على أن ما يجري على هذه يجري على ذاك، وكما يستخدم بعض الغربيين أجهزة تشغيل الأشرطة والاسطوانات الليزرية لسماع الأغاني مثلاً فمن حق المسلم أن يستخدمها لسماع القرآن أو غيره من المواد الصوتية التي لا تتعارض مع الدليل الشرعي الوجيه. والحقيقة أن مثل تلك الدعوات هي ما يتسبب على المجتمعات من تغير سلبي؛ عائد إلى قلة فهم بعض المنظرين أن ما يناسب حضارة ليس بالضرورة أن يناسب الأخرى، خاصة حين تتحدث عن حضارة بحجم الحضارة الإسلامية العظيمة التي وإن كانت قاصرة في وقتنا الراهن مادياً إلا إنها الأغنى والأصح والأنسب للبشرية، كيف لا! وقد وضع أسسها الخالق -سبحانه وتعالى- الذي لا يحصى ثناء عليه.

(٢) د. تركي الحمد، دراسات إيديولوجية في الحالة العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٢هـ (١٩٩٢م). وكرر نفس الأفكار في لقاء معه أجرته قناة العربية عبر برنامج روافد، بتاريخ ١٤٢٩/٢/١٠هـ (٢٠٠٨م) ثم قام بإعادة نشر مقتطفات محددة منه موقع ميمري الصهيوني الذي ليس له مهمة غير متابعة ما ينشر من آراء مسيئة بحق العرب والمسلمين وترجمتها إلى عدة لغات ونشرها في موقعه وتعميمها على أفراد وجهات مختلفة. وقد شاهدت ذلك اللقاء وأحتفظ بنسخة منه كما أحتفظ بنسخة من الكتاب، ولا أملك إلا أن أهمس في أذن الدكتور الحمد لأقول له إن التمسك بالدين الذي وصفه الله بالكامل الذي لا يعتريه نقص، هو الصواب والرجوع إليه تغير مجتمعي إيجابي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ من الآية (١١) سورة الرعد، أما الدعوة إلى استبدال الهش بالصلب والذي هو أدنى بالذي هو خير، فأراه ضرباً من السفاهة المخالطة لعقل كل من يعيب على من يتمسك بالثوابت ويرفض كل ما يخالفها.

غيرها عليها. وإن هي حاولت أن تستفيد من حضارتهم (المادية) صاح بها بأنها لن تستطيع هذا لأن حضارتهم (المادية) مرتبطة بثقافتهم، فإما أن تأخذها جميعاً، أو تتركها جميعاً! فماذا تفعل الأمة بعد أن سدَّ الحمد عليها المنافذ؟ ثم يسأل: ما المانع من أن نفعل هذا؟ ثم ما هو هذا التطور (المادي) الذي سيرتبط بالثقافة؟ فالذي يعلمه الجميع أن قمة الحضارة المادية اليوم تتمثل في بلوغ الذروة في مجال الفضاء، وصناعة طائرات مدنية أو حربية، وصناعة صواريخ متنوعة، وإطلاق أقمار صناعية ومركبات فضائية، والتفوق في عالم الاتصالات والحاسب، وغيرها من الأمور التي يشير إليها الدكتور الخراشي الذي يتساءل عن علاقة كل ذلك بالايدولوجيا والثقافة؟ وما الذي يمنع من: استقدام خبراء وفنيين يكونون نواةً لمن بعدهم في استغلال طاقات وكنوز بلادنا؟ وتشجيع النابغين من أبنائنا، وجلب ما يحتاجونه من مواد ومعدات لكي ينتجوا ويحققوا أهدافهم كما فعل غيرنا، ومن ثمّ نحصّل ما حصله غيرنا بعد أن أسسنا البنية التحتية السليمة، ثم يكرر سؤاله عن علاقة كل هذا بالايدولوجيا والثقافة التي يوهمنا بأنها مرتبطة بهذا التطور المادي؟

والإشكالية الحقيقية أن هناك بعضاً من المفكرين العرب ـ الذين أحترمهم كأشخاص رغم انهزامهم الفكري ـ إضافة إلى بعض المفكرين الغربيين يبالغون بشكل كبير حين ينسبون كل تطور وكل تحسن وكل إيجابية تلحق بالمجتمعات البشرية على أنها قيمة غربية بحتة بل إن بعضهم يعد كلمة التحديث modernization مرادفة لكلمة تغريب westernization ويرون بأن من يريد مجاراة الغرب فعليه أن يتبنى ثقافاتهم وفلسفاتهم، وأن يتخلى عن كل ما يعارض تلك الثقافات، ولا ما نع من أن يتمسك بالقشور، فهي لا تضر، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1] ولست أتفق مع هذا المنطق المغرق في الذاتية فكل تلك المعايير والميزات قديمة جداً وهي موجودة في معظم المجتمعات البشرية المتحضرة، بل وبعضها يتوافر حتى لدى المجتمعات غير المتحضرة. ولا يلزم الانتفاع بها، الأخذ

---

(١) من الآية (١٢٠) سورة البقرة.

بكل من قام بتصنيعها، كما أن هناك من يقول بأن مشاهدة التلفاز والاستماع للإذاعة نوع من محاكاة الغرب، وهذا أيضاً غير صحيح؛ لأن الناس شركاء في التقنيات الحديثة ومن حقهم الانتفاع بها بغض النظر عن من ابتكرها، وقد قيل بأن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها.

ومن هنا فإني أؤكد على أنه لا يصح القول بأن تلك المكتشفات قرينة للثقافات، أو الادعاء بأن من يحاولون تحديث مجتمعاتهم فكأنهم يحاولون تغريبها، والصواب أنه يحق لكل مجتمع محاكاة المجتمعات الأخرى والاستفادة من تجربتها بما يتوافق مع ثقافته وقيمه وأخلاقياته، أما من يعتمدون على الغرب ويستقون منهم كل شيء ويحاولون تطبيق ما عندهم من حضارة وقيم وثقافات فهؤلاء تغريبيون ولا يصح أن نطلق عليهم مصلحين أو محدثين أو مجددين.

كما قام الشيخ عبد العزيز بن ريس الريس بالحديث عن تركي الحمد وغيره في محاضرة بعنوان (نقض أصول الليبرالية و تركي الحمد نموذجا) ومحاضرة أخرى بعنوان (آراء تركي الحمد في ميزان الشرع) ومما قال فيها: بأن خلاصة أفكار وآراء تركي الحمد تتمثل في أن الدين يعطي المبادئ العامة فقط وللشعوب تحديد التفاصيل، وأن الدين ليس له علاقة بالمعاملات؛ فهو مقصور على العبادات كالصلاة وغيرها، وأن للشخص أن يحدد الدين الذي يرغبه، وأن الشرع لا يصح أن يتحاكم إليه لأن الشرع يختلف تفسيره من شخص لآخر، كما يرى الريس أن الحمد قدري ضال ينكر قدرة الله ويجعل العباد يفعلون ما يشاؤون من دون قدرة الله، كما ينتقد اعترافه بأنه ليبرالي؛ حيث إن هذه تعني حقه في فعل واعتناق الدين الذي يشاء.

كما كتب حوله الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر ثلاث مقالات: الأولى بعنوان (الحق أن المستحق للمحاكمة هو تركي الحمد) والثانية بعنوان (كلمة أخرى حول زندقة تركي الحمد) والثالثة بعنوان (كلمة ثالثة حول زندقة تركي الحمد) ومما يذكر بها قوله: ذكر تركي الحمد في حوار أجرته معه صحيفة الجزيرة اشتكى خلاله أن كتبه ممنوعٌ بيعها في مكتبات المملكة ومعارضها، وأنه تكررت الوعود له

بفسحها ثم يفاجأ بالمنع، مضيفاً: ومؤخراً أتاني وعد جديد بنشر كتبي في كل المكتبات وليس معرض الكتاب فقط، وها أنا من المنتظرين. فيرد على ذلك الشيخ العباد بقوله: وحُقَّ لكتب اشتملت على مثل هذه القبائح التي ذكرت نماذج منها أن تُمنع ومثلها حقيق بأن يُحرق، ومثلها لا يجوز الوعد بنشره فضلاً عن تنفيذ الوعد، وكان ينبغي بدلاً من أن يوعد بنشرها أن يُطلب منه التوبة من كل ما اشتملت عليه من زندقة وأن يكتبَ كتابة سليمة تستحق النشر.[1]

وهناك كثير من الكتابات وحتى الفتاوى التي صدرت بحق تركي الحمد، والحقيقة أن تركي الحمد رغم غزارة إنتاجه وجمالية أسلوبه، يعيب المؤلف على فكره بثلاث سلبيات، كل واحدة منها كافية لمقت الوعاء الذي حواها واللسان الذي قالها:

١. تعديه على الذات الإلهية في أكثر من موضع في كتاباته، وليس المقام مناسب لنشرها وهي موجودة في كتبه.

٢. استعماله لألفاظ جنسية فاضحة لا تليق بمراهق مسلم، ما بالك بمن هو في سن الدكتور تركي الحمد.

٣. الانهزامية الواضحة في طريقة تفكيره وتعلقه بالغرب ومناداته دائماً بما ينادون به وهذا مخالف لأمر الله القائل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[2] وأي شيء أسوأ من المناداة بتبني الثقافة الغربية والأخذ بها بدلاً عن الثقافة الإسلامية؟ وهذه الطريقة في التفكير ليست بعيده عن المنهج التغريبي الانهزامي الذي كان يتبناه طه حسين الذي كان يدعو لقبول الحضارة الغربية كاملة في الحكم والتشريع والإدارة وغيرها، وهو يتبنى نظرية الانتشار، إحدى نظريات التغير الاجتماعي التي ترى أن

(١) مجلة المحجة، مقالات عقدية www.mahaja.com

(٢) من الآية (٥١) سورة المائدة.

أصل الحضارات واحد، وهي النظرية النقيض لنظرية الاختراع، التي كان يرفضها طه حسين. وقد ركز على أهمية التربية اعتماداً على ما توصل إليه الأوروبيون في هذا المجال وكان يقول: لابد أن نتعلم كما يتعلم الأوربي، لنشعر كما يشعر، ونحكم كما يحكم، ثم نعمل كما يعمل.[1]

والإشكال في نظري أن الدكتور تركي الحمد في طريقة تفكيره لم يكن ينطلق من فراغ بل كان يتبع منهجاً له أربابه ومعلموه وأولئك بالتأكيد سيكون لهم أتباع ومريدون، وهذا الذي بدأ يظهر ويطفو على السطح الآن، حيث إن هناك من صار يتبنى نفس المنهج الذي سار عليه الحمد، والخوف كل الخوف من حدوث تغيرات سلبية جداً في المجتمع السعودي، في حال ترك هذا المنهج الانهزامي يبث سمومه وتتاح له الفرصة للتغلغل في أوساط المجتمع خاصة الطبقة الناشئة المتحمسة التي تتطلع إلى أن ترى مجتمعاتها تتبوأ مراتب متقدمة في مصاف دول العالم الأول، ولكن لا تعرف إلى ذلك سبيلا، ثم يأتي الدكتور الحمد وغيره ليرشدها ويقودها لتمسك بأذيال الحضارة الغربية إن هي أرادت تحقيق بغيتها.

وبعد أن عرضت لمجموعة من النماذج التي عاشت فترات مختلفة من التغيرات الثقافية (أدباً وفكراً) في المجتمع السعودي، وأشرت إلى نماذج من طرحها وكيف كان موقف المجتمع منها وأوضحت بأن موقف رجال الدين والمنتسبين للتيار المحافظ

---

(١) للمزيد حول ذلك انظر كتاب التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغير في المجتمع المسلم المعاصر، للدكتور علي القرشي، وحديثه حول الاتجاهات الإسلامية وتعدد الجماعات ومن ذلك قوله في حديثه عن الاتجاه الليبرالي: بأن مفهوم الليبرالية يتحدد بمعاني العقلانية والوضعية في الجانب الفلسفي، والديمقراطية والعلمانية في الجانب السياسي، والحرية ومبدأ المنافسة في الجانب الاقتصادي، وتمجيد الإنسان والسعي نحو المنفعة الدنيوية في الجانب الأخلاقي. ويأخذ مفهوم الليبرالية إجمالاً معنى الحرية في التفكير، وعدم التقيد بمسميات وأحكام دينية أو إيديولوجية مسبقة، ومن هذا المنطلق حاول بعض المثقفين العرب معالجة مسألة الجمود والتأخر في الواقع العربي مركزين على مفهوم الحرية كتجاوز للتقليدية والغيبية، ومفهوم العقلانية والتي تعني العمل بمقتضى العقل في مقابل العمل بمقتضى الوحي، مع تأكيدهم على نشر التعليم والمعارف العلمية والتقنية باعتبار أن تغيير الأفراد وتأسيس النظام الاجتماعي في ضوء ما يمليه العقل هو التصور السليم للتغيير والبناء. ثم يقسم الاتجاه الليبرالي إلى أربعة أقسام: تطوري، تغريبي، قومي عربي، توفيقي.

كان موقفاً صارماً بحيث لم يفسحوا المجال أمام أي محاولات للتغيير؛ خشية أن تقود إلى الوقوع في محاذيرَ شرعية، ومن باب سد باب الذرائع فقد حرصوا على أن تسود نمطية معينة ألفوها وتكيفوا معها وما كان لبعضهم من سلاح أمام الناس سوى أن المجدد محدث ومبتدع ويسعى للنيل من المعتقد، وكان هذا كافياً في فترات لسحق المخالف، وفي نفس الوقت بث رسالة إلى من قد يفكر بالإتيان بمحدث أنه سيلقى نفس المصير. وإن كانت تلك المواقف الصارمة مجدية ومحقة في مواقف ومناسبات، إلا أنها لم تكن كذلك في أحوال أخرى، بل كانت بعض تلك المواقف المتشنجة تضع أشخاصاً في أقفاص الاتهام وتصورهم وكأنهم قد خرجوا من الملة، وقد عرضت لذلك، وهذا أحدث خللاً وقسم المجتمع إلى فسطاطين كبيرين فسطاط محافظ وآخر منفتح وكل واحدٍ منهما انقسم على نفسه عدة أقسام أيضاً، ولكن تبقى الشريحة العريضة من المجتمع السعودي في المنطقة الوسطية قد تتعاطف مع هؤلاء وقد تميل إلى أولئك ولكنها بعيدة عن التشنج وتبني آراء محددة والاستماتة في الدفاع عنها.

المرحلة الرابعة للتغير الثقافي: (١٤٢١هـ (٢٠٠١م) وما بعدها حتى الآن)

ثم أتت بعد ذلك المرحلة الفكرية التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وهي مرحلة تختلف عن بقية المراحل الأخرى منذ مرحلة البدايات الأولى وحتى مرحلة ما بعد حرب الخليج الثانية، حيث إن هذه المرحلة تميزت بتعدد الأسماء وكثرتها وعلو صوتها مع إتاحة مساحة كبيرة لها ورفع سقف الحرية لها مقارنة بالمراحل السابقة حيث صرنا نقرأ ونسمع ونشاهد أموراً ويتقبلها كثيرون، مع العلم أنها كانت قبل عقدٍ من الزمن من المحرمات التي لا يصح الحديث عنها أو طرحها، ولعلي أعرض لبعضٍ من أهم ما صار يطرح في الحقبة الجديدة من التغير الفكري في المجتمع السعودي دون التطرق لنماذج كما فعلت في الحقب السابقة خاصة أن النماذج كثيرة ويمكن للقارئ الكريم العودة إلى بعض ما يكتب ويقيس بنفسه أهم التغيرات التي استجدت في طرق التفكير والطرح.

ولو لاحظنا هنا لوجدنا أن أهم ما يميز هذه المرحلة كثرة المناداة بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل حتى صار لا شيء يطرح أكثر من هذا الموضوع لدرجة ظن معها بعض المتلقيين أن جميع المشكلات والقضايا في المجتمع السعودي حلّت ولم يبق سوى قضية المرأة، ولم يتوقف الأمر على المفكرين والكتاب السعوديين ولا على الإعلام السعودي بل امتد إلى خارج البلاد لتصبح قضية المرأة السعودية كقضية فلسطين من القضايا المدوّلة التي يتحدث عنها كل أحد وتخصص لها الفضائيات أوقات ذروتها وتستقطب الضيوف من المملكة ومن خارجها للحديث في هذا الشأن، ومن أراد التحقق فما عليه إلا مطالعة بعض الوسائل الإعلامية خاصة المقروءة منها والمشاهدة ليرى حجم ما يطرح حول المرأة السعودية وحقوقها المسلوبة.

ولم يأت هذا الكلام عبثاً بل جاء وفق أجندة محددة بثت فكرتها حول المرأة بطريقة ممنهجة جعلت التيار المحافظ يتخلى عن أسلوبه الهجومي المعهود عنه ويتحول إلى الدفاع عن المرأة على أكثر من جبهة، جميعها مرهقة تسببت في تشتته، فمن قضية حق المرأة في قيادة السيارة إلى قضية الاختلاط وقبلها الدمج، هذه القضايا المتنوعة المتعلقة بالمرأة جعلت حتى التيار المحافظ ينقسم حيالها وسمعنا أصواتاً خرجت، وقالت لا بأس في مسألة الاختلاط وفصلت في ذلك، وقال آخرون لم يَرد نصوص تحرم قيادة المرأة للسيارة وهكذا، وهذه الأصوات هي نفسها التي كانت من أشد الناس حماسة حين كانت تتخذ مواقف مضادة من تلك الآراء التي تنادي بقيادة المرأة، ولا ترى بأساً في الاختلاط، وإن كان بعض طلبة العلم يرونهم قلة وهم بحكم الشاذ، الذي لا حكم له، إلا أني أرى ويشاطرني آخرون أن هذا نوع من التغير والتبدل المجتمعي في نظرة المجتمع لبعض الأمور التي كان وما زال بعض المحافظين يرون من يتحدث عنها بأنه إما (علماني أو مُنحل).

كما كثر الحديث في مسألة إصلاح المناهج، وصار أيضاً كل أحدٍ يتكلم بها بل وصل الحد ببعض الكتاب أن يصم المناهج، السعودية بمفرخة الإرهاب، وكانت البداية بالتركيز على المناهج الدينية وأنها تقود إلى التطرف وإقصاء الآخر

وكتب حول ذلك العديد من الكتاب، ثم انتقل الحديث إلى أن المناهج تحتاج إلى تغيير (لاحظوا هنا التركيز على مفردة تغيير، وليس تطوير، وهناك فرق كبير بين الاثنتين) بل إن بعضهم ذهب يمحص في مختلف الكتب ويبحث عن أي جملة أو مثال يثني على الإسلام وأهله ليستشهد به على عنصرية المناهج، ومن ذلك ما كتبه الدكتور حمزة المزيني، بعنوان (ليست المناهج الدينية وحدها) في صحيفة الوطن[1] حيث كتب: «وسوف أقصر حديثي هنا على مقررات اللغة العربية في المرحلة المتوسطة، وأستشهد على ذلك بطبعة تلك المقررات لسنة ١٤٢٦/١٤٢٧هـ أما العبارات التي تدخل في باب التصنيف و(الأدلجة) فكثيرة في هذه المقررات. وسأكتفي بذكر نماذج منها. فمن ذلك ما نجده في كتاب «قواعد اللغة العربية» للصف الأول المتوسط، الفصل الدراسي الأول (ص١٠، المثال ٨) «الكافر هو الشقي». (ص١٢، المثال ٢): «المسلمون قادة العالم». (ص٣٦، المثال ٥): «جهنم مثوى الكافر». كتاب «قواعد اللغة العربية»، للصف الثاني المتوسط، الفصل الدراسي الأول (ص ٢١(٥)): «الكافرات يعاقَبن بالنار». (ص٦٠): «لن يتقدم المسلمون إلا بتطبيق الإسلام». (ص٧٧، (٣)): «انتقلت الصناعات من المسلمين إلى الغرب».

ولا أخفي حقيقة أن بعض ما أورده الدكتور المزيني فيه ما يحتاج إلى التطوير، مع العلم بأنني وغيري كثيرين درسنا تلك المناهج المشتملة على نفس العبارات وخرجنا بفضل الله لم يمسسنا سوءٌ منها، وفي المقابل درس بعض الأشخاص في مدارس وجامعات غربية قبل أن يعتنقوا فكر الفئات الضالة، ولكن أن يصل احتجاج المزيني وغيره على بعض الثوابت ويعترض على إدراجها في المقررات فهذا غير مقبول إطلاقاً فالكافر في النار وهذا ثابت في القرن الكريم حيث ورد ما يفيد ذلك في غير موضع منه يقول - عز وجل: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2] ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾[3]

---

(١) مقالة في صحيفة الوطن بعنوان (ليست المناهج الدينية وحدها) بتاريخ ١٤٢٦/١١/٢٠هـ (٢٠٠٦م).

(٢) الآية (٢٤) سورة البقرة.

(٣) الآية (١٣١) سورة آل عمران.

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾[1] وكذلك الحال مع شقاء الكافر فالله يقول: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[2] وغيرها الكثير من الاعتراضات التي رأى المزيني وغيره أن الاستشهاد بها من باب الأدلجة وأنها تسبب التطرف وإلا ما الذي يضير لو قلت أو قال غيري: (إن المسلمين لن يتقدموا إلا بتطبيق الإسلام) فمثلما ينادي الغرب بتطبيق مبادئه بل وفرضها على الآخرين، فمن حقنا أن ننادي بتطبيق منهجنا الرباني، بل ونشره بين الناس وهذه رسالتنا التي من أجلها خلقنا.

ثم لم تقف تلك الدعوات على الكتاب السعوديين، بل انتقلت الدعوات حتى إلى خارج البلاد[3]، حيث بدأ بعض الغربيين ينادون بتغيير المناهج في البلدان الإسلامية وخاصة السعودية التي ينتمي إليها ١٥ ممن نسبت إليهم تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، حيث ذكرت نينا شي Nina Shea مديرة مركز الحريات الدينية بمؤسسة فريدوم هاوس Freedom House في واشنطن: «بأن مناهج التعليم في المدارس الحكومية السعودية تناوئ الغرب وتكفر أصحاب الديانات الأخرى من مسيحيين ويهود وغيرهم، وكان ينبغي بعد هجمات ١١ سبتمبر وتورط ١٥ سعوديا من ١٩ شخصا هو أجمالي عدد الخاطفين، أن تتغير تلك المناهج[4].

(١) الآية (١٤) سورة الأنفال.

(٢) الآية (١٠٦) سورة هود.

(٣) يتحفظ المؤلف على كلمة انتقلت؛ لأنه ليس متأكداً من أين أتت هل من هنا فدعموها هناك؟ أم من هناك فتلقفوها هنا؟

(٤) تقرير معد من (٣٨ صفحة) نشر بعنوان مناهج التعصب السعودية Saudi Arabia's Curriculum of Intolerance والذي صدر عن مركز الحريات الدينية التابع لمؤسسة فريدوم هاوس بالتعاون معهد دراسات الخليج. والتي تعتبر كاتبة المقال المحررة الرئيسية للتقرير. انظر موقع تقرير واشنطن على الإنترنت العدد ٦٠ بتاريخ ٢٩/٤/١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) تقرير بعنوان (حملة جديدة في واشنطن ضد مناهج التعليم السعودية) للمحرر يحي عبد المبدي محمد. ويذكر التقرير أن نفس الكاتبة سارعت إلى عقد ندوة بعد صدور تقريرها بعنوان (الإصلاح في السعودية: كتب جديدة وأفكار قديمة). وتنسب الفضل في تنظيم الندوة وإعداد التقرير إلى أحد الذين يزعمون الإصلاح والخير لمجتمعنا (ولكن ما هكذا تورد الإبل) وتشير إلى أنه لولا مساعدته لما قامت بكل هذا العمل. وقد كتب أحد المعلقين على ذلك التقرير في موقع التقرير: «ونحن في المقابل سنقوم بحملة لمناهضة تدربس المسيحية في المدارس الأمريكية دون الحاجة لأن نطلع عليها ثم نعيد صياغتها وننقحها بحذف ما لا نريد وإضافة ما نريد.=

كما لم تقف المطالبات على المؤسسات الأهلية فقط بل قام وزير الخارجية الأمريكية سابقاً كولن باول بإلقاء خطاب تحدث خلاله عن مشروع مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة الأمريكية والشرق الأوسط وذلك عام ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م) وتركز المبادرة على حرب الإرهاب في الشرق الأوسط، والاهتمام بالإصلاح التعليمي حسب الرؤية الأمريكية، ويتبع ذلك تحديث التعليم، وتغيير المناهج، وتغيير نمط المدارس.

وقد كتب حول ذلك الدكتور سامي محمد الدلال، ومما قاله: إنشاء مدارس أمريكية في مختلف البلدان العربية لكل مراحل التعليم؛ تؤهل طلابها للالتحاق بالجامعات الأمريكية، مع خفض رسوم الالتحاق بهذه المدارس، مع تخفيض أسعار المناهج الأمريكية التي ستدرس؛ لتشجيع أكبر عدد ممكن من التلاميذ العرب على الالتحاق بها. ومن أبرز أهدافها: ربط أبناء الدول العربية بأنماط الثقافات الأمريكية، كما أن هؤلاء الذين سيتلقون تعليماً عالياً متميزاً لابد أن يدخلوا في دائرة الضوء والمناصب السياسية في بلادهم، وبذلك سنضمن ارتباطهم العاطفي، وترتيب أفكارهم مع الولايات المتحدة الأمريكية، وسيمثل هؤلاء في المستقبل دعامات أساسية لتأييد السياسات الأمريكية، وتلافي خطر الإرهاب ونتائجه.(١)

والكتابات والمطالبات الغربية حول المناهج السعودية كثيرة ويتمثل حنقها في أن تلك المناهج تقوم على الإسلام ، وأن الدراسات الإسلامية تشكل جزءاً رئيساً في الكتب المقررة، بل حتى الكتب العلمية تشير إلى الإسلام، وأن السعوديين يقولون إن الإسلام هو أساس الدولة والمجتمع والقضاء والتعليم والحياة اليومية، وأكثر ما

= وعلى الأمريكيين أن يكونوا «إمعات» وينفذوه صاغرين دونما نقاش أو مماطلة؛ فليس في هذا الإجراء الذي سنمارسه بحقكم أية ديكتاتورية أو استبداد. أليست هذه هي وصفة الحرية والديمقراطية التي تريد الولايات المتحدة أن تعلبها وتصدرها لنا». وكتب آخر: «فلتحذروا هذا المدعو (يتحدث حول من ساهم في كتابة التقرير وتنظيم الندوة) فلن يكون فيه خير لكم، وهو الذي بدا واضحا انه لا خير فيه لبلده السعودية التي انتشلته من الحضيض و علمته ركوب الطائرات ولبس ربطة العنق وعرفته موقع أمريكا على خارطة العالم».

(١) انظر مجلة البيان العدد ٢٠٣ رجب ١٤٢٥هـ تقرير (إستراتيجية فرض الهيمنة: مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية) ضمن ملف المجلة لذلك الشهر.

يزعجهم أن تلك المناهج لا تعترف بأي حق لليهود في فلسطين وأرض إسرائيل، كما تصور أرض فلسطين على أنها (محتلة من اليهود الأجانب).[١]

ومن عيوب مناهجنا في نظرهم أنها تركز على فصل الذكور عن الإناث، وتركز على حجاب المرأة؛ ولهذه الأسباب فهم يرون ضرورة تغييرها ولا عجب حين يكتب رالف بيتز، في صحيفة الوول ستريت جورنال مقالة نشرت بتاريخ ١٤٢٢/١٠/٢٠هـ ٤ يناير ٢٠٠٢م بعنوان (الرياض هي أصل معظم الشرور)، كما لا نعجب حين يكتب جيم ديفدز، ودوغ بيروتر في مجلة الكريستيان ساينس مقالة نشرت بتاريخ ١٤٢٣/٨/٩هـ ٢٠٠٢/١٠/١٥م بعنوان (إن أردتم القضاء على الإرهاب، فأصلحوا المناهج السعودية.[٢]

(١) عبارة الأجانب لطيفة جداً وربما ما علموا أننا نقول ليس الأجانب بل (البغاة، المعتدين، المغتصبين، المفسدين، وغيرها من العبارات المماثلة). وهذا أقل ما يوصف به المحتل المغتصب.

(٢) قد يكون مقبولاً أن يطالب كاتبٌ في صحيفة أو إعلامي بإصلاحات تعد شأناً داخلياً لبلد آخر، ولكن ما لا يمكن قبوله أن تكون المطالبة من شخصيات رسمية تحتل مواقع في هيئات رسمية علياً مثل الكونغرس الأمريكي كما هو الحال مع النائب الديمقراطي عن ولاية فلوريدا جيم ديفيز Jim Davis والنائب الجمهوري عن ولاية نبراسكا دوغ بيروتر Doug Bereuter، ولو استندت مطالباتهم إلى دراسات وحقائق، لقلنا بأن هذا من حقهم خاصة وأنهم تضرروا مما جرى في الحادي عشر من سبتمبر (تلك الشماعة التي تبرر كل اعتداء وتدخل في شؤون الآخرين) ولكن الحقيقة أن خبراء الإرهاب يشيرون إلى أن المناهج والمدارس بشكل عام ليست سبباً في اعتناق الفكر الإرهابي ومن تلك الدراسات ما قام به الدكتور مارك سيجمان Marc Sageman بعنوان (فهم شبكات الإرهاب) Understanding Terror Networks سمعت منه بنفسي حين زار الرياض قوله: بأن هناك من يزعم بأن المدارس الدينية تعلم بغض الغرب، وتغسل أدمغة المسلمين الشباب من أجل تحويلهم إلى إرهابيين! ولكن الحقيقة أن ١٣٪ فقط من معتنقي الفكر الضال من خريجي المدارس الدينية وتحديداً في منطقة جنوب شرق آسيا حيث قام أبو بكر باعشير وعبدالله سنغكر، بتأسيس الجماعة الإسلامية في إندونيسيا من طلاب المدرسة الدينية التي يشرفان عليها، ثم أصبحت بعد ذلك تلك الجماعة تابعة لتنظيم القاعدة. وهذا يعني أن ٨٧٪ من الإرهابيين حصلوا على تعليم غير ديني خلافاً لما تزعمه بعض الأصوات، بل إن نسبة لا باس بها منهم تعلموا في مدارس غربية. كما أن الأمر لا يتوقف على المدارس بل حتى العائلات التي خرج منها أولئك الإرهابيون كانت في حقيقتها معتدلة أو متحررة وليست عائلات متطرفة، والغريب أن ٨٪ منهم كانوا مسيحيين ثم اعتنقوا الدين الإسلامي، وهذا ما يفند المزاعم التي تقول إن للثقافة الإسلامية دوراً في تبني العنف. (وحول ما يزعمه الإعلام الغربي وينادي به بعض الكتاب في بلادنا من أنه قد يكون للفصل بين الجنسين ومنع الاختلاط دور في جنوح بعض المراهقين للانتماء للفئات الضالة، وهي بالمناسبة إحدى النقاط التي أوردتها في الصفحات السابقة التي يستشهد بها بعض الغربيين ويعدونها دليلاً على ضرورة تصحيح التعليم في بلادنا) يقول مارك بأنه بالفعل هناك من يعتقد أن عدم توفر فرص الاتصال الجنسي للشباب المسلمين يحول إحباطهم الجنسي إلى إرهاب انتحاري لكسب المكافأة السماوية، وبالأخص الظفر بالحور العين في الجنة، ولكن دراسته أشارت إلى خلاف ذلك حيث أن ٧٥٪ من المنتمين إلى الفئات الضالة وعلى الأخص تنظيم القاعدة متزوجون، بل إن ٦٠٪ منهم لديهم =

والغرب الذي ينادي بتغيير مناهج البلدان الإسلامية لتستقي من معين الثقافة الغربية، لا يرضي بتلك الممارسات أن تفرض عليه كما يقول رونالد ريغن: « لو أن هذه المناهج التي بين أيدينا فرضتها علينا أمة من الأمم لاعتبرنا ذلك اعتداءً سافراً علينا»[١] كما أن المطالبات تتركز على الدول الإسلامية فقط أما غيرها فلا؛ بدليل أنه نادراً ما يتحدث الكتاب الغربيون عن المناهج الإسرائيلية التي تفوح عنصرية وتطرفاً، ولا يطالبون بإصلاحها، وجل تركيزهم منصب على المناهج الإسلامية فقط، ويعاونهم في ذلك ثلة قليلة من بني جلدتنا ينطبق على بعضهم قول المولى - عز وجل - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[٢] والحقيقة أن الحديث حول التعليم يطول ولكني أوجز حديثي بالقول أن مناهجنا يعتريها بعض القصور، كحال أي جهد بشري، وتحتاج إلى التطوير بما يتماشى مع متطلبات المرحلة التي نعيشها، مع ملاحظة أهمية تكثيف المواد الدينية خاصة القرآن الكريم وتفسيره فهو عماد الحياة ومتى فهمناه حق الفهم يمكن حينها أن نرتقي بمجتمعنا في شتى مناحيه كما يقول - عز وجل - : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[٣] يقول القرطبي في تفسيره: وقال مجاهد : فيه ذكركم أي حديثكم، وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم. وقال سهل بن عبد الله : العمل بما فيه حياتكم. وقد درست مع طلبة عرب كانوا لا يجيدون قراءة القرآن؛ بسبب سياسة اتخذوها بالحد من مواد الدين، وقد كنا نرثى لحالهم، والمحزن أيضاً أن مستواهم في العلوم الأخرى ليس بعيداً عن العلوم التي أهملوها، والله أسأل أن لا يأتي يوم يمكّن فيه لمن يقلص العلوم الأصل

= أطفال. وحديث سيجمان حول هذا الموضوع طويل جداً نقلت منه ما يهمني في هذا المبحث ومن أراد الاستزادة فيمكنه الرجوع إلى كتاب مارك سيجمان بعنوان (فهم شبكات الإرهاب) Understanding Terror Networks نشرته جامعة بنسلفينيا عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

(١) مقالة بعنوان (أمة في خطر مداخلة عن مناهج التعليم في الوطن العربي) نشرت في موقع صيد الفوائد بتاريخ ١٤٢٦/٩/٣٠هـ ٢٠٠٥/١١/١م كتبها الأستاذ سالم بن مبارك الفلق.

(٢) الآيتين (١١) (١٢) سورة البقرة.

(٣) الآية (١٠) سورة الأنبياء.

لمصلحة العلوم الثانوية، أقول قولي هذا وأنا على يقين أننا بحاجة لتطوير المناهج ولكن لن يكون تقليص العلوم الدينية هو الحل بأي حالٍ من الأحوال.

ومن ضمن متغيرات هذه الفترة (ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر) كثرة انتقاد العلماء ورجال الدين تحت بند ما يسمونه: (إن الفكر الديني وهو الفكر الذي جاء به علماء الدين وفقهاؤه ورجاله وليس الدين الرسولي نفسه، يقف حجر عثرة أمام الفكر الحر وتطوره، كما يقف حجر عثرة أمام ميلاد الفكر العلمي)[1] ومن هذا المنطلق فقد كثر في هذه الفترة لمز العلماء وانتقادهم علانية بعد أن كان أبناء المجتمع السعودي لا يتحدثون عن العلماء بما يسيء إليهم حتى في مجالسهم الخاصة، أما اليوم فما عليك سوى مطالعة إحدى الصحف وستجد انتقاداً لأحد العلماء سواء في العدد الذي بين يديك أو الذي قبله أو بعده، وقد رأيت انتقادات لا مبرر لها، حيث كتبت لمجرد تسجيل موقف ضد هذه الفئة الفاضلة وما أظن المقصود بها العالم الفلاني ذاته، وهذا ما أظنه يندرج إلا تحت ما يسمى بإسقاط هيبة الرمز، حيث بمجرد سقوط هيبته بين الناس يقل الاتكاء على أقواله

(١) من مقالة للكاتب الأردني شاكر النابلسي بعنوان (من هم الليبراليون العرب الجدد وما هو خطابهم) نشرت في مجلة الحوار المتمدن العدد ٨٧٣ بتاريخ ١٤٢٥/٥/٥هـ (٢٠٠٤م) تحدث من خلالها عن خمسة وعشرين مبدأ يؤمن بها الليبراليون منها: (إن الفكر الديني وهو الفكر الذي جاء به علماء الدين وفقهاؤه ورجاله وليس الدين الرسولي نفسه، يقف حجر عثرة أمام الفكر الحر وتطوره، كما يقف حجر عثرة أمام ميلاد الفكر العلمي). وطبعاً في هذا المقولة يريدون إيهام العامة بأننا لسنا ضد الدين ولكننا ضد رجال الدين، وبهذا يتحقق لهم إسقاط هيبة رجال الدين أمام عامة الناس، ثم يصيرون هم المشرعون من خلال وسائل الإعلام فما راق لهم عدوه من الدين وما خالف أهواءهم نبذوه وراء ظهورهم، ولمزوا من يقول به. وهذا الفعل مخالف لما ينادي به الفكر الليبرالي المتحرر من القيود الذي يعطي كلاً الحق في قول ما شاء دون التطاول على حريات الآخرين، إلا أن هناك من يعمل بمبدأ الفكر الليبرالي بما يتوافق مع أهوائه فهو حرٌ ليفكر كيف يشاء ويعمل بما شاء، ولكن الآخرين ليسوا كذلك، فإن خالفوا ما يعتقد شنّ عليهم حملة إعلامية ممنهجة وقد رأينا صوراً منها في مجتمعنا، وقد أدى بعضها نتائجه، ولكن في المجمل بعض مدعي انتسابهم للفكر الحر أو الليبرالي يعتنقونه حين يتكلمون ويتنصلون منه حين يأتي دورهم ليسمعوا فيتحولون إلى إقصائيين راديكاليين لا يسمحون بإسماع صوت المخالف، وهذا ما يحصل في وقتنا الراهن وهذا. كما أسلفت. يعود إلى ثقافة معظم المجتمعات البشرية التي تحرص على تعميم فكرها ومعتقدها وتسعى إلى تهميش الآخر، وكما أن المتحرر (الليبرالي) يتحول إلى إقصائي حين يتمكن، فكذلك الحال مع المحافظ الذي سبقه إلى ذلك من باب (ما أريكم إلا ما أرى).

والاستناد إلى علمه، وقد رأيت من لم يكتف بالحديث عن أفاضلنا من أعضاء هيئة كبار العلماء بل هناك من تطاول على كبار الصحابة كأبي هريرة - رضي الله عنه - وشكك في صحة ما نقله؛ وجُل بغية أولئك الأقوام زعزعة صورة ذلك الصحابي الجليل في أذهان المتلقين من عامة الناس، وإن تحقق لهم ذلك فقد زعزعوا معه (٥٣٧٤) حديث شريف رواها ذلك الصحابي، ورغم أن هذا التشكيك ليس وليد اليوم ولكن هناك من يحاكي نفس الأسلوب مع بقية الرموز، مع العلم أن التشكيك في صحة رواية هذا الكم الكبير من الأحاديث من قبل أحد الصحابة لا يقف ضرره عند تلك الأحاديث بل يقود إلى التشكيك حتى في علم بعض من يستشهدون بتلك الأحاديث، والطريقة ممنهجة وليست عفوية وتحقق أهدافها بمرور الوقت، بل إن هناك من طعن في أصح كتب الحديث (البخاري ومسلم) بطريقة عارفة وهناك من تبعهم من الجهلة؛ وكل ذلك بغرض نفي مصداقية تلك الكتب، لا لذاتها، ولكن لزعزعة كثيرٍ من تعاليم الإسلام التي وصلت عن طريق تلك الصحاح.

وغاية القول أن الهجمة تغريبية في المقام الأول، ولا يمكن أن يتسنى لها النجاح ذلك إلا من خلال إضعاف هذا الدين في نفوس المسلمين، وفي ذلك يقول المستشرق النمساوى المعاصر فون جرونيباوم Von Grunebaum فى كتاب له يسمى (الإسلام الحديث) Modern Islam إن الحاجز الذى يحجز المسلم عن التغريب Wester-ization هو استعلاؤه بإيمانه، وإنه لابد من تحطيم ذلك الحاجز لكى تتم عملية التغريب.[1] ولهذا فلا عجب من التطاول على كل ما له علاقة بترسيخ هذا الدين في أفئدة وقلوب المسلمين بدءاً من العالم الديني الذي يعد هدف المرحلة الراهنة والحلقة الأضعف التي يمكن التطاول عليها بكل أريحية رغم أن بعض ذوي الغايات الخاصة لم يتوقف شرهم على العلماء بل تجاوز إلى ما هو أبعد، وقد قرأت وربما قرأ غيري بعض الكتابات التي تتطاول على كل ما له علاقة بالدين بدءاً من كبار العلماء ومروراً بعلماء السلف ثم كبار الصحابة، وحتى شخص النبي - عليه السلام- طالته تجاوزات بعض أولئك المنهجين من الكتّاب الذين منهم من تطاول في كتاباته لينال من الذات الإلهية - سبحانه وتعالى - عما يقولون علواً كبيراً.

(١) د. محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

أما لماذا يفعلون ذلك فلأن تلك الرموز هي القوة، والموجّه للأمة، وكلّما كانت تلك الرموز قوية ومحل ثقة الأتباع، فإنه من الصعب اختراقها من قبل الأعداء؛ وذلك نظراً لقوة الحصانة الفكرية والروحية المستمدة من التشريعات المعتنقة التي ما وصلت إلا من خلال تلك الرموز وضربها سوف يعطي هدفاً مضاعفاً أوله إسقاط الرموز وثانيه سقوط المبادئ التي يدعون ويروجون لها.

وبالطبع فالمواضيع التي كثر الحديث حولها بعد الحادي عشر من سبتمبر كثيرة جداً ولا حصر لها، والتغيرات الاجتماعية الإيجابية والسلبية كثيرة ولا تخفى على أحد، ولكن ما يخيف حقاً ويجدر بي الإشارة إليه هنا أن المحاولة لإحداث التغيرات لم تعد كما كانت في الفترات السابقة عبارة عن جهود فردية ينجح بعضها ويخفق الآخر، فهي في هذه المرحلة منظمة ومدعومة من الخارج وتعمل لإحداث تغيرات في العديد من الجوانب الهامة والحساسة التي تخص المجتمع السعودي المسلم وتسخر لذلك إمكانيات ووسائل لم تكن موجودة في المراحل السابقة ولذلك فإن لهذه المرحلة خصائص مختلفة تماماً عن سابقاتها سأتطرق إليها في وقت لاحق، ولكن بعد أن أستشهد ببعض ما يدل على اهتمام بعض المؤسسات ومراكز الدراسات بالمجتمع السعودي بتحريض من جهات رسمية مع قيامهم بالتنسيق في ذلك مع بعض المحسوبين على هذه البلاد من أبنائها، ومن أبرز تلك الجهات المستقلة التي تعمل في مجال البحث والدراسة مؤسسة راند[1] الأمريكية التي أصدرت أكثر من تقرير توصي من خلاله بالتدخل في شؤون البلدان العربية والإسلامية من أجل خلق

(١) تأسست راند عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) بإشراف القوات الجوية الأميركية، وبمشاركة شركة دوغلاس للطيران، وتحولت في عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) إلى منظمة مستقلة غير ربحية، وكان الهدف من تأسيسها في الأصل إمداد القوات الأميركية بالمعلومات والتحليلات اللازمة، ثم تحولت إلى دراسة الشأن الداخلي الأمريكي لدرجة صارت معه ذات تأثير في صياغة الرأي لدى صناع القرار هناك، ثم زادت نشاطها في السنوات الأخيرة لدراسة الشرق الأوسط وما يتعلق بأمنه وكذلك مكافحة الإرهاب، وتحظى المؤسسة بإمكانات هائلة خاصة فيما يتعلق بميزانيتها التي تزيد على (١٠٠) مليون دولار سنوياً. وتفخر «راند» بأنها «ظلت على مدى ٦٠ عاماً مرجعاً للسياسيين، يعودون إليها للتشاور والاطلاع وحل القضايا الشائكة ذات الطابع العام: كالمشكلات الاجتماعية مثل التعليم والصحة، أو العالمية مثل قضايا الأمن الدولي. (انظر موقع شفونغ) www.shvoong.com

مجتمعات موالية للسياسة الأمريكية وتعتنق ثقافتها ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تغيير الإسلام من إسلام أصولي إلى إسلام معتدل، وبالطبع فمعايير الأصولية والاعتدال يضعها السياسيون الأمريكيون وحدهم وبالطريقة التي تعجبهم وتناسبهم، وكثيراً ما شجعت على محاربة توجهات محددة من المسلمين ومنها تقريرها لعام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)[١] حيث كانت تشجيع إدارة بوش على محاربة الإسلاميين المتطرفين،[٢] وتحث على تفعيل خطة بناء إسلام جديد يخدم المصالح الأمريكية، من خلال قلب البنية الاجتماعية والثقافية بعد إضعاف الهوية الإسلامية، وخلخلة البناء الديني من خلال إثارة الشبهات والدعاية لها، كما جاء في التقرير أهمية معرفة دقائق الصراع الإيديولوجي بغية معرفة الشركاء المناسبين، وتحديد الأهداف والوسائل الواقعية لتعزيز تطوره بأسلوب إيجابي.

أما في تقريرها الصادر عام ٢٠٠٧م[٣] فتذكر أن أهم الشركاء المحتملين في مواجهة الإسلام الراديكالي هم المسلمون الليبراليون والعلمانيون الذين يؤمنون بقيم الليبرالية الغربية وأسلوب الحياة في المجتمعات الغربية الحديثة. والذين يمكن من خلالهم محاربة الأيديولوجية الإسلامية المتشددة والراديكالية، ويمكن أن يكون لهم دور مؤثر في حرب الأفكار، بيد أن الدراسة تؤكد على أنه لابد من توفير كافة مصادر التمويل التي تمكن هؤلاء المعتدلين من نشر أفكارهم وحصد

(١) عنوان التقرير الإسلام الحضاري الديمقراطي، الشركاء، والموارد، والاستراتيجيات (Civil ISlam Democratic Partners، Resources، and Strategies) صادر عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م) من إعداد تشيرلي بينارد Cheryl Benard وبدعم من مؤسسة سميث ريتشاردسون the Smith Richardson Foundation

(٢) الإسلامي المتطرف في نظر معدي التقرير هو كل مسلم يرى ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية، ويختلف مع التوجهات الفكرية المخالفة للشريعة التي يتبناها التيار الليبرالي الذي يدعمه التقرير ويوصي باستخدامه.

(٣) عنوان التقرير بناء شبكات إسلامية معتدلة Building moderate Muslim networks صادر عام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م) تم إعداده بواسطة: أنجيل راباسا، تشيرلي بينارد (معدة التقرير السابق)، لويل تشوارتز، بيتر سيكل Angel Rabasa Cheryl Benard Lowell H. Schwartz Peter Sickle

مؤيدين وأنصار لهم داخل المجتمعات الإسلامية، وتوفير الدعم السياسي من خلال الضغط على الحكومات السلطوية للسماح لهم بالتحرك بحرية ودون قيود. وتلفت الدراسة الانتباه إلى أن «أجندة الحرية» الاستراتيجية الكبرى Grand Strategy لإدارة الرئيس بوش لم تركز على إيجاد حلفاء يمكن الاعتماد عليهم في بناء شبكات من المسلمين المعتدلين، وترى أن التحدي الحقيقي الذي يواجه الولايات المتحدة، والدول الغربية عموماً، يكمن في عدم امتلاكهم استراتيجية واضحة عن ماهية هؤلاء المعتدلين، وما هي فرص بناء شبكات تحالفية معهم، وما هي أفضل السبل لتحقيق هذا الهدف؟ وعطفاً على عدم وضوح الرؤية الأمريكية فيما يخص حرب الأفكار فقد لجأت إلى مجموعة من السياسات التقليدية مثل فرض الديمقراطية والحكم الرشيد، ودعم المجتمع المدني، ودعم التحرير السياسي والاقتصادي، وتغيير المناهج التعليمية والتثقيفية، فإنها قد وضعت نفسها في مواجهة ثلاثة مخاطر رئيسية أولها: يتعلق بفقدان البوصلة، حيث فقد بعض الإسلاميين المعتدلين قدراً من مصداقيتهم بسبب العلاقة مع الولايات المتحدة. والثاني: يتعلق بضياع الوقت والجهد بسبب ازدواجية الأنشطة التي تقوم بها الهيئات غير الحكومية. والثالث: ضياع الفرص الحقيقية للتغيير، وذلك بسبب التداخل الشديد في الاتصالات والعلاقات البينية التي تمارسها البيروقراطية الأمريكية.[(١)]

وكدليل على تلك التدخلات السافرة التي لم تعد تحسب على أنها شكل من أشكال الخوف الواهم والادعاء بأن هناك من يتآمر على هذه البلاد والزعم بوجود أشياء لا حقيقة لها أصلاً، فبالإضافة إلى ما ذكرته في الأسطر السابقة فهناك أيضاً أدلة أخرى كان بعضها صادماً عن وجود تدخلات من قبل سفارات غربية في بلد حصين كالمملكة والتنسيق مع بعض مثقفيه وحول ذلك تحدث الشيخ الدكتور سعد

(١) انظر تقرير راند المعنون (بناء شبكات إسلامية معتدلة) وهناك عدة تحليلات لذلك التقرير منها ماقام به المحرر خليل العناني، ونشر في تقرير واشنطن العدد ١٠٣ الصادر بتاريخ ١٤٢٨/٣/١٩هـ (٢٠٠٧م).

البريك، عام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) في إحدى المحاضرات[١] ووصف بعض المحسوبين على التيار الليبرالي بأنهم رواد للسفارات الأجنبية في المملكة وأنهم يتقاضون منها مبالغ مادية.

ثم أيد ذلك مداخلة للكاتبة حصة العون في برنامج «عيشوا معنا[٢]»، حيث أيدت خلاله ما ذهب إليه الشيخ سعد البريك وأنها هي نفسها تلقت عروضاً للكتابة بما يخدم توجهات جهات خارجية، وفي حديث لها مع صحيفة الحوار، سئلت عن رأيها حول الهجوم على كثير من المؤسسات الشرعية مثل هيئات الأمر بالمعروف ومؤسسات القضاء والمساجد، خاصة في السنوات الأخيرة، وهل هو عشوائي أم إنه مرتبطٌ بتوصيات خارجية؟ حيث أجابت بأنه هجوم مخطط له منذ عشرات السنين، ولكن لم يستطع هؤلاء الكتاب الموجهون فعله؛ لأن الإعلام سابقاً كان منضبطاً ولا تهاون في أي إساءة لهذه الجهات الهامة والموقرة، ولكن بعد أحداث ١١ سبتمبر استغل المعجبون بالغرب والمتشددون لبرامجه الانفتاحية بدون ضوابط وروابط كتعويض عن الماضي الذي كان يقف لهم بالمرصاد، وأضافت بأن للانفتاح الإعلامي والفضائي دوراً في ذلك.[٣]

أما النائب الثاني ووزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز فقال في كلمة ألقاها في ملتقى الهيئات[٤]: "وهناك دعاة للتغريب أصحاب علاقات بشبكات أجنبية، وسنقطع ألسنتهم، ونعرف لهم اتصالات مع جهات أجنبية، سنحاربهم ونقطع دابرهم" .

(١) محاضرة بعنوان حماية النبي ﷺ لجناب التوحيد ألقاها بتاريخ ١٤٢٧/٦/٢٥هـ (٢٠٠٦م) في المخيم الشبابي الصيفي في جدة الذي أقيم تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية، وبعد ذلك بفترة صرح وزير الشؤون الإسلامية الشيخ صالح آل الشيخ، أن ما قاله البريك محسوب عليه ولا تتبناه الوزارة.

(٢) قناة (إل بي سي)، برنامج عيشوا معنا، المذيع علي العليان، لقاء مع الكاتبة السعودية حصة العون.

(٣) موقع صيد الفوائد على الرابط http://www.saaid.net/arabic/majed/98.htm

(٤) أعمال الملتقى الثاني لمديري الفروع ورؤساء هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مدن ومحافظات المملكة الذي اختتمت جلساته بتاريخ ١٤٢٧/٨/٢٧هـ (٢٠٠٦م).

وقد قام بعض الكتاب والإعلاميين بالرد على ما تطرق له البريك والعون ولكن حين جاء الكلام من شخص مسؤول بحجم نايف بن عبد العزيز، سُقط في أيدي الجميع ولم يتجرأ أحدٌ على الرد، فكلام سمو الأمير لم يبن من فراغ بل بالتأكيد أن هناك ما يدل على وجود تواطؤ من قبل بعض الإعلاميين وبالتأكيد أن الأصل في الأغلبية النزاهة ولا أحد يساوم على ذلك وحب الوطن والدين قبله ليست حكراً على أحد بعينه، وتخاذل قلة من الشواذ لا يحسب على البقية من الإعلاميين الشرفاء. وما أريد الوصول إليه من استشهادي بذلك هو التدليل على أن مرحلة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر كانت مختلفة جداً وهي المرحلة الوحيدة التي كانت سجالاً بين التيارات المختلفة فلا غلبة لأحد ولم يتسن لأحدٍ إخماد صوت الآخر كما كان يحدث في السابق؛ وذلك عائد بالطبع إلى تعدد القنوات الإعلامية التي أتاحت المجال لكل صاحب كلمة أن يدلي بها ثم تأتي قيمة هذه الكلمة من خلال مدى تأثيرها وميلها لأحد التيارات لتدعم من أحدهما أو قد تنسى وتنتهي؛ لكونها ليست ذات تأثير أو ميول.

مميزات كل مرحلة من مراحل التغير الثقافي:

يمكن أن اقول بأن الساحة الثقافية والفكرية بشكلٍ خاص شهدت العديد من التحولات والتغيرات منذ قيام المجتمع السعودي الذي بدأ فعلياً بتوحيد المملكة وتأسيس الهجر واستتباب الأمن، قبل أن يعلن مسمى (المملكة العربية السعودية) كاسم يطلق على هذا الوطن مترامي الأطراف، كان أهلوه يقطنون مناطق مختلفة منفصلة عن بعضها لكلٍ منها ثقافته الخاصة، حتى وحّد الله تلك المناطق فصارت تحت مظلة وطن واحد وملك واحد، وصار ما يدور في أي بقعة منه معلومة لبقية البقع، وتخضع لنظر ولي الأمر وما يراه العلماء وطلبة العلم على اختلاف مشاربهم في ذلك الوقت، ومن هنا حدثت اختلافات في بعض القضايا الفكرية المستحدثة التي رفضها العلماء خاصة في قلب الجزيرة وراحوا يبطلونها ساعة بالكلمة والموعظة وأخرى بالشكوى لولي الأمر، كما أن ذاك التوحد تحت مظلة الوطن شجع أبناء

الوطن على السفر بغية النهل مما في المناطق الأخرى من علوم، فحدث الانفتاح خاصة على الحجاز التي كانت أكثر انفتاحاً فكرياً، ولم تكن بعض الأطروحات تشكل هاجساً لعلمائها، على العكس منه في نجد على سبيل المثال، بالإضافة إلى أن تشجيع الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ على ابتعاث الطلاب للدراسة في الخارج، ودعمه لحركة التأليف ونشر المكتبات كل ذلك أسهم في حدوث طفرة ثقافية فكرية تمخضت عن صراعات بين تيارين منفتح ونظيرٍ له محافظ واستمر ذاك التجاذب الذي يبرز ويخبو؛ بحسب الظروف والشخوص، ويمكنني أن أصنف مراحل التغير والتحول الثقافي خاصة في الجانب الفكري إلى أربع مراحل أوجزها كما يلي:

المرحلة	الفترة	أبرز ملامح المرحلة	نهاية المرحلة
الأولى	١٣٤٠هـ إلى ١٣٨٠هـ (١٩٢١م) (١٩٦١م)	١. ندرة الوسيلة الإعلامية حيث تركزت في الكتابة أو إلقاء المحاضرات. ٢. القوة الساحقة للتيار المحافظ. ٣. انفتاح المجتمع على بعضه خاصة بعد توحيد المملكة وبداية مرحلة استيراد ورفض الأفكار.	انتهت بنفي وهجرة رموز الانفتاح، وبامتناع البقية عن التصريح بأفكارهم.
الثانية	١٣٨٠هـ إلى ١٤٠٠هـ (١٩٦١م) (١٩٨٠م)	١. تعدد الوسائل الإعلامية بوجود الإذاعة والتلفاز، بالإضافة إلى الوسائل الإعلامية القديمة. ٢. دخول العنصر النسائي أول مرة كعنصر يقرأ ويكتب، وهذا أحدث في البداية نوعاً من الامتعاض لدى التيارات المحافظة. ٣. إنهماك الرواد بالتأسيس للبنى التحتية الداعمة للفكر والثقافة كالجامعات والصحافة والتلفاز والإذاعة والتعليم النسوي وغيرها.	تأثرت كثيراً بانصراف كثيرين عن الثقافة والفكر إلى الطفرة المالية التي بدأت في أواسط التسعينات الهجرية وحتى بدايات القرن الهجري الجديد، وكذلك بوفود مفكرين عادوا من خارج البلاد وحملوا معهم أفكاراً جديدة وبدأوا حقبة جديدة من الطرح الفكري والثقافي.

المرحلة	الفترة	أبرز ملامح المرحلة	نهاية المرحلة
الثالثة	١٤٠٠هـ إلى ١٤٢١هـ (١٩٨٠م) (٢٠٠١م)	١. دخول أفكار ومصطلحات جديدة لم تكن متداولة من قبل وذلك بعد عودة الدفعات الأولى من المبتعثين إلى الخارج. ٢. استخدام ميادين فكرية جديدة كالجامعات والأندية الأدبية. ٣. دخول القنوات الفضائية كوسيلة أسهمت بشكل كبير في اشتداد الصراع بين التيارات انتهت بقبول التيار المحافظ لها ومحاولة الانتفاع بها. ٤. دخول مصطلح العلمانية ورمي المخالف به. ٥. بداية التكافؤ بين التيارين خاصة بعد الموقف من الحرب على العراق عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) ثم العمليات الإرهابية التي وقعت في الرياض والخبر.	استمرت اثنتين وعشرين سنة وانتهت بأحداث الحادي عشر من سبتمبر.
الرابعة	١٤٢١هـ (٢٠٠١م) مرحلة ما بعد أحداث ١١ سبتمبر وهي مستمرة حتى اليوم.	١. مجاهرة بعض الجهات الخارجية بدعمها لتيارات بعينها. ٢. دخول الإنترنت كأداة إعلامية أسهمت في إبراز أصوات وأفكار وتوجهات ما كانت تجد الفرصة حتى في القنوات الفضائية في المرحلة السابقة. ٣. التكاتف المنظم بين أرباب بعض التيارات ووقوفهم صافاً واحداً لمواجهة الطرف الأخر، وهذا لم يكن معروفاً في السابق وإن وجد فلم يكن بنفس التنظيم والإتقان. ٤. تعدد الأصوات وتنوعها حيث تجد في كل وسيلة عدة أصوات مما يصعب معه التركيز على شخص بعينه. ٥. إشغال التيار المحافظ بالدفاع عن نفسه وأفكاره وعدم إتاحة الفرصة له ليبادر بالهجوم كما كان سابقاً. فهو منشغل بأمور كثيرة مثل: البحث في مسألة الإرهاب، ومحاربة الاختلاط، وحكم الأغاني، وغيرها.	ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا، وأعتقد أن تستمر حتى قيام حركة فكرية تصحيحية شاملة تنقل المجتمع بشكل تدريجي من حالته الفكرية والثقافية الراهنة إلى حالة أفضل وأنضج تنتهي إلى تقبل الآخر وفهمه حتى لو لم تقبل فكرته وهذا في ظني سيتأتى بحول الله في عقدين من الزمن وستنتفع به أجيال تعيش اليوم ولكنها لا تفهم ما يدور من صراعات حالية. وأرى أن أرباب الثقافة اليوم سيصير حال كل منهم إلى واحد من ثلاثة أحوال: فريق ينتفع بتلكَ التغيرات. وآخر سوف يتجاهلها، وثالث: سيجتر معه أدواته الحالية لينقلها إلى المستقبل ولكنها لن توصل صوته وأفكاره التي يرفضها المجتمع، وحاله سوف لن يكون بعيداً عن ذلك الذي رفض ركوب السيارة واستخدام الكهرباء.

المظاهر الثقافية

الميادين الفكرية والثقافية

تعددت وسائل نشر الثقافة وتنوعت بدءاً بالإعلام بأدواته المختلفة: (سينما، تلفزيون، إذاعة، صحافة، إنترنت). ثم تأتي الملتقيات الأدبية كوسائل قديمة للالتقاء وتبادل المعرفة والفكر والاطلاع على مستجدات الثقافة ومن أبرز أدواتها: الأندية الأدبية، والجمعيات الثقافية، والصالونات الأدبية، والمنتديات الأدبية. ثم تأتي بعد ذلك الأحداث والفعاليات الثقافية الطارئة أو ذات الأزمنة القصيرة المعلومة كالمهرجانات، والأسابيع الثقافية، والمراكز الصيفية، والمعارض الفكرية وغيرها. وسوف أقتصر في حديثي على بعض الوسائل الإعلامية ونشأتها وموقف المجتمع منها ودورها في إحداث التغير في المجتمع السعودي.

الوسيلة الإعلامية وموقف المجتمع منها:

أولاً: السينما:

حين أتحدث عن السينما في المملكة فأنا أتحدث عن شكل من أكثر الوسائل الإعلامية تأثيراً في معظم الدول إلا في المملكة التي وجدت بها السينما في فترات من الزمن ثم اختفت ولم تكنِ مادتها محلية تعالج ما يجول في خواطر أبناء المجتمع وتسعى لتوجيهه كما ينبغي وفقاً للمبادئ والأسس التي تقوم عليها الدولة بأسرها وتتبناها، ولكن ما كان موجوداً عبارة عن اجتهادات فردية غير منظمة، فعلى سبيل المثال تذكر الإعلامية السعودية دلال عزيز ضياء أنه كانت هناك مواقع للسينما في محافظة جدة، وأن القنصلية المصرية والنادي الإيطالي التابع للقنصلية الإيطالية كانا يعرضان أسبوعيا أفلاما لم يكن محظورا على السعوديين حضورها، واستمر ذلك حتى بداية القرن الهجري الجديد (بداية الثمانينات من القرن الميلادي المنصرم).[١]

---

١ تحقيق أجرته قناة العربية ونشر على موقعها بواسطة الأستاذ فراج إسماعيل، بعنوان (جدل واسع حول إعادة فتح السينما في السعودية) بتاريخ ٢٦/٧/١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).

كما يذكر محمد صادق دياب الكاتب السعودي وأحد المهتمين بتاريخ مدينة جدة من الذين عاصروا فترة السماح بالعروض السينمائية: بأن أمكنة العرض لم تكن صالات كما يتداعى إلى الذهن، أو أمكنة مغلقة، بل مساحات مفتوحة تحفها المنازل مع بعض الحواجز البسيطة يفترش المرتادون أرضها، وقد يتفنن البعض بجلب عدة كراس خشبية من طراز خاص يتلاءم مع متطلبات ثلاث ساعات متتالية تمتد من الساعة السابعة إلى العاشرة مساء كل يوم محاطة ببعض الديكورات البسيطة ثم تطورت عمليات العرض بشكل احترافي في فندق العطاس الواقع في شمال أبحر.[١]

أما المؤرخ الفرنسي جورج سادول في حديثه عن السينما في المملكة فيذكر بأن السعوديين لا يعرفون شيئاً عن السينما حتى عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م)، رغم أنها كانت موجودة ومتوافرة لغير السعوديين في المجمعات والسفارات والشركات الكبيرة.[٢]

وفي تحقيق أجراه رجاء المطيري نشرته صحيفة الرياض ذكر فيه بأن السعوديين عرفوا السينما (أظنه يقصد في مدينة الرياض) منذ العام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م وذلك حين نشأت المحلات التي توفر وتؤجر آلة العرض السينمائي، ومنذ ذلك الحين بدأ الشباب السعودي يستأجر أجهزة العرض، ويقيم السهرات السينمائية في أماكن التجمعات الشبابية، وقد انساقت الأندية الرياضية -كالهلال والنصر- وراء الموجة فوفرت صالات عرض بسيطة تعرض من خلالها وبشكل أسبوعي الأفلام العربية

(١) انظر تقرير بعنوان (قصة السينما في مدينة جدة السعودية.. حكاية فريدة شتتها الرقيب المحافظ) أعده الأستاذ محمد المنقري، ونشر في صحيفة الشرق الأوسط العدد ٨٨٦٥ بتاريخ ١٤٢٤/١/٣هـ (٢٠٠٣م).

(٢) جورج سادول، Georges Sadol، تاريخ السينما في العالم، صدر عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م) وترجمه إلى العربية إبراهيم الكيلاني وفايز نقش، دار عويدات للنشر والطباعة، ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م).

بأسعار لا تتجاوز خمسة ريالات للتذكرة الواحدة.[1]

ويذكر الدكتور. محمد آل زلفة عضو مجلس الشورى: بأن الصالات كانت موجودة في بداية الثمانينيات الهجرية (الستينات الميلادية)، ويتذكر سنواته الثلاث الأولى من المرحلة الجامعية، وكيف كانت إدارة النشاط الطلابي في كليته تقدم للطلاب أسبوعيا رحلة إلى صالة عرض سينمائية لمشاهدة فيلم معين، ويقول عن ذلك: لقد كان هذا اليوم – وفي العادة هو الخميس – من أجمل الأيام التي ينتظرونها، فيتجمعون قبل عرض الفيلم بوقت كاف، ويتناقشون بشأنه، وبعده يتبادلون الآراء حول موضوعه.[2]

أما في مدينة أبها، فيذكر الكاتب والأديب محمد بن عبدالله الحميّد رئيس نادي أبها الأدبي سابقاً: بأن مدينة أبها عرفت (السينما) في الثمانينات الهجرية وذلك خلال معارض شركة أرامكو، كما كان بعض الأشخاص في أبها وخميس مشيط يعرضون الأفلام في أماكن مسّورة خاصة بهم مقابل رسوم رمزية، بالإضافة إلى المدينة العسكرية التي خصصت نادياً لعرض الأفلام السينمائية لمنسوبيها.[3]

(١) انظر تحقيقاً بعنوان (من صالة السينما إلى الفيديو الصغير مروراً بجهاز اليوماتيك، كانت محطات السعوديين مع السينما) أجراه الأستاذ رجاء ساير المطيري، نشر في صحيفة الرياض العدد ١٣٥٦٩ بتاريخ ١٤٢٦/٧/١٣هـ (٢٠٠٥م) وفيه يذكر الأستاذ حسان النافع، وهو مالك سابق ومؤسس فيديو المتنبي في حي الملز بالرياض: بأن المستخدم ذلك الوقت جهاز يسمى اليوماتيك، وهو جهاز عرض شبيه بجهاز الفيديو المعروف الآن، لكنه يختلف من ناحية الحجم، فاليوماتيك أكبر حجماً كما أن أشرطته ضخمة وأقل سعة بحيث أن الشريط الواحد منها لا يستوعب أكثر من نصف ساعة مسجلة، والفيلم الواحد لا تكاد تحتويه ثلاثة أشرطة من هذا النوع، وبرغم ضخامة الجهاز وصعوبة التعامل معه، إلا أنه كان أسهل من أجهزة العرض القديمة، وأوفر من الناحية المادية، إذ كان من الممكن امتلاك اليوماتيك بمبلغ لا يتجاوز الخمسة آلاف ريال. وقد استمر هو السائد حتى عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) تقريباً حين جاء جهاز الفيديو ودخل المنازل وصار بإمكان كل أسرة اقتناؤه، ومعه راجت أسواق بيع أفلام الفيديو العربية والأجنبية.

(٢) تحقيق أجرته قناة العربية (مرجع سابق).

(٣) مقتطف من تحقيق أجرته صحيفة الرياض بعنوان (علاقة امتدت لأكثر من خمسين عاماً.. فيلم مناحي يجدد علاقة أهالي عسير بالسينما) من أعداد الأستاذ سلطان الأحمري، نشر في صحيفة الرياض العدد ١٤٩٨٣ بتاريخ ١٤٣٠/٧/٩هـ (٢٠٠٩م).

أما في القصيم فيقول صالح العودة، الذي يهتم بجمع قطع أثرية قديمة يعود تاريخها إلى ما قبل ٤٠ عاما: بأن أجهزة السينما المنزلية كانت تلقى رواجا بين عدد من أهالي المنطقة، لافتا إلى أنه كان يمتلك كمية لا بأس بها من تلك الأجهزة. كما يذكر مرزوق بن أحمد: بأن سعر السينما المنزلية كان يصل إلى ثلاثة آلاف ريال في السابق، موضحا أن قيمة إيجارها بالكامل لم يكن يتجاوز مائة ريال لليلة الواحدة، بينما يتم دفع ثلاثين ريالا في حال طلب فيلم إضافي، ويضيف بأن كثيراً من الناس لم يكن لديهم المعرفة الكافية في التعامل معها ولا كيفية تشغيلها؛ ولهذا فقد كانت بعض المحلات المالكة تضطر في بعض الأحيان لإرسال أحد العاملين فيها ليقوم بتشغيلها وتجهيزها للراغبين في استئجارها.[١]

ما ذكرته كان يمثل مرحلة البدايات بالنسبة للسينما والتي انتشرت فترة الثمانينات الهجرية، وكانت تعرض الأفلام الوثائقية والتعليمية بالإضافة إلى مادتها الرئيسية من أفلام مصرية وأجنبية، ومع تنامي تلك الظاهرة ورواجها في شتى أنحاء المملكة بدأت مطالبات العلماء ورجال الدين بإيقافها؛ لما لاحظوه من احتوائها على مشاهد لا تتوافق مع الشريعة الإسلامية فصدر تعميم الملك فيصل «رحمه الله» رقم (٢٦٠١١) بتاريخ ١٣٨٥/١٢/٢٨هـ (١٩٦٦م) ومما جاء فيه: (أما السينما فلا يسمح لذويها بعرضها في أماكن عامة مطلقاً، ومن يقبض عليه يجازى بمصادرة الآلة والأفلام والسجن والجلد). وهذا التعميم ربما يكون النواة التي هيأت لاتخاذ إجراءات أخرى حالت دون أي اجتهادات فردية لفتح دور سينما على الرغم من وجود اجتهادات فردية من قبل بعض الأندية الرياضية التي كانت تعرض بعض الأفلام في فترة التسعينات الهجرية بأجور رمزية، إلا أن كل ذلك توقف مع بداية القرن الهجري الجديد. ولم يعد الحديث عنه مرة أخرى إلا بعد

(١) تقرير بعنوان (أجهزة السينما المنزلية القديمة تحافظ على وجودها في منطقة القصيم) أجرته الأستاذة أمل باقازي، ونشرته صحيفة الشرق الأوسط في عددها ١١٤١١ بتاريخ ١٤٣١/٣/١٠هـ (٢٠١٠م).

أحداث الحادي عشر من سبتمبر وبعد الانفتاح الذي شهدته البلاد ودخول وسائل إعلامية جديدة سمحت بطرح تساؤلات حول السينما وهيأت لقيام مجموعات من الشباب بالتنسيق فيما بينهم لعمل أفلام سينمائية قصيرة وعرضها في المهرجانات التي كانت تقام في بعض المدن. وقد ساعد على ذلك قدرة الهواة على الحصول على التقنية اللازمة لإنتاج أفلام حتى لو لم تكن احترافية كما يقول خالد ربيع في كتابه الفانوس السحري: بأن جميع العاملين في صناعة السينما السعودية هم من الهواة ولم يستثن منهم سوى عبد الله المحيسن.[١] إلا أن هذا لم يمنع من إنتاج أفلام وبغزارة نسبياً حيث وصل عدد الأفلام المنتجة في عام ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م) والتي كان من المفترض أن تشارك في مهرجان جدة السينمائي الرابع (٤٥) فيلماً معظمها قصيرة واثنان منها روائيان طويلان، وحين تنظر إلى هذا الكم الهائل من الأفلام تشعر أنك أمام صناعة وإن كانت في بداياتها إلا أنها تنبيء عن وجود طاقات ومواهب قادرة على إحداث نقلة لو وجدت الدعم الرسمي والشعبي بالإضافة إلى الفهم من قبل التيار الديني المحافظ بأن هذه الصناعة من الممكن أن تستخدم كوسيلة لنشر الثقافة والفكر اللذين يتبناهما منهج البلاد.

وحديثي هذا يقودني لتوضيح مسألة مهمة تتعلق بما أراه في السينما والسماح بإنشاء دور للعرض، حيث يتوقف ذلك على المادة المعروضة في تلك الدور فإن كانت امتداداً لما نراه في القنوات الفضائية من أفلام لا تتوافق مع الشريعة الإسلامية وفي كل مشهد منها لابد أن ترى أو تسمع ما يمجد الثقافة الأمريكية وأنها وحدها الصالحة لهذا الزمان وما سواها فيلمز بطرق شتى بمناسبة ودون مناسبة، فإن كانت هذه هي المادة فلا نريدها فيكفينا ما نعانيه من تلك القنوات التي زرعت في كل باقة أو مجموعة بث فضائي فلا تكاد تجد واحدة منها إلا ولديها قناة أو أكثر متخصصة في الأفلام الأمريكية، وبالطبع فهذا الفعل أبعد ما يكون عن الترفيه

(١) خالد ربيع السيد، الفانوس السحري..قراءات في السينما، نادي حائل الأدبي بالتعاون مع دار الانتشار العربي، ببيروت، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

البريء أو أنه يأتي مصادفة بل هو مخطط له ومدعوم من صناع وأصحاب القرار في تلك البلاد.

أما إن كانت المادة التي ستعرض ستكون مادة سعودية خالصة متوافقة مع شريعتنا تعالج قضايانا وتوصل شكوانا فمرحباً بها، ولكني أظن أن فيلم الدقيقة والخمس دقائق لن يكون كافياً لاستقطاب المستثمرين ولا المشاهدين، ولهذا أعتقد أنه وبمجرد ما يسمح بتلك الدور فسنرى غزو الثقافة الأمريكية لها في البداية من باب التنويع حتى تحتل النسبة العظمى من المادة المعروضة وهو ما يحدث في معظم البلدان العربية المجاورة. ولكي أوصل فكرتي بشكل أوضح أضرب مثالاً كثيراً ما سمعته وجميلُ الاستئناس به في هذا الموضع، فلو أن لدى أحدنا ثلاجة وضع بها بعض الأطعمة الخاصة به فسيكون الأمر مقبولاً ولصارت تلك الأداة إيجابية وتستحق أن تعمم لينتفع بها الجميع، ولكن لو تم استخدامها في حفظ مواد غير مشروعة ففي هذه الحالة هل من الإنصاف أن نقول بأهمية تعميم استخدام تلك الأداة أو غيرها، وهذا بالضبط ما ينطبق على السينما التي في حال استخدمت بشكل جيد واستغلت في بث ثقافتنا لكان الترحيب بها أجدر وأولى، أما خلاف ذلك فالمنع أراه أنسب، ولا نريد ترفيهاً يقود إلى انبهار بثقافة غيرنا، والانبهار كما يقال يقود إلى الانصهار، فبدلاً من ثقافتين صارت ثقافة أمريكية وألغيت الأخرى الإسلامية؛ لأن نتيجة الانصهار الحتمية هي الاندثار وضياع تلك الثقافة التي توارثناها جيلاً عن جيل وأمرنا بحفظها بل وتعميمها لتسود البشرية كلها فهي ثقافة محمد - عليه السلام - الذي أرسل إلى الناس كافة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

أعود إلى حديثي عن الأنشطة والاجتهادات الفردية والمدعومة من بعض الشركات خاصة شركة روتانا التي حاولت تنظيم بعض المهرجانات وتحقق لها ذلك في عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٦م) حيث تم تنظيم أولى المهرجانات وكان بعنوان (مهرجان جده للعروض المرئية) وقام بتأسيسه المخرج السعودي ممدوح سالم

(١) الآية (٢٨) سورة سبأ.

باعجاجه والذي تغير اسمه لاحقا إلى مهرجان جده السينمائي، تبعه إنشاء أول نادي للسينما بالسعودية عام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).[(١)]

واستمرت تلك المحاولات وعززها بشكل كبير قيام شركة روتانا بإنتاج فيلم (مناحي) كأول فيلم سعودي في العصر الراهن[(٢)]، وقد عرض في عدة مناطق ولاقى نجاحاً وإقبالاً من أطياف مختلفة من المجتمع وحين عرض في مركز الملك فهد الثقافي بالرياض شهد أحداثا بين رجال الشرطة وبعض الأشخاص المعارضين للعروض السينمائية مما جعل قوات الشرطة تلقي القبض على اثنين منهم وتحرر محضرا ضدهما، حيث بدأت الأزمة قبل بداية العرض وتحديداً بعد الفراغ من أداء صلاة العشاء حيث قام أحد الأشخاص بإلقاء كلمة تحدث خلالها عن تحريم السينما والتصوير، ثم بعد مرور عشر دقائق من بدء الفيلم اقتحم مركز الملك فهد عدة اشخاص موجهين خطابهم للجماهير خارج مكان العرض بعدم تبذير

(١) أنظر الموسوعة الحرة (وكيبيديا).

(٢) يعد فيلم الفنان طلال مداح (شارع الضباب) مع الفنانة صباح والفنان رشيد علامة، الذي انتج في ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م) من أقدم التجارب السينمائية السعودية. وسبق ذلك بمدة أيضاً فيلم ولكن توعوي أنتجته شركة ارامكو السعودية عام ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) بعنوان (الذباب عدو نفسه) وكانت مدته (٣٠) دقيقة يهدف إلى التوعية بأهمية المحافظة على الصحة؛ حيث كانت تنتشر الأمراض بشكل كبير في تلك الفترة خصوصا أمراض الجهاز الهضمي والتي كانت تودي بحياة العديد من الأطفال وكبار السن، وشارك في الفيلم الدكتور حسن بن علي الغانم. الذي جرى تكريمه في الدورة الأولى من مسابقة الأفلام السعودية عام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) كما جرى تكريم أحد أقدم المشتغلين في السينما السعودية المخرج عبد الله المحيسن (أنظر صحيفة الرياض بتاريخ ١٤٢٩/٦/٢٧هـ) (٢٠٠٨م) كما لا تفوت الإشارة إلى تجربة الدكتور إبراهيم بن سليمان الثنيان في التسعينات الهجرية (السبعينات الميلادية) الذي درس الفنون في ألمانيا مدة ثمان سنوات، لدرجة يقول عن نفسه بأنه لم يكن أحد يضاهيني في مجالي إلا رجل في اليابان وآخر في كندا. ودرس في أكاديمية الفنون وأكاديمية السينما والمسرح في برلين، كما درس عملية ركوب الخيل وقيادة السفن، وغير ذلك من الأمور التي يحتاجها المخرج، وبعد تخرجه جاءته عدة عروض للعمل وكانت مغرية لاسيما من المانيا، إلا أن عرض مدير عام التلفزيون السعودي بإيعاز من وزير الإعلام الذي طلب منه الرجوع للعمل في السعودية، وبعد عودته عمل بضع سنوات ثم انصرف عن السينما لدراسة الشريعة. (للمزيد حول تجربة الدكتور الثنيان فهي موجودة على أشرطة كاسيت وبعض المواقع الإلكترونية نشرتها كاملة).

أموالهم على (دعاة الضلال) وطالب الاشخاص من المصورين والصحافيين بعدم التصوير بحجة فتوى تحريم التصوير، ورغم تلك التدخلات والاحتجاجات إلا أنه استمر عرض الفيلم في تلك الليلة وبعدها أكثر من مرة.[1]

وقد صاحب ذلك العديد من الأنشطة السينمائية في مناطق مختلفة حيث استضاف قسم الإعلام بجامعة الملك سعود المخرج عبدالله المحيسن، مع عرض فيلمه السينمائي (ظلال الصمت) لمنسوبي وطلاب القسم، وهو العرض السينمائي الأول من نوعه في الجامعة. كما قامت إدارة النادي الأدبي بالرياض بتوقيع اتفاقية مع الاتحاد الأوروبي لعرض مجموعة من الأفلام السينمائية مساء كل أحد بترجمة عربية للرجال والنساء، حيث جرى عرض أكثر من فيلم منها الفيلم الإسباني (المباراة الأخيرة) ثم الفيلم الهولندي (باتجاه العاصفة).

كما قامت وزارة الثقافة والإعلام بتنظيم مهرجان الطفل الثقافي، تحت مسمى (عالمي حياتي) حيث اشتمل على بعض العروض السينمائية. أما في حائل فيشير رئيس النادي الأدبي هناك الأستاذ محمد بن عبدالرحمن الحمد إلى أهمية السينما والفنون عامة في تنوير المجتمع وبث الرسائل الهادفة إلى مرتادي النادي من محبي الثقافة والفن، ويشدد على أن الخطوة التي اتخذوها منذ سنتين والمتمثلة في عرض أفلام سينمائية في إحدى صالات النادي بمثابة الخطوة الأولى نحو مزيد من الانفتاح تجاه فن السينما الذي لم يلق الاحترام الكافي في السنوات الماضية، ويضيف بأن الأصداء الجيدة التي حققتها العروض في أدبي حائل تشجع على بذل المزيد في هذا الاتجاه خاصة في ظل التفاعل الجماهيري الممتاز مع الأفلام المعروضة نقداً ومشاهدة، مؤكداً أن قناعة إدارة النادي الأدبي لن تتغير رغم الفتوى التي صدرت قبل سنة تقريباً والتي تقول بعدم جواز الذهاب للنادي بعد عرضه للفيلم الهندي (ظلام) والتي قابلتها الإدارة بإعادة عرض الفيلم مجدداً رغبة في تأكيد قناعة النادي الأدبي بوجاهة هذه العروض وأنها لا تحوي ما

(١) كتبت حول الموضوع عدة صحف محلية منها صحيفة الرياض العدد ١٤٩٥٨ بتاريخ ١٤/٦/١٤٣٠هـ

هو مخالف لتقاليد المجتمع.[١] وعلى إثر ذلك قام الشيخ عبد الله العبيلان، وهو من مشايخ مدينة حائل، بإصدار فتوى بسقوط «عدالة» من شاهد فيلم «الظلام» من الرجال والنساء.[٢]

هذه الأنشطة المتكررة كما ذكرت قوبلت بالرفض والاحتجاج من قبل بعض المنتمين للتيار الديني المحافظ؛ ومن ذلك قيام مجموعة من الأشخاص من أهالي محافظة جدة برفع عريضة إلى الملك عبد الله مطالبين بحظر الأنشطة السينمائية، ومما جاء في تلك العريضة: إن السينما قديماً وحديثاً شر ووبال لم يكتب لها القبول في هذا البلد الأمين فكيف تقبل الآن في عهدكم الميمون الذي نتطلع فيه لمزيد من تعظيم حرمات الله - سبحانه وتعالى - وتحقيق أوامره واجتناب نواهيه. بالإضافة إلى استخدام كافة الوسائل الممكنة في الرفض المتمدن سواء عبر المنابر أو عبر الكتابة من خلال الصحافة والإنترنت أو حتى بإصدار الفتاوى، ومن أبرز الفتاوى الصادرة بحق السينما فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء التي سئلت عن حكم بناء المسلم لدار السينما وإدارة أعمالها بنفسه. فأجابت ما نصه: « لا يجوز لمسلم أن يبني سينما، ولا أن يدير أعمال سينما له أو لغيره، لما فيها من اللهو المحرم، ولأن السينماءات المعروف عنها في العالم اليوم أنها تعرض صوراً خليعةً، ومناظر فتانة، تثير الغرائز الجنسية، وتدعو للمجون وفساد الأخلاق، وكثيراً ما تجمع بين نساء ورجال غير محارم لهن».[٣]

وحين سئلت اللجنة أيضاً عن حكم ارتياد دور السينما. أجابت بأن ارتياد السينما حرام؛ لأن أغلب ما يعرض فيها من الملاهي المحرمة التي تثير الفتنة، ولأنها مضيعة للوقت، وشغل للفراغ بلا فائدة شرعية في حال أن المسلم في أشد الحاجة إلى شغله بما يعود عليه وعلى أسرته وأمته بالنفع العظيم، ولأنها تصد عن

---

(١) انظر في موقع النادي الأدبي في حائل. www.adabihail.com

(٢) صحيفة الشرق الأوسط العدد ١٠٧٩٦ بتاريخ ١٤/٦/١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م).

(٣) الفتوى رقم ٤١٢٠ من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المجموعة الأولى، المجلد السادس والعشرون (كتاب الجامع٣).

ذكر الله وأداء الواجب، ولما فيها من اختلاط الرجال بالنساء، إلى غير ذلك من المفاسد.[١]

وكان الإمام عبد العزيز بن باز - رحمه الله - قد قدم نصيحة مطولة وجهها إلى عامة المسلمين ومما جاء فيها قوله: «ومما ينبغي الحذر منه حضور مجالس اللهو والغناء وسماع الإذاعات الضارة ومجالس القيل والقال والخوض في أعراض الناس. وأشد من ذلك وأضر حضور مجالس السينما وأشباهها ومشاهدة الأفلام الخليعة المرضة للقلوب الصادة عن ذكر الله وتلاوة كتابه، الباعثة على اعتناق الأخلاق الرذيلة وهجر الأخلاق الحميدة، إنها والله من أشد آلات اللهو ضررا وأعظمها قبحا وأخبثها عاقبة فاحذروها - رحمكم الله - واحذروا مجالسة أهلها والرضى بعملهم القبيح . ومن دعا الناس إليها فعليه إثمها ومثل آثام من ضل بها.[٢]

أما بالنسبة لمطالبة بعض كتاب الصحف بفتح دور السينما فليست وليدة اليوم بل قديمة جداً وقد سبق لسماحة الشيخ ابن باز - رحمة الله - أن أرسل رسالة عنونها (شكر وتأييد) جاء في مطلعا: «فقد اطلعت على ما كتبه أخونا العلامة الشيخ (أحمد محمد جمال) في مقالاته الأسبوعية المنشورة في صحيفة المدينة الصادرة بتاريخ ١٣٩٥/١١/١١هـ و ١٣٩٥/١١/١٨هـ و ١٣٩٥/١١/٢٥هـ (١٩٧٥) من المقالات المتضمنة استنكار ما اقترحه بعض الكتاب من إيجاد دور سينمائية في البلاد تحت المراقبة. إلى أن قال ـ رحمه الله ـ «الواجب على حكام هذه البلاد والمسؤولين فيها وفقهم الله جميعا أن يمنعوا منعا باتا فتح دور السينما مطلقا؛ لما يترتب على السماح بذلك من الفساد العظيم والعواقب الوخيمة، والرقابة في مثل

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ ابن باز، المجلد الثالث، جمع وترتيب محمد بن سعد الشويعر، يمكن الحصول على نسخة إلكترونية منها من موقع سماحة الشيخ على الإنترنت وفي موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء.

هذه الأمور لا يحصل بها المقصود، ومعلوم أن الوقاية مقدمة على العلاج، وأن الواجب سد الذرائع وحسم مواد الفساد، وفي واقع غيرنا عبرة لنا».[١]

وسبق ذلك كله نصيحة وجهها مفتي عام المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم بتاريخ ١٣/٣/١٣٨٧هـ (١٩٦٨) ومما جاء بها قوله رحمه الله: «من أعظم المعاصي استعمال الملاهي من فتح دور السينما وغيرها ولاسيما ما يشتمل على المناظر والمسامع المحرمة فإنها تشتمل على الصد عن ذكر الله وعن الصلاة والإغراء بالفواحش وغير ذلك مما يعرفه أصحاب البصائر».[٢]

وحين سئل فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك عمّا يجب اتخاذه حيال الخطوات الأولى لافتتاح السينما. أجاب فضيلته: «بأن هذا «حدث» وأن هذه البلاد مستهدفة من الكفار والمنافقين والفاسقين اتباع الشهوات ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ ﴾[٣] وفتح دور السينما حدث في هذه البلاد وفاجعة، ومن المؤسف أن يشيد بفتح وعرض بعض الأفلام أناس ويعتبرونها حدثاً عظيماً ويعدونه تقدماً وفتحاً، هؤلاء الذي يشيدون به هم بين فاسق ومنافق فاسق يريد أن تشيع الفاحشة في بلاد الطهر والخير ومعقل الإسلام أو منافق يعيش بين المسلمين ويكيد للإسلام والمسلمين، والواجب على الأمة ان تنكر ذلك، كلٌ بحسبه وأن يتواصلوا مع ولاة الأمر مناصحين ومنكرين ونسأل الله أن يحول بين أولئك المفسدين وما يريدون وهذا لون من ألوان الفساد وإلا فقنوات الفساد تعمل، وإن أردتم معرفة حقيقة دور السينما فانظروا حالها في الدول المجاورة والأمر لا يأتي دفعة واحدة، بل خطوات، وبشكل تدريجي ولكن هذه الخطوة قوية ولهذا صفقوا واستبشروا بها ونحن لسنا متشائمين بل ندرك أهداف هؤلاء وما تنتهي إليه هذا الأمور.[٤]

(١) مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ ابن باز، المجلد الرابع. (المرجع السابق)
(٢) موسوعة فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم المفتي الأسبق للمملكة العربية السعودية جَمع وترتيب وتحقيق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم الطبعة الأولى - مطبعة الحكومة بمكة المكرمة - ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م) الإصدار الأول إعداد موقع روح الإسلام www.islamspirit.com
(٣) من الآية (٢٧) سورة النساء.
(٤) تسجيل مرئي احتفظ بنسخة منه.

وكانت قناة العربية قد أجرت استفتاءً في موقعها على الإنترنت زاد عدد المشاركين به على ٨٠٠٠ شخص، حول تأييد إعادة فتح دور السينما من عدمه صوت ٥٨،٤٤٪ بالموافقة ربط نسبة كبيرة منهم موافقتهم بشرط فرض رقابة مشددة على ما تعرضه من أفلام، في حين أعلن ٤١،٥٩٪ من زوار الموقع رفضهم للفكرة مطلقا. ويعلق على الاستفتاء الشيخ عبد الله بن منيع عضو هيئة كبار العلماء في المملكة: إن الاتجاه العام لدى المجتمع رافض السينما؛ لأنها لن تكون سوى استنساخا لما تعرضه القنوات الفضائية من أفلام تخدش الحياء وتضر بالسلام الاجتماعي واستقرار النفوس وبقيم وتقاليد المجتمع، ويثني على الشريحة التي رفضت وجود دور للسينما في السعودية ووصفها بأنها تتمتع بالوعي بخصوصية مجتمعها وبالضرر الذي يمكن أن يلحقه من جراء ذلك، فالأفلام بها سلبيات كثيرة، فهي تروج للعلاقات المحرمة وللجريمة والأنماط المنحلة التي لا تتمتع بأي وازع ديني أو قيمي، ثم يتساءل: إن كانت السينما ـ التي طرح البعض فكرة إنشائها في المملكة ـ ستقدم أي شيء مختلف عن هذه الأفلام التي طالما ننتقد القنوات الفضائية بسببها، ما هو الدور الثقافي الذي يمكن أن تلعبه سينما بهذه المواصفات، وما هو النفع الذي سيعود منها على الناس؟.. في الحقيقة لا نرى شيئا من ذلك لأننا لا نرى في الأفق سينما نظيفة تعرض قضايا نافعة وتقدم وعيا اجتماعيا، ففاقد الشيء لن يعطيه، ولن تفعل دور السينما أكثر من كونها ستزيد الطين بلة من نوعية الغث الكثير المسيطر على الأفلام التي تقدمها القنوات التليفزيونية ليل نهار، ثم يصف مسألة وضع ضوابط ورقابة على تلك الدور بأنه محاولة لفتح باب صغير للشر، ما يلبث أن يتحول إلى باب كبير مفتوح على مصراعيه، ولن تكون حينئذ ضوابط أو رقابة من تلك التي يتحدثون عنها، متسائلا: أي ضوابط يمكن أن تكون مجدية في منع ما نرى أن غالبه هو الشر؟ يؤكد بأنه لا فائدة ترجى من تلك الصالات، ولن يكون لها أي مردود ثقافي، ومن الأفضل منع ذلك حفاظا على المجتمع وصيانة للأجيال الشابة[1].

(١) تحقيق أجرته قناة العربية (مرجع سابق)، ويعلق على الاستفتاء الدكتور. محمد آل زلفة عضو مجلس الشورى بقوله: إن ثقافة التحريم هي التي أخرجت النتيجة التي وصل إليها استفتاء (العربية.نت) =

ما ذكرته يتعلق بالفتاوى أما بالنسبة لخطب الجمعة المعارضة لافتتاح دور السينما في المملكة فهي كثيرة جداً ولعلي أكتفي بالاستشهاد بواحدة منها ألقاها الشيخ إبراهيم الحقيل، بعيدة عن العاطفة مليئة بالشواهد والأدلة العقلانية ومما جاء فيها قوله: إن أحد النقاد الفرنسيين درس إنتاج السينما العربية، وحلل واقعها خلال خمسة عشر عاما؛ حيث ثبت له السطو الإمبريالي الرأسمالي عليها، ويؤكد في دراسته استئثار شركات الإنتاج والتوزيع الأمريكية بها. كما يشير أحد السينمائيين العرب إلى أن الأفلام الواردة من خارج الوطن العربي والعالم الإسلامي والأفلام المصنوعة داخل الوطن العربي والعالم الإسلامي تتقاسم قتل المشاهد فكريا وأخلاقيا بصورة تبعث على الدهشة، وكأنما كان هناك نوع من التلذّذ بعملية هذا القتل البطيء والمستمر دونما هوادة». ثم يذكر أن أي دراسة سيسيولوجية لتأثير ما أنتجته السينما تُظْهِر بجلاء أنها لعبت دورا كبيرا في تخريب الكثير من القيم الإنسانية، وفي تشويه العقل العربي الخام، ودفعه في اتجاه البحث عن قيم غربية بعيدة عن تقاليده وقيمه. ويضيف الحقيل: بأن تأثير السينما على المعتقدات والأخلاق وصياغتها للعقول والسلوك والأفكار لا ينفيه صانعوها والمروجون لها والمالكون لأكبر إنتاجها، بل يثبتون ذلك، وكذب من زعم من بني قومنا أنها لمجرد الترفيه والتسلية، وأن من يحاربونها يَتهمون غيرهم على غير هدى، فهذا المخترع المشهور توماس أديسون وهو ممن طوروا آليات السينما يقول: «من يسيطر على

= والذي قال أكثر من ٤٠٪ من المشاركين فيه برفض السينما. مثل هذه القضايا التي ينظر إليها المجتمع السعودي على أنها حساسة لابد من أن تطرح للنقاش أولا، ويعرف الناس الرأي الآخر بشأنها بعد أن خضعوا لرأي أحادي فترة طويلة من الزمن، فيتم اطلاعهم مثلا على منافع السينما ومضارها، وفي هذه الحالة ستكون نتيجة الاستفتاء لصالح إنشاء دور للسينما في السعودية بشكل أكبر، ويعلل مطالبته بفتح دور السينما، بأن الإحصائيات تؤكد أن السعودية من الأسواق الكبرى التي تستهلك أفلام الفيديو، وفيها الكثير مما لم يمر على الرقابة، فتشاهد بدون ضوابط! فلماذا لا يتم تحويل المشاهدة للأفلام السينمائية إلى العلن عن طريق صالات عرض، محكومة بضوابط الرقابة، التي تقدم في النهاية أفلاما تفيد المجتمع وتقدم له الترفيه المقبول، ويتعلم منها الناس التفكير المنظم المجتمعي، وتعودهم على كيفية الجلوس في مقاعدهم صامتين طوال مدة العرض ليتابعوا قضية الفيلم، وكيفية تكوين رأي بعد ذلك بشأنها.

السينما يسيطر على أقوى وسيلة للتأثير في الشعب»، كما يقول أحد المؤرخين للفنون الأمريكية: «إن السينما سواء أحببنا أم لم نحبّ هي القوة التي تصوغ أكثر من أي قوة أخرى الآراءَ والأذواق واللغة والزي والسلوك بل حتى المظهر البدني»، حتى قيل: السينما أفيون الشعوب، ويقول مفكر أمريكي آخر: «ليست وظيفة السينما أن تزوّدنا بمعرفةٍ للعالم فحسب، وإنما تخلق أيضا القيم التي نعيش بها».[١]

كما كثر الحديث عن السينما في كافة وسائل الإعلام المختلفة والمتنوعة ولم يعد للناس حديث تقريباً سوى السينما وعن تأييدها من عدمه ولكن بتاريخ ٢٠/٧/١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م) جاء القول الفصل في مسألة السماح بدور السينما في هذه البلاد من عدمه حين صدر قرار من سمو النائب الثاني وزير الداخلية الأمير نايف بن عبدالعزيز، يقضي بحضر صالات السينما في المملكة، بناءً على ما رفعه سماحة مفتي عام البلاد بحسب ما تداولته وسائل الإعلام في ذلك الوقت، وجاء ذلك قبل أيام من انطلاق مهرجان جدة السينمائي الرابع، الذي كان مقرراً له أن يبدأ يوم السبت ٢٥/٧/١٤٣٠هـ بمشاركة ٥٠ مخرجًا سينمائيًا خليجيًا، استضافتهم شركة روتانا الراعية والممولة للمهرجان، إضافة إلى أعضاء لجان التحكيم من الدول الخليجية. وكان مقرراً عرض ٧١ فيلمًا روائيًا وتسجيليًا ورسومًا متحركة، إضافة إلى بث ٣٥ فيلمًا على هامش المهرجان، منها أفلام آسيوية وعربية. كما تم رصد ١٣ جائزة للمسابقات وهي مسابقة الفيلم الروائي الطويل والقصير، والفيلم الوثائقي، والفيلم الكرتوني، والفيلم الإعلاني، وجائزة سيدتي للمبدعات الخليجيات في مجال السينما وجائزة لجنة التحكيم لأفضل فيلم سعودي. كما تم رصد جائزة لأفضل إخراج سينمائي، وأفضل سيناريو، وأفضل تصوير، وأفضل مونتاج، وأفضل مؤثرات صوتية، ورصد جائزتين لأفضل تمثيل.[٢] إلا أن كل ذلك

(١) خطبة بعنوان (وسائل الإعلام الحديثة، السينما نشأتها وحقيقتها وأثرها) ألقاها الشيخ إبراهيم بن محمد الحقيل، بتاريخ ٢١/٤/١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م).

(٢) نشرت الخبر وتفاصيل حوله وعن المهرجان العديد من وسائل الإعلام منها صحيفة إيلاف الإلكتروني.

تبخر بصدور قرار النائب الثاني الذي أسدل الستار على فصل من أكثر الفصول الساخنة التي شهدتها الساحة الثقافية في المملكة بين شد وجذب حتى حسم النزاع بقرار المنع.

وبعد ذلك القرار بأكثر من سنة قامت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (فرع القصيم) بإصدار فيلم سينمائي قصير بعنوان (إنها الحياة) بمشاركة مجموعة من الشخصيات بما فيهم نائب أمير منطقة القصيم الأمير الدكتور فيصل بن مشعل بن سعود، ومهاجم نادي النصر والمنتخب السعودي اللاعب سعد الحارثي، بالإضافة إلى الكاتبة والباحثة مشاعل العيسى (صوت فقط) مع بعض الأطفال وأشخاص آخرين، وكان الهدف منه الحث على الصلاة وهي طريقة في منتهى الروعة وأرى جماليتها في زوايا عديدة أوجزها في أربعة أمور:

أولها: استفادة هذا الجهاز الخيّر من الوسيلة التقنية بدلاً من الاكتفاء بالوسائل القديمة، وهذا دليل واضح على أن الرجعية أو التقوقع إن وجد فهو ليس في النظام العام أو الجهاز نفسه بل ربما يعود إلى قناعات أشخاص.

الأمر الثاني: أن الهيئة تمكنت من تسخير الفيلم السينمائي والاستفادة منه في إيصال رسالتها وهذا دليل على إمكانية الاستفادة من الوسيلة الإعلامية كالسينما في بيئة مثل بيئة المجتمع السعودي لا تتوافر بها مقومات صناعة سينما كاملة، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الاستيراد الذي فيه من المساوئ ما الله به أعلم، فكان شعار الهيئة (ما لا يدرك كله لا يترك جله).

الأمر الثالث: أفادتني الهيئة في بحثي هذا في إعطاء نموذج جميل للتغير الاجتماعي الإيجابي، بحيث استوردت التقنية الخام وبثت من خلالها ما يدعم الثقافة والفكر الذي نعتنقه المتوافق بطبيعة الحال مع شرائع الدين الحنيف، وهذا خلافاً لما يردده بعض الأشخاص من أن ما لدى الغرب يجب أن نأخذه كله أو نتركه كله، وبدوري أقول لأولئك الأشخاص إليكم نموذج أراه كافياً لاجتثاث تلك الفكرة

من رؤوسكم إن كنتم مجتهدين وتبحثون عمّا فيه صلاح وخير هذا المجتمع، أما من يسعى إلى خلاف ذلك فأنصحه بالبحث عن وطن آخر يعيش فيه يتوافق مع أهوائه وشهواته.[1]

الأمر الرابع: يتمثل في قدرة الهيئة على تفعيل بقية أعضاء المجتمع بمختلف أجناسه وطبقاته لتوصيل رسالة جميلة مفادها أن كل واحد منا رجل هيئة يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[2] ثم هل هناك عمل أجل وأطيب وأكرم من أن نتواصى بالصلاة التي إن صلحت صلح الحال كله وإن فسدت فلن يفيد صلاح شيءٍ بعدها.

ثم تلا ذلك عدة أفلام أخرى قصيرة أنتجتها الرئاسة العامة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلها توعوية في مجالات مختلفة.

ثانياً المسرح:

حين نتحدث عن المسرح في المملكة فنحن نتحدث عن أقل الميادين الثقافية تأثيراً. رغم ما يبذل من جهود فردية. إلا أن المسرح أو ما يسمى أبو الفنون ما يزال أقل من المأمول بكثير في بلادنا، ولم تحدث تلك التغيرات الكبيرة التي تستحق الإشادة، وهذا لا يمنع من التنويه عنها، ورغم أن المسرح يعد الواجهة الحضارية تقريباً لكل بلد، وكما يقال إن أردت معرفة ثقافة وحضارة مجتمع فاذهب إلى

---

(١) هذه الجملة مقتبسة من إجابة مقتضبة للأمير نايف بن عبد العزيز حين سئل من قبل أحد الإعلاميين سؤالاً فيه استنقاص لهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجاب: للأسف من الإعلاميين من يتلقط السلبيات البسيطة وينفخون بها حتى تكبر؛ بغرض الإساءة للهيئة، ألا يعلم هؤلاء أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن من أركان الإسلام والله – سبحانه وتعالى – يقول: (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (٤١) سورة الحج، فإن كنا مسلمين يجب أن نعرف هذا وإن كنا غير مسلمين فهذا الوطن ليس لغير المسلمين.

(٢) الآية (٧١) سورة التوبة.

مسارحها، أما لدينا فيبدو أن تلك المقالة لا تنطبق علينا فليس لدينا ذاك المسرح الذي يمكن أن يعكس ما لدينا من ثقافة وحضارة وهي متوافرة وراقية - وإن اختلف معي من اختلف - إلا أن لدينا إرثاً حضارياً، لا أبالغ حين أقول بأنه الأعرق في هذا الكون، رغم أن قلة منا تحاول تهميشه، ومثلها في العدد تحاول إعادتنا لنعيش كما عاش صناع حضارتنا وفي يقيني أن كليهما مجتهد - إن شاء الله، وهو أعلم بالسرائر - ولكن كلا الفريقين جانب الصواب، ولم يوفق.

وتظهر أهمية المسرح في دوره في إعطاء مساحة جيدة للتعبير عن الرأي المجتمعي، والتنفيس في أحايين عن بعض الهموم المشتركة، التي ليس من السهل تغييرها بين يوم وليلة ولكن طرحها من خلال المسرح وتسليط الضوء عليها ربما يعطي المجتمع نوعاً من الشعور بالحرية التي لا يجدها على أرض الواقع، وحول ذلك يذكر الدكتور إبراهيم غلوم: أن التجربة المسرحية في المجتمعات الخليجية بصفة عامة تعد بدلاً للحرية الغائبة، أكثر من كونها دليلاً على الحرية المتحققة، وقيام التجربة المسرحية بديلاً للحرية أو الديمقراطية يقود إلى التشكيل المأمول للتغير الاجتماعي الذي يتحكم فيه وعي الجماعة ويدل على الحرية والديمقراطية وهذه بحد ذاتها دليل على التغير.[١]

وبالفعل فالمسرح يعطي مساحة كافية لتفريغ كثيرٍ من الشحنات والتشنجات المجتمعية، والإشكال أنه حين يغيب المسرح فليس هناك بدٌّ من البحث عن بديل، ولا بديل هنا غير الشارع، والحقيقة أن وضع الشارع لا يسر فما نراه من تهور وعصبية ورعونة وأنانية في القيادة، لا يعكس حقيقة مجتمعنا، ولا ثقافته ولا حضارته، فالأسلاف كانوا أهل الإيثار ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٢] ونحن بأمر الله امتدادٌ لهم، وأهل السكينة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) د. إبراهيم عبد الله غلوم، المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، دراسة في سيسيولوجيا التجربة المسرحية في الكويت والبحرين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).

(٢) من الآية (٩) سورة الحشر.

﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[1] ومن أطيب صفاتنا بحول الله الصبر والرحمة ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾[2] وصفات المؤمنين كثيرة ومن ينتسب لهذه البلاد منهم ـ بإذن الله ولا أزكي عليه أحداً ـ ولو أردت الاستفاضة في تلك الصفات ما كفاني هذا المقام، ولكني أسوق شيئاً مما يفترض أن يرى منا في الشوارع لا ما يعكسه بعض المتهورين في شوارعنا وقد كتب الأستاذ أحمد بن باز مقالاً حول الشارع السعودي ومما ذكره قوله: «يقولون إذا أردت أن تعرف حضارة أمة فزر أحد مسارحها، وبما أنه لا يوجد لدينا مسارح في السعودية فأظن أن مسارحنا هي شوارعنا، وإذا أردت أن تتعرف على حضارتنا فانزل إلى شوارعنا لترى الناس وتتعرف عليهم وعلى سلوكياتهم، وكيف يقودون مركباتهم بحالة نفسية هستيرية، وللتعرف على مستوى اللامبالاة التي يتمتعون بها ومدى اهتمامهم أو حتى معرفتهم بالأنظمة المرورية والتي لا يقف أمامها لا رصيف ولا أكبر منه، ويضيف: تذكرت سيدة أوروبية تعمل في المملكة وهي تصف في لقاء صحفي الحالة النفسية الصعبة التي تعانيها وتمر بها يوميا أثناء خروجها لعملها، وأنها تحس في كل مرة أنها خارجة في مهمة عسكرية ترجو النجاة منها، حيث كانت تقول: إذا أردت أن تتعرف على السعوديين وأخلاقهم وطبائعهم ومستوى تعليمهم، وكيف يفكرون فانزل إلى شوارعهم، فهل هؤلاء هم نحن؟»[3] وأنا بدوري أقول لا والله يا أستاذ أحمد، ليس أولئك نحن ولا يمثلنا أي منهم، وكل ما هناك نحن بحاجة لحملات توعوية على عدة جبهات لعل منها في مقامي هذا حملتين: الأولى حملة بأهمية المسرح ودوره في إبراز ثقافة وحضارة المجتمع، والأهم أثره الكبير في تصحيح كثير من السلبيات التي يعايشها المجتمع في حياته اليومية، ولعله حتى يكون إحدى وسائل الحملة الثانية التي أرى ضرورتها في تصحيح أحوال مستخدمي الطرق لدينا، خاصة وأن معظمنا والمقيمين في بلادنا لا نعرف بعضنا إلا من خلال

---

(١) من الآية (٤) سورة الفتح.

(٢) الآية (١٧) سورة البلد.

(٣) من مقالة للأستاذ أحمد بن عبد العزيز بن باز، بعنوان (المسرح السعودي) نشرت في صحيفة الوطن العدد ٣٣٠٤ بتاريخ ٢٧/١٠/١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م).

تصرفاتنا في تلك الطرق، وأخشى ما أخشاه أن يكون الشعور العام والغالب كله على قلب تلك المرأة التي ترى أنها تشبه استخدامها طرقنا بالنزول لميدان المعركة. ولعلي لا أغرق في الحديث عن مسرح الشارع، وأعود إلى خشبة المسرح.[(١)]

أعود لحديثي عن المسرح السعودي الذي كانت له بدايات قديمة جداً تعود أولاها إلى عهد الملك سعود - رحمه الله - حين قام أحمد السباعي - رحمه الله -

(١) من باب العلم بالشيء كما أن هناك خشبة مسرح، فقد ابتدع أحد الشباب المصريين ويدعى محمد رياض (ورفاقه) ما أسموه بالمسرح الإلكتروني. - وهي كما يذكر صاحب فكرتها التجربة الأولى من نوعها في العالم)، وهو عبارة عن مسرحية تعرض من خلال غرف المحادثة وعلى الهواء مباشرة، كانت بعنوان (مذكرات شهيد) وصفت فكرتها بعض وكالات الأنباء كرويترز وموقع «السي إن إن» بالبدعة الجديدة التي مزجت الفن بالتقنية. وقد عرضت المسرحية على مدار ثلاثة أيام متتالية تجاوز عدد حضورها ٤٠٠ زائر، يقول عنها رياض: كنا نتدرب على نقاط أساسية عديدة لنجاح العرض بالشكل المطلوب، وكانت أهمها على الإطلاق كيفية إيصال معنى الكلمة وحالة الكلمة بالشكل المطلوب حتى نضمن أن يعيش المشاهد نفس حالة المشهد الحقيقية، كمد بعض الكلمات (من خلال لوحة المفاتيح) وتزويدها بالأشكال التعبيرية بالإضافة إلى أهمية سرعة عرض الجمل بدون تأخير جمله عن الأخرى، وأيضا إيجاد بديل في حال انقطاع الإنترنت عن أحد الممثلين. أما أهم معايير المشاركين في أداء المشاهد فكانت: سرعة اتصالهم بالإنترنت، وأيضا سرعة الكتابة على لوحة المفاتيح، وأيضا إمكانية الحضور في أي وقت يطلب من الممثل القدوم. (كان هذا مقتطفاً من حوار أجراه المحرر رجاء المطيري، ونشرته صحيفة الرياض في عددها ١٣٤٤٣ بتاريخ ١٤٢٦/٣/٥هـ) (٢٠٠٥م). أسوق هذا النموذج من العمل المسرحي كنموذج على إمكانية التجديد وبجهود بسيطة وحتى بعيداً عن النمطية والتقليد، وانتظار ما سوف يقدم لدى الآخرين لنحتفي به، وأرى أن تكرار مثل هذه التجربة ممكنة ولكنها بحاجة إلى أن تستوعب من قبل بعضنا، ولو حدث ذلك وتم تقديم عمل متقن لأصبح لدينا رواد في هذا النمط من الفنون، خاصة وأن جمهور الإنترنت لدينا عريض جداً وبطبعه متلهف لتلقي الجديد المتقن، وأشدد على الإتقان هنا؛ لأن هذا الجمهور سرعان ما ينصرف في حالٍ كان ما يقدم أقل مما يطمح إليه، في زمن تعددت فيه الخيارات. والحقيقة أني أتمنى أن أشاهد عملاً مسرحية فورياً كذاك على شاشات الإنترنت خاصة وأن الأداة الرئيسية هنا لوحة المفاتيح، التي أصبحت أبلغ من اللسان الفصيح في عهد «الآي بود» و«البلاك بيري» وأنا حين أقول ذلك فإني على يقين أن أنصار التقنية الحديثة ومنهم من لا يفارق أنامله البلاك بيري ستروق لهم الفكرة، وسيجدون بأن الإنترنت وسيلة جميلة لتقديم مسرح، خاصة إن كان من نوع المسرح التفاعلي، الذي أراه مناسباً لجمهور الإنترنت، ومناسباً أكثر للجمهور السعودي الذي يتوق إلى المشاركة ويتلهف عليها في كل المسرحيات التي حضرتها، ولكني لم أشاهد مسرحية تفاعلية واحدة من قبل، وقد تكون موجودة وإن كانت كذلك فهي قليلة لدرجة يندر الإشارة إليها. أما المسرح التفاعلي فهو إتاحة الفرصة لأي من الحضور للمشاركة في المسرحية أثناء عرضها وإبداء رأيه أو ردة فعله تجاه موقف معين استرعى انتباه الحضور، وفي أحايين قد يستعان ببعض المختصين الذين يحضرون مصادفة وأحياناً بترتيب من معدي المسرحية؛ لإبداء آرائهم حيال بعض النقاط المطروحة كنوع من المعالجة الجميلة غير المباشرة، وبالطبع من المهم أن يحدد زمن لا يزيد عن دقيقة مثلاً للمداخلة كي لا يحيلها بعض المختصين إلى ندوة.

بإنشاء أول مسرح ومركز للتدريب على التمثيل، وكانت حينها المملكة تخلو من مسرح للجمهور العام إلا من محاولات فردية مبعثرة داخل أسوار بعض المدارس، حيث تقدم السباعي عام ١٣٨١هـ (١٩٦٢م) إلى وزارة الإعلام بطلب إنشاء المسرح باسم (دار قريش للتمثيل القصصي)، وبالفعل قامت الوزارة برفع الطلب إلى جلال الملك سعود الذي وافق على طلب السباعي، الذي قام بإنشاء مسرح يتسع لألف شخص من ماله الخاص وعلى أرض واسعة كان يملكها بجوار منزله في حي جرول بمكة المكرمة، كما قام بتجهيزه بكافة مستلزماته من ديكور ولوحات ومناظر خلفية ضخمة، وعين زاهد قدسي مديرا للمسرح، ومحمود السباعي مسؤولا عن بيع التذاكر وحساباتها.

كل ذلك جرى وسط توجس ومراقبة لا تخلو من الانتقادات الاجتماعية المحافظة التي وصفت المسرح بالبذرة التي قد تشعل حرائق اجتماعية غير مقبولة؛ ولهذا فقد حرص السباعي على دعوة بعض معارضيه لحضور افتتاح أولى المسرحيات وكانت بعنوان (فتح مكة)، ليروا بأنفسهم حقيقة المسرحية وأن ما يتوجسون منه ليس له أساس من الصحة، لكن الإجابة أتت بأنهم معارضون لفكرة إنشاء المسرح، وأن مسرحه قد يقدم اليوم (فتح مكة)، لكنه قد يتحول غداً إلى ملهى يقدم رقصات يختلط فيها النساء بالرجال، فأجابهم السباعي: بأن مسرحه خُصص لتقديم الأعمال التاريخية الإسلامية ومثله يترفع عن تحويله إلى ملهى كما أن العنصر النسائي لن يكون له وجود. لكنهم ردوا عليه بقولهم: تقول هذا الآن، ولكن ليس لدينا ما يضمن تقديم المسرحيات المفيدة في المستقبل، واضاف أحدهم: ولا تنس أن التمثيل حرام لأنه كذب فعندما يتقمص الممثل شخصية فلان ابن فلان فهو ليس في الحقيقة فلان ابن فلان وهذا خداع وتضليل وكذب يحرمه الإسلام.[1] على

---

١ هناك أقوال وآراء كثيرة حول حكم التمثيل بشكل عام، فمن علماء المسلمين من يرى جوازه بضوابط بل ويرى استحبابه إذا استخدم لغرض إيصال رسًالة تخدم الدين، خاصة وقد ثبت تشكل الملائكة في صور بشر، كما هو الحال في مجيء جبريل لمريم - عليهما السلام - في صورة رجل، وكالملائكة حين جاءت لإبراهيم، ومن عنده ذهبت إلى لوط - عليهم السلام، كما أنه ترفيه بريء ويعد من المباحات، وغيرها الكثير من الحجج. وهناك من يرىً أنه لا يجوز؛ لأسباب كثيرة منها ما فيه من المحاذير الشرعية كالكذب، واليمين الغموس، والانتساب إلى غير الأب الحقيقي (ادعوهم لآبائهم)، تغيير خلق الله، والاستهزاء بالدين وأهله، تمثيل دور الكفرة والتلفظ بأقوال الكفر، والدعوة غير المباشرة إلى أخلاق هابطة وصفات رذيلة، والرضا بالمنكر.
وقد صدرت العديد من الفتاوى المتفرقة حول حكم التمثيل وكذلك ألفت العديد من الكتب وأجريت =

= بعض الدراسات أورد منها العلامة الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد - رحمه الله - (٤٦) في كتابه الموسوم بـ(التمثيل.. حقيقته، تاريخه، حكمه) صدر عن دار الراية للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ (١٩٩٠م) ذهب خلاله إلى تحريم التمثيل موردا (٣١) علة وسببا لذلك، كما أشار إلى (٧) مما سماه شبه المجيزين للتمثيل وقام بالرد عليها، وخلص إلى أن التمثيل: حرفةً، وأداءً، وتكسبا، وعرضا، ومشاهدة، لا يجوز؛ لأنه إن كان تمثيلاً دينيا فهو بدعي؛ لوقف العبادات على النص ومورده، ولما علم من أصله لدى النصارى واليونان، وإن كان غير ذلك، فهو لهو مُحَرّم، لما فيه من التشبه، ولما رأى فيه من تفاريق الأدلة، وما يحتوي عليه ويترتب عنه من الآثار المعارضة لآداب الشريعة، وناموس الترقي، وانحلال ربقة الآداب. أما بالنسبة لما فيه من عظات، وفضائل مزعومة، فهي ضائعة مغمورة في حَلبة تلك الملهيات التي توقظ نائم الأهواء، وتحرك ساكن الشهوات، كما ينطق به الواقع المرير، لتمرير الفحش والخنا، والفسوق والعصيان، وتهديم البيوت داخل أسوارها؛ فهو يُمثل مخاطر على العقائد ، والأخلاق ، والفضائل ، والآداب.

كما أن هناك كتاباً آخر من إعداد الشيخ عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم - رحمه الله - بعنوان (إيقاف النبيل على حكم التمثيل) قدمه له الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان، والشيخ الدكتور ربيع بن هادي المدخلي، أورد خلاله ستة أدلة على تحريم التمثيل كل دليل أفرد له فصلاً مستقلاً وأسهب خلالها في ذكر ما يدعم رأيه وحجته. وختم كتابه بفصل رد فيه على أدلة من قالوا بجواز التمثيل وحصرها في ثلاثة أدلة فقط.

أما الأستاذ محمد بن موسى الدالي، فقد ذهب في كتابه - وأصله رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة قسم الفقه، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض - بعنوان (أحكام فن التمثيل في الفقه الإسلامي) من إصدارات مكتبة الرشد، لعام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) في مبحث حكم التمثيل إلى ترجيح جواز التمثيل بضوابط شرعية سبعة، بعد أن أفاض في ذكر أدلة المجيزين من القرآن والسنة، وكذلك الحال بالنسبة لأدلة المحرمين مطلقاً.

وقد سئل فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين - رحمه الله - عن حكم التمثيل في عدة مواضع منها في فتواه ذات الرقم (٨٥٦١) فأجاب: بأن التمثيل جائز إذا قصد منه الاستفادة من الشجاعة والبطولة وكيفية دخول الحروب وقتال الأعداء، أو قصد منه بيان ما هم فيه من الجهل والشرك والخرافات التي قضى عليها الإسلام، ولا يضرنا كفرهم وشركهم، كما أفتى - رحمه الله - بأن لا بأس بالتمثيل الذي يراد منه بيان جهاد الصالحين وبلائهم وعبادتهم وصلاحهم ومشاهدة بعض ما يقومون به وما أثروه في غيرهم، ويغتفر التمثيل لذلك، ولا يضر كون الممثل كاذبًا في أفعاله، حيث إنه حكاية عن غيره لما هو حق وصدق، والحاضرون يعرفون أنه مثال لشيء سابق، ولا شك أن استفادة الحاضرين من التمثيل أبلغ من استفادتهم من مجرد سرد القصة بالكلام، فإن التمثيل يرسم الواقعة في الفكر ويبقى أثرها في الذهن دائمًا، ويستحضر هذه القصة ويطبقها، أو يقيس عليها، ولذلك أكثر الله ا في القرآن من ضرب الأمثال، فلو أن إنساناً مثّل بعضها أمام الناس لتصوروا ذلك وعرفوا ما فيه من الأثر البليغ. والله أعلم. (نص الفتوى كاملاً وغيرها من الفتاوى حول الموضوع متاحة في موقع الشيخ ابن جبرين على الإنترنت). أما سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رحمه الله - فمما جاء في أقواله حول حكم التمثيل في إحدى فتاويه في إحدى حلقات برنامج (نور على الدرب) المنشورة في موقعه على الإنترنت قوله: بأن الممثل الذي يتزيا بزي غير زيه وينسب نفسه إلى غيره كأن يتزيا بزي النساء ويتشبه بالنساء على أنه فلانة أو فلانة هذا منكر من جهتين من جهة كذبه، ومن جهة تزييه بزي النساء، والله حرم على الرجل أن يلبس لبس المرأة، وإن كان التمثيل لشخص آخر يتقمصه ويقول أنا فلان، كأن يقول: أنا زوج المرأة فلانة، أو أنا أبوها أو أنا أخوها وليس كذلك، أو أنا عمر أو أنا علي بن أبي طالب أو أنا أحمد بن حنبل أو أنا أبو حنيفة أو أنا فلان؛ هذا كذب لا يجوز، هذا تزوير ليس تمثيلاً، تزوير، لأنه ليس بأبي حنيفة وليس بأحمد وليس عليا وليس بفلان، وإذا كان يتشبه بالكفرة صار أكبر وأشد، كأن يقول أنا أبو جهل أو أنا عتبة بن أبي ربيعة أو أنا أبو لهب، هذا أقبح لأنه مثل نفسه بالكافر وكـــــذب =

الرغم من ذلك، بقي أحمد السباعي على موقفه المرحب بهم، غير أنهم سعوا إلى إيقاف الافتتاح بحجة ما سيكون بعد فتح أبواب المسرح، وبالفعل تحقق مقصدهم حيث صدرت تعليمات رسمية قبل العرض الأول بإيقافه حتى عودة الملك سعود إلى أرض الوطن، وظلت تلك التعليمات سارية إلى يومنا هذا، حيث لم يعرض على مسرح قريش لأحمد السباعي أي عمل مسرحي حتى هذه اللحظة، وبتلك التعليمات انقضى فصلٌ من فصول التغيير إلى انتصار مناصري (يبقى الحال كما هو عليه) وإن كان من المحال بقاء الحال دون تغير أو تغيير، حتى لو اجتهد البعض في إبطاء مسيرة التغير، أما تعطيلها فهو مستحيل.[١] وتذكر حليمة مظفر أن الكاتب علي

= أيضاً ليس هو بأبي لهب وليس هو بعتبة وليس هو بأبي جهل فلا يجوز. وبعض الناس لا يحسن معنى التمثيل، يحسب أن التمثيل ضرب الأمثال، وضرب الأمثال أمر آخر، ضربها الله في كتابه العظيم في أشياء كثيرة مثل قوله جل وعلا : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣٢) سورة الكهف، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (١١٢) سورة النحل، ومن أمثالها الأمثلة التي يضربها الله أو يضربها رسوله ﷺ هذه فيها البيان والإيضاح للأمة حتى تعرف الحق بالأدلة وبالتمثيل، وهكذا لو قال إنسان لجماعة يضرب لهم أمثالاً، مثل الذي يفعل كذا مثل كذا وكذا، والذي يفعل كذا مثله كذا للتنفير من العادة السيئة، أو للترغيب في الأعمال الطيبة هذا لا بأس به هذا ضرب الأمثال للإيضاح والبيان، بخلاف التمثيل الذي هو تقمص إنسان، يقول أنا فلان أو أنا فلانة وهو كذب ليس بفلان ولا فلانة، هذا كذب وتزوير لا يجوز وإذا كان ذلك في أشخاص الكفار كان أقبح وأشد إثماً. وفي فتوى أخرى له حين سئل - رحمه الله - في برنامج (نور على الدرب) عن السينما والمسرح وحكم الدخول إليها من المسلم هل هو جائز أو لا؟ فأجاب: هذا فيه تفصيل إذا كان المسرح والسينما فيها شيء ينفع المسلمين ويوافق الشريعة كمسرح لما يتعلق ببيان الحق ونشر الحق وبيان ما درج عليه سلف الأمة ونحو ذلك، أو سينما لإيضاح الحق في مسائل تهم الناس ليس فيه عريٌ ولا فساد ولا اختلاط ولا أغاني ولا أشبه ذلك من المنكرات؛ فهذا لا بأس إذا كان خالياً مما حرم الله -عز وجل-، وإنما أقيم لمصلحة إسلامية أو لمصلحة مباحة كإبانة صنعات نافعة أو أشياء مما تهم المسلمين وتنفعهم في دينهم ودنياهم بغير محذور، من دون اختلاط الرجال بالنساء، من دون أغان وملاه، من دون شيء محرم، أما السينمات المعروفة والمسارح المعروفة التي فيها اختلاط رجال ونساء أو فيها الأغاني والملاهي أو فيها عري النساء أو فيها غير ذلك مما حرم الله فهذا منكر لا يجوز ، لا يجوز دخولها ولا المشي إليها ولا الرضا بها هذا يجب إنكاره». وبالطبع فهذا القول فيه شيء من الإبهام فيما يتعلق بحكم التمثيل فهو لم يرد ولكن يظهر من الإجابة والحديث عن السينما والمسرح أنه رحمه الله أفتوى بالجواز وفق الضوابط المشار إليها وما يدعم ذلك ما ذكره ابنه الأستاذ أحمد بن باز في مقالة له نشرتها صحيفة الوطن في عددها (٣٣١٤) بتاريخ ١٤٣٠/١١/٧هـ (٢٠٠٩م) بعنوان (المسرح السعودي٢) حيث قال: «لم يكن حديثي في مقال المسرح السعودي حول المسرح نفسه رغم أن سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - قد حضر عدة مسرحيات».

(١) دون النظر إلى ماهية التغير للأحسن أو للأسوأ فالناس لا ترغبه؛ بل إن هناك من يفضل الموت عليه، ولا ضير في ذلك خاصة وقد فُطر الواحد منا على الركون إلى نفس الحال والنمطية والنفور من التغيير منذ الولادة، وقد قيل إن صرخة المولود هي أولى علامات الاحتجاج والاعتراض على التغيير، فهو قد =

حسن فدعق كتب في إحدى مقالاته: «لو قدر لمسرح السباعي أن يكون النواة الأولى لكنّا اليوم ننعم بحياة مسرحية تستطيع الأقلام الوطنية أن تلعب دورا هاما في حياة شعبنا كما هو الحال في بعض البلاد الأوروبية».[1]

ما سردته كان باختصار نموذجاً لما كان عليه الوضع في بدايات نشأة المسرح السعودي وكيف كانت النظرة إليه، وأظن بأن تجربة السباعي كانت كافية لإجهاض

= مكث في رحم أمه تسعة أشهر، وقد وفرت له جميع سبل العيش الرغيد من أمن ومطعم وراحة وهدوء، وعند الانتقال إلى هذا العالم فهو لا يفكر إلى أين انتقل؛ بل لماذا نُقل من مكانه الذي ألفه وأحبه وأمضى فيه تلك الفترة الطويلة. ومن هنا نعلم أن التغيير أمر صعب بالنسبة لنا وربما لا يستساغ بسهولة وإن تفاوتت درجات قبوله بيننا من شخص لآخر بحسب طريقة تفكير كل واحد منا وفلسفته ونظرته إلى هذه الحياة، وهذا الاختلاف يمكن حصره في ثلاثة أنماط فقط لعلي أوجزهاً باختصار: النمط الأول: شخص مؤمن بالتغيير والانتقال من حال إلى حال ويعلم أن هذا التغيير قد يطال كل شيء يخصه من النفس والزوج والولد والممتلكات والجسدً وغيرها.. ومع خشيته ووجله من التغيير فهو يقف منه موقف المستعد المتأهب من جهة، وموقف من سيتقبله ولكن وفق شروط وليس بشكل مطلق. أما النمط الثاني: بعكس الأول تماماً فهو وكأنما لم يعلم بشيء اسمه تغيير سوى في أمور بعينها، ومن هنا فقد ترك الحبل على الغارب فلم يحصن نفسه ولا ولده وانشغل بما اختزل التغيير به، وظنه أهم وهو الخشية من التبدل من حال الغنى إلى الفقر فأمضى جل وقته يلهث خلف دنياه معززاً موقفه المالي.. أما النفس والولد فلم يعرهما اهتمامه وهذه النوعية من البشر هي من تجلب الفساد المجتمعي، إلا من رحم ربك، وهم من ينطبق على أسرهم قانون المال والفراغ يولدان الانفلات والفساد، وهو في الغالب حال من تعولهم تلك الشاكلة، أما هو فقد يسرق ويرشي ويرتشي ويروج الفساد بجميع أشكاله، وشرور هذا النوع لا تقف على أسرهم بل تتعداه إلى المجتمع برمته، وقد يصون بعضهم أسرته ويعمل على المحافظة عليها بالطريقة التي يراها سليمة، ولكن بالنسبة لأبناء المسلمين فإنه لا يأبه بهم. والنمط الثالث: فئة بين الأولى والثانية فهم تعبوا وربوا ووجهوا ولكنهم لا يؤمنون بالتغير، وكل شيء يجب أن يكون كما أرادوا، وغالباً ينجحون في المحافظة على ما يريدون، ولا يخترق حصونهم التغيير بسهولة إلا مع الأبناء، فتأتي النتائج أحياناً بشكل عكسي، ويعتمد ذلك على قوة شخصية الأب ونفسية الابن، فإن كان الابن مطواعاً سارت الأمور كما ينبغي، وإن كان عكس ذلك مع ضعف الأب أمامه حدث الانفلات والتغير الرهيب، أما إن كان الأب قوياً والابن عنيداً فينتج عن ذلك صدامات قد تتطور إلى إقصاء الابن من المنزل، وغالباً ما ينتج عن ذلك كارثة تحل بالابن حيث يكون لقمة سائغة لرفاق السوء فيوظفونه كما يريدون، وقد تتوسط الأم وتترجى ولكن في الغالب لا تأتي تلك الوساطات بالنتائج المرجوة. من كتابي (هكذا أفكر، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م) موضوع بعنوان التغيير، في فصل شجون وهموم اجتماعية.

(١) مقتطف من تصريح للأستاذ أسامة أحمد السباعي، رئيس تحرير صحيفة المدينة سابقا في حديثه عن والده أدلى به للأستاذة حليمة مظفر ضمن تحقيق بعنوان (دار قريش للتمثيل القصصي، قبل ٤٤ عاماً، مسرح السباعي للأعمال التاريخية في مكة أقفله خوف المحافظين من تحوله إلى ملهى مختلط) نشرته صحيفة الشرق الأوسط في عددها رقم ٩٣٨٥ بتاريخ ١٤٢٥/٦/٢١هـ (٢٠٠٤م)، أما بالنسبة لتسمية المسرح بقريش فكما يقول أسامة: بأن والده كان يصدر حينها مجلة تحمل الاسم نفسه من دار قريش للطباعة والصحافة.

أي مشروع مماثل، فالعمل الثقافي ما لم يحظ بالدعم الحكومي مادياً ومعنوياً مع تذليل كافة الصعاب فلن يرى النور، وهذا بالتأكيد أحد أهم أسباب ضعف البدايات بالنسبة للمسرح في المملكة، وسوف أتوسع في ذلك - بحول الله - في ختام حديثي عن المسرح، أما الآن فما زلت أتحدث عن الرواد حيث ذكرت تجربة أحدهم وأكثرهم مغامرة الذي ضحى بالمال والجهد من أجل المسرح، ولكن لم يكتب له التوفيق.

على الجانب الآخر كان هناك من سبق السباعي، ولكن في كتابة النص المسرحي ويأتي الشاعر والأديب حسين عبد الله سراج، المولود في محافظة الطائف عام ١٣٣١هـ (١٩١٢م) الذي يعرف بأنه عميد المسرح السعودي، كونه صاحب أول نص مسرحي سعودي مكتوب عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) بعنوان (الظالم نفسه)، إضافة إلى كونه من أوائل من كتبوا المسرحية الشعرية في السعودية منذ عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) بعنوان (جميل بثينة) وفي عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) مسرحية (الشوق إليك) وقبلها كتب مسرحيته الشعرية (غرام ولادة) ومما جاء في تلك المسرحية:

نحن النساء متى ثُرنا لعزتنا
نُلقي بمن يعتدي بطن الأخاديد
فإن أردنا انتقاماً يا لَنِقْمتنا
وإن وعدنا فيا حُسن المواعيد

وأعمال سراج كثيرة قام الأستاذ عبدالمقصود خوجه، بإصدارها ضمن كتاب الإثنينية في عشرة مجلدات عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)[1]

وبالإضافة إلى سراج كان هناك رواد آخرون للمسرح منهم: أحمد عبدالغفور العطار الذي ألف مسرحية (الهجرة) عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) وعبدالله عبدالجبار

---

(١) من مقالة كتبها الدكتور عايض الردادي، بعنوان (حسين سراج شاعر الوجدان) بتاريخ ١٤٢٨/٢/٨هـ (٢٠٠٧م) بعد أيام من وفاة سراج الذي أفضى إلى ما قدم في القاهرة بتاريخ ١٤٢٨/١/٢٩هـ ونشرت تلك المقالة في العدد ٢٠٨٠ من صحيفة عكاظ.

أصدر مسرحيته (عم سحتوت) و (الشياطين الخرس) عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م)، وكتب إبراهيم الحمدان مسرحية (طبيب بالمشعاب) عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م).[١]

أما الدكتور عصام محمد خوقير ، فقد كتب نصاً مسرحياً بعنوان (الليل لما خلي)[٢] عام ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م) ثم كتب محاولة أخرى بعنوان (السعد وعد)، ولم يتم تنفيذها على خشبة المسرح بسبب عدم توافر العنصر النسائي، إلا أنه تم تحويلها إلى مسلسل تلفزيوني عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) ومن أشهر أبطال ذلك العمل: محمد الطويان وبكر الشدي - رحمه الله، وهو من المسلسلات الجميلة التي ما تزال تحظى بشعبية كبيرة رغم مرور زمنٍ طويل جداً على إنتاجها. ويقول الدكتور الخوقير عن أسباب طرقه الكتابة المسرحية رغم أنه طبيب بشري؟ بأنها تعود إلى أن الأدباء السعوديين قد طرقوا أبوابا كثيرة من أبواب الأدب ففكرت أنه لو جاء دارس بعد خمسين سنة أو مئة سنة يريد أن يؤرخ للعمل الفكري في الفترة التي نعيشها الآن أو فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية و بداية النهضة التعليمية في المملكة، فسيجد أننا قد طرقنا كل أبواب الأدب عدى باب أدب المسرح، و العالم ينظر إلى الأمة التي لديها تراث مسرحي نظرة محترمة وذات ثقل. أما عن وجود العنصر النسائي في نصوصه رغم أن المسرح السعودي لا يسمح بتوظيف المرأة فيقول: بأنه حين يأخذ شريحة من مجتمع فيجب أن تكون متكاملة، فعلى سبيل المثال الطبيب الذي إذا أخذ شريحة لتحليلها يحرص أن تكون شاملة لجميع الخلايا التي يتكون منها الجسم البشري، وحين ننظر إلى القصة في القرآن الكريم نجد أنها لم تأت مفردة أبداً فتجد نوحاً ولوطاً - عليهما السلام - وزوجتيهما، ويوسف - عليه السلام - و امرأة العزيز، وفرعون وزوجته، وحتى داخل البيت أورد القرآن الكريم قصصاً مثل قوله

(١) حليمة مظفر، المسرح السعودي، بين البناء والتوجس، نادي الطائف الأدبي ودار شرقيات في القاهرة، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م).

(٢) د. عصام خوقير، الليل لما خلي، مجموعة قصصية، الدار السعودية للنشر و التوزيع، ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م).

-سبحانه وتعالى- ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾[1]، وقصة نبي الله موسى - عليه السلام - في أرض مدين؛ ولهذا أنا ككاتب أجد صعوبة في الكتابة بدون العنصرين، وقد طلب مني بعض الإخوان أن أكتب مسرحية دون شخصية نسائية وحاولت ولكني جهدت وفشلت.[2]

كما لا يفوتني في حديثي عن رواد المسرح السعودي التعريض بالأستاذ عمر الجاسر، الممثل والمؤلف والمخرج، صاحب أكثر من سبق في هذا المجال؛ حيث أسس عام ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) فرقة (فنون جدة المسرحية) و هي أول فرقة مسرحية خاصة في المملكة العربية السعودية. كما يعد أول من أسس مسرحاً خاصاً حمل اسمه، وكان ذلك عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م)، وهي التجربة الأولى بعد أكثر من (٣٥) عاماً على تجربة أحمد السباعي التي أشرت إليها قبل قليل. كما أسّس عام ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م) أول فرقة مسرحية سعودية للطفل.

أما بالنسبة لأول مسرحية سعودية متكاملة العناصر عرضها التلفزيون السعودي فكانت بعنوان (عريس من ذهب) التي قام بأدوارها الفنانون: عبد الرحمن الخريجي وحمد الهذيل والشريف العرضاوي وحسن دردير وأحمد الهذيل ولطفي زيني.[3]

أما أهم المسرحيات السعودية والتي يصنفها بعض المسرحيين بأنها النقطة الحقيقية لانطلاق المسرح وبداية تسليط الضوء الإعلامي تجاهه فكانت بعنوان (قطار الحظ) عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) شارك في التمثيل: الفنان علي إبراهيم والدكتور بكر الشدي ـ رحمه الله ـ والفنان محمد الكنهل، من تأليف الأستاذ

---

(١) من الآية (٣) سورة التحريم.

(٢) من حوار قديم أجراه الكاتب والصحفي ناصر بن عبد العزيز الخطيب، وأعاد نشره في موقعه على الإنترنت www.nasseralkhatib.com كما ذكر مقتطفات منه في كتابه (مدخل إلى دراسة المسرح في المملكة العربية السعودية) صدر عن مطبوعات المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤١٠هـ (١٩٩٠م).

(٣) من مقالة بعنوان (ملامح من الحركة المسرحية في المملكة العربية السعودية) للأستاذ عبد الحي أبو زيد، نشرت في مجلة الجزيرة الثقافية العدد ٢٥ بتاريخ ١٤٢٤/٩/٨هـ (٢٠٠٣م).

إبراهيم الحمدان، ومن إخراج المخرج سمعان العاني أحد المسرحيين الفاعلين في مجال الإخراج المسرحي، وواحد من الذين لا يمكن ذكر تاريخ المسرح السعودي دون أن يأتي اسمه في السياق، حيث يحكي عن تلك المسرحية بقوله: لقد كانت بمثابة الانطلاقة الحقيقية للمسرح السعودي؛ فهي المحرك الفعلي للمسرح السعودي وما وصل إليه ونشاهده الآن من فروع جمعية الثقافة والفنون في مختلف المدن وكذلك فرق مكاتب رعاية الشباب، والمسرح الجامعي، والأندية الرياضية وغيرها، (قطار الحظ) كانت نقطة الانطلاق التي أشعلت روح التنافس بين الجميع، وكانت المحرض للمسرحيين والمبدعين، كذلك أوجدت الملاحق الفنية والصفحات الثابتة للفن عموما التي خلقت جيلا من نقاد المسرح.(١)

ويقال إن ما تم طبعه من مسرحيات في المملكة (١٠٣مسرحيات) ما بين كتاب منشور خاص بنصوص مسرحية، أو مسرحيات نشرت في مطبوعات دورية.(٢)

أما الكاتبة حليمة مظفر فتذكر أنه في العقد الأول من القرن الهجري (ثمانينيات القرن الميلادي) طبعت ٢٣ مسرحية، وفي العقد التالي طبعت ١٥ مسرحية، وفي العقد الثالث منه ازدادت المطبوعات المسرحية حيث صدرت (٢٤) مسرحية، وتعزو قلة النتاج الأدبي الدرامي إلى غياب المسرح وثقافته الجماهيرية عن المجتمع، ووجود ضغوطات وتحديات ومعوقات فكرية محافظة من اتجاهات دينية رفضت وجود المسرح بالسعودية.(٣)

وقد مر المسرح السعودي بعدة تحولات يسميها الكاتب محمد العثيم مراحل المسرح ويقسمها إلى ثلاث مراحل، لم يحدد بداية المرحلة الأولى ولكني أظن البداية ربما تكون مع حسين سراج في الخمسينات الهجرية (الثلاثينيا الميلادية) وهو ما أشرت إليه سلفاً، ويرى العثيم أن هذه المرحلة تمتد حتى عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م).

---

(١) حوار أجرته صحيفة الجزيرة مع المخرج المسرحي سمعان العاني ونشرته في جزأين نشر الأول منهما في العدد ١٠٠٨٧ بتاريخ ١٤٢١/٢/٧هـ (٢٠٠٠م).

(٢) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)

(٣) المسرح السعودي بين البناء والتوجس. (مرجع سابق).

ثم جاءت المرحلة الثانية التي امتدت بين عامي ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م) حتى١٣٩١هـ (١٩٧١م)، وهي الفترة التي شهدت مسرحيات للكبار والصغار وكانت تركز على الدروس الاجتماعية ذات التراكيب الدرامية الترويحية مثل مسرحيات (الغواص)، و(لك يوم يا ظالم)، و(حرام حرام)، وكانت تقدم عن طريق المدارس والأندية. وتمتاز هذه الفترة ببروز مسرحيات من تأليف الكتاب السعوديين. أما المرحلة الثالثة، فتمتد من عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) وحتى الآن، وقد بدأت باحتفالات الأندية الرياضية والمدارس على مستوى مناطق المملكة واختيار المسرحيات الناجحة ودمج بعضها للدخول في مسابقات الفنون المسرحية، وتميزت بتركيز شديد من الأندية والمدارس على مسرح الطفل والشباب.[١]

وبالطبع حديثي السابق كأنه يوحي للقارئ أن لا وجود للنشاط المسرحي على الإطلاق، وهذا صحيح بالنسبة لتجارب المسارح الخاصة، التي اجهضت بإيقاف مسرح السباعي، رغم وجود كتابات لنصوص مسرحية وإن كانت قليلة إلا أنها توحي بوجود حراك مسرحي يغلب عليه الاجتهادات الفردية، هذا بالنسبة للأفراد، أما المسرح الرسمي فكان يعرض في المدارس بداية الأمر، فكما يذكر الأستاذ علي السعيد، نقلاً عن مخطوطة دراسة للأستاذ عبد الرحمن المقرن بعنوان (بدايات المسرح السعودي) تعود إلى عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) حيث يرجع المقرن بدايات المسرح في معظم مناطق المملكة إلى حوالي عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) في حفلات السمر والحفلات الختامية للمدارس. ولكن الدكتور نذير العظمة في كتابه المسرح السعودي، يذكر بأن بداية المسرح المدرسي في المملكة كانت عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) من خلال ما كان يقدم في المدرسة الأهلية بعنيزة.[٢]

ويذكر السعيد أن المدرسة الأهلية بعنيزة أقامت حفلاً مسرحياً في ختام العام الدراسي، قدمت خلاله الأناشيد والمسرحيات الهادفة والمضحكة والخطب

(١) ورقة عمل بعنوان (قراءة في تاريخ المسرح السعودي) قدمها الكاتب الأستاذ محمد بن عبد الله العثيم، عام ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م) في ندوة المسرح السعودي ضمن فعاليات مهرجان الجنادرية السادس عشر.

(٢) علي بن عبد العزيز السعيد، المسرح المدرسي و دوره في تأصيل الانتماء الوطني لدى الطفل، ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).

والمناظرات الشعرية والنثرية ومن أبرز التمثيليات التي قدمت في ذلك الحفل مسرحية (بين جاهل ومتعلم) وهي عبارة عن مناظرة في فضل العلم على الجهل مثل دور المتعلم إبراهيم الواصل، ودور الجاهل إبراهيم الصويان. كما أقامت نفس المدرسة حفلاً عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) شرفه جلالة الملك عبد العزيز - يرحمه الله - قدمت فيه العديد من المسرحيات المدرسية مثل مسرحية (كسرى والوفد العربي) ومسرحية (الأعمى) ومسرحية صامتة بعنوان (الشاهي والدارسين). ويضيف السعيد: بأن العديد من المدارس في مختلف مناطق المملكة كانت تقيم حفلات مدرسية في نهاية العام الدراسي من كل عام مثل مدرسة النجاح بالمدينة المنورة في عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، وكذلك مدارس الفلاح عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

ثم اتسع نطاق النشاط المسرحي بعد ذلك حيث تأسست في مكة المكرمة جماعة المسامرات الأدبية وهي عبارة عن اتحاد ثقافي بين طلاب المعهد العلمي السعودي وطلاب مدرسة تحضير البعثات تنظم هذه الجماعة النشاط الثقافي في كل أسبوع وتقيم حفلات شهرية وسنوية تقدم فيها المسرحيات والتمثيليات الهادفة. كذلك مدرسة دار الأيتام في مكة المكرمة كانت تقيم النشاط المسرحي في تلك الفترة، وفي مدينة الرياض برزت مدرسة الأنجال والمدرسة الأهلية في تنظيم الحفلات المسرحية المشتركة والمنفصلة. تلك الأنشطة الرسمية المشتتة انضوت تحت مظلة وزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) في عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) حيث أصبح النشاط المسرحي المدرسي نشاطاً رسمياً تشرف عليه إدارة التربية الرياضية والاجتماعية، التي تحولت فيما بعد إلى الإدارة العامة للنشاط المدرسي ويتبعها قسم النشاط المسرحي الذي تحول في عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) إلى قسم النشاط الثقافي.[١]

وباختصار فالمسرح المدرسي رغم وجوده إلا أنه مسرح مناسبات، فهو غير مستمر وربما ينشأ مسرح متكامل ويجهز بكافة التجهيزات اللازمة ولا يستخدم

(١) كتاب المسرح المدرسي (مرجع سابق)

سوى مرة في العام عند ختام النشاط المسرحي، كما لاحظت مؤخراً أن بعض المدارس انصرفت عن تقديم المسرحيات في ختام أنشطتها للعام الدراسي إلى تقديم الأناشيد والكلمات والأوبريتات الشعرية الإنشادية.

أما بالنسبة للمسرح الجامعي الذي يعود إلى تسعينيات القرن الهجري المنصرم، (السبعينات الميلادية) حين أقدمت بعض الجامعات على تقديم بعض العروض المسرحية، فاهتمت جامعة الملك سعود بتقديم المسرح المتنوع الذي يقدم الواقعية والرمزية وباقي المدارس الفنية وكذلك محاولات جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية في بلورة وظهور المسرح الاسلامي، وهكذا الحال مع الجامعات الأخرى مثل جامعة الملك عبدالعزيز في جدة وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن.[1]

أما طبيعة تلك الأعمال فقد اتسمت بالبساطة وكان معظمها تاريخية حسبما يذكر الفنان ناصر القصبي، الذي يقر بأنه دخل جامعة الملك سعود وتحديداً كلية الزراعة بسبب المسرح[2]، ويشير إلى أن المسرح الجامعي كان جزءاً من المسرح السعودي في بداياته، ويشترك معه بتواضع الإمكانات. وقد حاول تغيير النمطية السائدة في ذلك الوقت الذي كانت المسرحيات فيه تركز على الأعمال التاريخية التي ألفها المشاهد، وإدخال مادة جديدة مخالفة للسائد، حيث قام بإدخال نصوص شكسبير في المسرح الجامعي السعودي، وهي المرة الأولى التي تعرض فيها مثل تلك الأعمال على خشبة المسرح الجامعي، وهذا أدى إلى امتعاض بعض المحسوبين

---

(١) عبدالرحمن فهد الخريجي، نشأة المسرح السعودي، جمعية الثقافة والفنون، الرياض، ١٤٠٦هـ (٢٠٠٥م).

(٢) انطلق مسرح جامعة الملك سعود عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) وما يزال حتى الآن، وهو الأنشط بين مسارح الجامعات السعودية وتبرز جهوده حتى في التواصل الإعلامي المبذول حيث له قنوات اتصال من خلال موقع اليوتيوب على الرابط http://www.youtube.com/Masra7iy ومن خلال موقع الفيس بوك، باسم (نادي المسرح) بالإضافة إلى التواصل الجيد مع قسم الإعلام بالجامعة ومع الجهات ذات العلاقة كجمعية الفنون وأمانة الرياض وغيرها وقد جرى تكريم القائمين عليه من قبل وزارة الثقافة والإعلام في احتفالات يوم المسرح العالمي لعام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م). وقد صدر في شهر جمادى الآخرة ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) العدد الأول من مجلة دراما التابعة لنادي مسرح جامعة الملك سعود، (وهي مجلة دورية تصدر نهاية كل فصل دراسي)، ويكفي هذا المسرح فخراً أن يكون نقطة انطلاق أبرز الممثلين السعوديين وفي مقدمتهم: الدكتور بكر الشدي - رحمه الله - وعبد الله السدحان، وناصر القصبي، والدكتور راشد الشمراني، ويوسف الجراح، وغيرهم كثير.

على التيار المحافظ الذين لم يرض بعضهم مثل ذلك التغيير، فكانت ردة الفعل بقيام أحدهم بالأذان أثناء أدائه (القصبي) إحدى المسرحيات في دور منفرد (مونودراما) ويضيف بأن المسرح الجامعي «اختطف» بعد جيله؛ فلا موسيقى ولا دراما حقيقية.[١]

ومن يقرأ كلامي ربما يظن أن لا جهود تبذل من قبل المعنيين بالمسرح في المملكة، وربما أرجع الإخفاق إليهم وحدهم، والحقيقة - وبكل تجرد - أن المسرحيين بريئون من هذا التقهقر المطبق على المسرح السعودي، وبكل صدق فهم يبذلون جهوداً خارقة رغم أن جلهم تقريباً من الهواة ومحبي هذا الفن،[٢] ولكن تلك

(١) من حوار أجراه المذيع سعود الدوسري في برنامج نقطة تحول وعرض على شاشة (إم بي سي) في شهر شعبان ١٤٣١هـ (٢٠١٠م).

(٢) يذكر المخرج المسرحي الأستاذ سمعان العاني أن عدداً كبيراً من المسرحيين العرب يعترفون بأن جوائز المهرجانات يجب أن تعطى للمملكة دون منازع؛ لأنهم لا يتصورون أن يكون هناك مسرح في ظروف غير سليمة وغير مكتملة العناصر، ولا تتوافر امكانات الإبداع المسرحي، والجميع هواة وليسوا محترفين، ومع هذا ينحتون الصخر من أجل إيجاد مسرح واستمرار تواجده. (حوار نشر في صحيفة الجزيرة العدد ١٠٠٩٤ بتاريخ ١٤٢١/٢/١٤هـ) (٢٠٠٠م). وأرى أن هذه الشهادة حقيقية فالبيئة التي يعمل بها المسرحيون لدينا غير صحية على الإطلاق وغير مشجعة ومع ذلك فما يقدم وإن كان أقل بكثير جداً من الطموح إلا أنه يستحق الإشادة؛ نسبة للظروف المحيطة والمتاحة التي أوجزت في حديثي عنها ولم أسهب، وإلا فأهل المسرح يعلمون الكثير، وكشواهد على البيئة غير الجيدة التي يعيشها المسرحيون والتي تسبب أولى حالاتها في استسلام أحمد السباعي وتخليه عن مشروعه الذي تطرقت إليه، رغم ما تكبده من خسائر مالية. إضافة إلى هجرة الفنانين الكبار من أمثال القصبي والسدحان وغيرهم خشبة المسرح وإرجاعهم ذلك إلى البيئة غير الجيدة التي تحف هذا النوع من الفنون، ولعلي أستشهد بما ذكره القصبي في حوار جرى معه في برنامج نقطة تحول عرضته قناة (إم بي سي) في شعبان ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) حيث يذكر بأنه قدم منذ ١٥ سنة مع السدحان وراشد الشمراني مسرحية باسم «قرموش وطرطوش» للأطفال، ويضيف: طفنا بها المملكة كلها، وفوجئنا بعدم وجود الجمهور ذات مرة في إحدى المدن، فسألنا وعرفنا أنه تم منع البنات، فلم يتمكن الآباء من الدخول، وقررنا وقتها عدم إكمال المسرحية». وإن كنت أظن بأن مثل تلك الحادثة لا تعفي القصبي ولا غيره ولا تبرر لهم هجرة المسرح، ولكني أوردها فقط كشاهد على ما يدور خلف كواليس المسرح من معوقات لا يراها المشاهد العادي. بالإضافة إلى ذلك ما جرى في شهر ذي القعدة ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) قبل عرض مسرحية (وسطي بلا وسطية) التي كانت مجدولة ضمن الأسبوع الثقافي الأول في كلية اليمامة، حيث اعتلى مجموعة من مثيري الشغب خشبة المسرح وحاولوا الاعتداء على المثلين، ولولا تدخل رجال الأمن في الوقت المناسب لحدث ما لا تحمد عقباه. ويذكر أحد أبطال المسرحية الفنان إبراهيم الحساوي: بأنه هوجم وشتم من قبل أحد الأشخاص في عرض سابق لنفس المسرحية، ولكنه لم يتوقع أن يصل الأمر إلى الاعتداء المباشر وإيقاف المسرحية، ويبرر تلك التصرفات بأنها محاولة لإفشال المهرجان من قبل أشخاص ضد كل ما هو ثقافي أو حضاري أو جميل، فلو كانوا يملكون مبدأ لانتظروا المسرحية حتى تنتهي ثم بعدها ليبدوا =

الجهود أشبه ما تكون ببداية كرة القدم لدينا حين كان اللاعب مستعداً أن يدفع من جيبه الخاص في سبيل إنجاح فريقه، حتى قيض الله لهم من اهتم بهم ووضعت الميزانيات الضخمة وقبل كل ذلك الاهتمام الرسمي من أعلى سلطة في هذه البلاد، بالإضافة إلى الاهتمام الإعلامي الرهيب كل ذلك أدى إلى نتائج طيبة رغم أنها أقل من الطموح، ولكن نستطيع القول أن لدينا رياضة في المملكة رغم أننا لم نحقق ميدالية أولمبية ذهبية واحدة، وهذا لم يمنع الجماهير من المتابعة واللهث وراء الفرق للتشجيع والمؤازرة واستمتاع المشاهد بما يقدم بشكل عام رغم أن المكتسبات أقل من المأمول ـ كما أسلفت.

أما المسرحيون فما زالوا وحتى الآن لم يجر عليهم ذاك التغير الملفت للانتباه فحاضرهم ليس بعيداً عن بدايات أسلافهم، من حيث الدعم والاحتفاء وحتى كمية الإنتاج، وهذا لا يتعارض مع القول أن هناك جهوداً تبذل ومحاولات للتصحيح مدعومة ـ على استحياء ـ من جهات رسمية تأتي أمانة الرياض التي يفترض أن لا علاقة لها بالدعم المباشر الكامل لتسبق جهات يفترض أن تكون سباقة وتتخذ إجراءات تصحيحية حقيقية وتلك الجهات تتمثل في ثلاث: (وزارة الثقافة والإعلام، وزارة التربية والتعليم، وزارة التعليم العالي) وما لم تتضافر جهود تلك الجهات مع الاستعانة بجهات أخرى كالأمانات البلدية لتسهيل الصعاب وتقديم كافة المساعدات للمعنيين، فلن يتغير حال المسرح، وهذا لا يعني أن تتولى الأمانات البلدية كل شيء، التي يجب أن أتقدم لها بجزيل الشكر، وأخص أمين

= انتقاداتهم إن كان لديهم انتقاد، ولكن عن طريق الحوار وليس العنف وتكسير المسرح والديكور ومهاجمة الممثلين والجمهور. أما عميد كلية اليمامة ومؤلف المسرحية الدكتور أحمد العيسى فيذكر بأنهم حاولوا إيقاف المسرحية بحجة تضمينها الموسيقى، أو بسبب ما نقلته بعض وسائل الإعلام ومواقع الإنترنت أن المسرحية تتضمن حضوراً رجالياً ونسائياً، على الرغم من أن الحضور النسائي كان منفصلاً تماماً عن الرجال كالعادة في مثل هذه المناسبات. (تناقلت وسائل إعلامية مختلفة تلك الواقعة، ونقلت شيئاً مما أورده موقع العربية نت الذي نقل عن صحف الجزيرة، وعكاظ، والوطن) وهذه الحوادث التي أوردتها بإيجاز أعدها شواهد على ما يتعرض له المسرحي السعودي وكدليل على أن البيئة غير صالحة للإبداع، وما لم يتم استصلاح الأرض وتهيئتها لتقديم عمل مسرحي يليق بالمجتمع السعودي، وإلا فإن الظروف الحالية لن يتمخض عنها أكثر مما نرى.

منطقة الرياض الأمير الدكتور عبد العزيز بن محمد بن عياف آل مقرن، الذي أدين له بالفضل أن جعل لي ولأبنائي[1] متنفساً غير منتزهات (صحاري) الثمامة،

(١) أتمنى هنا لو قلت أسرتي! وقد تتمعر (قلة) من الوجوه بسبب تلك الكلمة، (قبل التفكير بعقلانية، وبعيداً عن الأدلجة السالفة، أما بعد التفكير الجاد فأظنها ستقبل ما أقول) ولكني أقول حقيقة ما المانع من ذلك، خاصة في مثل القاعة الكبرى في مركز الملك فهد الثقافي، يمكن معها تخصيص مكان للنساء، بحيث تخرج الأسرة بأكملها وتشاهد المسرحية وتعود معاً تناقش وتتندر على بعض ما جاء في مشاهداتهم، وهذا أفضل من الحزن الذي أجده يعتري ملامح بقية الاسرة حين ندخل نحن الذكور نضحك ونتندر على ما شاهدنا ليلة الإجازة الأسبوعية، بينما نصفنا يضع يده على خده فلا هو بالذي خرج ليترفه، ولا حتى ظفر بمعية بقية أسرته يسامرهم ولو بين جدران المنزل، وحديثي هذا ليس فيه تكلف فقد حضرت وأسرتي دورات وندوات معاً، الرجال في مكان منفصل عن النساء، وذهبنا إلى المطعم معاً وبجانبنا أسر مثلنا، وركبنا الطائرة معاً طفنا بالبيت الحرام معاً، فا المانع أن نحضر مسرحية معاً تحكي همومنا وتسهم في حل مشاكلنا وترينا كأسرة واحدة أن ما يدور على خشبة المسرح، هي نفس المواقف التي عايشناها أجاد بعضنا في حلها بينما آخرون قد تسعفهم تلك العروض في الارتقاء بطرق المعالجة. وأنا أكتب هذه الأحرف على يقين من وجود بعض من يختلف معي ولكني أطلب منهم التفكير بمنطق وعقلانية بعيداً عن العواطف واجترار أفكار واهية ومآلات لا حقيقة لها، والظن بأن حضور الأسرة لمشاهدة العرض المسرحي سيقود إلى مهالك، وسيفتح أبواباً للفساد لا حدود لها. وأنا أجزم أن أي عمل يكون مقروناً بالضوابط والتوعية سينجح لا محالة، أما من يعترض لمجرد الاعتراض فأنصحه بدراسة الموضوع بشكل متأن وعقلاني بعيداً عن الأحكام المسبقة، ثم يبرز مكامن الخلل في حضور الأسر إلى المسارح حسب الضوابط الشرعية، ودون إخلال بإي منها، أما من يقول بأن مثل هذه الأمور من باب التسلية والعبث ومضيعة الوقت، فأقول هذا رأيك ومن حقك استغلال وقتك بالطريقة التي تناسبك، أما الآخرون فمن حقهم عيش حياتهم وممارسة ما يشاؤون والترفيه عن أنفسهم بالطريقة التي تناسب، إن لم يكن هناك محاذير شرعية، خاصة وأن حكم التمثيل بعمومه من الأمور التي رجح في حكمها الإباحة على الرغم من وجود بعض الآراء التي ترى حرمتها، وقد تحدثت عن ذلك في هوامش سابقة بشكل فيه شيء من التفصيل لتوضيح الصورة كاملة في هذه المسألة. كما أن حضور الأسر (رجال ونساء) للفعاليات والأنشطة المباحة كالمعارض والأسواق والمهرجانات وغيرها من الأمور المسلم بجوازها، وفق ضوابط شرعية واضحة ومحددة ومتزنة. وقد سئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رحمه الله - في برنامج (نورٌ على الدرب) عن السينما والمسرح وحكم الدخول إليها من المسلم هل هو جائز أم لا؟ فأجاب رحمه الله إجابة منشورة على موقعه على الإنترنت نصاً وصوتاً بقوله: «هذا فيه تفصيل إذا كان المسرح والسينما فيها شيء ينفع المسلمين ويوافق الشريعة كمسرح لما يتعلق ببيان الحق ونشر الحق وبيان ما درج عليه سلف الأمة ونحو ذلك أو سينما لإيضاح الحق في مسائل تهم الناس ليس فيه عريٌ ولا فساد ولا اختلاط ولا أغاني ولا أشبه ذلك من المنكرات؛ فهذا لا بأس إذا كان خالياً مما حرم الله -عز وجل- وإنما أقيم لمصلحة إسلامية أو لمصلحة مباحة كإبانة صنعات نافعة أو أشياء مما تهم المسلمين وتنفعهم في دينهم ودنياهم بغير محذور من دون اختلاط الرجال بالنساء من دون أغاني وملاهي من دون شيء محرم، أما السينمات المعروفة والمسارح المعروفة التي فيها اختلاط رجال ونساء أو فيها الأغاني والملاهي أو فيها عري النساء أو فيها غير ذلك مما حرم الله فهذا منكر لا يجوز؛ فلا يجوز دخولها ولا المشي إليها ولا الرضا بها هذا يجب إنكاره». فالمانع إذاً من حضور الأسرة لتلك المسرحيات وفق الضوابط الشرعية التي تكفل عدم الوقوع في المحاذير.

والمطاعم، وملاعب كرة القدم، حيث قامت أمانة الرياض مشكورة بتنظيم عددٍ من المسرحيات الجميلة التي كانت محل تقدير جميع الحاضرين الذين أبدوا ردة فعل جيدة من خلال حضورهم وتفاعلهم، بل إني لا أبالغ حين أقول إن بعض المسرحيات المعروضة، لم أتمكن وغيري كثير من حضورها؛ بسبب امتلاء قاعة العرض، وتخيل أنك تتكلم عن قاعة الاحتفالات الكبرى في مركز الملك فهد الثقافي التي تستوعب حوالي ثلاثة آلاف شخص، وكيف سيكون شعور الممثل حين يقدم عرضه أمام هذا العدد أو لنقل نصفه، أو حتى ربعه، وذاك الحضور يعود إلى سبب رئيسي يتمثل في الحملة الإعلانية المنظمة التي تسبق كل مسرحية لدرجة لا تمر في أيٍ من طرق الرياض إلا وتجد ما يشير إلى وجود العرض المسرحي، الذي تجد معه مُتعة تخرج بعدها ولديك شعورٌ بالرضا أن النصف ساعة التي أمضيتها في الطريق من أقصى شمال الرياض إلى المركز في أقصاه الغربي لم تذهب هباء، وأن ما شاهدت من عرض يستحق أكثر من ذلك، خاصة وأن تلك العروض مجانية ومدعومة بالكامل من الجهة المنظمة؛ من باب ليس تشجيع المسرح فقط، بل إيجاد متنفس لأهالي مدينة الرياض، وأجدني أكرر الشكر مرة أخرى لأمانة الرياض على تلك الجهود.

والمسرحيون يستحقون هذا الاحتفاء رغم أنه لا يشبع النهم ولا يوازي الجهود المبذولة منهم المتمثلة بعشرات الفعليات التي ينظمونها ما بين مسرحيات، ولقاءات، وندوات، وورش عمل، ومسابقات، ودورات، وغيرها كثير، وما تبذله جمعيات الثقافة والفنون في معظم مناطق المملكة، بالإضافة إلى ما تبذله جمعية المسرحيين السعوديين،[1] ولكن أقول لهم إن اليد الواحدة لا تصفق، وما لم تتكاتف الجهات الثلاث التي أشرت إليها سلفاً (وزارة الثقافة والإعلام، وزارة التربية والتعليم، وزارة التعليم العالي) فلن يقوم للمسرح في المملكة قائمة، وعلى الرغم من أن

(١) تم تأسيس الجمعية في بتاريخ ١٤٢٨/١١/٢٦هـ (٢٠٠٧م) حين وافق معالي وزير الثقافة والإعلام على إنشائها، عقب اجتماع الجمعية التأسيسية وإقرار اللائحة الأساسية للجمعية. (وكالة الأنباء السعودية). وقد قررت الجمعية اعتبار يوم التأسيس يوماً للمسرح السعودي، يقدم خلاله بعض الأنشطة المسرحية. (صحيفة اليوم، وصحف أخرى).

هناك من يقول إن المسرحيين يتحملون الجزء الأكبر من ركود المسرح السعودي، إلا أني أختلف مع تلك الأصوات، ونسبتهم في الإخفاق ضئيلة جداً، إن لم تكن معدومة؛ فالمسرحي خاصة الأطراف الثلاثة الرئيسيين (مؤلف، ممثل، مخرج) يكفي منهم ما يبذلونه من جهود لإنجاح العرض، وليس مهمتهم إشهار العرض، وعدم العرض تتحمله تلك الجهات فقط، أما أطراف المسرح فليس أثقل عليهم من تقديم عرض لا يحضره إلا أعداد قليلة جداً، فلا يكفي الجهد المبذول، والعرق والتعب، والرهبة، ثم خيبة الأمل بوجود قلة من المتابعين، وفوق ذلك كله يحملون مسؤولية الإخفاق، وهذا والله ليس من الإنصاف، ولو وجدت جهة تدعم كما تفعل أمانة مدينة الرياض لشاهدت واقع المسرح لدينا بشكلٍ أفضل، رغم أن الأمانات ليس مطلوباً منها ذلك كما أسلفت.

أما إن أردنا مسرحاً يليق بالمجتمع السعودي يطرح همومه ويعالجها من خلال خشبة المسرح فيجب أن تبذل جهود لا أقول جبارة، بل جادة وصادقة، وعارفة ولعلي أسوق بعض المقترحات التي أراها مهمة إن أردنا الارتقاء بالمسرح السعودي من خلال متابعتي الشخصية، وبالتأكيد أن المعنيين لديهم آراؤهم المحتجزة بانتظار من يصغي سمعه إليها.

١. أهمية دعم وزارة الإعلام لأطراف المسرح سواء المؤلفين، أو الممثلين، أو المخرجين، وغيرهم واستحداث وظائف في كل منطقة من مناطق المملكة بحيث تكون هناك فرق مسرحية متفرغة لهذا العمل، وقادرة على التنقل بين المناطق لتقديم عروضها دون معوقات.

٢. ضرورة استشعار وزارتي التربية والتعليم، والتعليم العالي، للدور الذي يمكن أن يقدمه المسرح للمجتمع، ووضع الخطط التي تضمن تثقيف المجتمع بأهمية المسرح، وبيان دوره، ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا من خلال إدخال بعض المقررات الدراسية المتعلقة بالمسرح، أو على الأقل إدراج بعض المواد على شكل فصول ضمن المقررات الدراسية خاصة مقررات اللغة العربية بالنسبة للمرحلتين المتوسطة والثانوية، أما على الجامعات فمن المهم فتح

أقسام تعنى بالفنون المسرحية، مع دعمٍ النشاط المسرحي ليكون على مدار العام ومتاحاً لعامة الناس وليس حكراً على طلبة الجامعة فقط، والأهم بذل الجهود اللازمة للتعريف بالأنشطة المسرحية ومواعيدها بحيث يسهل الوصول إلى المعلومة كما يسهل حضور الفعالية إن وجدت.

٣. الأهم من ذلك كله تقديم عروض مسرحية في الفترة الصباحية تكون متاحة للجميع ويحضرها طلبة الجامعات والمدارس بشكلٍ منتظم؛ وذلك فيه ضمان إنجاح العروض من خلال التواجد، ومشاهدةً الطلبة عروضاً تطبيقية لما تعلموه، كما يمكن أن تقدم تلك العروض في الفترة المسائية في الإجازات الأسبوعية والفصلية.

ثالثاً: التلفزيون والقنوات الفضائية:

لم يكن التلفزيون في منتصف القرن الهجري الماضي (الثلاثينات الميلادية) سوى حدث تكنولوجي، ولكن مع توالي الأيام ومعرفة الناس لهذه التقنية تحولت إلى وسيلة جماهيرية تمارس تأثيراً لا مثيل له في حياتنا اليومية، حيث بدأ البث التلفزيوني في عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) وكان عبارة عن تجارب استمرت حتى عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) حين بدأ أول بث منتظم في بريطانيا تبعتها الولايات المتحدة عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م).[١]

لا اريد أن أستفيض بسرد معلومات حول بدايات التلفزيون ولكن لاحظوا معي متى بدأ البث الفعلي للبث التلفزيوني في الولايات المتحدة مقارنة ببداية بث التلفزيوني السعودي عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م)، فخلال تلك المدة التي امتدت إلى ما يقارب ثلاثين عاماً لم يكن جميع سكان المملكة محرومين من تلك التقنية بل كان هناك مناطق سبقت إليها وهذا ما يجعل المملكة مع العراق أول دولتين عربيتين أدخلتا البث التلفزيوني، وإن كان في المملكة مقتصراً على المنطقة الشرقية فقط حيث مقر البث التلفزيوني لشركة أرامكو.

(١) د. مي العبد الله، التلفزيون وقضايا الاتصال في عالم متغير، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).

وتعود بداية البث إلى عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م) حين اقترح الأمريكي هارولد تالبوت الذي كان قد انتدب قبلها بسنتين لزيارة مرافق أرامكو وتفقد أحوال موظفيها الأمريكيين وتلمس احتياجاتهم، فأوصى، ضمن أمور أخرى بإنشاء محطة تلفزيونية، الا ان أرامكو سرعان ما طورت الفكرة لتصبح الفكرة موجهة أساساً إلى المواطن وليس الموظف الأجنبي، ويتأكد ذلك من خلال بثها باللغة العربية. ويذكر الدكتور عبدالله المدني في كتابه حول هذا الموضوع[١]: أن أرامكو سعت لتعزيز دورها الإعلامي والثقافي بالمنطقة عن طريق إنشاء هذه القناة، التي تبث من الظهران ويغطي إرسالها كافة أرجاء المنطقة الشرقية من السعودية[٢]، بالإضافة إلى عدد من دول الخليج، وكانت تهدف من تلك المحطة إلى ثلاثة أمور رئيسية تمثلت فيما يلي:

أولاً: تثقيف المجتمع بإنجازات العصر ومظاهر المدنية والحضارة وصوره الأخرى وما يدور في عوالمه من حراك وإنجازات واكتشافات مع الارتقاء بوعي المشاهد لجهة قواعد السلامة والنظافة وكل ما يقيه من شرور الإصابة بالعاهات والأمراض.

ثانياً: الترفيه عن مجتمع لم يكن وقتذاك يعرف من أدوات الترفيه سوى الجلوس في المقاهي الشعبية أو متابعة مباريات كرة القدم أو الاستماع إلى الإذاعة، إضافة الى بعض الألعاب الشعبية البدائية.

(١) د.عبدالله المدني، الخليج والتلفزيون..القصة الكاملة لأول محطة تلفزيون في الخليج، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥م).

(٢) أذكر بأننا حين كنا نذهب إلى المنطقة الشرقية وتحديداً مدينة الدمام ومحافظتي الظهران والخبر في بدايات القرن الهجري الحالي (بدايات الثمانينات من القرن الميلادي المنصرم) أن أحد أهم وسائل الترفيه في تلك المنطقة كانت وجود تلك القناة بالإضافة إلى إمكانية مشاهدة بعض القنوات الرسمية لدول الخليج العربي القريبة، وكان ذلك من أهم عوامل تفضيل السياحة في المنطقة الشرقية عن غيرها من مناطق المملكة، بالإضافة إلى عوامل أخرى بالطبع.

ثالثاً: تسليط الأضواء على أعمال الشركة وأخبارها وإسهاماتها في برامج التنمية المحلية والتعريف بأهدافها وإنجازاتها.

واستمرت تلك القناة تبث باللغة العربية حتى شمول بث التلفزيون السعودي المنطقة الشرقية وذلك عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) حيث أوقفت البث باللغة العربية وتحولت إلى الإنجليزية تماماً، واستمرت على هذا الوضع حتى عام ١٤١٨هـ (١٩٩٨م) حيث توقف بثها بشكلٍ نهائي بعد انتشار القنوات الفضائية، وربما رأى القائمون عليها انتفاء الهدف الذي أنشئت من أجله، وبهذا أسدل الستار على إحدى أقدم المحطات التلفزيونية في المنطقة.[١]

ويذكر فهمي يوسف بصراوي، (كبير مذيعي تلفزيون أرامكو): بأنه أول سعودي يظهر على شاشات التلفاز حيث كان ذلك مع بداية انطلاق بث المحطة عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م) حين عرضت عليه إدارة القناة أن يكون كبير المذيعين حيث استمر معهم كموظف متفرغ مدة خمس سنوات، كان يقدم خلالها برامج خاصة لمحو الأمية (تعلموا العربية) وكانت حلقاته تذاع ثلاث مرات في الأسبوع، ويضيف: بأن كثيراً من سيدات المنطقة الشرقية تعلمن اللغة العربية قراءة وكتابة عن هذه البرامج وقد وصلتنا رسائل ثناء من كثيرات لأنهن قد تعلمن فك الخط بعد استماعهن إلى البرامج، بالإضافة إلى برنامج لتعليم اللغة الإنجليزية وتعلم الحساب.[٢]

---

(١) كتاب الخليج والتلفزيون (مرجع سابق).

(٢) تحقيق بعنوان (تلفزيون أرامكو بئر العطاء الثقافي) أعده د. عثمان عبده هاشم، وصالح الفهيد، ونشرته صحيفة عكاظ في عددها الرقمي (٢٢٣٨) بتاريخ ٢٠/٠٧/١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).



عربة نقل خارجي خاصة بتلفزيون أرامكو عام ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م).

أعود مرة أخرى إلى نشأة التلفزيون السعودي، حيث إنه وعلى الرغم من وجودٍ تلفزيون أرمكو منذ عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م) إلا أن المملكة كبلد صار يمثل ثقلاً في العالم الإسلامي ظل بلا تلفزة رسمية حتى منتصف ثمانينات القرن الهجري الماضي، حيث جرى بتاريخ ١٣٨٥/٣/١٩هـ ١٩٦٥/٧/١٧م إرسال أول إشارة تلفزيونية من جدة واستقبلتها التلفزيونات غير الملونة التي استمرت كذلك حتى عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) حين أصبح البث بالألوان بدلاً من اللونين الأبيض والأسود.[١]

وليبدأ المجتمع بالتعرف على أشخاص لم يكن يعرفهم من قبل صاروا يقدمون له نوعاً جديداً من الترفيه، وأقصد هنا المذيعين الذين يعد الدكتور بدر بن أحمد

(١) د. محمد أحمد صبيحي، تلفزيون المملكة العربية السعودية ومراحل تطوره، المدينة المنورة، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

كريِّم واحداً من أبرزهم في مرحلة البدايات الأولى؛ والذي كان بالإضافة إلى تقديمه برنامج طلابنا في الميدان، كان أول من علق على مباراة كرة قدم سعودية، حيث يقول الدكتور بدر عن ذلك: في بداية ظهور التلفاز باللونين الأبيض والأسود - بث أول مباراة كرة قدم على الهواء مباشرة من ملعب الصبان في جدة وكانت بين الاتحاد والوحدة، ضمن مباريات دوري كأس الملك فيصل، وتم تكليفي بالتعليق عليها، وكان الأستاذ عباس فائق غزاوي - رحمه الله - مسؤولاً عن الإذاعة والتلفاز، حاضراً تلك المباراة فطلب مني عدم الإكثار من الكلام، وأن أترك للمشاهد متابعة الصورة، فقد كنت يومها أعتمد في أدائي على الكلام، ثم يضيف بأن هناك معلقين تخصصوا في المجال الرياضي من أبرزهم: زاهد قدسي - رحمه الله - ومحمد رمضان، وسليمان العيسى.[(١)]

ومن المذيعين في تلك الحقبة: محمد حيدر مشيّخ، محمد أمين، سامي عودة، محمد أحمد صبيحى، ماجد الشبل، غالب كامل، محمد كامل خطاب، محمد الشعلان، مطلق مخلد الذيابي، فؤاد سندي، عبد الرحمن يغمور، يحيى كتوعه، منير شما، ثم جاء بعدهم مجموعات أخرى منهم محمد الرشيد والوجه المبتسم جميل سمّان وغيرهم كثير[(٢)]. أما البرامج فكان من أبرزها: نور وهداية من تقديم

---

(١) حوار أجرته صحيفة الجزيرة مع الإعلامي المخضرم الدكتور بدر كريم، ونشرته في عددها ١٣١٨٣ الصادر بتاريخ ١٤٢٩/١١/٣هـ

(٢) يطلق على جميل سمّان صاحب أشهر ابتسامة؛ حيث لا تفارقه ابتسامته في جميع الأوقات وبغض النظر عن نوع المادة التي يطرحها سواء كان برنامج ما يطلبه المشاهدون، أو نشرة الأخبار وما يصاحبها أحياناً من حوادث مفجعة، وأذكر أن تلك الابتسامة قد تسببت في حنق كثير من المشاهدين عليه وأنا منهم ففي مباراة أقيمت عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) ضمن لقاءات الدورة العربية التي أقيمت في المغرب بين المنتخب السعودي والمنتخب العراقي، وكان الفائز يتأهل للعب المباراة النهائية وبعد نهاية الشوط الأول، صادف أن حان وقت الأخبار التي كانت تستمر لوقت طويل أحياناً قد يزيد عن ساعة وهذا أمر طبعي في تلك الفترة وبعد نهاية النشرة الإخبارية خرج علينا طيب الذكر جميل سمّان يخبرنا عن الفقرة التالية التي ستكون بالطبع نقل مسجل لأحداث الشوط الثاني من تلك المباراة وكانت إطلالته تلك مصحوبة بابتسامة بعرض الشاشة، فقالت الجماهير المتحمسة إن المباراة انتهت سعودية حيث ربطت الابتسامة بالنتيجة وقطع الجميع أن المسألة وقت فقط، وإلا فالأمور محسومة ولم يكن هناك مصادر للأخبار كما هو متاح الآن فلا قنوات فضائية بديلة ولا إنترنت ولا جوالات ولذلك فمصدر الأخبار كان التلفزيون الذي لا يمكن أن يعلن النتيجة النهائية من باب التشويق، ولذلك فالمتابع كان يستشف النتيجة من=

فضيلة الشيخ علي الطنطاوي، مجالس الإيمان من إعداد وتقديم الأستاذ زهير الأيوبي، ندوة التلفزيون من إعداد وتقديم الأستاذ عباس فائق غزاوى، فكّر واربح من إعداد و تقديم الدكتور عمر الخطيب، عشرين سؤال تقديم ماجد الشبل، مجلّة التلفزيون، العالم في أسبوع تقديم محمد كامل خطاب، من كل بحر قطرة تقديم سامى عودة، برنامج الأطفال تقديم أمين سالم رويحى أو بابا أمين، العلم والإيمان للدكتور مصطفى محمود، برنامج كلمة عتاب للأستاذ خالد زارع، برنامج الطب والحياة تقديم الدكتور زهير السباعي، برنامج البادية من تقديم محمد بن شلاح المطيري وسعد بن حريول، برنامج فوازير رمضان للأطفال ومسابقة رمضان للكبار. وغيرها الكثير من البرامج المنوعة والهادفة والتي أسهمت بالفعل في إحداث نقلة نوعية للمجتمع السعودي بأسره.

ويذكر الدكتور محمد صبيحي: أن الإقبال على الإذاعة قد انخفض بشكلٍ ملحوظ في المناطق التي كان يصلها الإرسال خاصة في ساعات المساء كما قلت حركة مرور السيارات، وقل النشاط الترويحي خارج المنازل؛ حيث صار الناس يفضلون البقاء مع أسرهم لمشاهدة البرامج التي يبثها الوافد الجديد، كما لوحظ قيام مجموعات مختلفة من الأطفال بتقليد شيئ من السلوكيات الجديدة التي شاهدوها عبر شاشات التلفاز، وأنا حين أتحدث عن مشاهدي التلفاز في المملكة فلا أتحدث عن بضعة آلاف بل عن قرابة نصف سكان المملكة بحسب إحصائيات عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) حيث بلغ سكان المملكة سبعة ملايين نصفهم يشاهدون التلفزيون[1]، والنصف الآخر بحسب تقديري الشخصي لا يشاهده وذلك يعود

= ملامح المذيع أو (رابط الفقرات) وبما أن المشاهد لم يتمكن من معرفة ملامح المذيع من حجم ابتسامته فقد قالوا: بأن المنتخب السعودي فائزٌ لا محالة، إلا أن النتيجة النهائية كانت فوز العراق بهديفين مقابل هدف واحد، فصبت الجماهير الغاضبة بسبب النتيجة وبسبب قطع الإرسال على المذيع جميل سمّان الذي كان الحلقة الأضعف في تلك الليلة، ولم يعد للناس حديث غير تلك الابتسامة التي ما يزال كثيرون يتذكرونها حتى الآن، وكاتب هذه السطور منهم.

(١) كتاب تلفزيون المملكة العربية السعودية ومراحل تطوره، (مرجع سابق).

لأحد سببين: إما أن البث لا يصل إليهم وهم قلة ونسبتهم لا تتجاوز ١٠٪ من السكان أما البقية الأخرى فهم يمتنعون عن المشاهدة لأسباب دينية حيث صدرت في تلك الفترة ومع بداية دخول التلفزيون فتاوى تحرم مشاهدته أو الظهور فيه.

ويذكر ناصر الحزيمي: أن جهيمان العتيبي الذي كانت من ضمن آرائه المتطرفة تحريم الدراسة في المدارس الحكومية كان يستقطب بعض الشباب المراهقين الفارين من أسرهم؛ بسبب فشلهم الدراسي الذي أرجعوه إلى اقتناعهم بتلك الفتوى الجهيمانية بالإضافة إلى هروبهم من الفتن الموجودة في منازلهم، ويقصدون بها التلفزيون والصور، وقد كانت الجماعة تقوم بإيوائهم في كل مكان.[١]

وأنا أذكر بأن والدي متعه الله بالصحة والعافية حين قدم من جدة بداية التسعينات الهجرية (السبعينات الميلادية) كان أول من اقتنى التلفزيون في محافظة الرس إلا أنه ولضغوط من بعض أفراد العائلة الذين رأوا حرمة التلفزيون قرر إخراجه من المنزل، رغم أن عائلتي كانت من العوائل المثقفة والمتعلمة والمتابعة إلا أن تأثيرات الفتاوى التي صدرت في تلك الفترة كانت شديدة وتسببت في مقاطعة التلفزيون، ولك أن تدرج آلاف الأسر التي تأثرت بتلك الفتاوى وامتثلت لها.

ولم تكن عملية إخراج التلفاز من المنزل كافية، بل كانت تمتد إلى حضر تشغيل التلفاز أثناء وجود أحدٍ ممن يرى تحريمه، ولهذا فقد تلاحظ أن معظم الأسر السعودية خاصة في نجدٍ والقصيم علىٍ وجه التحديد لا تضع جهاز التلفاز في المجالس وغرف استقبال الضيوف؛ تلافياً للإحراجات التي قد تحصل بسبب الخلافات التي تحدث بين راغبي المشاهدة والممتنعين عنها، وكنا نرى أن الأسرة التي تخالف ذلك أسرة منفتحة وقد توصف بأنها متحررة؛ بسبب عدم اكتراثها بالمعارضين خاصة في تلك الفترة التي بدأ معها ما يسمى بالصحوة بفرض وجودها وهيمنتها على معظم أوجه الحياة في المجتمع السعودي.

(١) ناصر الحزيمي، أيام مع جهيمان..كنت مع الجماعة السلفية المحتسبة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ١٤٣٢هـ (٢٠١١م).

استمر الوضع على هذا المنوال حتى ظهور القنوات الفضائية التي جوبهت بالمعارضات الشديدة وصدرت بحقها فتاوى كثيرة. سوف أتطرق إليها بشيء من التفصيل في السطور القادمة. وصحب تلك المعارضات شيءٌ من التساهل تجاه التلفزيون السعودي الذي كان ما يزال يبث أرضياً تزامناً مع بثه الفضائي؛ حيث رأت كثيرٌ من الأسر الممتنعة أن ما يبثه تلفزيون المملكة رغم ما فيه من مشاهد النساء المتبرجات والأصوات الموسيقية أقل «شراً» (بحسب تعبيرهم) من تلك القنوات الماجنة التي ملأت الفضاء.

تزامن ظهور القنوات الفضائية مع حرب الخليج الثانية (حرب تحرير الكويت) عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) من خلال قناة السي إن إن (CNN) ولم تكن مشاهدتها متأتية لكل أحد؛ حيث كانت تلتقط بواسطة أطباق ما كانت موجودة سوى في بعض القطاعات الرئسية التي لها علاقة مباشرة بالقوات المشاركة في عملية التحرير، ولكن بعد نهاية الحرب مباشرة بدأ ظهور القنوات العربية.

كان أولى تلك القنوات قناة الشرق الأوسط (الإم بي سي) كان ذلك في أواخر عام ١٤١١هـ وتحديداً في شهر ذي القعدة الموافق لشهر يونيو ١٩٩١م أي بعد أربعة أشهر من الإعلان عن نهاية حرب الخليج، واستمرت القناة تبث فترة دون أن يتمكن الناس من مشاهدتها؛ وذلك بسبب ندرة وسائل التقاط البث بالإضافة إلى غلائها. وأذكر في أواسط عام ١٤١٢هـ (١٩٩٢م) حين كنت أعمل في مطار الملك خالد الدولي أتى إلي أحد رجال الأعمال وقال لي بأنه بدأ يعمل على توريد جهاز عبارة عن هوائي شبيه بالهوائي القديم الذي كان يستخدم في التقاط القناة السعودية الأولى والثانية التي تبث أرضياً ذلك الوقت وأخبرني بأن سعر ذلك الهوائي بعد الخصم (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف ريال سعودي فقط لا غير وأن هذا الهوائي يمكنه استقبال قناة (إم بي سي) بالإضافة إلى القناة المصرية، وبدأ يقنعني بأن أقتنيه على الفور وأن لا أضيع الفرصة وأن بإمكاني أن أقوم بتزويد جيراني بسلك لمشاهدة القناتين مقابل رسوم شهرية بحيث يكون جهاز الاستقبال

لدي ومن يريد تغيير القناة يتصل ويقول من فضلك نريد إم بي سي ثم يتصل آخر ويقول لوسمحت ارجع إلى القناة المصرية فنحن نتابع برنامجاً يهمنا، وبعد لحظات الخيال تلك قلت له: اللّه لا يهينك أعطيك (٢٠٠٠٠) ريال وارحمني من أفكارك.

بعد ذلك بأشهر قليلة أتاني أحد الأقارب وكان يشتغل في ورشة في صناعية الرياض وبدأ يحدثني عن القنوات الفضائية وأنها مربحة وأنه هجر وعمّاله في الورشة مهنة إصلاح السيارات وانشغلوا بتصنيع الأطباق حيث تبدأ قيمة الطبق مع ملحقاته من (٧٠٠٠) سبعة آلاف ريال لتصل إلى (١٢٠٠٠) و(١٥٠٠٠) ريال مع التركيب طبعاً. وأضاف: بأن كثيراً من الورش هناك صارت تشتغل بهذا العمل ولا يستطيعون تلبية طلبات السوق (بحسب تعبيره)، ونصحني بشدة أن أقتني جهازاً على الفور، وأنه سوف يمنحني سعراً خاصاً لم يمنحه لأحدٍ قبلي (٥٠٠٠) خمسة آلاف ريال فقط وحين أشعرته بموافقتي أتاني بعد يومين لتركيب الجهاز مع طبق يبلغ قطره (٣م) وحين انتهى قال لي: بأن أجهزة الاستقبال نفدت من السوق وأنه باعني الجهاز الخاص به؛ لأنه نصحني فاستجبت لنصيحته ولا يريد أن يخيب ظني فيه بعد أن وعدني بتركيبه في أسرع وقت.

ويعود ذلك بالطبع إلى صعوبة توريد أجهزة الاستقبال حيث لم يكن بإمكان أي شخصٍ إدخالها وذلك بسبب وجود معارضة شديدة وفتاوى وحملات من الأغلبية إن لم أقل جميع رجالات الدين وطلبة العلم ضد ذلك الوافد الجديد الذي كان يسمى بالبث المباشر وكانوا يهددون المجتمع ويحذرونه من شره قبل مجيئة بعدة سنوات.

كما أسلفت لم يبق شخص من المحسوبين على التيار المحافظ لم ينتقد القنوات الفضائية ويندد بها، وكم سمعنا من محاضرات في المساجد تحذر منها، وكم قرأنا من منشورات وكتيبات وملصقات لدرجة أن كثيرين ركبوا الموجة فامتنعوا ليس

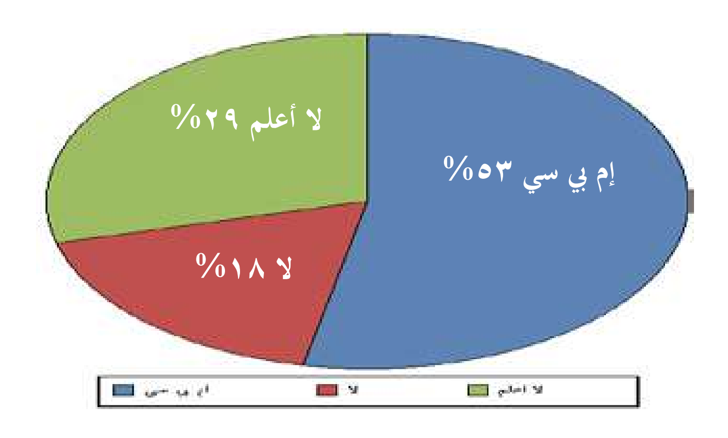
إيماناً بحرمته بل خشية من ردود أفعال جيرانهم وأهاليهم والقريبين منهم فيما لو أدخلوا الدش، وأنا لا أقول هذا الكلام جزافاً بل أعرف أشخاصاً لو سألتهم بعد مرور كل تلك السنوات لأرجعوا أسباب تأخرهم في اقتناء أجهزة الاستقبال إلى تلك الدعوات التحريضية ضد القنوات الفضائية ذلك الوقت، وهناك من أقتناه ولكنه لم يكن يصرح بذلك، بل وصل ببعض المقتنين أن لا يتردد في ذم من أدخل الدش كل ذلك من أجل أن يظهر نفسه بمظهر الشخص المستقيم؛ خاصة وأن من لم يكن يشارك في الذم والانتقاد سوف يُظن به الظنون، وهذا لا يعني أن كل من اقتنى تلك الأجهزة كان يخشى ردود الأفعال، بل على العكس كان هناك من لم يبال بأحد وكان ينافح عن أفكاره ويبرئ أجهزة الاستقبال من ما يطرح في المحاضرات والمجالس الخاصة حولها، أما أنا فكنت أحتفظ بما ينشر ومنها منشورات للشيخ سلمان العودة، والشيخ عايض القرني، تحذر من «الدشوش» وأقول سيأتي يوم يكتشف فيه أصحاب تلك المنشورات أنهم بالغوا في التهويل والتخويف من مخاطر تلك القنوات.(١)

وسبب نظرتي إلى أن الحرب على الفضائيات لن يطول عائدٌ إلى أننا حديثوا عهدٍ بحرب شبيهة شنت على جهاز الفيديو واستمرت عشر سنوات ثم حين بدأت المسرحيات والأناشيد والمحاضرات والمناظرات خاصة تلك الخاصة بالداعية أحمد ديدات ـ رحمه الله ـ تسجل على أشرطة الفيديو صار الناس يتقبلون الفكرة ويحسنون الظن في من يقتنيه، ليس لأنه قد يشاهد من خلاله المباحات، ولكن لأنهم صاروا في الهوى سواء فصار كلا الفريقين يقتني الجهاز ومن الصعب انتقاد أحدهما الآخر.

(١) لا شك أنه مع انتشار القنوات الفضائية انتشرت بعض التصرفات المستهجنة والعادات والسلوكيات غير المرغوبة، ونفس الأمر ينطبق على الإنترنت والهواتف الجوالة وغيرها من وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، ولكن ردة الفعل تجاهها لا ينبغي أن تكون بمحاربتها ولكن من خلال استغلالها وتوجيهها وفي نفس الوقت التحذير مما فيها من شرور ومفاسد، أما مسألة عسف الناس على هجران ما لا تريده فئة بعينها فهذا غير ممكن ولا يصح لأحدٍ أن يوجه المجتمع بأكمله للأخذ بقولٍ واحدٍ فقط لا يستند إلى دليل شرعي مجمع عليه.

حديثي هنا لا يفهم منه التسليم بأن كل ما تبثه تلك القنوات جيد ومناسب لمجتمعنا، فمن يدعي ذلك، فهو يبتعد كثيراً عن جادة الصواب، وكما أسلفت وسبق أن قلت وأكرر في هذا الموضع بأن بعض قنواتنا خاصة ما يستهدف الأطفال أشد خطراً من القنوات الأجنبية، وهنا يأتي دور الآباء، حيث أني أرى ضرورة معرفة أولياء الأمور ما تبثه تلك القنوات في منازلهم، ولكن مما يؤسف له أن كثيراً من أولياء الأمور لا يعلمون ما يتلقاه أولادهم، ليس عبر القنوات الفضائية فقط، بل حتى من خلال أجهزة الهواتف الجوال التي بين أيديهم، وما يرسل عبر تقنية البلوتوث، أو من خلال رسائل الوسائط، وهذا ما «تظهره» (كمؤشر) استبانة ميدانية أجريتها في محافظة جدة شملت مئة أسرة كل واحدة منها تتألف من أحد الوالدين وأحد الأولاد ممن يدرسون في إحدى المرحلتين المتوسطة أو الثانوية، حيث كانت الاستبانة موجهة إلى (الابن/البنت) وأخرى شبيهة بها موجهة إلى (الأب/الأم) بحيث كنت آخذ كل واحد منهما على حدة وأطلب منه تعبئة الاستبانة التي كانت أسئلتها تطرح بنظام المقابلة أيضاً بحيث أحصل على الإجابة الدقيقة، وأضمن في نفس الوقت أن الوالد لا يمكنه معرفة إجابات ولده أو الاستفادة منها.

وقد جاءت النتائج محزنة في بعض الجوانب واتضح أن معظم الآباء والأمهات لا يعرفون الكثير عن أولادهم ولا عما يفعلون داخل منازلهم، فلا نوعية القنوات التلفزيونية التي يشاهدها الأولاد معلومة لكثيرٍ من الآباء، ولا مواقع الإنترنت التي يتم تصفحها، ونفس الشيء ينطبق على الهواتف الجوالة، والألعاب الإلكترونية، أما أكثر ما أسفت له فهو ما يتعلق بالإجابة عن السؤال الثامن الموجه إلى الآباء ونصه: (هل هناك قنوات موجهة للأطفال تهدف إلى التأثير سلباً على قيمهم وثقافتهم الإسلامية والعربية؟)، حيث جاءت النتائج كما يلي:



حيث يرى ٥٣٪ من الآباء (أب، أم) ممن يشاهد أولادهم قناة الإم بي سي الثالثة (الموجة إلى الأطفال والمراهقين) والتي تستأثر بـ ٧٢٪ من الأطفال والمراهقين محل البحث (بحسب نتائج نفس الاستبانة)، أنهم شاهدوا أو سمعوا ما يدل على خطر تلك القناة على القيم الإسلامية والعربية وهو ما يمثل ٣٣٪ من المبحوثين. توقف هنا وتمعن في هذه النسبة (٥٣٪) ممن يشاهد أولادهم هذه القناة يظنون بأنها تمثل خطراً على القيم! وحين سألتهم عن دورهم في توجيه أبنائهم كانوا جميعاً يعترفون بالخطأ ويلومون أنفسهم على التقصير، لكن دون اتخاذ أي إجراءات تصحيحية، رغم أن منهم من وعد بالالتفات إلى ذلك.

ويرى ١٨٪ ممن أجابوا عن هذا السؤال عدم وجود قنوات تشكل خطراً على القيم الإسلامية وهو ما يمثل ١١٪ من المبحوثين مقابل ٢٩٪ منهم قالوا بأنهم لا يعلمون أو غير متأكدين من وجود الخطر ومع ذلك فقناة إم بي سي الثالثة الموجهة إلى الأطفال هي القناة المفضلة لدى أولادهم وهو ما يمثل ١٨٪ من المبحوثين، علماً أن نسبة من يشاهدون قناة الإم بي سي الثالثة تصل إلى ٧٢٪ من المبحوثين، وبالمقابل فإن نسبة الآباء ممن يرون خطر الإم بي سي على القيم الإسلامية لأطفالهم تشكل ٤٩٪ من إجمالي المبحوثين.

وهذا ما يدل على أهمية إيجاد البدائل المنافسة وبصورة عاجلة، وأذكر بأني كنت من أشد الناس فرحاً بانطلاق قنوات المجد حين كانت الساحة خالية، حيث كنت أنتظر أحداً يعلق الجرس ويبدأ بتفعيل هذا الوافد الجديد ويظهر للناس أن التقنية ليست غير أداة ذات حدين، لا تنفع ولا تضر، ولكن من يستخدمها هو الذي يوجهها ويقرر إن كانت وسيلة هدم أو بناء، وهذا ما فعلته قناة المجد وتحديداً مؤسسها الأخ الفاضل الأستاذ عبد الرحمن الشميمري، الذي نقل المجتمع السعودي والعربي نقلة نوعية كان لها أثرٌ إيجابي نراه حتى اليوم. ومن هنا فأنا أشدد على أهمية الاهتمام بما يتلقاه أولادنا من خلال تلك القنوات الفضائية، فلا يكفي أن يكون مالك القناة محسوباً علينا لنترك له الحبل على الغارب ونمنحه عقول أولادنا ليعبأها بما شاء من مواد إعلامية غير متوافقة مع شريعتنا الإسلامية.

وأرى أن من الواجب علينا عدم التقوقع والانتظار حتى يسبقنا الآخرون ومن ثم ننهض ونبدأ بملاحقتهم كما حدث في مناسبات كثيرة سابقة، ولعلي هنا أستشهد برفض الدولة العثمانية إدخال المطبعة مدة بلغت أكثر من قرنين من الزمن بحجة تحريمها، حتى كانت تلك الفتوى سبباً في تخلف العالم الإسلامي برمته وتقهقره وتفشي الأمية فيه[1]، وأتساءل هنا ماذا لو لم يقم الأستاذ الشميمري بتلك الخطوة؟ هل كان الإعلام الإسلامي سيظل متقوقعاً على نفسه يتداول أشرطة الكاسيت والمنشورات؟، لا أستبعد ذلك.

أما بالنسبة لموقف المشايخ من القنوات الفضائية أو ما كان يسمى بالبث المباشر قبل وفوده، ثم بالدشوش حين ظهرت، فكان موقفاً متشدداً بكل ما تعنيه الكلمة،

(١) يذكر الدكتور سهيل صابان في كتابه الطباعة العربية في تركيا الصادر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض، عام ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م): أن الطباعة في العالم بدأت سنة ٨٣٩هـ الموافق ١٤٣٦م في مدينة ماينز الألمانية على يد جوتنبرك، ثم انتقلت إلى العالم بسرعة، ولم تدخل العالم الإسلامي غير سنة ١١٣٨هـ (١٧٢٦م) ويعيد الكاتب أسباب عدم سماح الدولة العثمانية بدخول المطبعة إلى أسباب دينية تتمثل في الخوف من إدخال تحريفات على الكتب الدينية التي تطبع بالمطبعة، وأسباب سياسية تتلخص في أن الكتاب المطبوع سيسهم في تعليم الشعوب ونشر آراء تدعو إلى التخلص من الحكم العثماني، وغيرها من الأسباب.

فالمشايخ وطلبة العلم كان بعضهم يرى حرمة اقتناء التلفزيون يوم كنا لا نرى سوى القناة السعودية الأولى المحتشمة فما بالك الآن، وكيف سيكون موقفهم تجاه قنوات لن يتورع بعضها عن بث أي شيء في سبيل كسب المشاهد.

وكان فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - من أشد المحاربين لتلك القنوات، بل إنه كان يرى أن مقتنيه غاش لرعيته، ولا يدخل الجنة، مستشهداً بقول النبي ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنه» رواه مسلم، ثم يفسر ذلك بقوله: وهذه الرعيه تشمل الرعيه الكبرى الواسعة والرعية الصغرى، وتشمل رعية الرجل في أهله، لقول النبي ﷺ : «الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته» وعلى هذا فمن مات وقد خلف في بيته شيئاً من صحون الاستقبال (الدشوش) فإنه قد مات وهو غاش لرعيته، وسوف يحرم من الجنه كما جاء في الحديث. ويضيف الشيخ - رحمه الله -: ولهذا نقول إن أي معصية تترتب على هذا (الدش) الذي ركبه الإنسان قبل موته، فإن عليه وزرها بعد موته وإن طال الزمن وكثرت المعاصي، فاحذر أخي المسلم أن تخلف بعدك ما يكون إثماً عليك في قبرك. وما كان عندك من هذه (الدشوش) فإن الواجب عليك أن تكسره وتحطمه؛ لأنه لايمكن الانتفاع به إلا على وجه محرم طالما لايمكن بيعه؛ لأنك إذا بعته سلطت المشتري على أستعماله في معصية الله، وحينئذ تكون ممن أعان على الإثم والعدوان، وكذالك إن وهبته فأنت معين على الإثم والعدوان، ولا طريق للتوبة من ذلك قبل الموت إلا بتكسير هذه الآلة «الدش» التي حصل فيها من الشر والبلاء ماهو معلوم اليوم للعام والخاص، احذر أخي أن يفاجأك الموت وفي بيتك هذه الآله الخبيثة[١].

ونموذج آخر لما كان يثار حول القنوات الفضائية حيث يقول الشيخ سلمان العودة في عام ١٤١٢هـ (١٩٩٢م) محذراً من إحدى القنوات: بأنها تسمى قناة

(١) جاء في خطبة الجمعة الثانية لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - في التحذير من اقتناء الأطباق المخصصة لاستقبال القنوات الفضائية، ١٤١٧/٣/٢٥هـ (١٩٩٧م). ثم قام بعض المجتهدين بنشر تلك الفتوى ونشرها من خلال الملصقات والمطويات.

(إم بي سي) أي الشرق الأوسط يمكلكها رجال من أهل هذه البلاد وتلتقط في كل مكان من هذه البلاد بل قبل فترة كان التلفزيون السعودي يلتقطها ويبث فقرات من برامجها! فماذا في هذه القناة؟ يقولون إن المقصود منها نقل الصورة الإسلامية ونقل الصورة العربية، ولكن ماذا نجد في هذه القناة؟ عروضاً لنساء كاسيات عاريات، وأخباراً من أنحاء العالم، وفلكلوراً من أنحاء البلدان، وقد تجد بها القرآن الكريم، ولكن هذا قليل من كثير، بل هناك قنوات كثيرة أخرى تبث الرذيلة والفاحشة تعرض علناً فهل بلغ الحال بالمسلمين في هذه البلاد الطاهرة بلاد الحرمين الشريفين أن يشتري أحدهم بمئة ألف ريال[1] صحناً أو طبقاً يركبه في بيته يقول أتابع الأخبار فهل زوجتك تتابع الأخبار وبنتك المراهقة تتابع الأخبار وولدك المراهق يتابع الأخبار وأنت تعرف أن ولدك يقضي جل وقته في التفحيط ولا يعرف شيئاً بل إنك لو طلبت منه ذكر عواصم الدول الكبرى ما ذكرها لك ولو طلبت منه ذكر ما يعانيه المسلمون في بعض البلدان لاعتذر بأنه مشغول، ولدك الفاشل الذي رسب في الامتحان تأتي له بهذا من أجل أن يتابع الأخبار، أطفالك تربيهم على عوائد النصارى واليهود وتقول بأني أتابع الأخبار[2]. كنا بالأمس نعرب عن أحزاننا مما يعرض في التلفاز خاصة القناة الثانية وما يعرض بها من أمورٍ لا يرضاها الله ولا رسوله ولا يرضاها المؤمنون لأنفسهم وهي تزداد يوماً بعد يوم

(١) ظهرت أنواعٌ من الأطباق المصنعة خارجياً ذات مساحة كبيرة جداً يصل قطر الواحد منها إلى ستة أمتار ومتحركة بحيث يمكن توجيهها إلى أقمار بعينها كقمر العرب سات والقمر الهندي والقمر التركي والقمر الأوربي وغيرها وهذه كانت مكلفة وتصل قيمة الواحد منها إلى مئة ألف ريال وزيادة، وهناك أقمار متوسطة الحجم تصل قيمة الواحد منها إلى خمسين ألف وتزيد، أما الصغيرة فكانت قيمة الواحد منها عشرين ألف ريال كان ذلك في بداية الظهور ثم بدأ السعر ينخفض تدريجياً بسرعة جداً حتى وصلت الأسعار في غضون سنتين فقط إلى ألف وخمسمائة ريال فقط ثم استمرت في الانخفاض مع تضاؤل حجم الأطباق وتطور أجهزة الاستقبال حتى وصلت إلى خمسمائة ريال فقط واستمرت على تلك الأسعار حتى الآن. وكان للتصنيع الوطني لتلك الأطباق أثرٌ كبير في انخفاض أسعارها فما كان يكلف عشرين ألف يقوم أصحاب الورش في الصناعية بتقليده وبيعه بألفين وهكذا.

(٢) لاحظوا لغة الخطاب ذلك الوقت، وقارنوها بخطاب الشيخ العودة ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) وقبله بسنوات ولاحظوا كيف تغير إيجابياً بشكلٍ كبير.

فإذا بنا نفاجأ بهذا الخطر الداهم الذي يقتحم البيوت من أعاليها فلا حول ولا قوة إلا بالله. إنه موضوع جدير بأن نحاربه من خلال عدة أمورها أولها: مخاطبة المسؤولين بمنع استيرادها ومنع تصنيعها ومنع تركيبها في الأماكن العامة، وإنّ أخشى ما أخشاه أن تصبح موضع تنافس فيصبح صاحب الفندق يستخدم تلك الأطباق لجر مزيدٍ من الزبائن. ثانياً: لابد من التوعية من خلال مخاطبة عواطف المسلمين، فالخطيبُ لابد أن يكون له دور، والمعلم له دور، والأب له دور، وينبغي أن تكثر الكتب والرسائل والمنشورات وغيرها التي تبين للمسلمين الخطر وتكشف لهم حجم الغزو الصليبي الداهم الذي يهدد بيوتهم وأديانهم وعقولهم وأخلاقهم، وإذا فقد المسلم عقيدته فموته خير له من الحياة، والله –سبحانه وتعالى– يقول (والفتنة أشد من القتل) فلأن يبقى المسلم حياً وقد مسخ دينه وأخلاقه فإنه لا خير فيه دنياً ولا آخرة، ولكن أن يموت المسلم دون دينه فمآله إن شاء الله في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عن مليك مقتدر؛ فتخريب عقول المسلمين وأخلاقهم وأديانهم هو أخطر بكثيرٍ من قتلهم ومن إبادتهم ومن انتهاك أعراضهم فلنتفطن لذلك ولننتبه له جيداً[١].

ولاحظ هنا أمرين الأول: أسلوب طرح الشيخ العودة في تلك الفترة المملوء بالتحذير والتهويل والمبالغة وعدم التطرق لإمكانية استغلال تلك القنوات أو التلميح حتى بأهمية الإعداد لإنشاء قنوات بديلة ومنافسة لما يبث، تؤدي رسالتها في الداخل وتصل إلى الخارج، فهذه اللغة مغيبة تماماً، وحتى لو تفتقت الأذهان ورأت أهمية مثل ذلك الأمر، فلن يستطيع أو بالأحرى لن يتجرأ أحدٌ على البوح بمثل تلك الأفكار، حيث تعودت النفوس على المنع فقط كوسيلة للتعاطي مع أي جديد.

(١) هذا مقتطف من محاضرة بعنوان (حديث الركب) للشيخ سلمان العودة ألقاها بتاريخ٢٢/١/١٤١٣هـ (١٩٩٢م)، وهي الدرس (٦٤) من سلسلة الدروس العلمية العامة. وتم تداول ما جاء بها من خلال أشرطة الكاسيت ونشر ما يتعلق بالحديث عن البث المباشر من خلال مطوية وأحتفظ بنسخة من المحاضرة كاملة.

الأمر الآخر: التغير الجذري للشيخ العودة من محارب لتلك القنوات وخاصة (الإم بي سي) إلى متعاون مع القناة نفسها ومالك لأكثر من قناة فضائية، وهذا أراه تحولاً إيجابياً وضمن تلك التغيرات الحسنة التي ينبغي الاستئناس بها كدليل على قابلية أهل العلم للانتفاع بالمستجدات متى بحثوا مسألة الجدوى بتجرد وبعيداً عن الأحكام المسبقة والعواطف والأهم من ذلك أن ينزعوا الخوف من ردود أفعال المحيطين بهم خاصة من المتشددين الذين يقيسون ورع الشخص وتقواه بقدر تصلبه وتزمته وتفننه في تحريم ما أباح الله من باب سد الذرائع، مع أنه قد يدخل في قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] دون أي مراعاة لمسألة المصالح والمفاسد مع الاستشهاد بأحاديث صحيحة وآيات قرآنية ولكن في غير موضعها، كما هو الحال مع فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - حين استشهد بحديث غش الرعية وقاس عليه من أدخل الدش في بيته، ونفس الشيء بالنسبة للشيخ العودة الذي استشهد بقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ ﴾[2] ولو بحثت عن العلاقة المباشرة بين الآية والحدث لما وجدت هناك أي علاقة ولكنه شاهد على مخاطبة العاطفة والتلاعب بها مع تحييد العقل تماماً وتعطيله عن التفكير في المسألة ثم ختم الحديث بأن لا خير في حياة المسلم حين يمسخ دينه وهذا الكلام صحيح فلا خير في الحياة حين يمسخ الدين، ولكن لا أحد يتساءل كيف يمسخ؟ ومن سيمسخه؟ وهل اقتناؤنا الدشوش كما كان يردد يعني موافقتنا الضمنية على مسخ ديننا؟، ثم هل كان لدى ممسوخي الدين في الأزمنة السابقة قنوات فضائية تسببت في مسخ دينهم؟، والحقيقة أن أسلوب الخطاب كان يعتمد على المبالغة واختلاق القصص من بعض المجتهدين بغرض الترغيب والترهيب، وهذه وإن كان لها أثر رادع في نفوس بعض الناس، حيث آتت أكلها وألزمت فئاماً من الناس بالانصياع لما يطرح رغماً عن أنوف بعضهم؛ بدليل

---

(١) الآية (٣٢) سورة الأعراف.
(٢) من الآية (١٩١) سورة البقرة.

أن هناك من كان يخفي مسألة إدخال تلك القنوات لبيته خوفاً من ردود الأفعال، وآخرين كانوا يذهبون لأماكن بعينها بغرض مشاهدة ما يبث (مع الحوقلة) بين كل لحظة وأخرى.

أعود وأقول بأنه على الرغم من نجاح الأسلوب العاطفي القائم على الترغيب والترهيب[1]، إلا أن تأثيرها السلبي على المجتمع كان أكبر حيث غرست في نفوس كثيرين مبدأ ما يزال أثره باقياً حتى الآن يتمثل في ميل الناس إلى العاطفة وعدم إعمال العقل وما نتج عنه من سذاجة تظهر في تعاطي كثيرين مع بعض ما ينشر عبر وسائل الإعلام الحالية من إنترنت وفضائيات وسرعة التصديق، فعلى سبيل المثال لا الحصر حين يستقبل شخص بريداً رقمياً مكتوباً به بعض الخرافات ويذيله بأن من ينشر هذه الرسالة فسوف يحصل له من الأجور ما الله به عليم ومن يتجاهلها فسوف يكون حسابه يوم القيامة عسيراً وسوف يجد بوادر العقوبة

(١) الترغيب والترهيب أسلوب رباني سام خاطب الله به ذوي الألباب والعقول؛ لدفع العباد لإتيان ما أمر وانزجارهم عما نهى عنه في أحوالٍ واضحة، أما أسلوب الخطاب الذي كان يطرح فكان يستخدم الترغيب والترهيب في مسائل خلافية وفرعية كان القصد في أغلبها سد باب الذرائع، فليس من المقبول أن تأتي بأدلة غش الرعية على من أدخل القنوات الفضائية لمنزله، فمهما قيل من تبرير ومهما بلغت مكانة القائل العلمية إلا أن لنا عقولاً ويمكننا التمييز في مثل تلك المسائل الواضحة، ونعلم أن هناك من أدخل تلك القنوات وكان بإمكانه التحكم بها، ويعلم كثير من طلبة العلم أن أجهزة الاستقبال منذ أن نزلت الأسواق وبها خاصية الرقابة الأبوية التي تمكن رب المنزل من حجب وحذف القنوات غير المرغوبة، وقد تحكمت وغيري كثيرون بها ولله الحمد والمنة، و في كل مناسبة نبين لأولادنا أن هذا مباح وهذا محرم هذا مفيد وذاك ضار، ولكن المنع لمجرد المنع فهذا غير مجدي ليس في وقتنا هذا فحسب، بل حتى إنه ليتعارض مع الفطرة البشرية السوية، فالله خلقنا في دار ابتلاء ليرى أينا أحسن عملا، أما من يريدنا على قلب رجل واحد فهذا يطلب المستحيل، ولكننا نلجأ إلى المنع وما يتبعه من تهويل وترهيب؛ لأن المنع أسهل الحلول، ولكنه ليس أفضلها بأية حال، وقد سبق أن كتبت حول ذلك في كتابي (هكذا أفكر) ومما قلته: هذا المعتقد مع الأسف موجود عند كثير من الناس، ويعتقدون أن منع الشيء هو الطريقة المثلى لحماية الناس منه، وهذا الكلام غير صحيح على الإطلاق، ويمكنني القول هنا إن المنع هو الوسيلة الأسهل ولكنها بالتأكيد لن تكون الأفضل، وأخالني لا أبالغ حين أقول إنها الأسوأ، فهي بكل بساطة حيلة العاجز، فبدلاً من محاولة توعية المجتمع وتثقيفه بالإيجابيات والسلبيات لمنتج أو برنامج أو مشروع، يقوم بعض المسؤولين بمنعه. وقد استشهدت على ذلك ببعض الأمثلة التي لا يسع المجال لذكرها، ولكنها موجودة في الكتاب المشار إليه.

في حياته وغيرها من التهديدات الواهية، بالإضافة إلى تصديق ما يحدث من معجزات وخصائص بمعنى أن كثيرين صاروا بسبب ذلك الخطاب ميالين إلى الإيمان بالخرافة بأنواعها دون تكليف أنفسهم مهمة البحث عن حقيقة ما شاهدوا وما سمعوا، وهذا كله عائدٌ إلى أسلوب الخطاب مع عدم منح المتلقي حق نقاش ما يطرح ومن يناقش يوضع في خانات قد تجر له الويلات.

وكان قبل ذلك قد تحدث الشيخ ناصر الألباني وأفتى بتحريم التصوير والفيديو والتلفاز إلا لضرورة ملحة[1]. ونفس الشيء قاله سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ حيث كان يرى حرمة التصوير إلا لضرورة، وكان ينهى عن استخدام التصوير بكافة أشكاله حتى في مجالات التعليم.[2] وهناك فتاوى كثيرة حول حرمة التصوير بشكل عام ويدخل فيها التصوير التلفزيوني لعددٍ من العلماء[3].

وهذا نموذج آخر من إحدى المطويات التي كانت تحذر من اقتناء الدش ومما جاء بها: أيها المسلم: لقد فتن بعض الناس ببث القنوات التلفزيونية الفضائية وتسابقوا لشراء أجهزة استقبالها بشكل مخيف وبعدد ينذر بخطر على العقائد والأخلاق. لقد عقد مؤتمر في دولة نصرانية ضم أكثر من (١٠٠) دولة، وحضره أكثر من (٨٠٠٠) منصر، وكلف أكثر من (٢١) مليون دولار.. لماذا؟ لدراسة كيفية الاستفادة من البث المباشر في تنصير المسلمين! وصدق الله ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ (النساء:٨٩). الآية، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها:

(١) شريط صوتي للشيخ الالباني بعنوان (فتاوى جدة، الشريط الأول) سجل في محافظة جدة بتاريخ ١٦/٦/١٤١٠هـ (١٩٩٠م).

(٢) فتاوى منشورة في أشرطة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ وفي موقعه على الإنترنت.

(٣) ارجع إن شئت لكتاب (الإبراز لأقوال العلماء في حكم لتلفاز والتصوير الفيديوي وحكم خروج الدعاة في هذا الجهاز المرئي والإجهاز على شبهات من يقول بالجواز) وهو عبارة عن بحث مشتمل على فتاوى متفرقة لمجموعة من العلماء وطلبة العلم، من إعداد أبي عبد الله لقمان بن أبي القاسم الآجُري، وحين تقرأها ستجد أن عدداً غير قليل من الناس في مجتمعنا كانوا يعملون بتلك الفتاوى ثم هجرها كثيرٌ منهم، بل وصار بعضهم ينكر على من يعمل بها وهذا شكلٌ من أشكال التغير المجتمعي والتكيف مع المستجدات وتقبلها وإن تباطأت عجلة التغيير إلا أنها تفرض نفسها في نهاية الأمر.

«لشدة عداوتهم يودون لكم الضلالة لتستووا وإياهم فيها». وصدق الله ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (آل عمران:١١٨). فيا أيها المسلم: أيسرك أن يكون منزلك مسرحاً يستقبل عبر شاشتك الكفر والإلحاد، وتشاهد من خلالها الأفلام الداعرة والقنوات المتحللة والساقطة، وتعرض فيها كؤوس الخمر وصور العاهرات والفاجرات من خلال المسلسلات وعرض الأزياء؟ أترضى بذلك لك ولأهلك؟ إن كان الجواب: نعم: فكبر على نفسك أربع تكبيرات.. فأنت في عداد الأموات ولا تنس وقوفك يوم العرض أمام جبار السماوات والأرض. وإن كان الجواب: لا - لكنني أتحكم فيه من خلال (الريموت كنترول!) فاعلم أن هناك من أخذ التلفاز قديماً بحجة التحكم فيه فعجز، ثم أدخل الفيديو وزعم محاولة السيطرة على استخدامه فيما يفيد ففشل، ولذا فأهل الدشوش أعجز وأعجز ألف مرة عن التحكم فيه[1].

وبالفعل اللهم إني لا أعترض مطلقاً على ما جاء في الآيات التي استشهد بها الأخ كاتب المطوية، ولكني أعترض على المطالبة بتقوقعنا في ركن قصي ضعيف وإغفال مسألة أن غيرك يرى أن من حقه نشر ثقافته، فأنت أيضاً لك الحق في غزوه من خلال هذه الوسيلة الفاعلة وتعميم ثقافتك «الربانية» رغماً عنه وبنفس السلاح الذي ابتدعه وبدأ يستخدمه في السعي لزعزعة ثوابتك كما يزعم (يمكنك قراءة يزعم بفتح الياء وضمها بما يناسبك) وكان يمكننا أن نستخدم أسلوب التوعية في كيفية حماية أنفسنا من هذا الوافد وفي نفس الوقت كيفية استغلاله في نقل ثقافتنا ونشر ديننا خاصة وأننا أهل الحق وتعلمون أن الحق حين يلاقي الباطل ينتصر عليه، بل ويميته دماغياً ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾[2]

لم يترك الأخوة المجتهدون في محاربة القنوات الفضائية وسيلة إلا واستخدموها؛ بغرض التحذير من تلك القنوات فالمحاضرات والأناشيد وخطب الجمعة والمطويات،

(١) مقتطف من مطوية نشرتها دار القاسم بعنوان: (لماذا نخشى الدشوش؟).
(٢) الآية (١٨) سورة الأنبياء.

والملصقات، وفي جميع الملتقيات بل حتى الشعر النبطي استخدم وفي ذلك يقول أحد شعراء النبط:

يالمسلم أنا أوصيك لا تشري الدش
آلة خطر مامن وراها فوايـد
آلة ترش السوء من صحنها رش
والحر مـا يرضى بدرب الفسايد
واللي يبي يرضى على أهله الغش
ما يشم ريح الجنة أم السعـايـد
وإن كان قصدك تسمع أخبار بالقش
فالرادي الأخبار قبل الجرايـد

استمرت حملات التحذير مستمرة ولم تفتر همة الأخوة المعارضين من الذهاب بين الفينة والأخرى إلى المسؤولين والمعنيين بغرض إصدار الأوامر التي تؤكد على حظر تلك الأطباق ومنع بيعها من الأسواق، خاصة وأن التحذير عبر الفتوى والمحاضرة والقصيدة لم يكن مجدياً، وبالفعل كان لهم ما أرادوا حيث صدرت بعض التعاميم من جهات رسمية على فترات متفاوتة بدءاً بمنع استيراد وبيع الأطباق الفضائية إلى منع بيع أجهزة الاستقبال الداعمة للبطاقات الخاصة بالقنوات المشفرة، وبالمناسبة فبعضها ما يزال سارياً حتى الآن، وتقوم بعض الجهات على الأخص هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمصادرة أجهزة الاستقبال المزودة بالبطاقات استناداً لتعميم صدر عام ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م) ومما أذكره حول ذلك في رمضان عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م) صدر أمر يتعلق بمنع استيراد تلك الأطباق وبيعها في الأسواق، وفي نفس اليوم هطلت أمطار متوسطة على مدينة الرياض فقام أحد الأخوة الدعاة وتحدث وربط نزول المطر بصدور ذلك القرار.

ثم صدرت قرارت أخرى منظمة لعملية البيع وهكذا استمر الحال حتى ظهرت قنوات المجد التي كانت قفزة هائلة طال تأثيرها شرائح كبيرة ومتنوعة من المجتمع

بدءاً بشرائح أدخلت تلك الأطباق أول مرة، بعد أن كانت ترفض الفكرة وترى أن كلمة دش مرادفة لكلمة رذيلة. أيضاً شهدت تلك الفترة دخول تلك الأطباق إلى المرافق العامة خاصة المستشفيات التي تركب الطبق بحجة النهل مما تبثه قنوات المجد، كما أن العمالة الآسيوية صارت تضع في واجة المحل طبق المجد وهذا كان يعطي نوعاً من الحصانة الجزئية لتلك العمالة ويخفف حدة تعامل بعض المحسوبين على هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويقلل من عدد عمليات المداهمة العشوائية التي كان بعض المجتهدين يقومون بها بشكلٍ عاطفي؛ نتيجة لما كانوا يسمعونه من بعض أفراد المجتمع؛ لتواجدهم الميداني.

والحقيقة هنا أن تلك العمالة التي عرفت بسوئها وقيامها بفعل أي شيء في سبيل تحصيل المال كانت تقوم بترويج بطاقات لقنوات إباحية تباع في الغالب على مريديها ومعظمهم من فئة الشباب؛ والأمر هنا يحتاج إلى تفصيل فإن كانوا لا يبيعون لأي أحد ولا يمكن أن يتعاملون إلا مع أشخاص يثقون بهم فهذا مؤشر ظاهرة سلبي، يتمثل في وجود تلك البطاقات وله جانب آخر يمكن أن نقول عنه إيجابي، ولكن لا يراه إلا المتأمل فيه ويتمثل في رفض المجتمع بغالبية أطيافه وشرائحه تداول تلك البطاقات وإنكارها؛ ولهذا فالعمالة ما زالت حذرة وتخشى من ردة فعل كل فرد.

أما إن كانوا يبيعون تلك البطاقات لكل أحد بعد التحقق من مظهره وأنه ليس محسوباً على هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهنا مشكلة يجب عدم السكوت عنها وقد قمت بالتحقق بنفسي أكثر من مرة فوجدت بعضهم كان حين أتحدث معه عن السوق وعن البيع وأنواع الأطباق والقنوات الجديدة حتى أصل إلى السؤال عن القنوات الإباحية وأنواعها والجديد منها ثم أسأله عن توافر البطاقات لديه (بالطبع فكل ذلك حديث لا يتجاوز خمس دقائق) فإن أقر بوجودها طلبتها منه واشتريتها بعد التنسيق مع أحد أقسام الهيئة القريبة بحجة الذهاب لإحضار المبلغ فيأتون أثناء تسليم البطاقة ويضبطونه والبطاقة معه ثم يخرجون كل ما لديه

في داخل المحل، وكان في بعضهم دهاء وحيطة لدرجة أنه كان لا يضعها في محله أبداً بل تجدها في محل خياط أو أحذية بالقرب منه أو ما شابه ذلك.

وقيامي بالإبلاغ عن مروجي تلك الآفة يعود إلى إيماني أن هذا هو الاستخدام المشين لتلك الأطباق، وتفشي عمليات بيع تلك البطاقات تعني انحلالاً مجتمعياً خطيراً لا يمكن السكوت عنه، وكنت أراني في تلك اللحظة أحد العاملين في جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك أشخاص كثيرون يقومون بما قمت به.

والحقيقة أننا لو استشعرنا كلنا ذلك الهم لارتقينا وصرنا في الصف الأول وحدنا بين الأمم فالخيرية التي وصف بها المولى - عز وجل - أمتنا قرنت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[1] أما إن نحن أوكلناها إلى جهة بعينها ثم لم تسلم تلك الجهة من بعضنا بل ويذهب قلة من السفهاء بالتنبيش عن أخطاء تلك الجهة والمطالبة بوقف عملها ثم نقول لماذا ما زلنا محسوبين في خانة العالم الثالث رغم الإمكانات المتوفرة لدينا؟

فأقول بأن ارتقاء الأمم لا يمكن أن يكون سببه مادياً فقط، بل إن السبب الرئيس فيه معنوي يتمثل في سلوك النهج الرباني القويم المتمثل في المزج بين المتطلبات الروحانية والمادية ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[2] أما من يقول ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[3] فسيكون مآله وحاله محزناً في دنياه وأخراه.

ويجدر بنا أن لا ننسى أننا مأمورون دوماً بالموازنة في كل أمورنا، وفي هذه الحال بين الجانبين المادي والمعنوي، ولاتنسوا أن صفوة هذه الأمة حين ركنوا ساعة

(١) من الآية (١١٠) سورة آل عمران.
(٢) من الآية (٢٠١) سورة البقرة.
(٣) من الآية (٢٠٠) سورة البقرة.

إلى المادة وتناسوا العامل الرئيس للنصرة وكلهم الله إلى ذلك العامل المادي، وكاد يتسبب في انكسارهم في واحدة من أهم الغزوات، وقائدهم يومئذ أشرف الخلق عليه السلام﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[١] إلا أنهم حين عادوا وأخذوا بأسباب النصر بعد أن وفقهم الله إليها تمكنوا من بغيتهم فظفروا وانتصروا، ونفس الأمر ينطبق علينا فما جرى على سلفنا سيجري علينا ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾[٢]وبمناسبة حديثي هنا لابد أن أؤكد على أن هناك أخطاء من جميع أجهزة الدولة الحكومية والتعاطي معها يكون بالنصح المباشر والنقد العلني والسعي للإصلاح، أما المطالبة بالإقصاء لإشباع أهواء شخصية فهذا لا يقبل ولا يعقل.

أعود لحديثي عن بيع بطاقات القنوات الإباحية المشفرة التي كما أسلفت إن بيعت بشكلٍ علني فهذا لا يمكن السكوت عنه، ويجدر بنا أن نكون كلنا ذاك الرجل الذي يحارب من يبيعها، أما حين تباع بشكلٍ سري ولا يمكن اقتناؤها إلا بكل كلفة فهذا من طبيعة المجتمعات البشرية فحتى عصر محمد ﷺ هناك من زنا وهناك من سرق وهناك من شرب الخمر، وغيرها من الكبائر والمنكرات، أما من يطالب بمنع المنتج الفلاني؛ لأنه قد يترتب عليه المحظور الفلاني فهذا ما لا أتفق معه على الإطلاق، وتحديداً حين يكون التأثير الإيجابي أعم وأنفع وهي القاعدة الربانية فالله - سبحانه وتعالى - أحل البيع رغم أنه قد ينتج عنه غش واختلاس ومراباة إلا أنه فرق بين ذلك كله وبين الحلال من الحرام، ولم يحرم بالكلية حين كانت الفائدة المتأتية من عمليات البيع هي الأكبر ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[٣] وبالمقابل حرم الخمر استناداً لنفس القاعدة السابقة ﴿ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

(١) من الآية (٢٥) سورة التوبة.
(٢) من الآية (٤٣) سورة فاطر
(٣) من الآية (٢٧٥) سورة البقرة.

﴿وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾[(١)] ثم حرمها مع الميسر تجنيباً للناس من الأثم الغالب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠﴾[(٢)]

وهكذا يجدر بنا أن نفكر في كافة شؤوننا فإن كان يغلب على تقنية مستجدة أنها ستفيد وقد يساء استخدامها فالأولى أن لا ننشغل بمحاربتها بل يجب علينا تشجيع المجتمع على الانتفاع بتلك التقنية من باب أن الحكمة ضالة المؤمن، مع توعية الأفراد وتحذيرهم من إساءة استخدامها، والأمثلة على ذلك كثيرة بدءاً بالمطبعة مروراً بالهاتف، والسيارة، والتلفاز، والمذياع، والقنوات الفضائية، والإنترنت، وكاميرات الجوال وغيرها كثير وكل واحدة من تلك صدر بها فتاوى تحرمها ومع ذلك لم يلتفت المجتمع لتلك الفتاوى بل احترمها وأجل من قالها ولكنه لم يعمل بها، ولسان حاله يقول هذا رأيك ولكنه غير ملزم. ومع الوقت نجد أن بعضاً ممن أفتوا بالتحريم في مسألة معينة أو تبنوا التحريم يتراجعون عن تلك الفتوى بعد أن ظهر لهم من خلال التجربة المجتمعية أنهم اجتهدوا ولم يصيبوا ثم بدأوا باستخدام المستجد والانتفاع به، وأنا أقول هنا لعلها تكون درساً لطلبة العلم من الأجيال التالية أن لا يستعجلوا في مسألة التحريم والمنع والتحجير على المسلمين وإيقاعهم في الضيق والحرج، مع أن الأمر فيه متسع ويمكن أن يُسمح بالمباح كما يؤخذ بباب سد الذرائع.

---

(١) من الآية (٢١٩) سورة البقرة.
(٢) من الآية (٩٠) سورة المائدة.

استبانة أجريتها عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) شملت ١٨٨٤ من مستخدمي الإنترنت بشكل السعوديون منهم ٩٥,٩٪ و٣٪ من المقيمين في المملكة و ١,١٪ غير ذلك. حول استخدامات الوسيلة التقنية الإعلامية في المجتمع السعودي وحقيقة تأثيرها.

إيهما أكثر تأثيراً على الفرد والأسرة والمجتمع؟

الإجابة		مجموع الإجابات	النسبة المئوية
الفضائيات		٨٨٦	٪٤٧,٨
الإنترنت		٩٦٩	٪٥٢,٢

ظهرت هذه النتائج استناداً لإجابات ١٨٥٥ فيما امتنع ٢٩ من المستجوبين عن الإدلاء برأيهم

هذا يدل دلالة واضحة على أن الطفرات التقنية المتعاقبة تجتذب الناس بشكلٍ سريع؛ فكما فعل التلفاز حين سحب بساط التأثير من الإذاعة، ها هي الإنترنت بدأت تزاحم وتتفوق في تأثيرها واستقطابها الجماهير وعمرها في المجتمع السعودي لم يتجاوز عقداً ونصف العقد حتى الآن ويتوقع أن تزيد من حصتها في السنوات القادمة بفعل التحسينات المستمرة عليها في كافة الجوانب.

والحقيقة أن القنوات الفضائية نقلت مجتمعاتنا العربية ومجتمعنا السعودي على وجه التحديد نقلات نوعية متميزة وساهمت في نشر الثقافة الدينية وتقريب اللهجات العربية وسهولة فهمها، والتقريب بين المسلمين، ومعرفة ما يحدث وما يستجد في كل بقعة من بقاع الأرض، ولا أنسى أن بعض القنوات الفضائية وخاصة قناة الجزيرة قد نقلت عقلية المشاهد العربي التي تبرمجت على نمطية معينة في تلقي المادة الإعلامية وغيرتها، فبعد أن كنا مبرمجين على أن برامج السهرة عبارة عن مسلسل عربي أو فيلم أجنبي ثم برنامج ترفيهي وغيرها من البرامج التي تدرج في هذا التصنيف، جاءت قناة الجزيرة وغيرت ذلك المفهوم فصارت برامج السهرة تثقيفية في مجالات سياسية وفكرية وأدبية ودينية وهذا أسهم في تغير المجتمعات العربية بأسرها وقفز بالفكر العربي عموماً بسرعة وخلال مدة وجيزة وبطريقة لم يفعلها الكتاب ولا المذياع ولا التلفاز الرسمي المحسوب على الدولة.

وأنا أقول في هذا المقام بأنه لو لم يأت من تلك القنوات من إيجابية غير هذه لكفت، وحين لاحظت بعض الجهات نجاح قناة الجزيرة التي أبرزت حالة العطش التي يعيشها المواطن العربي وحاجته الماسة لما يرضي نهمه ويغذي فكره أطلقت العديد من القنوات الثقافية والأخبارية حتى قامت وزارة الثقافة في المملكة العربية السعودية بإطلاق قناة رياضية ثم إخبارية تلتها قنوات ثقافية واقتصادية بالإضافة إلى قناة خاصة تبث القرآن وتنقل المسجد الحرام على مدار الساعة وبشكلٍ مباشر لأقطار العالم أجمع، ونفس الحال مع المسجد النبوي الذي خصصت له قناةً مماثلة تبث منه تتزامن الصورة مع قراءة لأحاديث من السنة النبوية على صاحبها أزكى صلاة وتسليم ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

رابعاً: الإذاعة:

جاء ميلاد الإذاعة السعودية في عهد مؤسس المملكة وموحدها جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود -رحمه الله- كان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ رمضان ١٣٦٨هـ الموافق ١٩ يوليو ١٩٤٩م حين أصدر الملك عبد العزيز مرسوماً ملكياً وضع فيه الإطار العام للإذاعة، وأكد ضرورة التزام الصدق والأمانة، والواقعية، والالتزام بالموضوعية، وعدم التعرض لأحد بالشتم، أو التعريض بأحد، أو المدح الذي لا محل له، كما أكد ضرورة الاهتمام بالأمور الدينية، وإذاعة القران الكريم والمواعظ الدينية. وبالفعل أنشئت أول محطة إذاعية سعودية في مدينة جدة حيث بدأ إرسالها رسمياً[١] يوم التاسع من شهر ذي الحجة ١٣٦٨هـ الموافق ١/١٠/١٩٤٩م بكلمة ألقاها الأمير فيصل بن عبد العزيز (الملك فيصل) تضمنت تهنئة الحجيج بمناسك الحج، والترحيب بقدومهم في الأراضي المقدسة.[٢]

واقتصر البث الإذاعي في المملكة على إذاعة جدة حتى بدأ البث الإذاعي من إذاعة الرياض يوم الأحد غرة رمضان عام ١٣٨٤هـ الموافق ٣ يناير ١٩٦٥م. وقد خطت الإذاعة السعودية خطوة جديدة عندما بدأ بث البرنامج العام مستقلاً من

(١) كان قد سبق ذلك بث تجريبي انطلق في رمضان من نفس العام بحسب ما تذكره وزارة الثقافة والإعلام.

(٢) للمزيد راجع موقع الإذاعة السعودية على الإنترنت. http://www.saudiradio.net.sa

إذاعة الرياض والبرنامج الثاني من إذاعة جدة يوم الخميس غرة شوال ١٣٩٩هـ الموافق ٢٣ أغسطس ١٩٦٥م.[١]

وكان البث يتم بما يسمى بالبرامج الموجهة التي كانت تبث من جدة وكان هدفها توعوياً؛ ولهذا كانت تبث بلغات أخرى كالأندونيسية والأوردو، ثم أنشئت إذاعة أخرى تبث من مكة وذلك عام ١٣٧١هـ، (١٩٥٢م) تسمى إذاعة صوت الإسلام ثم سميت بعد ذلك إذاعة نداء الإسلام، عام ١٣٨١ هـ (١٩٦٢م) وكانت تهدف إلى التعريف بالإسلام ومبادئه وبث التوعية الإسلاميه إضافة إلى محاربة التيارات والافكار التي تسعى الى تشويه صورة الإسلام، ثم صارت تقتطع جزءاً من وقت البث مع إذاعة البرنامج العام حيث تبث على نفس التردد، وفي ١٤٣٢/١/١هـ (٢٠١٠م) صارت الإذاعة تبث بشكلٍ مستقل.

أما بالنسبة لإذاعة القرآن الكريم فقد انطلقت عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) وتهدف الى بث القرآن الكريم وتفسير آياته وتعليم قراءاته بالإضافة الى نقل المسابقات المحلية والدولية الخاصة بحفظ وتلاوة القرآن الكريم.

وكانت إذاعة الرياض قد سبقتها عام ١٣٨٤هـ(١٩٦٥م)، ثم إذاعة البرنامج الاوروبي (الانجليزي والفرنسي وأضيف إليها الأوردو) وتهدف إلى نشر الدعوة الإسلامية وإبراز محاسنها، وبث البرامج الإعلامية عن المملكة وتحقيق رغبات المستمعين خاصة الجاليات المقيمة بالمملكة بإنتاج وبث برامج المنوعات والبرامج الفنية والثقافية، وتغطية المناسبات والأحداث المحلية والعالمية.[٢] إلا أني أظنها غير كافية على الإطلاق فهي تبث برامج بلغات مختلفة ولفترات قصيرة، ولا تبث في الفترة الصباحية، ولم يتم تطويرها بشكلٍ يستحق التنويه عنه، ولا أظنها بوضعها الراهن قادرة على استقطاب المستمعين فقصر ساعات البث ومحدودية المساحة التي تغطيها أثر عليها بشكلٍ كبير.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) للمزيد راجع موقع وزارة الثقافة والإعلام http://www.info.gov.sa

ولم يكن اقتناء الراديو أو القبول به أمرا هينا على اعتبار أن الإنسان عدو ما يجهل حيث قوبل بمشاعر الرفض القاطع من السواد الأعظم تحت قناعة أن من أدخل في بيته الراديو فهو كمن أدخل في بيته (عاهرة) أو كما كانوا يقولون، وبدأت التحذيرات الموجهة إلى المجتمع من أن بلوى عظيمة وشراً مستطيراً قادم، وبدأ يتغلغل فيهم ويهدد بنسف القيم ونشر المجون والفساد وأن عليهم محاربته والوقوف ضده، وقد آتت تلك الدعوات والتحذيرات أكلها لدرجة أن بعض من تأثروا بها كانوا يتمنون الموت قبل رؤية هذه الآفة وبعضهم الآخر كان ينظم الشعر محذراً من ذلك الوافد الغريب ومما قيل:

يالله يا غافر الزلاّت
يالله من النار تنجيني
هيهات من يعتبر هيهات
ماتوا هل الصدق والديني
شفت الروادو مع الشنطات
حطّن بصدر الدواويني
يا ليت من هو قديم مات
والكيف ما شافته عيني
النقص بيّن وله شارات
كثروا جنود المغنيني

ويتناقل بعض من عاشوا المرحلة حكايتين متشابهتين تعكس بعض صور الرفض تلك، إحداهما لثلاثة من أهل قرى الوسطى خرجوا أواخر شهر رمضان لاصطياد الجراد فأدركهم الشهر وتلقوا خبر العيد من إحدى الإذاعات من راديو السيارة وكان الشهر ناقصا وإفطارهم صحيحا. ولما كان الشخص الثالث شاباً كسولاً يتأخر في النوم ويعمل أقل منهم في جمع الجراد أتت حصته أقل عند اقتسام قيمة البيع فخطط أن ينتقم منهم عن طريق الوشاية بهم عند أهل القرية بعد عودتهم؛

حيث أخبر أن رفاقه أفطروا على «الخبيث» يقصد أنهم أفطروا معتمدين على خبر تلقوه من الإذاعة ثم قررت القرية حتى لا ينزل بهم الغضب ويتوقف عنهم المطر أن يطهروهم بجلد كل واحد منهم عشرين جلدة.

وفي الأخرى أن رجلا اختلف مع زوج أخته بعد أن تلقى منه علقة ساخنة فتوجه إلى «النواب» وهم جماعة مختارة غير رسمية تتولى عملية التوجيه والإرشاد في قريتهم وحلف أمامهم سبعة إيمان أنه اكتشف في بيت نسيبه سلك راديو (سلك طويل لتقويه البث يمدد عبر الحيطان أو فروع الأشجار) ثم أخذهم إلى هناك من أجل تكسيره واستتابة صاحبه بعد تطهيره. صاحب المنزل الذي طرقوا عليه الباب والذي كان يمتلك راديو فيلبس بالفعل بحجم «المركى» عند ما تفاجأ بهم لم يسعفه الوقت في إخفائه حيث قام بسرعة ووضع فوقه بطانية ليجعله مركى يتكئون عليه سألوه في البداية فأنكر ثم طلبوا تفتيش المنزل عندها قال لهم البيت أمامكم حيث بدأوا التفتيش وقلبوا المنزل دون العثور على الراديو الذي كانوا يتكئون عليه.

تلك القصص وغيرها كثيرة تعبر عن الرفض المجتمعي لفكرة الإذاعة ولأشياء مستجدة كثيرة كانت تجبر عشاق الإذاعة في بداية ظهورها خصوصا في نجد والمنطقة الوسطى على اتخاذ ملاذات سرية ومخابئ بعيدة مثل مزرعة نائية أو سطح منزل مهجور أو أحد الكهوف الجبلية البعيدة يجتمعون فيها على راديو يستأجر أو يحضره أحدهم ينقله إلى هناك في ساعة غفلة يلفه ببطانية أو يخفيه داخل عباءة مغامراً ينقله بحذر وكأنه ينقل جنازة قتيل. لكنهم في المناطق الساحلية وبعض المدن التي كانت أكثر تقبلا وانفتاحا اتخذتها المقاهي الشعبية كوسيلة جذب للزبائن وأضيف إلى الراديو الشنطة أو «المشتختة» والتي عرفت في نجد بالاسطوانة التي تطورت إلى ما يعرف حاليا بجهاز تشغيل (السي دي)، فكان من ليس بمقدوره شراء جهاز يتردد على تلك الأماكن للاستماع إلى البرامج والأغاني ومتابعة الأخبار، أما النساء اللاتي لا يسمح لهن بدخول المقاهي فكن يجتمعن قرب أسوار تلك المقاهي وفي مجال دائرة وصول الصوت ولا تكاد إحداهن تغادر المكان إلا وقد حفظت كل ما سمعته صما لتنقله في اليوم الثاني إلى صديقاتها

الأخريات اللاتي ينتظرن بشغف متابعة مسلسل إذاعي توقف في الأمس مثلا نقلته لهن، أو أغنية تبث أول مرة لدرجة أنها تؤدي دور إذاعة بأكملها.[١]

وفي إحدى رسائله يعلق جهيمان العتيبي على حديث الفتن ويشرح المقصود بفتنة الدهيماء فيقول: ونحن الآن في فتنة الدهيماء التي لاتدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمة كلما قيل انقضت تمادت، وواقعنا يشهد بذلك فأهل الباطل يخرجون علينا كل يوم بفتنة جديدة فيبسطونها في أول الأمر ثم يتمادون فيها، كمثل الإذاعة[٢].

ولابد أن أشير حين أتحدث عن الإذاعة إلى المشروع الذي قام به أحد المواطنين ويدعى عبدالله بن سليمان بن عويد الطامي، ولد سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) في مدينة بريدة، ثم انتقل منها إلى الرياض عام ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) وتوفي بها عام ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م).[٣] المعروف بطامي، حين أنشأ أول إذاعة في العاصمة الرياض عام ١٣٨١هـ سميت الإذاعة الوطنية واشتهرت بين الناس بإذاعة طامي، كان ذلك قبل أن تفتتح إذاعة البرنامج العام من الرياض بثلاث سنوات، وحققت في وقتها شهرة كبيرة، حيث



المذياع القديم

(١) تقرير بعنوان: الرادو في الخمسينيات رجس، وسماعه جريمة، ومن يقتنيه فاجر. نشرته صحيفه الرياض في عددها رقم ١٥٢٧١ بتاريخ ١٤٣١/٥/٢هـ الموافق ٢٠١٠/٤/٦م.

(٢) أورد جهيمان العتيبي في رسالته المعنونة بالفتن وأخبار المهدي ونزول عيسى u وأشراط الساعة، حديثاً أخرجه أبوداود في كتاب الفتن (٤٢٤٢) بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا قعوداً عند رسول الله r فذكر الفتن حتى ذكر فتنة الأحلاس فقال قائل: يارسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: (هي هرب وحرب، ثم فتنة السراء دخنها من تحت قدمي رجل يزعم أنه مني وليس مني وإنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع، ثم فتنة الدهيماء لاتدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمة، فإذا قيل انقضت تمادت يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين).

(٣) مقالة بعنوان: إذاعة طامي..ما هي قصتها؟ ومن مؤسسها؟ بقلم الأستاذ صالح المسند، نشرت في منتديات قديم.

سحبت البساط من الإذاعة الرسمية في جدة ومن الإذاعات الأخرى التي كانت تبث من دول مجاورة أو بعيدة.

وكانت الإذاعة تبدأ بثها بعد صلاة العشاء مدة ساعتين إلى ثلاث ساعات يومياً حسب البرامج وتوفر المادة.. وكان هو المذيع يجلس أمام اللاقط وحده في غرفة داخل بيته ولا يخرج أبداً طوال فترة عمله؛ لأنه كان يتحدث للمستمعين على الهواء مباشرة، وكان الناس يستمعون إليه ويتفاعلون مع ما يبث بل وكانوا يطلبون منه الإعلان عن بعض الأشياء الخاصة بهم كطلب البحث عمّا فقدوه ليذيعه، فمنهم من يفقد حقيبته والآخر يفقد عنزاً أو بقرة.

كما كان يقوم ببث بعض الإعلانات التجارية لبعض تجار الرياض، وإعلان أسماء الناجحين من طلبة مدينة الرياض، كما تم من خلال تلك الإذاعة بث أول مباراة كرة قدم عبر إذاعة سعودية بصوت المعلق محمد رمضان، وكانت نهائي كأس الملك بين الهلال والوحدة التي أقيمت بتاريخ ١٣٨١/٨/٢٠هـ الموافق ١٩٦٢/١/٢٧م.[١]

ومن طرائف تلك الإذاعة وصاحبها ـ رحمه الله ـ أنه كان يوقف بث بعض البرامج فجأة ليقدم إعلانات خدمية ومجانية كانت تمثل هموم بعض المواطنين وتصور بساطتهم في تلك الحقبة، حيث كان لايتوانى مثلا عن إعلان يخص أحد سكان الرياض الذي دخل عليه مستنجدا ويفيده بأن عنزه أم قرن مكسور ومعها ثلاث «جفار»[٢] فقدت مع دخول الظلام في أم سليم ولم تعد لحضيرتها، أو أن يبث تحذيراً للمزارعين في الوشم من أن أسرابا من الجراد الجائع قادم إليهم مثل قطع الغيوم وأن عليهم أن يتخذوا التدابير لاتقاء التهامه لمزروعاتهم، أو أن ذئبا مفترسا «هد» على أحد قاطني مدينة المذنب وافترس عشراً من الشياه المضاريع والذئب بطبعه لابد أن يعود في الليلة التي تليها لمهاجمة نفس المكان.[٣]

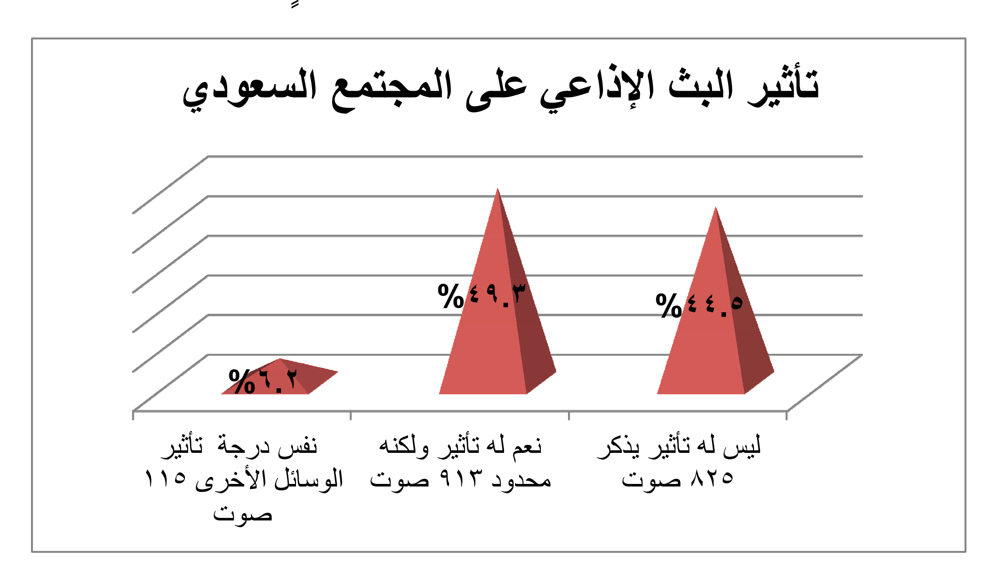
(١) للمزيد ارجع إلى صحيفة الشرق الأوسط العدد ١١٢٣٨ بتاريخ ١٤٣٠/٩/١٥هـ الموافق ٢٠٠٩/٩/٤م.
(٢) جفار جمع جفرة وهي بنت الماعز، والذكر منها يسمى تيس.
(٣) تقرير بعنوان الرادو في الخمسينات (مرجع سابق).

ويذكر صلاح الزامل أن الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله حين زار الرياض عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) متعاقداً للتدريس بكلية الشريعة، كان بصحبته مذياع، يعود بعد انتهاء عمله في الكلية لعله يسمع شيئاً يؤنس به وحدته وبالذات في المساء. وحول ذلك يقول الشيخ الطنطاوي ـ رحمه الله ـ: كنت يوماً في الرياض أدير مفتاح الراديو فسمعت إذاعة غريبة ليست من جدة ولا من مصر ولم أكن أسمع في الرياض يومئذ غيرهما إلا إذاعة بغداد اسمعها أحياناً فوجدت هذه الإذاعة الغريبة تذكر أشياء عن المملكة وعن الرياض بالذات فأصغيت أنتظر أن أسمع في آخرها اسم البلد الذي يخرج منه الصوت فإذا هو من الرياض وإذا هو يذكر اسم «طامي» فسألت زملائي وما طامي هذا؟ تطوع حينها أحدهم فأتى به إلي فعرفني به وإذا هو شاب سعودي. أخذني بعد ذلك إلى عمارة عالية في شارع الوزير وكان يومئذ أحد الشوارع القليلة لم يكن في الرياض غيرها وأدخلني العمارة وصعدنا إلى السطح فوجدت قطعاً وآلات وأسلاكاً وأزراراً في لوحات فقلت ما هذا؟ فضحك وقال: هذه إذاعة طامي، إنها قطع اشتريتها من مخلفات الجيش البريطاني عندما عرضها للبيع فرتبتها وجعلت منها هذه الإذاعة، ثم إن طامي بعد ذلك طلب من الشيخ علي أن يتحدث من إذاعته إلى مستمعي الإذاعة فكان أول حديث يدلي به الشيخ الطنطاوي إلى أهالي مدينة الرياض قبل أن ينضم إلى إذاعة جدة وتلفزيونها.[١]

وقبل أن أختم حديثي حول الإذاعة لعلي أشير إلى الإذاعات الخاصة عبر أثير الإف إم، حيث بدأ ذلك من خلال إذاعة إم بي سي عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) ولم يكن لها ذاك التأثير المجتمعي حيث كانت تبث الأغاني والترفيه بالإضافة إلى أخبار لا تختلف كثيراً عما يبث في الإذاعات السعودية كما أن وقت بثها جاء بعد انتشار الفضائيات؛ ولهذا فلم يكن لها ذاك التأثير ونفس القول يمكن أن ينطبق على إذاعات الإف إم التي انطلق بثها مع نهاية عام ١٤٣١هـ وبدايات ١٤٣٢هـ الموافق (٢٠١٠م) حيث لم تحقق ذاك الصدى المأمول مع العلم أن معظم بثها يتركز في الأغاني مع وجود برامج رياضية أي أنها ترفيهية، ولهذا فالإذاعة بشكلٍ عام لم يكن

(١) مقال كتبه صلاح الزامل بعنوان: الشيخ علي الطنطاوي وصف طامي بأدسون الرياض، ونشرته صحيفة الرياض بعددها رقم ١٥٥٦٥ بتاريخ ١٤٣٢/٣/١هـ الموافق ٢٠١١/٢/٤م.

لها ذاك التأثير ولم تغير في المجتمع بما يوازي ولو جزءاً يسيراً من الأموال التي أنفقت لضمان وجودها واستمراريتها، وعلى الرغم من أن بدايتها كانت تعد نقلة جميلة وثرية في حياة المجتمع السعودي، واستمرت تحظى بالمتابعة والتميز حتى بعد ظهور التلفاز وانتشاره رغم أنه ساهم في تدني نسبة المستمعين إلا أن برامج محددة كان لها جماهير ومتابعون كبرنامج نور على الدرب وبرنامج أم حديجان مع عبد العزيز الهزاع الذي أذكر حين كان يقدم بعد صلاة المغرب في رمضان في بدايات القرن الهجري الحالي (الثمانينات الميلادية) كان يحظى بأصداء جيدة وبالطبع لا يمكن مقارنتها بالأصداء التي تحظى بها المسلسلات التلفزيونية خاصة مسلسل طاش على سبيل المثال، الذي كان له تأثير قوي في تغيير المجتمع السعودي من خلال تناول قضايا حساسة وتجاوزه خطوطاً حمراء ما كان لأحدٍ أن يتجاوزها.



نتيجة استبانة أجراها المؤلف عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) شملت ١٨٨٤ من مستخدمي الإنترنت حول استخدامات الوسيلة التقنية الإعلامية في المجتمع السعودي ومدى تأثيرها
هذه النتائج جاءت استناداً لإجابات ١٨٥٣ فيما امتنع ٣١ من المستجوبين عن الإدلاء برأيهم

ومن المهم الإشارة إلى الإذاعات الأجنبية التي كانت تبث قبل زمن الفضائيات خاصة إذاعة لندن المصدر الرئيس للأخبار الأسرع والأكثر مصداقية، وإذاعات أخرى كانت منافسة خاصة إذاعة الكويت ومونتاكارلو والشرق الأوسط وغيرها،

إلا أني أعود مرة أخرى للتأكيد على أن أياً من تلك الإذاعات لم يكن له ذاك التأثير المهم في إحداث تغيير أو نقلة بالمجتمع السعودي، ولا أظن بأني مخطئ عندما أقول إن ظهور الفضائيات قضى على تأثير تلك الإذاعات بشكلٍ كامل، وأذكر أن آخر مرة بحث الناس عن الإذاعة بشكلٍ جماعي لمتابعة خبر يهم شرائح المجتمع كان إبان حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت عام ١٤١١هـ ١٩٩٠م وهي بالمناسبة نهاية صيت إذاعة لندن أو البي بي سي البريطانية، أما الآن فعلى الرغم من انتشار الإذاعات وبثها عبر الأقمار الصناعية إلا أن قلة من الناس يتابعونها إذا استثنينا المتابعة أثناء قيادة السيارة حيث ما زالت الإذاعة تحظى بنسبة مستمعين جيدة قد تزاحم أشرطة الكاسيت والأقراص الليزرية.

ومن باب الاستئناس، ليس إلا، أتحدث بشكل سريع عن البث الإذاعي الفضائي أو ما يسمى بالإذاعة الفضائية التي لم تكن معروفة ولا منتشرة بكثرة في المجتمع السعودي رغم أنها متقدمة جداً وبها إذاعات مفتوحة ومشفرة ولها جهاز التقاط خاص بها بدأ بثها عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م من خلال شركة وورلد سبيس World Space واستمرت في البث على معظم أنحاء العالم بما فيها المنطقة العربية بأسرها وكنت ألتقط من خلالها إذاعات كثيرة مثل: (البي بي سي) و(السي إن إن) وبلومبرغ و(إم بي سي) وإذاعات أخرى كثيرة عربية وأجنبية وذلك من خلال جهاز التقاط صغير شبيه بالأطباق «الدش» بحجم كف اليد كان الاشتراك السنوي بحدود (٣٠٠) ريال إلا أن تلك الشركة تكبدت خسائر كبيرة؛ يبدو لي ذلك عائد إلى عوامل متعلقة بسياسات تسويقية سيئة وفي عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) أعلنت الشركة إفلاسها وتوقفها عن البث نهائياً، ولو سألت أحداً عنها في المملكة فلن تجد في الألف غير واحدٍ أو اثنين يعلمان عن تلك الشركة وما تبثه من قنوات إذاعية، وكان كل من يركب معي في السيارة يتعجب من ذلك الجهاز وكان بعضهم يجزم أن هذا الجهاز يتبع جهات أمنية.

كنت أظن أن ذاك النوع من البث الفريد سيحدث نقلة نوعية في مجتمعنا السعودي؛ بسبب استقلالية البث فهو يبث عبر الفضاء بالإضافة إلى صغر حجمة وإمكانية نقله وتثبيته في السيارة، وفوق ذلك كله إمكانية استقبال الإشارة في أي مكان أو منطقة يغطيها القمر الصناعي الخاص بالشركة، إلا أن الرياح سارت خلافاً لما تشتهيه سفن تلك الشركة، وتوقعاتي الخاصة، التي كانت تذهب إلى نجاح هذا النوع من البث.

خامساً: الإنترنت:

يعد الأمريكي جون بيري بارلو من أوائل من استخدم الإنترنت في العالم وكان يكتب في الصحف بصفة مستمرة مرغباً القراء بتجربة هذا العالم الفضائي الشاسع الذي لا حدود له ومن ضمن ما كتبه في بداية التسعينات الميلادية مقالة في مجلة وايرد Wired مما جاء فيها قوله: «تخيل اكتشاف قارة شاسعة لدرجة أن أبعادها ربما تكون بلا نهاية. تخيل عالماً جديداً لديه من الموارد أكثر مما يمكننا استهلاكه، ومن الفرص أكثر مما يمكننا استغلالها، ونوعية فريدة من العقارات التي تتسع وتزيد كلما تملكناها، وتخيل مكاناً لا توجد فيه آثار للمعتدين؛ مكاناً تسرق فيه البضائع مرات لا نهائية مع بقائها في حوزة مالكها الأصلي، تخيل مكان توجد فيه أعمال لم تسمع عنها أبداً، وبيئة يشعر فيه الأطفال بأنهم في بيوتهم، ومكان ترتبط فيه الفيزياء بالفكر أكثر من ارتباطها بالأشياء»[١].

ومع تلك الدعوات المباشرة وغير المباشرة من ملايين الناس ممن سحرتهم الإنترنت تزايد استخدام الإنترنت بشكلٍ كبير وتضاعف أعداد المشتركين في هذه الخدمة سنوياً لدرجة تفوق الوصف حيث تشير إحدى الإحصائيات إلى أن مستخدمي الإنترنت حتى نهاية ٢٠١٠م قد تجاوز المليارين مستخدم[٢]. فيما يبلغ

---

(١) جاك غولد سميث وتيم وو، من يحكم الإنترنت؟ أوهام بلا حدود،. (مرجع سابق).

(٢) هذه الإحصائيات قامت بها مجموعة ميني واتز للتسويق ويمكن الوصول إليها عبر الرابط التالي:
www.internetworldstats.com

عدد مستخدمي الإنترنت في المملكة حتى نهاية شهر رجب ١٤٣٢هـ يونيه (٢٠١١م) ١٢,٥ مليون مستخدم وهو ما يمثل ٤٤٪ من عدد السكان.[١] وإذا ما قارنا هذا العدد من المستخدمين مع تعدادهم سنة ٢٠٠٠م حين كان يبلغ مئتي ألف مستخدم سنجد أن نسبة مستخدمي الإنترنت في المملكة قد نمت وتضاعفت آلاف المرات وهو مؤشر كبير جداً على قوة انجذاب الناس لهذه الوسيلة الإعلامية الحديثة، التي لم تعرفها المملكة بشكلٍ رسمي وتنظم عملها إلا بتاريخ ١٤١٧/١٠/٢٤هـ الموافق ١٩٩٧/٣/٤م حين صدر قرار مجلس الوزراء رقم (١٦٣) القاضي بإدخال وتنظيم خدمات شبكة الإنترنت في المملكة، وبعدها بسنتين بدأ الاستخدام التجاري الفعلي لتلك التقنية، وكانت استخدامات الإنترنت قبل ذلك محصورة على بعض الجهات الرسمية طبية وتعليمية، والجدول التالي يبين تطور استخدامات الإنترنت في المملكة حتى نهاية عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م).

السنة	عدد المستخدمين
١٤١٤هـ(١٩٩٤م)	هيئات طبية وتعليمية
١٤١٩هـ(١٩٩٩م)	بداية الاستخدام التجاري (٤٥٠٠٠) مستخدم
١٤٢٠هـ(٢٠٠٠م)	٢٠٠،٠٠٠
١٤٢٥هـ(٢٠٠٥م)	٢،٥٤٠،٠٠٠
١٤٢٨هـ(٢٠٠٨م)	خمسة ملايين
١٤٣٢هـ(٢٠١١م)	١٢،٥ مليون

وكان قلة من المتحمسين لتلك الخدمة في عام ١٤١٨هـ (١٩٩٧م) يسافرون إلى مملكة البحرين أو يتصلون بالبحرين ودول خليجية أخرى من أجل الدخول على الإنترنت رغم أن التكلفة لم تكن قليلة، وأذكر أني حين سافرت إلى الولايات المتحدة عام ١٤١٩ (١٩٩٨م) مدة سنة وعدت بدايات ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م) كان أول

(١) نشرة إلكترونية صادرة عن هيئة الاتصالات وتقنية المعلومات السعودية صدرت في شهر شوال ١٤٣٢هـ (ديسمبر ٢٠١٠م).

شيء فعلته الاشتراك بالإنترنت بعد أن عشقتها حدّ الإدمان هناك، ولا أذكر أنه مر يوم دون أن أتصفح خلاله الإنترنت فكانت أشبه ما تكون بالهواء الذي نتنفسه.

وحين عدت بحثت مباشرة عن الشركات مزودة الخدمة واتصلت بإحداها وطلبوا مني الحضور شخصياً لسداد المبلغ واستلام اسم المستخدم وكلمة المرور الخاصة بالاشتراك، وحين قابلت المختص في الشركة سألني أين جهاز الحاسب الخاص بك فقلت له: لم أحضره، فقال متعجباً: وكيف ستتسلم معلومات الاشتراك! فأخبرته أني سآخذها بيدي وسأقوم بعمل الإعدادات بنفسي في المنزل، قال وتعرف ذلك؟! قلت نعم فالمسألة سهلة وليس هناك أي تعقيد، فأخذني إلى الفني المختص بعمل الاشتراكات فوجدت عنده أحد الأشخاص وكان يقوم بعمل الإعدادات وحين وقفت بجانبه قام يلف ويدور ويفتح نوافذ وبرامج ليس لها علاقة من أجل أن أتوه فلا أعرف كيف يقوم بالإعدادات، فقلت له يا أخي العملية سهلة فلو وفرتم على العميل الحضور أو على الأقل إحضار الجهاز وكتبتم له طريقة الإعدادات على ورقة لفعلتم به خيراً ولوفرتم على أنفسكم كل هذا التعب والمشقة والزحام، فقال لا يهم ما دمنا نأخذ (١٥٠) ريالا على العميل من أجل هذه الإعدادات التي لا تستغرق دقيقة واحدة.

وكانت الشركات في الولايات المتحدة تكتب الطريقة على ظهر ورقة الاشتراك وأذكر أنها كانت لا تتجاوز خمس خطوات، ولكن كان وما يزال في مجتمعنا قلة تستغل عدم معرفة بعضنا وتسلب منهم المال دون وجه حق. وأذكر أن الناس كانوا في البدايات يجهلون ماهية الإنترنت ولا يعرفون منها غير اسمها، وقد حدثني أحدهم أنه ذهب مع زميل له إلى أحد محلات بيع الحاسب الآلي وطلبوا منه بحسب تعبيرهم: «إنترنت صغير يجربونه فإن أعجبهم أخذوا أكبر».

ثم حين زاد الوعي وعرف معظم الناس الإنترنت وأنها وسيلة للتواصل كان في مجتمعنا من لا يزال يجهل حقائق كثيرة ومزايا فضلت الإنترنت عن غيرها، وقد أتاني أحد الزملاء ممن لا يستخدم الإنترنت على الإطلاق رغم أنه يعيش بيننا ويسمع منا كل ما يدور وهو لم يصل بعد العقد الخامس من العمر وقد طلبني ذلك الزميل «العزيز» أن أدخل موقع أحد القطاعات الحكومية لتسجيل ابن عمه في إحدى الوظائف المعلن عنها، وأن ذلك القطاع ومن باب فرض الحكومة الإلكترونية

وحث الناس على استخدامها لم يعد يقبل الملف العلاقي الأخضر، وقد أخبرني ذلك الزميل أن ابن عمه لا يستخدم الإنترنت وعائلته كلها تقريباً نفس الشيء وهو الأعلم أو لأقل بشكل أدق الأقل جهلاً بتلك الوسيلة فطلبوا منه «الفزعة» وهو يستنجد بي. فقلت له: تعلم أن اليوم الإربعاء والساعة الآن قريبة من نهاية العمل الرسمي وعملية التسجيل تستغرق وقتاً وليس الأمر مستعجلاً ولدي أعمال لابد أن أنهيها. ومع كل تلك الأعذار والمبررات إلا أنه لم يقتنع وألح علي راجياً أن نقوم بالتسجيل الآن، ومع إصراره أخذت منه العنوان وكتبته بسرعة وأضفت إليه حرفاً من عندي فظهرت لي شاشة (عفواً الصفحة غير موجودة)؛ لأني كتبت العنوان بشكل خاطئ عمداً فقال لي متسائلاً «هاه وش» الأخبار؟ فقلت له الصفحة الخاصة بموقع القطاع مغلقة الآن حيث انتهى دوامهم؛ وكانت الساعة تشير إلى الثانية والربع ظهراً ولعلك تأتيني صباح السبت ونكمل أنا وإياك عملية التسجيل. فقال متحسراً: آه لو بدّرت «شوي». قبل نهاية دوامهم. وحتى لا يكون حديثي غامضاً على ندرة ممن تقرأ هذه الأسطر ولم يسبق لهم استخدام الإنترنت، أقول بأن صفحات الإنترنت متاحة على مدار الساعة وليست متقيدة بوقت عمل رسمي، ولكني فعلت ذلك هروباً من إلحاحه غير المبرر.

كما أذكر أن مصطلحات كثيرة خاصة بالإنترنت قد شاعت وصار الناس يتداولونها رغم عدم معرفتهم بالإنترنت، ومن ذلك أن أحد زملاء العمل، وكان على مشارف الستين وليس بعيداً عن التقاعد في تلك الفترة قد تعلم الطباعة واستخدام الإنترنت لعلها تسهم في تمديد فترة بقائه على رأس العمل، وطلب مني مساعدته في بعض الأمور حتى يقف على قدميه كما قال. وبالفعل قدمت له كل ما يحتاج وأخبرته كيف يستخدم برنامج الوورد من مايكروسوفت بغرض الطباعة وحين سأل: والإنترنت متى؟ قلت: بمجرد ما نتعلم الوورد والأشياء الأساسية نبدأ بالإنترنت. تركته وذهبت إلى مكتبي وبدون مبالغة بعد أقل من خمس دقائق يتصل بي يقول: الحق على جهازي فيه فايروس[١]. قلت: ما شاء الله من أولها فايروس،

(١) الفايروس: عبارة عن برنامج حاسوبي من فعل (برمجة) بعض المخربين بقصد الإضرار بأجهزة الحاسب وجعلها تقوم ببعض الأعمال أو تمتنع عن القيام ببعضها دون رغبة المشغل الرئيسي لها وبالطبع فأنوعها كثيرة واستخداماتها كثيرة وقد يستخدم بعضها للتجسس وسرقة البيانات وهو ذلك النوع المسمى بأحصنة طروادة وغيرها.

قال: النجدة..النجدة تعال إلى مكتبي بسرعة وحل الموضوع.

دخلت المكتب وبدون أي تفحص للجهاز قال: لاحظ أكتب (بسم الله) فتظهر (بسمالله). قلت فعلاً الجهاز هذا فيه فايروس كبير جداً وأنت ملهم وموفق ومسدد إنك تنبهت له! فبدأ يهز رأسه ويرفعه فخوراً بنفسه وبفراسته فهو يسمع الزملاء يتحدثون عن الفايروسات وكيف أضرت بأجهزتهم، وهو ولله الحمد، استطاع ضبطه متلبساً من أول مرة يستخدم فيها الجهاز، وبالمناسبة فهذا الجيل (العقد السادس من العمر) وحتى الأجيال الأصغر منهم كان لدى بعضهم حساسية شديدة من أجهزة الحاسب ورهبة وخوف والسبب في ذلك أنهم كثيراً ما سمعوا حين يراجعون بعض الإدارات والشركات من يقول لهم «الجهاز ما يقبل» «رفض الجهاز» وغيرها من العبارات التي جعلت لجهاز الحاسب مهابة في نفوسهم ليس من السهل انتزاعها.

أعود لذلك الزميل فقلت له ابتعد قليلاً - إذا سمحت - وقمت أضغط على أزرار لوحة المفاتيح بشكلٍ عشوائي دون أن أكتب شيئاً على المستند الذي يشتغل عليه، ثم عدت لمستنده ووضعت المؤشر بين حرف الميم في نهاية (بسم) وحرف الالف في بداية لفظ الجلالة (الله) ثم ضغطت المسافة فتحولت العبارة من (بسمالله) إلى (بسم الله) فذهل وانفرجت أساريره ولاحظت الفرح في وجه وكل ذلك زاد حين قلت له إن بإمكانك أن تفعلها بنفسك فاقترب غير مصدق وقال صحيح؟ قلت جرب! فقام وكتب نفس العبارة مرة أخرى ووضع المؤشر كما فعلت ثم ضغط زر المسافة وبالفعل حدثت المعجزة بالنسبة له ففرح وقال لي: يعني أنا صرت «هاكر[1]» قلت: أنت أبو الهاكر كلهم فحتى الهاكر ما يسوي إللي سويت.

(١) الهاكر: في الأصل هو شخص مختص ومتمكن في مجال الحاسب ولديه القدرة على اقتحام أنظمة التشغيل ومواقع الإنترنت وشبكات الحاسب، وليس بالضرورة أن تكون أهدافه تخريبية، إلا أنهم يعدون متطفلين وتجرمهم القوانين من باب التعدي على خصوصيات الآخرين، ويمكن أن يطلق عليه كراكر وهو الشخص الذي يقوم بالعبث بأجهز الآخرين مستخدماً بعض البرامج غير المشروعة التي تمكنه من ذلك، وهو أقل خبرة من سابقه وغالباً ما تكون أهدافه التطفلية سلبية. وصاحبنا هنا وبحكم ثقافة الإنترنت والحاسب بشكلٍ عام التي شاعات لدى المجتمع بسرعة جداً حتى عند لدى من لا يجيد استخدامها رأى أن الهاكر بحسب فهمه شخص بارع يمكنه القيام بحل كل مشكله تواجهه وظن ساعة النشوة تلك أنه ليس بعيداً عنهم.

القصص والمواقف حول الإنترنت وبداياتها كثيرة ولا تنتهي ولكني أسوقها هنا كشاهد على تغير مجتمعي إيجابي كان في المجتمع من لا يعرف شيئاً عن الإنترنت بل إن بعضهم كما أسلفت يتهيب جهاز الحاسب ويخاف منه، ثم في أقل من عقد من الزمن يصير قرابة نصف المجتمع يستخدم الإنترنت ولا يطيق فراقها.

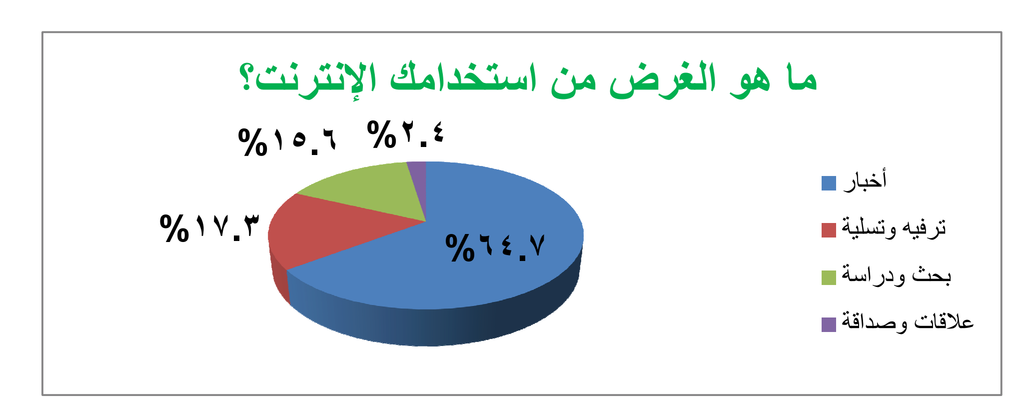
والحقيقة أن لا شيء على الإطلاق من وسائل نشر الثقافة يمكنه أن يجاري الإنترنت؛ فهذه الوسيلة منذ عرفها المجتمع السعودي عام ١٤١٩هـ ١٩٩٩م وإقباله عليها وتعلقه بها يزداد يوماً بعد آخر. فمن خلال الإنترنت ظهرت أصوات كانت موجودة وساهمت هذه الوسيلة في إيصال صوتها إلى المجتمع وبدأت وجهة النظر الواحدة تتلاشى بعد أن كانت مسيطرة عقوداً طويلة استنكرها الناس في البداية ثم بدأوا يتقبلونها، رغم أن الاختلاف لم يكن جديداً على المجتمع فقد تحدثت عن ذلك كثيراً ولكن الإنترنت رفعت قيود النشر وساهمت في وصول كل خبر صغير أو كبير إلى المجتمع وصار بإمكان كل فرد أن يكون صحفياً ناشراً مثلما هو متلق، بل إن بعض الأخبار والمواضيع صارت تنشر ويعاد نشرها في مئات المواقع مما ساعد في عملية اشتراك المجتمع في المعلومة وتداولها بحسب أهميتها، فالتغير الإيجابي هنا أن المجتمع صار بإمكان كل فردٍ منه أن يصير رئيس تحرير ورقيباً ومتلقياً في نفس الوقت، ينشر ما يشاء ويمتنع من نشر ما يشاء، وله الحق الكامل أن يمتنع عن قراءة وسماع ومشاهدة ما يشاء، وليس كما كان في السابق حين لم يكن أمامك غير قناة ثم صارت قناتين إن أعجبك ما يعرض في إحداهما وإلا فاعتزل مشاهدة التلفاز، ونفس الحال بالنسبة للصحف وبقية وسائل الإعلام الأخرى التي جاءت الإنترنت فشملتها جميعاً كسابقة لم تحدث في أي وسيلة أخرى.

وفي دراسة أجراها مركز أسبار للدراسات والبحوث حول استخدامات السعوديين للإنترنت ذهبت الدراسة إلى أن ٦٨٪ من مستخدمي الإنترنت ممن شملهم البحث يستخدمونها بغرض الإطلاع على الأخبار.[١] وهذا دليل على أن

(١) مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام، دراسة: استخدامات الإنترنت في المجتمع السعودي.. الاستخدام ودوافعه وأنواعه وتأثيراته المحتملة، الرياض، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

الإنترنت غيرت نظرة المجتمع إلى الوسيلة الإعلامية، فبعد أن كان يستمع إلى الإذاعة لتأتيه بالخبر ثم التلفزيون ليأته بالخبر صوتاً وصورة، أما مع الإنترنت فتلاشت ساعات وحتى دقائق الانتظار فما عليك سوى الدخول إلى ما يسمى بالشيخ غوغل (google) وكتابة ما تريد لتحصل على ما تريد وبالطريقة التي تريد.

استبانة أجراها المؤلف عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) شملت ١٨٨٤ من مستخدمي الإنترنت



جاءت هذه النتائج استناداً لإجابات ١٨٥٧ فيما امتنع ٢٧ من المستجوبين عن الإدلاء بآرائهم يذهب معظم السعوديين إلى القول بأنهم يستخدمون الإنترنت بغرض متابعة الأخبار، وهذه الاستبانة تظهر أن ٦٤٫٧٪ وبنسبة قريبة منها تظهر الدراسة التي أجراها مركز أسبار، وهذا يؤكد تلهف الناس على متابعة ما يجري وما يستجد، وهو ما لا يتعارض مع تعدد استخدامات الشخص للإنترنت؛ فالشخص قد يستخدم كل المجالات التي أشرت إليها في الرسم البياني، ولكنه يميل إلى واحدٍ منها ويراه الأهم.

ويجب أن نتوقف هنا فالأمر يحتاج إلى تعليق فحين يكون هناك مصدر واحد للتسلية والترفية وإيصال المعلومة مع انتفاء البديل، فهذا يضمن في الغالب أن يسير المجتمع بخط واحد وفق توجه واحد ومحركات ودوافع متشابهة، وإن شذ قلة من المجتمع، فيمكن تهميشهم وإسكات أصواتهم، أما مع تعدد الوسائل الإعلامية ووجود وسيلة سحرية كالإنترنت توصل صوتك إلى أي مكان بسرعة وبسهولة وفوق ذلك دون تكلفة مالية، فهذا يجعل التغير والتباين بين أفراد المجتمع ليس شذوذاً، ويبدأ معه المجتمع بأسره تلقي رسائل ومعلومات ينكرها في البداية ثم يألفها ويبدأ يتفاعل معها ويكتشف بعد ذلك أنه كان مغيباً حين كان يستمع لجهة ومصدر واحدٍ يبث إليه نفس الخطاب النمطي القديم، وهذا ما حدث باختصار مع المجتمع

السعودي الذي لم يكن أفراده يسمعون غير صوت واحد فقط، وبعد الإنترنت تعددت الأصوات وصار لكلٍ الحق في اختيار ما يريد، لدرجة أن بعض الساخطين لم يعودوا يقرأون ولا يسمعون ولا يشاهدون ما يبث عبر الوسائل القديمة؛ حيث يرون أنها تعيدهم إلى عهد ما قبل الإنترنت والفضائيات حين كان كل شيء يملى إملاءً لتقرأ وتسمع وتشاهد غصباً عنك أو تبقى أسير الجهل والتغييب وتتلقف ما يروج من إشاعات في المجالس الخاصة.

كيف غيرت الإنترنت المجتمع السعودي؟

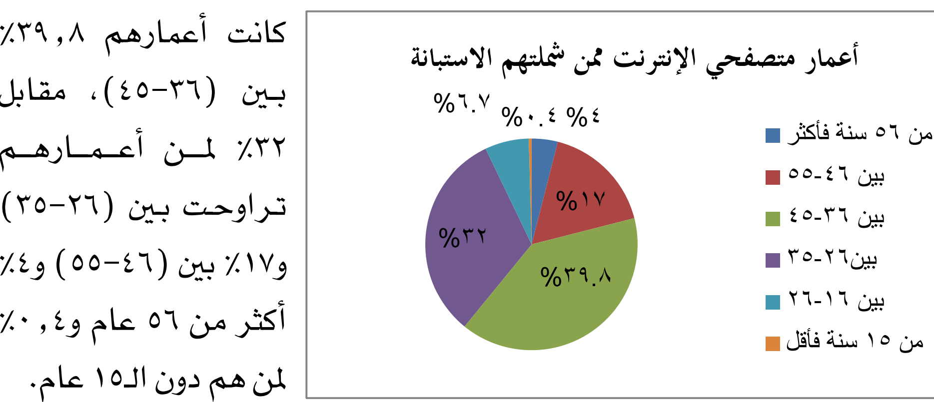
قبل أن أدلف إلى الموضوع أرى أن من الأهمية بمكان الإشارة إلى نقطتين:

النقطة الأولى: إن الحديث عن الإنترنت متشعب جداً ولا يمكن حصره بأي حالٍ من الأحوال، وحتى لو رغبت في ذكر مختصرات فقط حول ما يتعلق بالإنترنت في المملكة فقط، ما استطعت؛ بسبب الوقت من جهة حيث يحتاج من يسعى لفعل ذلك إلى أشهر من البحث، ثم ما أن ينتهي حتى يجد الكثير من المستجدات التي برزت وتحتاج إلى التطرق إليها؛ فعالم الإنترنت متسارع جداً، كما أن من يرغب في الكتابة عن الإنترنت بشكلٍ شمولي سيحتاج إلى مئات الآلاف من الكلمات التي تستلزم عدة مجلدات لتحتويها؛ ولهذا فأنا أعتذر سلفاً عن عدم التطرق لكل شيء في هذا المبحث الذي هو ركن صغير ضمن فصلٍ في باب مع غيره من الأبواب في كتابٍ حرصت أن لا تزيد صفحاته عن حدٍ لا ينفر قارئه منه بسبب تشعبه وكبر حجمه وربما غلاء سعره.

النقطة الثانية: ليس هناك تقنية ولا وسيلة أثرت في المجتمع السعودي وحتى في معظم المجتمعات البشرية أكثر من الإنترنت التي كان لها أثرٌ عظيم في تغير المجتمع السعودي وكشف كلٍ جزئياته لمن يريد دون الحاجة لتكبد كثير مشقة فما على الباحث أو المتابع أياً كان سوى دخول الإنترنت ليجد أطيافاً متنوعة من المجتمع السعودي كلٌ يتحدث بما يتوافق مع رغباته وأهوائه دون أي تحرج، أما من يجد الحرج فبإمكانه التخفي وقول ما يشاء فالمجال متاح للجميع، ولكي لا أتجنب التشتت سوف أقوم بعرض أبرز أدوات الإنترنت التي كان لها دورٌ فاعل في تغيير

ملامح وجه المجتمع السعودي وهي: المنتديات الحوارية، والشبكات الاجتماعية التي رغم حداثتها إلا أنها استقطبت أعداداً هائلة من مستخدمي الإنترنت بمختلف أنحاء العالم.

والحقيقة أن الإنترنت ليس تلك الشبكات الاجتماعية والمنتديات الحوارية، فحسب بل هنا البريد الرقمي، والمواقع المتنوعة والمتخصصة، وغرف المحادثة «الدردشة»، وغيرها كثير يستخدم في المملكة.



كانت أعمارهم ٣٩,٨٪ بين (٣٦-٤٥)، مقابل ٣٢٪ لمن أعمارهم تراوحت بين (٢٦-٣٥) و١٧٪ بين (٤٦-٥٥) و٤٪ أكثر من ٥٦ عام و٠,٤٪ لمن هم دون الـ١٥ عام.

بحسب استبانة أجريتها عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) شملت (١٨٨٤) مستخدماً، نسبة السعوديين منهم ٩٥,٩٪ والمقيمين ٣٪ يتصفح ٩٣,٩٪ منهم الإنترنت بشكل يومي لا تقل عدد الساعات التي يمضيها ٩٢,٩٪ منهم عن ساعتين وقد تمتد إلى أربع ساعات فأكثر لدى ٤٤,٢٪. يبحث ٦٤,٧٪ منهم عن الأخبار مقابل ١٧,٣٪ للترفيه والتسلية، و١٥,٦٪ للبحث والدراسة، و٢,٤٪ علاقات وصداقة.

يعتقد ٤٢٪ منهم بأن ما يطرح عبر الإنترنت لا يعكس رأي المجتمع السعودي، وإن حدث فلن يمثل سوى ١٠٪ أو أقل بينما يخالفهم ٢١,٢٪ حيث يرون أن ما يطرح على مواقع الإنترنت المختلفة يعكس الرأي العام للمجتمع بنسبة لا تقل عن ٨٠٪ أما ٣٦,٨٪ فيقفون في المنتصف بين الفريقين حيث يرون أن ما يطرح عبر صفحات الإنترنت يمثل حوالي ٥٠٪ من الرأي العام للمجتمع السعودي.

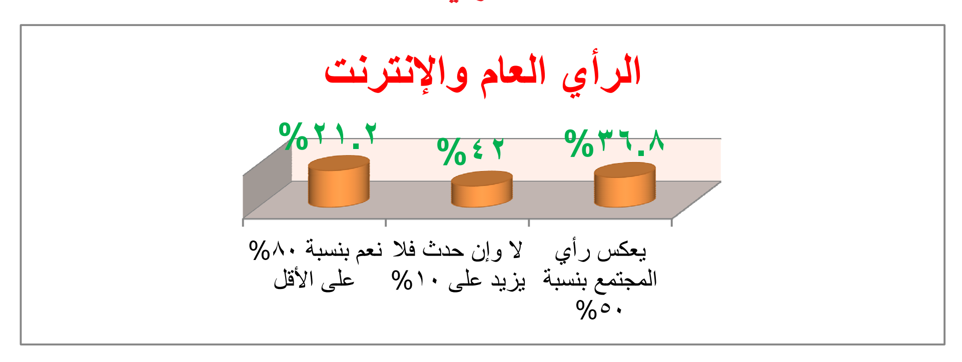
منتديات الإنترنت الحوارية:

الحقيقة التي يجب بيانها هنا أن مشكلة الإنترنت وعوالمها الافتراضية تصور لك بعض الأمور والقضايا والحوادث والمستجدات الاجتماعية والسياسية بطريقة معينة فيها الكثير من المبالغة التي لا تكتشفها إلا حين تخرج إلى الشارع وتتحدث مع آخرين في المجالس الخاصة والعامة خاصة في المناسبات لتكتشف ضآلة القضية التي يجري تداولها عبر صفحات الإنترنت؛ وهذا أظنه يعود في المقام الأول إلى أمرين:

الأمر الأول: التكتلات الحزبية والشللية التي يقوم بها بعض مستخدمي الإنترنت فيضخمون حادثة بغرض التأثير على الرأي العام؛ ظناً منهم أن ذلك سوف يصل إلى صنّاع القرار؛ فيبنون عليه ما سعوا إلى ترويجه وتضخيمه وبيان أهميته أو ضرره بحسب الموضوع، وهذا لا أذكر بأنه حدث؛ خاصة وأن بعض الجهات الرسمية تتابع الإنترنت من باب الاستئناس بما يطرح ومعرفة توجه أطراف معينة تجاه موضوع بعينه، ولكن وحسب علمي فهم لا يبنون قراراتهم على ما يصوره مستخدمو الإنترنت وعلى الأخص في المنتديات التي حظيت في العقد الماضي (١٤٢١هـ ١٤٣٠هـ) (٢٠٠٠م-٢٠٠٩م) بإقبال مجتمعي رهيب وكان المشاركون يمثلون كافة شرائح المجتمع وكان كثيرٌ مما يعد جديداً من أخبارٍ ومعلومات وحوادث تسبق به المنتديات بقية الوسائل الإعلامية الأخرى، وإن كان أحياناً طبيعة ما يطرح لا يمكن أرباب تلك الوسائل من طرحه، فيلجأ بعضهم إلى طرحه من خلال تلك المنتديات وغيرها.

الأمر الثاني: إضافة إلى وجود تكتلات وتحزبات لإبراز قضية بعينها، وهذا وإن كان فيه من السلبية والخداع الشيء الكثير، إلا أنه يهون إذا ما قورن بقيام بعض المشاركين في تلك المنتديات باستخدام عدة معرفات (أسماء) وطرح مواضيعه والتعليق عليها والإشادة بها فينخدع كثيرون بما يطرح ويظنون أن هناك توجهاً مجتمعياً وميلاً نحو هذا الموضوع.

استبانة أجراها المؤلف عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) شملت ١٨٨٤ من مستخدمي الإنترنت
هل ما يطرح في مواقع ومنتديات الإنترنت من مشاركات وتعليقات يمثل الرأي العام في المجتمع السعودي؟



جاءت هذه النتائج استناداً لإجابات ١٨٥١ فيما امتنع ٣٣ من المستجوبين عن الإدلاء برأيهم.
أعتقد بأن مسألة النشر على الإنترنت يمكن أن تعكس الرأي العام في المجتمع السعودي في بعض القضايا بنسبة تمكنك من اتخاذ خطوات أو إجراءات تناسب تلك الآراء، ولكن في بعض القضايا لا يمكن أن يعتد بما يطرح عبر مواقع ومنتديات الإنترنت فقط، وهذا يعود إلى طبيعة بعض القضايا وخبرة من يرصد ردود الأفعال ومدى معرفته بحقيقة تلك المنتديات ونوعية الكتاب المشاركين بها.

وما تشكله تلك المنتديات من أهمية في العقد الماضي كان كبيراً ولا يمكن تجاهله خاصة من أبناء هذا المجتمع لدرجة أن أحد المنتديات المنتمية لإحدى دول مجلس التعاون الخليجي كان معظم المشاركين فيه من هذه البلاد وكان ينشر من خلاله أخباراً متنوعة وجديده، لدرجة أن كثيرين حين كانوا يبحثون عن خبر أو معلومة أو يريدون التحقق من إشاعة تفشت في مناسبة كانوا يدلفون مباشرة لذلك الموقع، حتى صار الموقع الحواري الأول عربياً واحتل مرتبة متقدمة بين مواقع الإنترنت عالمياً فصار ضمن أفضل (٣٠٠) موقع زيارة وتصفح.

إلا أن تمادي مشرفي الموقع بعلم صاحبه في نشر بعض ما يسيء لهذه البلاد وولاة أمرها وما يطرح من مواد ومشاركات وأخبار وإشاعات تحرض على الفتن وتنال من هذه البلاد كل ذلك اضطر مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية لتقوم بحجب ذلك الموقع وهذا القرار قوبل في البداية بنوع من الاستهجان من قبل أرباب ذلك المنتدى بحجة أن آلية الحجب غير مجدية ولن تفيد، كما أنها لن تعيق متصفحي الموقع من

إيجاد عشرات الوسائل لتخطي الحجب والدخول للمنتدى، إلا أن توقعاتهم خابت وجلبت عليهم خسائر كبير تسببت بتقهر المنتدى وتراجعه وخسارته لمعظم زواره لدرجه أن ترتيبه عالمياً تراجع إلى (٣٥ ألف)[١] بعد أن كان ضمن أفضل (٣٠٠) موقع أما في المملكة فبعد أن كان ضمن أفضل (٥) مواقع تقهقر إلى (١٥٠٠).

والحقيقة أن المنتديات كأماكن لتجمع مستخدمي الإنترنت بمختلف أطيافهم ومشاربهم يعد حالة تذهلك حين تتأملها ولك أن تتخيل طرحك لموضوع يقرأه عشرون أو ثلاثون ألف في دقائق كلهم مجتمعون في نفس المنتدى بغرض تبادل الرأي والتشاور ومطالعة ما يطرح من مستجدات والتعليق عليها.

وتتنوع تلك المنتديات ما بين منتديات اجتماعية وسياسية وتعليمية ورياضية وتقنية وغيرها الكثير، كما أنها كانت من أهم أساليب التواصل ونشر المعلومات التي استخدمتها الفئات الضالة لأغراض نشر فكرهم، فكان لهم أعداد كبيرة من المنتديات الموجهة إلى المجتمعات العربية، وعلى الأخص المجتمع السعودي، إلا أن تظافر الجهود وتوعية المجتمع حدّا كثيراً من تأثير تلك المنتديات التي ما زال القائمون عليها إلى يومنا هذا كلما تم إغلاق موقع أو منتدى لهم استحدثوا آخر، ولكن من الواضح أن عمليات الرقابة الجادة التي قامتً بها السلطات السعودية أثمرت بشكل كبير وحدت من أعداد تلك المنتديات لدرجة أضطر معها معظم أصحابها إلى إغلاقها ومنع الدخول إليها إلا باسم مستخدم وكلمة مرور خاصة بكل عضو، وهذا وإن كان ظاهره سيئا، إلا أنه في حقيقته كفى المجتمع من كثير من شرورهم وموادهم التحريضية المنشورة في تلك المنتديات التي لا تقف عند حد معين بدءا بالدعوة إلى الانضمام إليهم، مرورا بفتاوى التكفير المتنوعة الصادرة عن منظريهم، إلى نشر دروس في كيفية عمل القنابل والأحزمة الناسفة لمن أراد إهلاك من يختلف معه.

الشبكات الاجتماعية:

الشبكات الاجتماعية عبارة عن مواقع رقمية على الإنترنت تتيح للمشتركين بها

(١) حين كتبت هذه المعلومة لأول مرة كان ترتيب الموقع (٢٢ ألف) وحين قمت بتصحيح ما في الكتاب من أخطاء مطبعية ولغوية، راجعت هذه المعلومة فوجدت أن الموقع قد تقهقر إلى المرتبة (٣٥ ألف).

إنشاء صفحات خاصة بهم يشتركون من خلالها مع آخرين بمواد متنوعة نصية، وسمعية، ومرئية، وأشياء مختلفة.

كان أول ظهور للمواقع الاجتماعية عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م) حيث ظهر موقع Classmates.com ثم تلاه موقع SixDegrees.com. اعتمدت هذه المواقع على فتح صفحات شخصية للمستخدمين وعلى إرسال رسائل لمجموعة من الأصدقاء، ولكن تم إغلاقها؛ لأنها لم تأت بأرباح لمالكيها.

بعد عدة سنوات تم إنشاء العديد من المواقع التي انتشرت انتشارا واسعا في العالم وجمعت الملايين من المستخدمين وكان من الواضح أن تلك الشبكات الاجتماعية قد أحدثت تغيّرا كبيراً في كيفية الاتصال و المشاركة بين الأشخاص والمجتمعات و تبادل المعلومات[(١)].

والمواقع الاجتماعية كثيرة جداً ولكن تأتي مواقع اليوتيوب (youtube) الفيس بوك (facebook) والتويتر (twitter) كأبرز تلك المواقع على مستوى العالم وقد زاد الإقبال عليها بشكل كبير خلال السنوات الأخيرة رغم حداثة تأسيسها، حيث تأسس الثاني عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م) وقد أثير الكثير من الجدل حول الموقع على مدار الأعوام القليلة الماضية لدرجة أن بعض البلدان قامت بحجبه عن مواطنيها كسوريا وإيران وكما حدث في تونس وباكستان. وقد تزايدت شعبية الموقع ليحتل المركز الثاني على مستوى العالم بعد غوغل كما يحتل المرتبة الثالثة في المملكة ويضم أكثر من نصف مليار مستخدم، ثلاثة ملايين منهم من المواطنين والمقيمين في هذه البلاد والنسبة العظمى منهم من الشباب.

وبالنسبة لموقع التويتر فهو موقع بدأ يلفت الأنظار إليه بشكل أكبر في الآونة الأخيرة وصعدت نسب الإقبال عليه بشكلٍ كبير حيث يحتل المرتبة التاسعةَ عالمياً، إلا أن شعبيته في المملكة ليست كشعبية سابقيه حيث يحتل المرتبة الرابعة والعشرين ورغم أن الموقع

(١) بنان الدخيل، ومشاعل البشر بحث: المواقع الاجتماعية وتأثيرها على المجتمع السعودي، الرياض، ١٤٢٩، (٢٠٠٩م).

يشير إلى أن عدد مستخدميه يزيد على (١٧٠) مليون مستخدم في أنحاء العالم إلا أنه يرفض الإفصاح عن أعداد مستخدميه في المملكة، لكنه يشير إلى أن نسبة نمو أعضائه هناك ارتفعت بشكل كبير خلال الأشهر الماضية ٢٤٠٪ ويعتقد بأن هذه النسبة قد زادت خاصة بعد الأحداث الأخيرة المتعلقة بالثورات العربية.

استبانة أجراها المؤلف عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) شملت ١٨٨٤ من مستخدمي الإنترنت يشكل السعوديون منهم ٩٥،٩٪ و٣٪ من المقيمين في المملكة و ١،١٪ غير ذلك.

هل لديك حساب في موقع الفيس بوك؟

الإجابة		مجموع الإجابات	النسبة المئوية
نعم		١١٣١	٪٦١,٢
لا		٧٢٢	٪٣٩,١

جاءت هذه النتائج استناداً لإجابات ١٨٤٧ فيما امتنع ٣٧ من المستجوبين عن الإدلاء برأيهم

هل لديك حساب في موقع التويتر؟

الإجابة		مجموع الإجابات	النسبة المئوية
نعم		٢٩٩	٪١٦,٣
لا		١٥٣٧	٪٨٣,٧

جاءت هذه النتائج استناداً لإجابات ١٨٣٦ فيما امتنع ٤٨ من المستجوبين عن الإدلاء برأيهم

استخدامات الفيس بوك والتويتر في المملكة:

تتنوع استخدامات الفيس بوك والتويتر في المملكة وإن كان معظمهم يستخدمه بغرض تبادل المعلومات مع الأصدقاء وأغراض ترفيهية أخرى، وتتنوع الشرائح التي تستخدمه فهناك صفحات لوزراء كوزيري الإعلام والعدل، ومشائخ كالعودة والقرني، وإعلاميين كتركي الدخيل ومعارضين كالفقيه، وغيرهم كثير، جميعهم يستخدم تلك الوسيلة بغرض الوصول إلى أكبر شريحة من الناس ليسمعوهم رسائلهم وما يودون قوله، أو مشاركتهم بعض المعلومات والصور والصوتيات وغيرها مما أعجبهم أو تلك التي هالتهم بحسب طبيعة كل شخص.

وتبث في تلك الشبكات الاجتماعية قضايا منوعة سواء منها ما يخص المرأة وهمومها كما نشاهد عند التصفح وما تذكره كثيرٌ من النسوة ومنهن فاطمة صاحبة إحدى صفحات الفيس بوك التي تقول: بأنها تشعر بالألم والإحباط خارج حدود هذه الشبكة، وهذا ما جعلها ترى أن المكان المناسب لبث همومها المعيشة داخل أسرتها هو هذه الصفحات، التابعة لموقع تحول لدى كثير من السعوديات لمكان تدون فيه المشاعر المكبوتة التي لا يستطعنً أن يعبرن عنها أمام الرجال في أسرهن.[1] أو ما يتعلق بالترويج عن السلع كما تفعل من تعرف بأم غالب، وهي سعودية في عقدها الرابع، تستخدم الفيس بوك، والتويتر، للترويج لمنتج لا يصنعه غيرها. حيث تذكر بأنها ومنذ أكثر من أسبوعين، لم تذق طعم الراحة، قبل انطلاق مهرجان سنوي في منطقتها الجوف، استغلته للتسويق لصابون بات ذا شهرة في منطقتها والمناطق القريبة، بروائح خاصة وتركيبات لا تملكها إلا هي[2].

وبالمناسبة فرغم أن أشياء كثيرة تغيرت في هذه البلاد إلا أن تبني تلك المنتجات اليدوية التي تنتجها سواعد أبناء وبنات هذه البلاد ما يزال على حاله لم تطله يد التغيير؛ فدعم المبتكر أو المنتج الوطني بقي على حاله بعيداً جداً عن هموم معظم التجار السعوديين على الرغم من أن كثيراً من تلك المنتجات أثبتت جودتها العالية وصار لها زبائن يبحثون عنها رغم ضعف الوسيلة الترويجية لها، وأم غالب التي استطاعت أن توصل نفسها لما خلف أسوار الجوف بوساطة الفيس بوك يمكن أن يصل منتجها إلى ما وراء البحار لو وجدت من يتبنى أفكارها ومنتجها الذي أجبر من اقتناه على التزود منه والترويج له بين معارفه وأصحابه.

أما بالنسبة لاستخدام تلك الشبكات بغرض الدعوة فحدث ولا حرج حيث زرت بنفسي مواقع كثير من الدعاة والمشائخ والمكاتب الدعوية والجمعيات الخيرية

(١) تحقيق بعنوان: (حواء تكتسح ثلث مستخدمي الفيس بوك في المملكة) أعدته الكاتبة فوزية الحربي، ونشرته صحيفة الجزيرة في عددها رقم ١٣٧٢٨ بتاريخ ١٤٣١/٥/١٦هـ الموافق ٢٠١٠/٤/٣٠م.

(٢) خبر بعنوان: (سعودية تلجأ إلى فيس بوك وتويتر لترويج منتجاتها) نشرته صحيفة الشرق الأوسط في عددها رقم ١١٧٦٨ بتاريخ ١٤٣٢/٣/١٣هـ الموافق ٢٠١١/٢/١٦م.

وكل ما له علاقة بنشر الإسلام والدعوة إلى الله ولن أسمي هنا ولكن إن أردت فما عليك سوى الدخول إلى موقع الفيس بوك www.facebook.com أو التويتر www.twitter.com وكتابة اسم من ترغب من الأشخاص المشتغلين بهذا المجال وستجد أن لمعظمهم موقعاً خاصاً به إما أنشأه بنفسه ويتابعه ويشرف عليه بشكلٍ مباشر، أو أن هناك من أسس الصفحة من طلابه ويقوم بنشر كل ما يتعلق به في تلك الصفحات بالتزامن أحياناً مع ما ينشر في الموقع الخاص بالشيخ أو الداعية.

والحقيقة أن ما يميز الشبكات الاجتماعية عن غيرها ثلاثة أمور لعلي أوجزها هنا:

أولها: أنها تمكن الشخص من الوصول إلى متصفحي ومرتادي الإنترنت في كل مكان في هذه المعمورة بسرعة وسهولة.

ثانيها: أنها لا تكلف الشخص أي مبالغ مالية لإنشاء صفحة خاصة به.

ثالثها: وهو الأهم من ذلك كله أنها لا تحتاج لأي خبرة فنية عند التاسيس أو الحماية اليومية والتحصين التي يحتاجها الموقع الخاص.

وبالطبع فلكل وسيلة تقنية مزايا قد تصل لدرجة العجز عن حصرها كما هو الحال مع الإنترنت وشبكاتها الاجتماعية، ولكن بالمقابل لها سلبيات يجب الحذر منها خاصة بالنسبة لمجتمع محافظ كمجتمعنا الذي يتجاوز عدد مستخدمات الشبكات الاجتماعية فيه المليون من إجمالي ثلاثة ملايين على الأقل يستخدمون تلك الشبكات، ـ فعلى سبيل المثال فإن ٨٦٪ من طالبات جامعة الأمير سلطان أفدن بأنهن يستخدمن الشبكات الاجتماعية[1] ـ وتكمن المشكلة تحديداً في أمور يمكن إيجازها بنقاط لعلي أكتفي منها باثنتين أبدأ بالجانب الأهم بالنسبة لكثيرين وهو المتعلق بالأسرة والمرأة:

(١) بحث بعنوان: (المواقع الإجتماعية وتأثيرها على المجتمع السعودي) (مرجع سابق).

١) فحين تضيف صديقك لا يكتفي الموقع بإضافته فقط، بل يعرض له قائمة بأصدقائك لينتقي منهم من يريد للتواصل معه، ورغم وجود بعض الإعدادات التي تساعد في المحافظة على شيء من الخصوصية إلا أن أعداداً كبيرة من المستخدمين خاصة حديثي العهد بالفيس بوك لا تعلم عنها شيئاً، ولهذا فهم عرضة للمتطفلين للاطلاع على كل ما يدور بين بعض المشتركين خاصة في المجالس النسوية التي انتفت أو تلاشت كثيرٌ من خصوصيتها بسبب العوالم الافتراضية، فلم تعد هناك تلك التحصينات، بل إني لا أبالغ إذا قلت إن كثيراً من العادات السيئة التي كنا نعاني منها في الأسواق مما يسمى بالمعاكسات تناقصت بشكلٍ كبير؛ بسبب تمكن الشباب من التواصل بالفتيات عبر تلك الشبكات الاجتماعية في ظل غفلة الرقيب الأسري على الأغلب، ويؤكد ذلك دراسة[١] أجريتها عام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) أشار من خلالها ٦٢٪ من الآباء والأمهات أنهم لا يعلمون أي شيء عن المواقع التي يزورها أولادهم[٢].

والإشكال أن كثيراً من أصحاب النوايا والغايات السيئة ممن يتصيدون النساء والأحداث من صغار السن، يشتركون في تلك المواقع بغرض الإيقاع بضحايهم، وقد وجه المدعي العام في نيويورك بتاريخ ١٣/٩/١٤٢٨هـ الموافق ٢٤/٩/٢٠٠٧م مذكرة استدعاء لمسؤولين في «فيس بوك»، وقال في خطاب للشبكة إن فحصا أوليا أوضح وجود أوجه قصور في الحماية التي يتمتع بها مستخدمو الشبكة، خاصة صغار السن. وقد قام أحد المحققين بالتظاهر بأنه شاب صغير السن ودخل على موقع للشبكة فتعرض لملاحقة جنسية من قبل بعض المستخدمين.

كما قال المدعي العام لولاية كونيتيكت ريتشارد بلومينثال لوكالة رويترز للأنباء إن مكتبه وجد ثلاثة من المدانين بجرائم جنسية ضمن شبكة مستخدمي فيس بوك،

---

(١) دراسة: حقيقة معرفة الآباء بطبيعة استخدامات أبنائهم لوسائل التقنية الحديثة (مرجع سابق).
(٢) للمزيد حول ذلك تفضل بالرجوع إلى بحث لي بعنوان الفراغ الفكري ودوره في التأثير السلبي على أمن المجتمع الفكري، بحث محكم ومنشور من قبل الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

وإنه يتوجب على الشبكة القيام بالكثير من الخطوات قبل أن يشعر بالرضى الكامل تجاهها على حد وصفه[١].

ولكن على الجانب الآخر فهذه المواقع ربما تكون سلبية على بعض العابثين؛ حيث إن هناك بعض الشركات وبعض العوائل صارت تستند إلى معلومات من موقع الفيس بوك وتبني عليها قرارات تمس الشخص سواء في قبوله عند التقدم لوظيفة أو الموافقة عليه كزوج لابنتهم.

كما أن هناك تقارير تحدثت عما يتعلق بالخصوصية الشخصية وعن قيام فيس بوك بتطوير نظام يسمح للمعلنين باستخدام المعلومات التي يقدمها مستخدمو الشبكة عن أنفسهم، وهو ما ينفيه زوكربرج، ولكن الأكيد أن اتفاقية الاشتراك في فيس بوك تنص على أن المستخدم يمكنه في أي وقت إلغاء حسابه في الموقع، ولكن نسخاً من الصور وتسجيلات الفيديو وكل ما في الحساب تبقى محفوظة لدى خوادم الشركة ويمكن للشركة التصرف بها كيفما تشاء، ولهذا فعلى الجميع الحذر من وضع أشياء خاصة جداً ظناً منهم أن لا أحد يمكنه الاطلاع عليها أو أنها ستتلف بمجرد مسحهم لها.

٢) ويجب أيضاً أن لا نغفل خطورة تلك الشبكات الاجتماعية وخاصة الفيس بوك على الأمن المجتمعي، وما حصل من قلاقل واضطرابات في بعض البلدان العربية كانت تلك الشبكات هي من أشعل فتيله وأجج الشباب، ولا يمكن لأحد أن يجزم بأن ما حدث كان بتدبير ودعم مباشرين من قوى خارجية، ولكن الأكيد أن تلك الشبكات وتحديداً الفيس بوك يتلقى دعماً مالياً من أجهزة استخباراتية من أجل الاستفادة من قواعد البيانات الموجودة لديهم، وهذا ما يذهب إليه بعض الباحثين الأميركيين الذين أثاروا فرضية احتمال تلقي الموقع دعما ماليا من أجهزة

---

(١) تقرير بعنوان: (جوكربيرج الشاب الذي حوله موقع فيس بوك الى مليونير) أعده الكاتب محمد القصاص، ونشرته البي بي سي على موقعها /http://www.bbc.co.uk/arabic بتاريخ ١٥/٩/١٤٢٨هـ الموافق ٢٦/٩/٢٠٠٧م

الاستخبارات الأميركية تحديداً؛ من أجل بناء قاعدة بيانات ضخمة للمشتركين الشباب من مختلف دول العالم والاستفادة منها لأغراض استخباراتية، كما أكد بعضهم على أن اتفاقية التسجيل في الموقع كانت تشير سابقاً إلى إمكانية تقصي معلومات عن المشتركين وإتاحة بياناتهم لطرف ثالث وربما يقصد به جهة أخرى لها أغراض غير مصرح بها[(١)].

أما ما أوردته وكالة «إنترفاكس»، فهو إن صدقت يعد دليلاً قاطعاً لا مراء فيه على أن تلك الشبكات الاجتماعية مسلطة على الشعوب لخدمة أهداف استخباراتية خاصة بدول غربية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث نقلت تلك الوكالة عن رئيس أكاديمية العلوم العسكرية الروسية الجنرال محمود غارييف قوله: «إن الاضطرابات التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في الآونة الأخيرة ـ يقصد المظاهرات التي حدثت في تونس، مصر، ليبيا مطلع عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) ـ ناتجة عن تجريب الغرب لأحدث التكنولوجيا الإعلامية التخريبية، وقد تم إنشاء مئات الآلاف من تلك الصفحات في تلك البلدان على مدى سنتين؛ حيث تم تجريبها في البداية في بث دعوات للقيام بأعمال غير منافية للقانون، وحين لوحظت فاعليتها، جرى في اللحظة المناسبة عبر الشبكات كافة توجيه أمر بالقيام بمظاهرات.

وكانت هناك خطط دقيقة بخصوص ما يجب فعله وفي أي مكان وفي أية أحياء وميادين، وإلى أين يجب التحرك، كل ذلك كان بدعم كامل من وكالة الأمن القومي الأميركية التي جندت ـ بحسب قول غارييف ـ ما يربو على ١٦ ألف موظف لمراقبة تلك الشبكات الإلكترونية في كل أنحاء العالم، وفي الوقت نفسه هددت البلدان المستهدفة بأن أية محاولة للحيلولة دون هذه الأعمال، يعلن على الفور بأنها انتهاك لحرية التعبير وحقوق الإنسان وتفرض مختلف العقوبات»[(٢)].

---

(١) مقالة بعنوان: (فيس بوك في قفص الاتهام) للكاتب أحمد بن سالم بن حمود السيابي نشرتها صحيفة الوطن العمانية، عدد (٩٤٥٣) بتاريخ ١٤٣٠/٦/٢٣هـ الموافق ٢٠٠٩/٦/١٧م.

(٢) نقلت الخبر بتصرف من مقالة بعنوان: (الإرهاب الإلكتروني) للكاتب عبد العزيز السويد، نشرتها صحيفة دار الحياة بتاريخ ١٤٣٢/٤/٢٥هـ الموافق ٢٠١١/٣/٣٠م.

وفي تقرير نشرته صحيفة الحقيقة الدولية أشار إلى ما قاله: جيرالد نيرو الأستاذ في كلية علم النفس بجامعة بروفانس الفرنسية، وصاحب كتاب مخاطر الانترنت: إن هذه الشبكة الفيس بوك يديرها مختصون نفسانيون إسرائيليون مجندون لاستقطاب شباب العالم الثالث وخصوصا المقيمين في دول الصراع العربي الإسرائيلي إضافة إلى أمريكا الجنوبية. ويشير التقرير إلى أن الشباب العربي كثيراً ما يجد نفسه مضطراً دون أن يشعر للإدلاء بتفاصيل مهمة عن حياته وحياة أفراد أسرته ومعلومات عن وظيفته وأصدقائه والمحيطين به وصور شخصية له ومعلومات يومية تشكل قدراً لا بأس به لأي جهة ترغب في معرفة أدق التفاصيل عن عالم الشباب العربي.[١]

وهذا يمكن جهات أجنبية من الاستفادة من تلك المعلومات والحوارات لمعرفة ما يدور من حراكات فكرية يمكنهم توجيهها بالطريقة التي تخدم مصالحهم، خاصة وأن بعضاً أو كثيراً من مستخدمي الإنترنت ليس بالضرورة أنهم معروفون بشكلٍ مباشر؛ وأذكر بأن خالد سعيد الذي كان يحرك الشباب المصري ويوجههم للتجمهر والتظاهر لم يكن أحدٌ يعرفه، ولكنه حظي بقبول شعبي بين الشباب ومستخدمي الفيس بوك تحديداً بسبب أسلوبه وطريقة طرحه، ولن يكون توظيف شخص لديه القدرة على استقطاب الشباب صعباً على جهات متخصصة كالاستخبارات العالمية أياً كانت.

وبعد أقل من أربعة أشهر من نشر ذلك التقرير، نشرت مجلة لوما غازين ديسراييل الفرنسية ملفا واسعا عن هذا الموقع جمعته - بحسب قولها - عبر مصادر إسرائيلية وصفتها المجلة بالموثوقة، أكدت خلاله بأنه موقع استخباراتي مهمته تجنيد العملاء والجواسيس لصالح الكيان الصهيوني، ورغم أن أولئك الأشخاص عاديون لا يعرفون أنهم يقومون بمثل هذه المهمة الخطيرة؛ حيث يعتقدون بأنهم

(١) تقرير بعنوان: (العدو الخفي) أعده مصطفى عمارة، نشر في صحيفة الحقيقة الدولية، بتاريخ ١٤٢٩/٤/٣هـ الموافق ٢٠٠٨/٤/٩م.

يمضون الوقت أمام صفحات الدردشة الفورية واللغو في أمور قد تبدو غير مهمة، وأحيانا تافهة أيضا ولا قيمة لها. وقد أفزع الكشف عن هذه المعلومات الحكومة الإسرائيلية، حيث اتهم السفير الإسرائيلي في باريس المجلة اليهودية بأنها «كشفت أسراراً لا يحق لها كشفها للعدو.[(١)]

والشواهد والقرائن التي يمكن أن أدرجها هنا كثيرة ولكني أكتفي بما نشرت، وقبل أن أغلق هذه الفقرة من المهم أن أذكر أن كاتب هذه السطور أحد المشاركين في أكثر من شبكة اجتماعية منها الفيس بوك والتويتر وحتى اليوتيوب وأدخلها بشكلٍ يومي تقريباً ونشرت على صفحاتها معلومات وصوراً شخصية، رغم اطلاعي التامّ على كل ما يقال عنها، ولكن كل ذلك لم يمنعني من الحديث عنها في هذا المبحث من موقع المستريب المتشكك، الذي أورد ما يظن صحته مع احتمال خطئه، ولكن أن نتعامل مع أي شيء وليس الشبكات الاجتماعية فقط، بمنطق المستفيد الحذر وهو ما سعيت لأن أفعله، خيرٌ من أن نتعامل مع المستجدات وكأنها غولٌ يريد أن يوردنا المهالك، كما فعلنا مع مستجدات سابقة كالفضائيات مثلاً، وقد أوردت شيئاً حول ما دار في وقتها في صفحاتٍ سابقة، والإشكال أن تمنّعنا المبالغ فيه، كثيراً ما قادنا إلى أمرين:

الأول: تأخر استفادتنا من الوسائل المستحدثة وتعطيل أحد الأبواب التي كان يمكن أن نستغلها في التوعية والدعوة ونشر الثقافة والدين.

الأمر الثاني: حدوث انفصال مجتمعي خطير بين المؤيد المستخدم والمعارض الممتنع ينتج عنه سلبيات كثيرة على رأسها إفراط بعض المؤيدين في استخدام تلك التقنية المستحدثة؛ لعدم وجود من ينصح من جهة، وفي نفس الوقت وجود شعور قوي لديهم أن ما يفعلونه ممنوعٌ ولكنهم يتمادون بفعله؛ لأنهم يرون أنهم في خانة المخالفين باستخدامهم لتلك الوسيلة أساساً التي سمعوا كثيراً من ينهى عن

---

(١) خبرٌ بعنوان: (صحيفة يهودية تفجر قنبلة تكشف حقيقة الفيس بوك) نشره موقع داماس بوست http://www.damaspost.com/ نقلاً عن وكالات الأنباء بتاريخ ١٤٣٠/١١/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٩/١١/٧م.

استخدامها، رغم أن منع تلك الوسيلة مسألة يمكن أن نقول عنها بأنها خلافية، بينما الفعل الذي مارسوه من خلالها متفقٌ على تحريمه، وكان من المهم عدم الاستعجال في إقصاء تلك الوسائل بالتحريم وترك كثير من عامة الناس يخالفون رأي فقهاء وعلماء البلاد وهذا أدى إلى إيجاد شعور لدى العامة بأن فقهاء البلاد ليسوا بالضرورة مرجعية في كل المسائل خاصة المستحدث منها، وأعتذر منك عزيزي قارئ هذه الأسطر إن كنت اختلفت معي فيما قلته، ولكني أحدثك بأمانة أني لم أعمل بالفتاوى التي حرمت اقتناء ما يسمى بالدش أو القنوات الفضائية، ولم أعمل بفتوى تحريم استخدام كاميرا الجوال، ولم أعمل بالفتوى التي تحرم التصوير بكافة أشكاله إلا لضرورة، كل ذلك في حينه وقد رأيت أناساً يعملون بتلك الفتاوى وينشرونها، بل وذهب بعضهم إلى إلزام غيره بها حسب استطاعته ونفوذه على ذلك الشخص.

ولم أكن وحدي من لم يعمل بتلك الفتاوى بل كثير من الناس لم يلتفتوا إليها، رغم خشية بعضهم من ردود أفعال المحيطين بهم ممن كانوا يميلون إلى التحريم، مما تسبب في وجود شيء من النفاق الاجتماعي، بحيث صرنا نرى أشخاصاً يذمون المستحدثات في بعض المجالس، رغم أنهم يقتنونها في منازلهم، ولا ينهون أفراد أسرهم عنها.

أعود إلى حديثي عن الشبكات الاجتماعية فأقول: بأن التعامل معها بحذر مطلب، وتسخيرها لغرض الدعوة والتوعية ونشر الثقافة مطلب، ومعرفة ما يدور في صفحاتها وما يبثه أبناء المجتمع من أفكار وما يروجون له من قيم مطلب، وانتفاع الجهات الأمنية المختصة بها لمعرفة ما يدور في أروقتها وما ينشر في صفحاتها مطلب، وقيامهم بإجراء الدراسات اللازمة التي تكفل حفظ أمن وثقافة ومعتقد المجتمع بأسره هو الآخر مطلب. كل تلك المطالب التي لم تستهلك من هذا المبحث غير بضعة أسطر هي في حقيقة الأمر في غاية الأهمية، ولو وفقنا إلى العمل على استغلال كل ما يشد انتباه شبابنا وهم المحرك الرئيس للتغيرات الجذرية التي

تحدث في مجتمعنا، لكان حالنا الآن أفضل ولصرنا أمة يحار عدوها في النيل منها، وعندما تصل إلى هذه المرحلة فأنت وصلت إلى ذروة الرقي المجتمعي، وهذا ممكن وقابل للتحقيق، لكنه يتطلب شروطاً كثيرة يأتي الصدق والجدية والبصيرة على رأسها وبدون أي من تلك العوامل الثلاثة لا يمكن أن ترتقي بمجتمع، فالصدق يبعد الكاذب والخائن والمزيف والمدلس ومن في حكمهم، والجدية تنفي الكسل والتسويف والمماطلة وما يندرج تحتها، أما البصيرة، فتقضي على الجهل والتعتيم والمنع المفرط، وما يدور في رحاها من مفاهيم تقهر المجتمع وتكبله وتعيقه عن تحقيق أي تقدم في سلم الحضارة. وهذه المفاهيم أو العوامل الثلاثة هي ما تحتاجه الأمة السعودية لتهرول في طريق التقدم بدلاً من السير البطيء الذي يحدث الآن، فهذه المملكة لا ينقصها الرجال ولا الموارد ولكن لا يخفى على أحد أن لدينا قصوراً في بعض الجوانب الأخرى أظن بأن الاهتمام بالعوامل الثلاثة التي ذكرت ستكون عوناً على تحقيق ما نصبوا إليه جميعاً بإذن الله.



المبحث الخامس

الخلاصة، الحلول، التوصيات

الخلاصة

ما ذكرته في هذا الكتاب من وسائل كان لها أثرٌ فاعلٌ في تطور ورقي المجتمع السعودي وتغيره سلباً أو إيجاباً وهو الغالب والأعم بفضل الله ثم بفضل المخلصين من أبنائه وعلى رأسهم القيادة الرشيدة منذ عهد خادم البيتين الشريفين الأول المؤسس الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن مروراً ببقية أبنائه رحمهم الله جميعاً حتى العصر الذي نعيشه عصر خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز.

إضافة إلى ذلك الدور الذي قام به علماء هذه البلاد ووقوفهم في نفس الصف كحلقة وصل في مناسبات كثيرة بين الراعي والرعية. ثم لا أنسى الدور العظيم الذي قام به عموم أفراد هذا المجتمع بمختلف أطيافهم وشرائحهم وما تميزوا به من طيبة كانت غالبة في تعاملهم مع بعضهم ومع من قدم إلى بلادهم، وما أكنّوه من محبة كانت تقودهم في الغالب لخدمة هذه التراب الطاهر الذي أقلهم، ولو سمح المجال لأسهبت في الحديث عن دور كل طرفٍ من تلك الأطراف الثلاثة في التغير والنهضة التي حظيت بها هذه البلاد في فترة زمنية قصيرة لم تتجاوز أعمار الرجال وهي فترة قصيرة جداً حين تقاس بأعمار الأمم.

ولكني أأسف لعدم تمكني من ذكر أشياء كثيرة كنت أنوي ذكرها وقد أعددت العدة لأن أتطرق إليها، ولكن مساحة هذا الكتاب أجبرتني على ترك الكثير من المباحث الهامة، ومنها بالإضافة إلى ما ذكرت: بعض الميادين الثقافية الأخرى كالوسائل التثقيفية المباشرة مثل: الصحافة، والكتاب، وشريط الكاست، ومنبر الجمعة، وحلق تحفيظ القرآن. وملتقيات ثقافية: كالأندية الأدبية، والجمعيات الثقافية، والصالونات الأدبية، والأندية الرياضية، والمنتديات الأدبية. بالإضافة إلى الأنشطة والفعاليات الثقافية: كمهرجان الجنادرية، والمراكز الصيفية،

والمهرجانات الصيفية (كسوق عكاظ، والمفتاحة، ومهرجانات المدن والمحافظات، ومهرجانات الأعياد والفعاليات المصاحبة)، والمعارض الثقافية في الداخل والخارج، والأسابيع الثقافية، والندوات والمؤتمرات وغيرها كثير ولعل أحد الباحثين يقوم بدراسة تأثيرات ما ذكرت في الأسطر السابقة.

لكني في ورقات هذا الكتاب الذي سعيت في ثناياه إلى إعطاء صورة عن التغيرات المتسارعة التي حلت بالمجتمع السعودي، سواء ما كان منها مادياً أو ثقافياً. وحاول إعطاء صورة ولمحة موجزة لبعض المستجدات وكيف تعاطى المجتمع معها، ثم كيف آل حالها خاصة وأن بعضها لا يمكن أن يتصور المجتمع أن أسلافه رفضوها وسعوا إلى مقاومتها، إلا أنها فرضت نفسها، مقابل مستجدات ما زال كثيرٌ من أبناء المجتمع لم يتقبلونها وتأتي مسألة قيادة المرأة للسيارة ودور العرض السينمائية على رأس تلك القضايا.

والحقيقة أن همّي تمثل في حرصي على عرض تلك الأحداث وبسطها؛ بقصد تقريب الصورة وجعلها على شكل خط زمني متسلسل تقريباً لمن أراد أن يسبر أغوار ما كان يجري في عقود مضت ليست بعيدة، فعمر كل الأحداث التي سردت والصور التي عرضت لا يزيد على قرنٍ من الزمن بأية حال. وقد حاولت طرح رأيي الشخصي في مواقف تطلبت طبيعتها أهميةً اتخاذ موقف حيالها واضعاً نصب عيني أن ما أقوله وأتطرق إليه وما اتفق معه وما أختلف معه كله سيكون شاهداً لي أو علي يوم ألقى ربي، وأعد كل ذلك اجتهاداً، إن أصبت فالله أسأل أن يأجرني ووالدي عليه، كما أسأله - سبحانه وتعالى - أن يمنحه قبول من قرأه، وإن حصل خلاف ذلك فأسال ربي العفو والصفح. وأتمنى في خلاصة هذا الكتاب لكل من قرأه وأفاد منه وللمجتمع السعودي والأمة الإسلامية جمعاء التوفيق والسداد والرقي والتقدم. والله ولي التوفيق وله الحمد من قبل ومن بعد وآخر الدعوات تسبّحه وتمجّده وتثني عليه وتصلي على خاتم أنبيائه وصفوة رسله وآله وزوجه وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

الحلول

بعد أن تطرقت في المبحثين الثالث والرابع إلى شيءٍ من التغيرات المادية والثقافية التي حدثت في المجتمع السعودي خلال حقبة تزيد على ثمانين عاماً، قصدت من خلالها أن أبين شيئاً مما حدث من خلافات وتنازعات وصراعات فكرية ناشئة عن بعض المستجدات والمتغيرات المادية والثقافية، وبيّنت كيف أن تلك النزاعات تتكرر بصفة دائمة وبنفس الطريقة تقريباً ولنفس الأسباب، ويعاد خلالها نفس الطروحات من كل فريق ما بين محافظ لديه نزع برفض المستحدث؛ خشية أن يقود إلى ارتكاب محاذير شرعية، وبين منفتح يرى ضرورة استقطاب المستجدات قد يصل حال بعضهم إلى الرغبة فيها دون أي ضوابط شرعية بحجة أن ذلك شكلٌ من أشكال الحرية.

ولأني ممن قرأ وسمع وشاهد بنفسه كثيراً من تلك المتغيرات وما دار حولها من نزاعات؛ فقد رغبت أن أضع آلية وفق ضوابط شرعية يمكن من خلالها قياس أي من المستجدات سواء في وقتنا الراهن أو في المستقبل وقد وضعت لها أركاناً أربعة ومعايير ثلاثة جميعها مرتكز على مرجعية شرعية وسمّيت آلية القياس تلك بنظرية (الاختلاط الجسدي والثقافي) أو (نظرية الميمات الأربع في الاختلاط).

(نظرية المؤلف: اختلاط الجسد والثقافة)

نظرية الميمات الأربع في الاختلاط

أقصد بالاختلط في هذه النظرية ليس الاختلاط بمفهومه المتداول في مجتمعنا ولكن بمفهوم أشمل ليضم التلاقي المادي والجسدي والاتصال الثقافي والفكري؛ والحقيقة أن هذه المسألة كثيراً ما أرقت المعنيين وحتى معظم عامة الناس في المجتمع السعودي، ولهذا فقد سعيت إلى الإسهاب في مسألة الاختلاط بمفهومه الواسع في هذا المبحث.

تعريفات:

الاختلاط لغة: خلط الشيء بالشيئ، وتعني مزجه[1].

الاختلاط اصطلاحاً: التقاء أو اجتماع أو اختلاط رجلٍ بمرأةٍ من غير محارمه، أو استقطاب ثقافة أجنبية لمخالطة الثقافة الأم.

الخلوة لغة: خلوت به خلوةً وخلا إليه، اجتمع معه في خلوة[2].

الخلوة اصطلاحاً: اختلاء رجل بامرأة في غيبة عن أعين الناس وأسماعهم.

التعدي لغة: تجاوز في الشيء[3].

التعدي اصطلاحاً: التجاوز على حق معصوم دون مسوغٍ شرعي، سواء كان ذلك الحق مادياً أو معنوياً، وهو من أشكالً البغي واًلظلم.

نظرية الميمات الأربع في الاختلاط: نسبة إلى أركان هذه النظرية وجميع كلماتها تبدأ بحرف الميم (مستفيد، مرجعية، معايير، مستجدات).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ، ج٢، دار المعارف، القاهرة.

(٢) الإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مؤسسة علوم القرآن، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).

(٣) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، م٤، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ، (١٩٧٩م).

وقد قام المؤلف بوضع أركان أربعة لهذه النظرية على النحو التالي:

١) مستفيد.

٢) مرجعية.

٣) معايير.

٤) مستجدات.

أولاً: المستفيد: (وقد يكون المتضرر) وهو المجتمع بأسره ولكني من باب تغليب المعنى تفاؤلاً أسميه مستفيداً. فكل ما يحدث في هذا المجتمع من مستجدات يعود أثرها على المجتمع وهو أصناف ومشارب وشرائح، وأطياف فكرية متعددة ولهذا يجب أن ابينها؛ حتى تتضح مسألة الطيف الفكري التي تمثل فئات المجتمعات وميول كل فئة منها إلى طريقة خاصة في التفكير والتعاطي مع المستجدات تحكمها الطبيعة الفكرية لكل شخص.

وقد قمت بتصنيف المجتمع إلى ستة أطياف فكرية، ومنطقة تعايش وسطية من المهم تلاقي المجتمع عندها في شأنهم العام، أما بالنسبة للمسائل الشخصية فهذه تحتاج إلى تفصيل ليس من المناسب التطرق إليه الآن. ولكن من باب الرغبة في مزيدٍ من الدقة التي تخدم هذه النظرية قمت بوضع ستة أصناف مع منطقة وسطية من المهم تعريف كافة الأطياف بها؛ من أجل التعايش وتلك الأطياف موضحة في الشكل التالي:



الطيف الفكري	طريقة التفكير والنظرة لمختلف المسائل ذات البعد الشرعي
محافظ معتدل	يتوقف عند أحكام الشريعة ويلتزم بما تراه الجماعة أو المذهب.
منفتح معتدل	يتوقف عند أحكام الشريعة، ويأخذ بمختلف أقوال الفقهاء.
مغال متشدد	يذهب إلى التحريم في مسائل أجمع أهل العلم على إباحتها.
متحرر غير مبال	يأتي أشياء رغم علمه بوجود إجماعٍ مطلق على تحريمها.
تكفيري عنيف	يكفر من يختلف معه في بعض المسائل وقد يبيح دمه.
منحل إقصائي	يأتي المحظورات، ويمنع من يخالفه بكافة السبل الممكنة.
منطقة الوسطية	منطقة تعايش لكافة الأطياف الفكرية (منطقة الخضوع والقبول)

يلاحظ هنا أن طيفي الاعتدال يشملان المحافظ والمنفتح، وهما الأقرب إلى منطقة الوسطية، وكلما ابتعد الطيفان الفكريان عن تلك المنطقة زادت الهوة بينهما، فالمغالي المتشدد ضده المتحرر غير المبالي، وأشد منهما في التضاد التكفيري العنيف وضده المنحل الإقصائي.

كما تلاحظ فتلك الأطياف الفكرية المختلفة كل واحد منها له طريقته في التفكير وفلسفته الخاصة، وسوف أوضح ولو بإيجاز شيئاً من ملامح كل طيف وأبرز ما يميزه عن غيره من الأطياف:

المحافظ المعتدل: ملتزم بما جاءت به شريعتنا السمحة، ويأخذ من مذهب واحدٍ فقط، مع احترامه لبقية الأقوال، إلا أنه لا يعمل بها.

المنفتح المعتدل: لا يختلف عن المحافظ إلا أنه يأخذ بكافة الأقوال وليس بالضرورة أن يتمسك بمذهبٍ بعينه، بل تجده في مسائل يأخذ بأقوالٍ أخرى، وعلى سبيل المثال لو أخذنا مسألة صفةٍ الحجاب: فالمحافظ يراها تغطيةً الوجه بالكامل ولا يأخذ بغيرها، أما المنفتح فتجده يأخذ بالأقوال الأخرى التي ذهبت إلى أنه لا يلزم من الحجاب الشرعي تغطية كامل الوجه، وغيرها من الأمثلة والشواهد.

المغالي المتشدد: يحرم أشياء رغم وجود إجماع على إباحتها، كمن يحرم استخدام بعض التقنيات الحديثة بحجة أنها لم تكن معروفة في عهد النبي، وهناك

من يرى حرمة التعامل بالعملات النقدية بحجة وجود الصور، وهناك من يحرم التعليم النظامي للمرأة بكافة أشكاله ويحرم نساءه من الانتساب إليها وغيرها من الأشياء. ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾[1] وفي هذه الآية يذهب ابن كثير - رحمه الله - إلى أنها ردٌّ على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله.

المتحرر غير المبالي: فهو شخص يعشق الحرية ويمجّدها ويأتي كل ما تهواه نفسه ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] فهو يعلم الحلال من الحرام ولكنه يرتكب كافة المحظورات ويتجاوز على الشريعة ويردد الشعار الأهم بالنسبة له المتمثل: «حريتي تنتهي عند حرية الأخرين» بحيث أني ما لم أتجاوز على غيري وأتعدى على حقوقه فأنا في الطريق الصحيح، أما بالنسبة للتعدي على الشريعة وارتكاب الكبائر بأشكالها فهذا من الحرية الشخصية التي لا يتحرج بعضهم من الإقدام عليها رغم إحساس البعض بالذنب حين تستيقض الأنفس اللوامة. وفي نفس الوقت فهذا الشخص كما أنه لا يبالي حين يرتكب المحظور الشرعي فهو لا يبالي بالمصلحين ولا يعترض عليهم ويرى أن منعهم لا يتفق مع المبدأ الأهم بالنسبة له وهو عدم التعدي على حريات الآخرين. كما أنه لا يرغب بوجود أي جهة تمنع الناس من التصرف بحرية مطلقة دون حسيب ولا رقيب كهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تمنع الناس من فعل ما يشاؤون؛ فالمبدأ يذهب إلى أن تعترض بقلبك ولسانك، أما أن تستخدم صلاحياتك الممنوحة لك بموجب النظام فهذا غير مقبول بالنسبة له خاصة مع هذا الجهاز.

التكفيري العنيف: وهو شخص لم يكتف بالتشدد والغلو، بل ذهب إلى أبعد من ذلك برؤيته الضيقة وقلة العلم وعدم التفقه والابتعاد عن العلماء بل والإنكار

(١) من الآية (٣٢) سورة الأعراف.
(٢) الآية (٢٣) سورة الجاثية.

عليهم؛ لأنهم لم يمتثلوا لأقواله التي تدور حول تكفير المعيّن وإخراجه من ملة الإسلام وبالتالي إراقة دمه والخروج على الولاة وحكام المسلمين وتكفيرهم، وغير ذلك كثير من أفعالهم التي لا يقرها دين ولا عرف، ولعل أكبر النماذج الواضحة للعيان تنظيم القاعدة وما يسمى بالتنظيمات الضالة.

المنحل الإقصائي: هو شخص مشابه تماماً لما يسمى بالمتحرر، فهو لا يقف عند المسائل الشرعية، ولكنه يزيد عنه بأن يمنع غيره من الإدلاء برأيه والسعي إلى التضييق عليه وتهميشه والتصرف بطريقة توحي بأن لا وجود لصوت آخر غير صوت الحرية الذي يتبناه الإقصائي المستبد برأيه، بل قد يصل الأمر ببعضهم إلى قتل المخالف والشواهد على ذلك كثيرة ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾[1]

منطقة الوسطية: أو ما أسميها بالمنطقة الخضراء المسالمة الجامعة لكافة الأطياف من أجل التعايش والتنازل عن شيئٍ من آرائهم فيما دون الثوابت القطعية في سبيل المصلحة العامة، وهذا ليس من السهل أن يتحقق إلا إن نحن وضعنا معايير واضحة نتفق عليها تكون هي الفيصل في ترجيح رأي على آخر ليعمل به في المجتمع بأسره بحيث نتوقف عن إثارة ما يتفق أو يجمع على أنه تجاوز المعايير الخاصة بتصنيف الاختلاط ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2] ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣ ﴾[3] ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ ﴾[4] كما أن هذه المنطقة منطقة خضوع وقبول؛ خضوع جميع الأطياف الفكرية التي أسلفت ذكرها لكافة الأحكام المقترنة بأدلة قطعية الثبوت والدلالة، والقبول بالمخالف والتعايش معه واحترام الرأي الذي أخذ به فيما سوى تلك الأحكام والمسائل المحسومة شرعاً.

(١) الآية (٨) سورة البروج.
(٢) من الآية (١٤٣) سورة البقرة.
(٣) الآية (١٥٣) سورة الأنعام.
(٤) الآية (١١٢) سورة هود.

ثانياً: المرجعية: مرجعيتنا في هذا البلد هي الشريعة الإسلامية (الكتاب والسنة) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1] فما ورد من أدلة قطعية الثبوت والدلالة نتوقف عندها، أما ما هو موضع خلاف ويحتاج إلى تفسير ويقبل اجتهاد وتأويلات العلماء فالأصل أن يأخذ واحدنا بالقول الذي يرتاح إليه، أما بالنسبة لما يهم الجماعة فالأولى أن نهتم بالقول الذي يخدمنا كمجتمع يتألف من ملايين البشر، ولا نأخذ بقولٍ يعيق المجتمع ويؤثر فيه سلباً رغم وجود اجتهادات وأقوال أخرى يمكن أن تخدمٍ المجتمع بأسره دون أن يلحق ضررٌ بالبقية من المخالفين، وسوف أبين مقصودي بشكلٍ أوضح ـ بحول الله ـ حين أطرح أمثلة ونماذج للمستجدات.

ثالثاً: المعايير: وأقصد بها الأداة التي يمكن من خلالها فحص المستجدات وكافة المسائل القديم منها والحديث بحيث يمكن من خلالها تصنيف هذا المستجد أو الحدث هل هو مفيد ونافع لنا كجماعة فندعمه ونعين على نشره، أم إنه مباح فنترك لكلٍ حرية فعله أو الامتناع عنه بحسب رغبته وما يتوافق مع ظروفه دون أي تجاوزٍ منا، أم إنه ضار وفيه تعد سواء كان ذلك بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، ظهر التعدي في أوانه أو احتاج وقتاً ليلاحظ العامة آثاره السلبية بعدً أن نبه إليها العارفون والمختصون، وسواء كان وقع التعدي على شيء مادي محسوس كالأعراض، أو وقع على أشياء معنوية ثقافية يوجب ديننا التمسك بها وتحصينها. ولهذا فمعايير الاختلاط لدي على ثلاثة أقسام أبينها فيما يلي:

١) اختلاط لا يترتب عليه بغي ولا تعدي: ومنه الاختلاط المادي الجسدي في الأسواق فالناس رجالاً ونساء يذهبون إلى تلك الأماكن والغرض واضح وهو التسوق وبحسب العرف فالأماكن العامة ليست مكاناً للبغي والتعدي وهي الخلوة غير الشرعية هنا، ولهذا أقول بأن التسوق مكان يحصل فيه الاختلاط الذي لا

(١) الآية (٥٩) سورة النساء

يمكن أن يفضي إلى خلوة وهو من المباحات التي أحلها الله ويمكن للرجال والنساء أن يتشاركوا في نفس المكان مع وضع الأنظمة التي تمنع ضعاف النفوس من التعدي، ومثل السوق بقية الأماكن المفتوحة وعلى رأسها موضعا الطواف والسعي في بيت الله المحرم.

ومن هذا النوع أيضاً الاختلاط الثقافي بين مثقفينا ونظرائهم ممن يعتنقون أدياناً أبطلها ديننا الإسلامي الحنيف فرغم ما يحملونه من فكر مخالف، إلا أن احتمال حدوث التعدي الثقافي ضئيل ولا يكاد يذكر، وهو هنا تأثر المثقف المسلم ببعض الأفكار المنحرفة لدى الطرف الآخر، بل إن نسبة الفائدة من الاختلاط وإيجابياته هنا أعلى وأكبر من سلبياته بكثير؛ خاصة وأن المخالف في مثل تلك اللقاءات قد يتعرف على الدين الإسلامي الحنيف فيعتنقه، أو على الأقل توضح جمالية الدين وتصحح صورته المشوهة في نظر ذلك المخالف.

٢) **الاختلاط الذي هو مظنة التعدي:** وهو اختلاط يحدث مادياً أو ثقافياً مثل الأول ولكن الإشكال فيه أنه مظنة البغي والتعدي ومنه على سبيل المثال: الاختلاط في التعليم بحيث يدرس الذكور مع الإناث في فصل أو قاعة واحدة، ورغم أن هذا النوع ليس فيه تعدٍ مباشر أو خلوة مباشرة، إلا أنه بالتأكيد يفضي إلى الخلوة وبناء علاقات محرمة؛ بسبب ما يعرف من طبيعة علاقة الطلاب ببعضهم خاصة في سنوات المراهقة، سواء في الصفوف المبكرة أو المتقدمة، ثم إن بقاء الطلاب من الجنسين مع بعضهم مدة تصل إلى ثماني ساعات بشكل يومي وما يتخللها من أوقات فراغ كل ذلك يعطي الفسحة للخلوة وبناء العلاقات المحرمة وقد رأينا ذلك في بعض البلدان المجاورة ونتج عنها انتشار بعض أشكال الزواج غير الشرعية.

ومن أشكال هذا النوع التقاء بعض صغار السن من أبناء جلدتنا حين يلتقون مع حضارات أجنبية؛ بسبب السفر سواء للنزهة أو لأغراض الدراسة فهنا يخشى عليهم من التأثر بعد الانبهار وذلك يؤدي إلى اندثار الثقافة الأم أو على الأقل البدء في استصغارها ومقارنتها بثقافة مادية مبهرٍ مظهرها الخارجي، دون أن يكون

لدى ذلك الشباب القدرة على رؤية الحقيقة بوضوح؛ حيث لا يملك الأدوات اللازمة لذلك؛ فهو أشبه ما يكون بالطفل الذي يشده صوت النقد المعدني رغم حقارة قيمته فيزهد بالأوراق النقدية حتى لو كانت أضعافه.

٣) **اختلاطٌ في ذاته تعدٍ وتجاوز:** ومنه خلوة الموظف بزميلته والمدير بسكرتيرته، والطبيب بمساعدته، والشاب بصديقته، وغيرها الكثير وهو ما حذر الشارع منه ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [(١)] وهذه الآية بالذات تحظر تماماً عمل المرأة والرجل في مكان واحد وحدهما، أما إن كان المكان فيه مجموعة كبيرة من الموظفين والموظفات، فهذا ينطبق عليه ما ينطبق على الفصول الدراسية المختلطة والتي فصلتها في النوع الثاني من الاختلاط؛ لأن اللقاء الدائم المتكرر المستمر فترة طويلة بين الرجل والمرأة تزيل هيبة أحدهما عن الآخر وتكسر الحواجز كزمالة الوظيفة أو القاعة الدراسية، وتجعل أحدهما أو كليهما يسعى لتطوير تلك العلاقة وما عليك غير الرجوع إلى الدراسات الغربية وقد سمعت في إذاعة (البي بي سي) البريطانية أحد المختصين يتحدث عن دراسة أجريت عام ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م) في بريطانيا تشير إلى أن ما يزيد على ٨٠٪ من الموظفين والموظفات أقام علاقة غير شرعية مع الجنس الآخر.

أما بالنسبة للتعدي الثقافي فهو ما يوجّه لنا ولأطفالنا عبر بعض البرامج التلفزيونية الغربية أو التغريبية وما تحويه بعض الألعاب الرقمية من أفكار ومشاهد محرمة فهذا بغي واضح تحرمه شريعتنا الحقة ويتفق معها كل منصف لنفسه ولمن يعول، وكل محب وغيور على دينه وأبناء مجتمعه.

رابعاً: المستجدات: وهي القضايا والحوادث والمسائل الخلافية التي غالباً ما تكون محل خلاف وجدال بين بعض المحسوبين على الأطياف الفكرية المختلفة، وتلك المسائل تشغل المفكرين حين يغرقون في البحث والتقصي ومحاولة إثبات صحة ما ذهبوا إليه، وتلك المستجدات أو المسائل كثيرة ومتنوعة منها ما هو مادي

(١) من الآية (٥٣) سورة الأحزاب

ومنها ما هو ثقافي ولعلي أكتفي بتناول ست مستجدات أو قضايا أو مسائل، وثلاث مسائل من كل نوع توضح فكرة نظرية الاختلاط موضوع البحث:

١) عمل المرأة بائعة (كاشيرة): يجب هنا أن نعلم طبيعة البيئة التي ستعمل بها المرأة في تلك المحلات، فإن كانت ستعمل في بيئة نسائية كاملة لا يوجد فيها رجلٌ واحد، ولا تختلط فيها المرأة بالرجال إلا أثناء عمليات البيع والمحاسبة العابرة،[١] فهذه الحالة موافقة للنوع الأول وهو الاختلاط الآمن ولا بأس به، وهنا نأتي لمسألة قبول الأشخاص لمحارمهم أن يعملن في مثل تلك البيئة أو لا، وهذا يعتمد على الطيف الفكري نفسه وطبيعة الشخص، ولكن من الناحية الشرعية فهذا الاختلاط ليس مظنة التعدي والخلوة غير الشرعية بل ونسبة الأمان فيه للمرأة البائعة والمتسوقة أعلى بكثير من الأسواق الأخرى، فنكون بهذه الحالة قد أمّنا لبعض النساء المحتاجات وظيفة ومصدر رزقٍ آمن، وفي نفس الوقت هيأنا بيئة تسوقية آمنة للعائلة بأكملها.

أما إن كانت بيئة العمل مختلطة ذكوراً وإناثاً فهذه ينطبق عليها النوع الثاني من الاختلاط المفضي إلى الخلوة غير الشرعية، وما فيه من كسر الحواجز بين الجنسين، وأنا هنا أشدد أنه بغض النظر عن مكانة الرجل في هذا المجال حتى لو كان عامل نظافة أو مديراً عاماً له احتكاك مباشر بالجنس الآخر فهذا ما يجب أن نقف جميعاً ضده، ويجدر بمن يختلف معي في هذه الجزئية أن يتصور عمل ابنته أو زوجته بين الرجال وما يحدث بين زملاء العمل من علاقات وتواصل وغيرها، ثم

---

(١) كتب الأخ الأستاذ إبراهيم المهنا، أثناء تصحيحه الأخطاء الواردة في الكتاب، متسائلاً: «كيف تكون بيئة نسائية كاملة، ثم يكون فيها رجال عند البيع والمحاسبة؟» وتوضيحاً لذلك، أقول بأن بيئة محل البيع أو المتجر يجب أن تكون نسائية بالكامل؛ تحقيقاً لما أريد أن أصل إليه من أن زملاء العمل الذي يمكثون فترة طويلة يجب أن يكونوا من نفس الجنس، منعاً للاختلاط المفضي إلى خلوة، أما دخول الرجال بقصد التبضع، فهو لقاء عابر يحدث في المتاجر الآن، ولكن بطريقة معكوسة؛ حيث تكون المرأة متبضعة والرجل محاسباً، ولا تدخل تلك الحالة في الاختلاط المفضي إلى خلوة بل هو من النوع الأول الذي أشرت إليه.

حتى لو كان على ثقة بمحارمة وأنها لن تفعل ما قد يساء فهمه، فإنها ربما تشاهد من يفعل ذلك وهذا يصيبها بكثير من الاضطراب وينزع الثقة من نفسها ويجعلها تعيش بين أكثر من نار: فهي بالتأكيد لا تستطيع أن تخبر وليها عما يحدث؛ لأنه سيرفض عملها، ولا يمكنها إصلاح الوضع، كما أن السكوت يصيبها بالقهر والغبن على ما يحدث؛ غيرة على نساء المسلمين، ولا مفر من هذا الوضع غير الهرب من تلك البيئة، أو المشاركة، وبالطبع فهي لن تهرب؛ لأنها ربما يصعب عليها الظفر بوظيفة بديلة، أما المشاركة فإنّ تربيتها وقوة الوازع الديني لديها لن يسمحا لها بفعل ما يفضي إلى المحظور، ومن أراد التحقق من صحة ما أتحدث عنه ومن وجود مثل تلك الحالات وتكرر تلك المشاعر، فما عليه سوى الاتصال بمن يعرف، أو الذهاب إلى بعض الأماكن المختلطة أو إن سافر خارج المملكة فليسأل أحدَ من يقابله من العاملات في تلك البيئة وسوف يسمع منها ما يصيبه بالحرقة. وأنا هنا لا أتكلم من عاطفة أو ميول، ويعلم اللّه أن حديثي كله من أجل مصلحة المجتمع وخوفاً وحرصاً على نساء المسلمين اللاتي أحب لهن جميعاً ما أحبه لأمي وأختي وزوجتي وبنتي.

٢) السماح بقيادة المرأة للسيارة: بداية لعلنا نتخيل المرأة في سيارتها خلف المقود، وليسأل كل واحد منا نفسه هل هناك اختلاط، بالطبع فالإجابة هنا محسومة، إذاً لماذا يمنعُ بعضنا المرأة من القيادة؟ والاعتراضات كثيرة ولكنها كلها تدور حول مخاوف من أن يفضي السماح بقيادة المرأة للسيارة إلى التعدي؛ ولهذا ومن باب سد الذرائع فهم ينادون بمنع المرأة من قيادة السيارة. وسوف أناقش أبرز ما قرأت وسمعت من آراء وحجج لمن يرى المنع:

١- هناك من يقول: بأن ذلك سيتسبب بتفلتها وكثرة خروجها من دارها، وأنا اقول بأن معظم النساء خاصة العاملات يمتلكن سيارات ويخرجن مع السائقين متى شئن وهن ولله الحمد على درجة عالية من الوعي وزوجتي وكثيرات من معارفي يخرجن مضطرات مع السائق، ولم يحدث ما يخل شرعاً ولا عرفاً ولله الفضل والمنة.

٢- سمعت من يقول بأن قيادة المرأة للسيارة هي الخطوة الأولى نحو نزع الحجاب. ويرد عليه: بأن هذا حديث متشائم، وإلا فما الفرق بين المرأة المتنقبة وهي خلف المقود أو في المقعد الخلفي، ثم من سيطلب من المرأة خلع حجابها عندما تقود؟ ومن ذا الذي سيجبرها على ذلك؟ ثم إني وغيري ممن ذهبوا إلى بلدان غربية كالولايات المتحدة وغيرها رأينا بعض النساء يقدن السيارات وهن متنقبات، والنظام هناك كفل لهن ذلك الحق، فلماذا نخشى في بلاد الحرمين على المرأة من أن تخلع حجابها حين تقود السيارة، وقد حاولت إيجاد رابط بين هذا وذاك فلم أستطع، وحين طلبت من بعض من طرحوا تلك الحجة، لم أسمع منه ما يقنع بعض مؤيديه، ولهذا فهذه الحجة باطلة وغير مقبولة، وقد عشنا أحلك الظروف في الحرب على الإرهاب؛ حين قام بعض أعضاء التنظيمات الضالة باستخدم ملابس نسائية بما فيها النقاب أو الغطاء الكامل، ولم نسمع ولله الحمد واحداً من شرفائنا يتحدث عن الحجاب الشرعي أو يتهمه بتسهيل أعمال تلك الفئات الضالة ويعينهم على التخفي ومحاربة الدولة والمجتمع، ثم يطالب بمحاربة الحجاب مستخدماً تلك الذرائع.

٣- هناك من يقول بأن المرأة لو قادت السيارة بنفسها، فإنها ستكون عرضة للتحرش من بعض ضعاف النفوس، ثم يبدأ بشن حرب على المجتمع وشبابه ويبين قلة التربية وعدم احترام بعضهم للأنظمة، مستشهداً بقصص وحوادث كثيرة. وأنا أقول بأن هذا يمكن أن يحدث ولكن في الغابة وليس في المدينة، ثم إن سن الأنظمة التي تحمي الجميع وليس المرأة وحدها، ومراقبة الطرق وكل ما يحدث بها، وضبط المخالفين، وتطبيق ما تنص عليه الأنظمة من عقوبات رادعة، كل ذلك كفيل بمنع أي تجاوز على المرأة أو غيرها، وربما يقول من يقرأ هذه الأسطر أن التوعية والتثقيف مطلوبان هنا. ولكن على حرصي على هذين الأمرين واهتمامي بهما ومناداتي الدائمة بتفعيلهما إلا أني هنا لا أرى ضرورة توجب التوعية والتثقيف؛ فاحترام أعراض المسلمين وعدم التعدي عليها ليست بحاجة لمن ينبه إليها، وفي

ظني أن من يقول بأنه يجهل ذلك الأمر فمكانه ليس بيننا بل يجب أن يتثقف في أحد المصحات النفسية؛ كي يستعيد عقله، ثم إن من نخشى منهم التعدي والتجاوز بحجة قلة الثقافة والحاجة إلى التوعية، هم أكثر الناس انضباطاً حين يغادرون حدود هذه البلاد وقد شاهدناهم في دبي والدوحة ولندن وباريس أكثر انضباطاً من أهل البلد أنفسهم، فلماذا نلتمس لهم الأعذار ونطالب بإرهاق أنفسنا من أجل تأهيل أشخاص بحاجة إلى أنظمة فاعلة ومحترمة من الجميع تضبطهم وتكفي الآخرين شرورهم.

٤- هناك من يقول: بأن المرأة حين تقود وحدها فإن السيارة قد تتعطل ويتسبب ذلك في تعريضها للتحرش وما شابه. وردي: في هذه الحال يجب أن نعود لمعايير الاختلاط ونسأل هل تعطل السيارة هو الأصل أم إنه طارئ قد يحدث وقد لا يحدث؟ والإجابة واضحة إذاً فقيادتها هنا ليست مظنة الاختلاط المفضي إلى خلوة غير شرعية. بل إن البدائل التي أوجدناها وهي السائق الذي ارتضى كثيرٌ منا ركوب بعض نسائه معه دون محرم هو بديل شرٍ فنحن استبدلنا المنهي عنه بالمباح؛ خشية الوقوع بالمنهي عنه. بمعنى أننا سمحنا بحدوث الخلوة غير الشرعية بين بعض محارمنا والسائقين، وحظرنا قيادة المرأة للسيارة خشية أن يترتب على ذلك مفسدة، فنحن هرباً من المحظور الذي لا تتعدى نسبة حدوثه ١٪ - بحول الله - ارتكبنا المحظور بعينه الذي يحدث لكثيرٍ منا مجبرين مع الأسف، حيث لا يوجد حلولٌ أخرى، وأنا أتحدث من واقع وتجارب عملية يومية ولست منظراً، فقد حاولت وجربت الاستغناء عن السائق، إلا أني أجدني مضطراً إلى النكوص إليه مرغماً ومن يعش في مدينة كالرياض لابد أنه يعي ما أتحدث عنه، وقد أوصلت الأهل أكثر من مرة إلى عملهم ويعلم الله أن الطريق أحياناً يستهلك ساعتين دون مبالغة وتخيل مثلها بعد الظهر فكيف يمكنك أن تعمل وأن تنتج، هذا بغض النظر عن الإعياء والتعب الذي يصيب الواحد منا، وفوقه الإحراج الذي يلاقيه في عمله نتيجة خروجه.

والإشكال أن من طالب بمنع قيادة المرأة للسيارة لم أسمعه يطالب المسؤولين بإيجاد البديل، فهذه الثقافة مغيبة تماماً عن منابرنا وخطابنا الدعوي مع الأسف، ويعلم الله لو أن هناك شبكة نقل عامة كالقطارات مثلاً لكنت أول من يتنازل عن حقي في قيادة السيارة، ولكن مع الظروف الحالية التي نعيشها وعدم وجود أي محظور شرعي يعتد به فقيادة المرأة للسيارة ضرورة والمطالبة بحرمانها أراه تعدياً على حق فئة غير قليلة من المجتمع تُعرّض لضغوط نفسية واجتماعية كثيرة دون مسوغ شرعي، مع العلم أن بعض الأرامل والمطلقات من ذوات الحاجة يتعرضن لابتزاز العمالة الوافدة بطريقة لا يمكن تصورها ويعلم الله أن بعض السائقين وبحكم تسلطه وقوة نفوذه في البيت يقيم علاقات غير شرعية مع بعض النساء وقد تصل في حالات أن يكون على علاقة مع الأم وجميع البنات بمعرفة الأم المغلوبة على أمرها، هذا خلافاً لابتزازهم بأخذ الأموال الطائلة من غير وجه حق، ومن كان جاداً في بحثه حول هذه القضية فما عليه سوى زيارة أحد أقسام الشرط ليقف بنفسه على بعض الحوادث المبكية، مع العلم أن نسبة القضايا المبلغ عنها ضئيلة ولا تعكس حقيقة الأمر. والحقيقة أن الحديث حول هذا الموضوع يدمي قلب كل متجرد من أهوائه وميوله، وهذا الموضوع المهمل يحتاج منّا إلى دراسة خاصة به، علماً بأن الشواهد كثيرة، ولكن المجال لا يسع لأستفيض وكان همي بيان أحقية المرأة بقيادة السيارة من خلال المعايير التي وضعت.

٣) عمل المرأة في المستشفيات: أهم قطاعات التوظيف النسوية بعد التعليم، ومصدر أمان المرأة العاملة والمستفيدة، إلا أنه بوضعه الحالي المختلط يتروح بين النوع الثاني من الاختلاط وهو المفضي إلى الخلوة غير الشرعية، والنوع الثالث وهو الذي في ذاته تعد وخلوة غير شرعية، وقد شاهدت بنفسي مناظر غير مقبولة خاصة في المناوبات الليلة، وقد سُجلت لدى إدارات المستشفيات قضايا محزنة ارتكب فيها المحظور الشرعي من قبل عاملين من الجنسين بمستويات وظيفية متفاوتة، والحقيقة أني لا أعلم مكاناً الاختلاط فيه أشد خطراً من المستشفيات،

والحلول يسيرة وممكنة وغير مكلفة، بل إنها مربحة لنا، فلو خصصت مستشفيات كامل طواقمها نسائي، لكان ذلك سبباً في تلافي هذا المحظور الشرعي، ثم إنه معين على توظيف أعدادٍ هائلة من نسائنا في مهن التطبيب والتمريض، مع التخلص من عمالة نسائية وافدةً بعيدة كل البعد عن ثقافتنا وهويتنا، كما أن عملية الفصل هذه قد تكون سبباً في تخليصنا من التعدي الحاصل على لغتنا العربية؛ التي لا يعترف بها في كتابة التقارير ولا الوصفات الطبية، ولا أي معلومة طبية، بحجج كثيرة منها عدم قدرة الممرضات على فهم العربية.

وحين كنت أطرح هذا الرأي كان هناك من يحتج علي بأن هناك نقصاً في بعض التخصصات التي لا يجيدها إلا الرجل، وأنا هنا أقول مع وجود الحاجة لا بأس من الاستعانة بالطبيب المختص ليؤدي مهمة محددة ثم يغادر المكان وهو هنا يدخل في النوع الأول من الاختلاط الذي لا يمكن أن يفضي إلى خلوة غير شرعية؛ فالخوف من اللقاء المستمر المتكرر الذي يكسر الحواجز، أما تلك اللقاءات العابرة فهي لعملٍ محدد ولا خوف منها.

كما أن هناك من قال بأنك في طرحك هذا ستجعل الرجل يحرم من زوجته في ظرفٍ هي في أمس الحاجة إليه، فكيف تراجع المرأة المريضة دون وجود من يقف معها كزوجها أو أخيها أو أبيها. وأنا حين أنادي بالمستشفيات النسائية لا أنادي بمنع الرجال من دخولها؛ لأن حضور الرجل بصحبة زوجته إلى المستشفى واختلاطهما بالمراجعين من الجنسين، هو من اللقاء العابر وهو من جنس النوع الأول من الاختلاط غير المفضي إلى خلوة شرعية؛ ولكن لو احتاجت المرأة إلى التنويم فإنه لا يسمح بأن يكون المرافق رجلاً، بل يجب أن تكون امرأة، وإن لم يتوافر فيمكن لإدارة المستشفى تدبر الأمر من خلال التعاقد مع بعض المرافقات الموثوق بهن بمبالغ تقوم المراجعة أو ذووها بتأمينها. أما بالنسبة للرجل ففي حالات الضرورة يمكن أن ترافقه زوجته أو إحدى نسائه؛ لأن المرأة أقدر على هذه المهمة من الرجل في حال رغبة المريض المنوم ذلك، وهذه رغم أنها يمكن أن تحسب على

النوع الثاني من الاختلاط بحجة وجود المرأة بين الرجال، إلا أنها حالة خاصة وظرف إنساني طارئ يمكن التجاوز عنه.

وقد يقول بعض من يقرأ هذه الأسطر: ما الفائدة من دخول الرجل إلى المستشفيات النسائية أو حتى الأسواق النسائية؟ خاصة وأن هذا سيحرم المرأة من حريتها في فسخ النقاب والعباءة. وردي عليه: بأنه يمكن للمرأة أن تتمتع بكامل حريتها في مكتبها وفي عيادتها، ولكن حين يدخل عليها الرجل مرافقاً لمحارمه، فلن يضيرها أن تتحجب، كما أن ممرات المستشفى والأماكن العامة فيه لن تكون حكراً على النساء بل سيكون بها قلة من الرجال المرافقين، وربما بعض الأطباء المختصين الذين دعت الحاجة للاستعانة بهم، تلك الحالة لن تعيق المرأة فنحن نرى كثيراً منهن متنقبات في مستشفياتنا وبعضهن يؤدين مهام معقدة ولم يكن النقاب عائقاً عن العمل، وهذا الرأي الذي أطرحه توفيقي بين الاختلاط المفضي إلى خلوة وهو ما يحدث في مستشفياتنا الآن وتعاني بسببه كثيرٌ من المعنيات هناك، وبين الصورة التي يرسمها بعضنا ويحاول من خلالها الفصل التام بين الرجل ومحارمه في الأسواق والمستشفيات، وهذا مؤذٍ إلى حد بعيد ولا يمكن لكثير منا التعايش معه بأي حال، وقد كان لي تجارب شخصيةٍ في مهرجان الجنادريةً على سبيل المثال حين كانت تخصص أيام للنساء حيث كان الرجال يحضرون نساءهم فيدخلن ويبقون هم في الخارج مكتوفي الأيدي، لا يستطيعون الذهاب إلى منازلهم ثم العودة مرة أخرى؛ فالمسافة بعيدة، كما لا يمكنهم البقاء أربع أو خمس ساعات كاملة في الخارج، ثم إننا حرمنا الأسرة من الاشتراك في متعة التنزه معاً؛ بسبب مخاوف من حدوث التعدي، وهذا يمكن القضاء عليه تماماً من خلال تفعيل الأنظمة الحالية وتطويرها والتعامل بحزم مع المستهترين.

الأنواع الثلاثة السابقة التي أوردتها كانت نماذج للاختلاط الجسدي الذي قد يفضي إلى تعدٍ وخلوة غير شرعية، ولكن الأنواع الثلاثة الأخرى التي سأذكرها متعلقة بالاختلاط الثقافي الذي قد يفضي إلى تعدٍ وبغي على ثقافتنا وهو على نفس درجة خطورة سابقه إن لم يكن أشد.

٤) المستجدات التقنية (الفضائيات، والإنترنت): كل تلك المستجدات تسببت في الاختلاط الثقافي، فالفضائيات والإنترنت فتحت الباب على مصراعيه لكل من أراد أن يبث ثقافته وتقاليده إلينا؛ فنحن في زمن القوة وأدواتها المعرفة فمن يعرف أكثر ستكون الغلبة له، ومن يستطيع الوصول إلى الآخرين ويغزوهم في ديارهم ويوصل إليهم ما يريد فبالتأكيد إن لم يكن لديهم المعرفة الكافية سيقعون في شباك الغزاة، دون أن يدركوا ذلك وقد يتمنع بعضهم في البداية ثم مع الوقت يستمرئ الأمر ويصير ينكر على من أنكر حاله.

والحقيقة أن خطورة الاختلاط الثقافي لا تقف عند حد ومحاربته ليست بالسهولة التي قد يظنها بعضنا فهو يحتاج إلى جهود عظيمة وأسلحة معرفية وتقنية ووسائل مواجهة متنوعة بين تحصينات دفاعية فطنة، وهجمات ثقافية حاذقة تعرف من تخاطب وكيف تخاطبه وتؤثر فيه. ولو أخذت الإنترنت كمثال لقلت بأن هذه التقنية أشبه ما تكون بالمحيط الذي يحوي ما لا يخطر على قلب بشر، وفيه من المواد المخيفة والخطرة على ثقافتنا، وقد قامت حكومتنا الرشيدة بسن أنظمة كفتنا كثيراً من أخطارها من خلال نظام الحجب والترشيح، ولكن بقي الدور على مؤسسات المجتمع المدني وقبلها الأسرة وما يجب عليها فعله لتحصين أبنائها من هذا الطوفان، فإن كانت الدولة أجادت في حجب معظم المواقع التي تحوي مواد منافية لديننا وثقافتنا، سواء ما كان منها إباحياً أو فكرياً أو ما يدعو ويحرض على الاضطرابات السياسية، إلا أن المجتمع بمؤسساته الاجتماعية بدءاً بالأسرة، والمسجد، والمدرسة، والإعلام رغم بذلها الجيد إلا أنها تحتاج إلى المزيد، وبحكم أن الإنترنت أغلب مادته مفيدة وليس فيها بغي على ثقافتنا فإني أرى أن الدولة أحسنت حين دعمتها رغم ما فيها من إساءات.

بالنسبة للقنوات الفضائية فالدولة لم تبذل ما يكفي لتحصين المجتمع وثقافته منها، وهي وإن تمكنت من منع بث القنوات الإباحية على الأقمار العربية بموجب اتفاقيات، إلا أنها تغاضت عن قنوات تبث ما يخالف ثقافتنا وما يحظر ديننا

مشاهدته، رغم قدرتها على التدخل لمنعه أو على الأقل التأثير على ملاك تلك القنوات بتخفيف حدة ما يتم بثه. ولهذا فإني أقول بأن بعض القنوات على الأخص العربية قد تسببت في اختلاط ثقافي فيه بغي وتعدٍ مباشران على أعراف وتقاليد وشريعة المجتمع لم نبذل الجهود الكافية لمنعها، كما كانت كثيرٌ من الأسر مقصرة من جانبها في التعاطي مع تلك المستجدات التقنية.

٥) **السماح بفتح دور عرض سينمائية :** السينما كاداة جامدة لا لها ولا عليها ولكن من يستخدمها ويبث من خلالها هو ما يجب أن نتحقق منه، فإن كان القائمون عليها من أبناء هذه البلاد الساعين إلى نشر ثقافتها ومعالجة ما يرونه من قصور في المجتمع وفق الضوابط الشرعية بعد الأخذ بالقول الفقهي الأكثر تسامحاً مع الفن بمجمله، المبني على الدليل الشرعي الوجيه، وعند تحقيق هذا الشرط فأرى أن لا بأس عندها من السماح بدور عرضٍ سينمائية.

أما إن كان ما سيبث عبر تلك الوسيلة ما هو إلا امتداد لما يبث في قنوات الأفلام التي لا حصر لها ومعظمها يمجد ويزين الثقافة الأمريكية ويصورها على أنها الوحيدة الصالحة لهذا الزمان، فأرى أن السينما في حالتها تلك غير شرعية ولا يصح السماح بفتح دور العرض السينمائية؛ فالمجتمع السعودي المسلم لم يسلم من قنوات الأفلام الفضائية؛ حيث طاله منها سلباً ما رأينا من سلوك بعض أبناء مجتمعنا في غفلة منا، ثم يطالب بعضنا بتبني تلك الأفلام وفتح دور عرض لتشارك الناس في تمجيد الثقافة التي تريد البغي والتعدي على ثقافتنا، ومن يريد ذلك نقول له قبل أن تطالب بفتح تلك الدور عليك أن تبذل جهودك لإيجاد مادة ثرية تخدم ثقافتنا تكون كافية لملء أوقات العرض، ثم سنسبقك بالمطالبة بفتح تلك الدور لاستقطاب كل مواطن ومقيم وزائر ليشاهد ما لدينا.

ولكني أعود مرة أخرى فأقول ـ بكل أسف ـ إن ما تحويه الأفلام التي يراد فتح دور للسينما لعرضها تشتمل على مادة ستختلط بثقافتنا وبالتأكيد أنها ستبغي عليها ولا أقل من مشاهدة بعض اللقطات الفاضحة التي لا يصح شرعاً مشاهدتها،

أو سماع بعض الألفاظ المنبوذة في أعرافنا وتقاليدنا، هذا خلافاً لما تصوره تلك الأفلام من حياة راقية في كنف تلك الثقافة تغرر بكثيرٍ من أبنائنا وتسلب ألبابهم وتجعلهم ينخدعون بما يشاهدون خاصة وأن ما يبث يحكي الجوانب المشرقة من ثقافتهم المادية ويعرضها بطرق وتقنيات مذهلة لا تعكس حقيقة تلك الثقافة بل إنها تخفي كافة الجوانب الهشة بها.

٦) ابتعاث الطلاب والطالبات للدراسة في الخارج: الحديث حول الابتعاث مهم جداً وهو أحدث تلك المستجدات تقريباً، والدولة وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين - وفقه الله وسدده - حين أقروها كان الهدف الارتقاء بالمجتمع؛ من خلال تعليم ابنائه، والنهل مما لدى الأمم التي سبقتنا علمياً ثم العودة - بإذن الله - لإفادة المجتمع وتولي زمام أمره في مراحل لاحقة. ولكن يبقى السؤال المهم ماذا عن عملية الاختلاط تلك هل تؤثر على أبنائنا ثقافياً وينتج عنها بغي الثقافة الأخرى على ما لدى مبتعثينا من ثقافة أم لا؟ ثم هناك مسألة أخرى هل يصح لنا أن نوافق الشريعة في الفصل بين الجنسين على مقاعد الدراسة في بلادنا، ثم نرسل أبنائنا وبناتنا ليدرسوا في تلك البيئات؟ بماذا يمكن أن نفسر ذلك؟! دعونا نتجاوز ذلك اضطراراً؛ بحجة أن هذه فئة قليلة رغبنا في تعليمها وكنا مضطرين لمسايرة بيئات الآخرين التعليمية لا أن نفرض عليهم ما نراه أنسب لنا. ولنذهب إلى النقطة الثانية خاصة وأن النقطة الأولى اختلاط جسدي مدة معينة ثم يعود المبتعث أو المبتعثة ولن يكون ذلك عائقاً في تكيفه مع مجتمعه القديم، بل ربما إن بعض المبتعثين سيعرف قيمة نظام الفصل بين الجنسين حين يعود، وربما يعين على تثقيف غيره من خلال حديثه عن تجربته الخاصة.

ولكن ماذا عن الاختلاط الثقافي الذي سيحدث وهو من النوع الثالث الخطير جداً والذي فيه بغي وتعد على ثقافتنا، كيف سنتعامل معه؟ وكيف سنعالجه، وقد يُسأل وهل هناك تعدي على ثقافتنا لتطرح موضوع الابتعاث في هذا المبحث؟ والحقيقة أن هناك شواهد كثيرة على التعدي الثقافي ولكني أحتاج إلى شيئ من الشواهد هنا، خاصة وأن الموضوع خطير جداً، ونحن جميعاً ولاة أمر ومسؤولين

وباحثين وأرباب أسر معنيون ونسعى ونريد الإصلاح، ومن هنا فسوف أعرض في الأسطر القادمة بعضاً من السلبيات المتأتية من الابتعاث من خلال ما قرأته وسمعته بنفسي، ولكي أكون منصفاً سأعرض رد المعنيين في الجهة التي تشرف على عملية الابتعاث مع وجهة نظر أخرى مؤيدة للابتعاث.

أولاً: مشكلات ومساوئ الابتعاث:

تتمحور مشكلات الابتعاث بشكلٍ عام حول عدة نقاط أبرزها:

١) تعرض عدد من الطلاب المبتعثين إلى حملات تنصير منظمة تستهدف عقيدتهم من أجل تنصيرهم أو التشكيك في دينهم، وذلك عبر توزيع نسخ من الإنجيل للاطلاع على ماجاء فيه، ثم يتطور الأمر إلى المناقشة والتشكيك في مسلمات الشريعة الإسلامية، أما من يتمنّع فيمكن أن يغرى بالنساء أو المخدرات.

٢) هناك أخبار تنشر في بعض وسائل الإعلام خاصة الرقمية منها تذهب إلى أن طلابا سعوديون تنصروا في بعض البلدان التي ابتعثوا إليها ومن ذلك ما نشرته صحيفة الوفاق[١] من أن وزارة التعليم العالي سبق أن تسلمت كشفاً بأسماء ٣٠ طالباً سعودياً تنصروا في بلدان مختلفة وإن كانت وزارة التعليم العالي تنفي هذا الأمر إلا أن هناك من يطعن في تصريحات الوزارة. وهناك من المبتعثين أنفسهم من يؤيد ما ذهبت إليه وزارة التعليم العالي وينكر ذلك؛ بحجة أن المسلم لا يمكن أن يفرط بدينه. إلا أن فئة أخرى من المبتعثين تخالفهم وتؤكد ما جاء في الصحيفتين، منكرة الحجة التي رفعها المبتعثون الذين ينفون موضوع التنصر مستشهدين بحديث أن

(١) نشرته مجموعة من مواقع ومنتديات الإنترت منها صحيفة الوفاق بتاريخ ١٨/٣/١٤٣١هـ (٢٠١٠م)، من خبر كتبه المحرر / خالد سامي، من محافظة جدة، تحت عنوان: (اعتناق أكثر من ٣٠ طالباً سعودياً مبتعثاً للدراسة بأمريكا «النصرانية») .http://www.alweeam.org/news-action-show-id-9021.htm نفته وزارة التعليم العالي. يورده المؤلف هنا من باب الاستئناس فقط، ولا يبني عليه رأياً، ولكن يذهب المؤلف إلى إنه إن صح ما نشر وما يشاع عن برنامج الابتعاث؛ فيعني ذلك أن هذا البرنامج يدخل في قائمة الاختلاط الثقافي الذي يفضي إلى تعدٍ وتجاوز على الدين والمعتقد، ويجب على المعنيين معالجته، أو إيقاف هذا البرنامج.

النبي ﷺ : (أتاه جبريل فقال له يا جبريل أتضيع أمتي الصلاة : قال يا محمد يأتي من أمتك من يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل . وهذا آخر زمانكم يا أمة محمد.) أما أحد المبتعثين فيقول: أقسم لكم بمن فطر السموات والأرض أن هنا في مدينتي التي أنا مبتعث فيها أنه لا يقل عن ٤ منهم أعلنوا اعتناقهم للنصرانية وما خفي كان أعظم. وآخر كتب معلقاً فيقول: إن المبتعثين كانوا بحاجة إلى توعية دينية أو معرفية تحميهم من التيارات المنحرفة؛ لأن بعضهم من الفاشلين دراسيا وللأسف أكثر تخصصاتهم التجارة والحاسوب والآداب وغيرها من التخصصات التي لا تحتاجها الأمة، منهم من قد يصل به الانحراف إلى أن يعتنق النصرانية! ويضيف: بل إن هناك من المرضى السعوديين في التشيك من أعتنق النصرانية، فالحقيقة مؤلمة جدا لنا، ولا بد من مواجهة المشكلة بشجاعة بدلا من التهرب بالنفي والتشكيك.

٣) من المشكلات كثرة الحوادث التي يرتكبها بعض طلابنا المبتعثين ومنها ما نشر في بعض مواقع ومنتديات الإنترنت[١] من أن السلطات السعودية قد تسلمت في إحدى السنوات كشفاً بأسماء أربعمائة شاب سعودي لتنفيذ ما صدر بحقهم من القضاء الأمريكي داخل السجون السعودية وتتمثل جرائمهم في التحرش الجنسي ومخالفة قواعد المرور، بينما أحدهم رُحِّل بسبب اغتصاب طالبة في السكن الجامعي، ورغم التكتيم على ما حدث إلا أن موقع (عشاق الوفاق) ناشر الخبر يذكر بأنه وصل لهذه المعلومات عن طريق مصدر خاص بوزارة التعليم العالي والذي قال (فضحونا)! وكتب عبد العزيز العويشق: بأن طالباً في جامعة فيرلي ديكنسون Fairleigh Dickinson في ولاية نيو جيرسي، على الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية، اتهم بالشروع في الاعتداء جنسياً على إحدى النساء،

(١) نشرت في عدد من مواقع ومنتديات الإنترنت، وكما يذكر المؤلف في الحاشية السابقة من أن هذه الأخبار لا يعتد بها ولا يبنى عليها رأي ما لم يتم التحقق من صدقها، ويوردها المؤلف من باب الاسئناس فقط.

وحين حاولت الشرطة اعتقاله اعتدى بالضرب على أحدهم، واختطف سيارة بالقوة وهرب بها، وحين تمكنت الشرطة من اعتقاله بعد مطاردة اكتشفت أنه كان تحت تأثير المخدرات التي كان بحوزته كمية منها. كل هذه المخالفات والطالب لا يتجاوز عمره (٢١) عاماً. وبالطبع فمع هذه التهم الخطيرة حدد القاضي قيمة الكفالة مرتفعة نسبياً (٧٥٠ ألف دولار، أو ما يقارب ٢،٨ مليون ريال).

كما نشرت عدة مواقع رقمية[1] خبراً جاء فيه: القت السلطات الأمريكية القبض على مبتعثة سعودية إثر اصطدامها بسيارة كانت واقفة عند إشارة المرور و اتضحت التحقيقات الأولية أن السائقة كانت مخمورة و كانت تقود السيارة بسرعة جنونية. وقد كتب أحدهم معلقاً على تلك الأخبار بأنها نماذج حية لما آلت إليه العشوائية في الابتعاث. وهذا ماجعل السفارة الأمريكية وقنصلياتها بالسعودية تشدد على منح تأشيرات الدخول للطلاب المبتعثين إلا بعد تدقيق كامل ومقابلات شخصية وفق شروط قاسية جدا. كما أن هناك من أعيد إلى المملكة بسبب إصابته بأمراض ناتجة عن الممارسات الجنسية الشاذة خاصة الإيدز والعياذ بالله.

٤) عودة بعض المبتعثين وقد انبهر بالثقافة الغربية، وتحول في توجهه من الوسطية إلى الانسلاخ الكامل عنها في أقصى اليسار، بل إن شخصاً كتب في أحد مواقع الإنترنت تعليقاً قال فيه: هذه المهمة التي أرسلوا من أجلها تنوير وليبرالية وعلمنه هذا ماكان مخططاً له وما كان متوقعاً، أحداث ومراهقون يرسلون لديار الكفار ماذا ننتظر.

٥) تشويه سمعة المملكة وأهلها بسبب ما يقوم به بعض المبتعثين من تصرفات لدرجة أن أحد المبتعثين يذكر أن سمعة السعوديين هناك تأثرت كثيراً؛ بسبب تصرفات بعض المبتعثين، ويضيف بأنه حين يسأل عن جنسيته ومن أي البلاد هو، كان يحتاج إلى مقدمة بسيطة حول اختلاف الأشخاص وتباينهم وأنهم ليسوا سواء في تصرفاتهم وطريقة تفكيرهم كما الأصابع، ثم يفصح عن جنسيته.

(١) نشر الخبر في عددٍ من مواقع ومنتديات الإنترنت منها منتديات مبتعث..ملتقى الطلاب المبتعثين.

ثانياً: نفي تلك الشائعات ودحضها:

في العديد من وسائل الإعلام ومنها صحيفة اليوم[1] نفى وكيل وزارة التعليم العالي للابتعاث الخارجي الدكتور عبد الله الموسى تعرّض الطلاب والطالبات المبتعثين لعمليات التنصير والإلحاد في بعض الدول الغربية، وأضاف: إن ما يقال نوع من الشائعات التي لا صحة لها، ولم تسجل الوزارة أي حالة أو تصل لها معلومات رسمية وإن ما يقال نوع من التكهنات والشائعات التي لم تثبت. وقال إن هذه الشائعات تشبه تلك التي تقول إن نسبة الطلاب المخفقين في الابتعاث تجاوزت ٨٠ ٪ وهذا غير صحيح، حيث إن نسب الإخفاق لم تتجاوز ٢٪ رغم توقّعنا أن تصل إلى ١٠ ٪ مضيفاً: بأن وزارة التعليم العالي تبذل جهودا في عمليات الإرشاد والتوجيه والمتابعة، وهذا ما حقق نجاح برنامج خادم الحرمين الشريفين للابتعاث الخارجي خلال الأربع السنوات الماضية. وقال إن عدد الطلاب والطالبات المقبولين في برنامج الابتعاث تجاوز ٨٠ ألف طالب وطالبة.

ويذكر أحد مؤيدي الابتعاث والداحضين لفكرة التنصير بأن لدى رجال الدين في المملكة رغبة قوية في تعطيل برنامج الابتعاث، وذلك عائدٌ إلى أن أغلب مشكلات المتشددين مع السعوديين المتعلمين وخاصة السعوديين اللذين تخرجوا من جامعات أجنبية؛ فخريجو الجامعات الأمريكية غالبا لديهم وعي أعلى ولا يمكن السيطرة عليهم بسهولة كما أنهم أحيانا يدخلون في مواجهات فكرية مع المتشددين.

رأي المؤلف في مسألة الابتعاث:

لم يتوافر لي تقارير كافية تبين الأمر بشكلٍ دقيق لا لبس فيه، وقد سألت بعض المعنيين وأفادوني بأن هناك ملاحظات على بعضٍ المبتعثين، دون الخوض في التفاصيل. وكل ما أوردته هنا من قضايا وحالات نشرتها وسائل إعلامية مختلفة - ذكرتها من باب الاستئناس فقط - وإلا فهذا المبحث ليس بغرض مناقشة جدوى الابتعاث الذي لم أورده إلا لكونه مستجداً أو حدثاً حاولت إسقاطه على معايير

---

(١) صحيفة اليوم، عدد (١٣٣٦٦) ١/٢/١٤٣١هـ (٢٠١٠م).

نظريتي في الاختلاط لتقييمه فقط من خلال معطيات متوافرة لدي قد لا تكون كافية.

ولكن دون النظر إلى صحة ما قيل من إشكالات يتعرض لها المبتعثون في تلك البلدان أو تفنيدها من قبل بعض المعنيين، خاصة ما يتعلق بمسألة تنصر بعض الطلاب السعوديين، أرى أن من المهم عدم إغفال احتمالية انحراف بعض أولئك الطلاب خاصة في ظل ما نلحظه من تغيرات متسارعة في العقدين الأخيرين؛ بسبب ما يتعرض له المجتمع بأسره من مواد إعلامية لا يقرها الشرع الحنيف، وعليه فإني أرى أهمية بذل الجهود اللازمة لوضع بعض الخطوات المهمة قبل وأثناء الابتعاث خاصة ما يتعلق بأهمية عقد دورات تدريبية تعرف المبتعث بأمور دينه وتحصنه وتطلعه على أبرز قوانين البلد المبتعث إليه وكيفية التصرف وقت الأزمات. بالإضافة إلى مراقبة الطلاب وأنا شخصياً تحدثت مع بعض الطلاب المبتعثين وأفادوني بأن حال وضع بعض الطلاب لا يسر ولا توجد رقابة كافية، وقد تحدثت مع أحد المسؤولين في وزارة التعليم العالي وأفادني بوجود بعض الحالات غير المقبولة، مضيفاً: بأن مسألة الرقابة مستحلية؛ لأن الأعداد كبيرة جداً ولا يمكن تغطيتها. (أهـ) وهذا بحد ذاته خلل في البرنامج إذ كيف تنفق كل تلك المبالغ من أجل الدراسة وتغفل مسألة وضع بند مالي خاص بالرقابة والمتابعة. وخلاصة رأيي في الابتعاث يتمحور حول الأمور التالية:

١) أن الطالب المبتعث عرضة لأمور سلبية كثيرة وربما أن بعض أو حتى قلة منهم قد وقع في مخالفات قد تصل إلى الردة - لا قدّر الله - ولهذا وجب علينا المتابعة والتحقق من هذا الأمر، فالإنكار لا يجدي ومن المهم معالجة الخلل من الآن قبل استفحاله.

٢) التأكيد على حاجة الطالب للتحصين قبل ابتعاثه من خلال تكثيف الدورات التثقيفية التي تهمه في دينه وفي فهم البلد الذي يذهب إليه، وهذا لا ينكر الجهود التوعوية المبذولة، ولكني لا أراها كافية.

٣) أهمية التأكيد على وزارة التعليم العالي بضرورة تكثيف الرقابة والمتابعة للطلاب المبتعثين.

٤) رغم أهمية الابتعاث وفوائده الجمة، إلا أنه في حال صحة ما سمعنا وقرأنا من سلوكيات سلبية، ناتجة عن مخالطة حديثي سنٍ من أبنائنا قليلي علم ومعرفة وليس لديهم ما يكفي من التحصين والحماية من شرور الثقافة المهيمنة على بيئة بلد الابتعاث، فإني أرى أن الابتعاث بوضعه الحالي يفضي إلى التعدي على ثقافتنا وما فيها من أعراف وعادات وتقاليد وتعاليم كلها محكومة بديننا الحنيف، وما كان الابتعاث من أساسه إلا للارتقاء بالمجتمع ومعه تلك الثقافة، فإن كان هذا التعلم سيكون على حساب هذه الثقافة ولو بخدشها وهي أعز ما نملك فإني أصنف الابتعاث ضمن النوع الثاني من الاختلاط الذي يجب منعه حماية للمجتمع وثقافته. إلا في حال التشديد على مسائل التوعية والرقابة وحتى تأخير سن الابتعاث ففي هذه الحال سيكون الابتعاث مقبولاً بحكم انتفاء مسألة إفضاء الابتعاث إلى تعدٍ على الثقافة. والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

التوصيات

بعد أن درست أحوال المجتمع السعودي دراسة متخصصة واطلعت على كثيرٍ من المتغيرات ومظاهرها وآليات التغير، التي منها ما أشرت إليه في هذا الكتاب ومنها ما لم يتسن إيراده، وبحكم تخصصي وعملي في مجال الأمن الفكري ومتابعتي المستمرة لما يدور من حراك فكري واطلاعي على كثيرٍ من الدراسات المتخصصة التي أسهبت في المجالات الفكرية بشكلٍ دقيق والثقافية بوجهٍ أكثر شمولية، بالإضافة إلى ملاحظتي أن كثيراً من الباحثين أن يجمل التوصيات ويذكرها تعداداً دون تفصيل، أو من يقسم التوصيات بحسب مجال البحث، وهذا كله بإذن الله جهدٌ مصيب، إلا أني رغبت عند كتابة التوصية تحديد الجهة المسؤولة المناط بها كل توصية والمسؤولة عن متابعتها وتحقيقها؛ ولهذا فقد قمت بتصنيف توصياتي إلى خمسة أصناف كل واحدٍ منها معني به واحدة من الجهات التي لديها القدرة على التأثير في المجتمع وتوجيه دفة التغير بشكلٍ إيجابي. وقد جاءت التوصيات على النحو التالي:

التوصية الأولى: (الجهات المعنية بتحقيق الأمن الثقافي والفكري في وزارة الداخلية)

حيث يمر المجتمع السعودي بمرحلة كثرت فيها الفتن والاضطرابات، مع وجود أفكار دخيلة على هذا المجتمع بحكم الانفتاح الثقافي المتأتي من طبيعة المرحلة التي نعيش؛ نتج عن تلك الأفكار محاولات لزعزعة الأمن ونداءات للخروج على ولاة الأمر والطعن بشرعيتهم دون مسوغ شرعي، متناسين نعم الأمن والاستقرار والرخاء اللاتي ينعم بهن هذا المجتمع. ولهذا أرى ما يلي:

١. أهمية تسليط الضوء على مرحلة ما قبل توحيد المملكة وعلى الجهود التي بذلها المؤسس وأعوانه في تلك الحقبة - رحمهم الله جميعاً - وأن الحالة المعيشية التي نعيشها أسس لها رجالٌ كان همهم دينياً قبل أن يكون سياسياً،

ومن الواجب إبراز الشواهد على ذلك وهي كثيرة، بالتعاون مع المؤسسات الإعلامية المختلفة، ومن ثم صياغتها بطرق تناسب الحقبة التي نعيشها المعتمدة على الإعلام والاتصال لإيصال المعلومة، وهذا لا يلغي الجهود التي بذلت، ولكنه يعززها ويعيد صياغتها ونشرها عبر الوسائل التقنية المتوافرة حالياً بطرق أكثر جاذبية.

٢. التأكيد على ضرورة تشديد الرقابة على الخطاب التغريبي الذي صار يطرح بشكل أكبر في المرحلة الرابعة من التغير الثقافي؛ بحجة حرية الرأي، وهو في حقيقته ما يطرح إلا بقصد زعزعة المسلمات الدينية لدى المجتمع المفطور على ملة الإسلام، وتقف وراءه جهات أجنبية تخطط وتعمل وتتعاون وتدعم ثلة قليلة من المحسوبين علينا بعضهم انساق معها بوعي وبعضهم ركب الموجة دون إدراك العواقب، وتأتي أهمية التصدي لهذا الخطاب المتفشي؛ لأنه الأكثر قدرة على إحداث التغير الثقافي السلبي الذي يظهر أثره بمرور الزمن. وتوصيتي هذه لا تلغي جهود الأيادي المخلصة التي تبذل في هذه المجال، إلا أني أؤكد على ضرورة دعمها.

٣. لاحظت وجود الخطاب المتشدد الذي يصل إلى حد التكفير في أحايين كثيرة، والذي أربط شيئاً من احتقان أصحابه من جهة، وانسياق بعض العامة للتعاطف معه إلى حدوث بعض المتغيرات في الخطاب الإعلامي في المرحلة التي نعيشها منها تطاول بعض الكتاب والإعلاميين على الرموز الدينية وقد سجلت تطاولات دون حق شرعي على طلبة علم، وعلماء أجلاء، بل وحتى على بعض الصحابة، كما أن هناك وهم قلة جداً من كتب في إعلام غير رسمي متطاولين على نبي الأمة – عليه السلام– وهناك من تطاول علَى الذات الإلهية ـ – سبحانه وتعالى – عمّا يقولون علواً كبيراً ـ وأرى ضرورة تدخل الدولة ممثلة بجهاتها المعنية؛ لمحاسبة من يتطاول على الرموز الدينية ـ متى ثبت على أيٍ منهم ذلك ـ بغض النظر عن

وسيلة النشر الإعلامية، وأؤكد على أن بعض الكتاب المتشددين المغرضين يستغلون بعض ما ينشر من إساءات، ليلقوا التهم جزافاً على الدولة ويصمونها بالتهاون وعدم حماية الدين والذود عن حياضه. كما أؤكد على أن هذه التوصية لا تنفي الجهود الواضحة التي تبذلها الدولة في حماية الدين الإسلامي ورموزه، وآخرها أمر خادم الحرمين الواضح رقم أ/٧١ بتاريخ ١٣/٤/١٤٣٢هـ (٢٠١١م) الذي نص على عدم المساس أو التعرض لسماحة مُفتي عام المملكة، وأصحاب الفضيلة أعضاء هيئة كبار العُلماء، بالإساءة أو النقد.

التوصية الثانية: (موجهة إلى الأسرة).

لدي يقين كامل أن الأسرة هي النواة الأولى لصنع الفرد ومن ثم تحصينه من خلال التوجيه المستمر له الذي يحميه بإذن الله من أي مؤثرات تجنح به إلى تبني ثقافات دخيلة تحدث بمرور الوقت تغيرات مجتمعية سلبية، ومن هنا أرى ما يلي:

١. قيام الأسرة بتعويد أولادها على القراءة والاطلاع المنضبطين شرعاً يكفلان تحصين الفرد ويحميانه من وقوعه في براثن أصحاب الأهواء - بحول الله - سواء ما كان منهم يسعى إلى الجنوح بالمجتمع إلى التكفير والعنف، أو أولئك الذين يعملون ليل نهار في سبيل تغريب المجتمع وفك ارتباطه بدينه وثقافته. ولذلك أرى أن من المهم أن تقوم الأسرة بدورها في هذا الجانب من خلال تعويد الأولاد منذ نعومة الأظفار على القراءة وتوجيههم وتفعيل ملكة إعمال العقل لديهم؛ بما يكفل حمايتهم من محاولات التغرير والتغير السلبي الذي هو نتاج لقلة العلم والمعرفة، مع إشعارهم أنهم ينتمون إلى أمة «اقرأ» التي لولا كتابها ما قامت لها قائمة.

٢. لاحظت من خلال بحثي أثناء إعداد هذا الكتاب أو في دراساتي السابقة أن بقاء الأولاد في منازلهم لم يعد كافياً لحمايتهم وتحصينهم من المتغيرات

السلبية بالشكل الذي كان عليه الحال بالنسبة للأجيال السابقة؛ فقد يكون الولد في غرفته وفي ظن أهل بيته أنه في أمان بعيداً عما قد يتعرض له من سلبيات خارج المنزل أو حتى أمام بعض القنوات الفضائية، بينما هو يتصفح الإنترنت أو يمارس الألعاب الرقمية وما فيها من اتصال بلا قيود بالعالم الخارجي، لا يقف خطره عند حد ولا يسع المجال لذكره، ولا أبالغ حين أشير إلى أن الشارع رغم ما فيه من سلبيات أقل ضرراً من بيئة بعض غرف الأولاد غير المراقبة. وأشدد على أهمية قيام الأسرة بمراقبة أولادها رقابة فاحصة ولا تكتفي بالرقابة الجسدية، بل من المهم أن تتعرف على طبيعة المواقع التي ينهلون منها، وغرف المحادثة التي يمضون فيها جزءاً غير يسيرٍ من أوقاتهم، والأهم من ذلك نوعية الألعاب الرقمية التي يمارسون، وقد ثبت أن كثيراً من التغيرات السلبية هي نتاج لغياب الرقابة الأبوية على الأبناء. وألفت النظر إلى أنه من خلال متابعتي واطلاعي على كثير من الحالات لاحظت أن الأسر التي يجنح أولادها نتيجة استخدام وسائل التقنية المتوافرة في المنازل، ليس بالضرورة أن تكون أسراً غير مبالية، بل إن بعضها أسرٌ حريصة جداً، لكنها لم تكن تعلم ما تحويه تلك الوسائل التقنية، وأسأل الله أن يُعتنى بهذه التوصية وأن تصل إلى كل أسرة لأخذ الحيطة والحذر في جانب أمنوه في غفلة منهم، ويمكن أن ينطبق على بعضهم المثال الذي يقول: «من مأمنِه يُؤتَى الحَذِر».

التوصية الثالثة: (موجهة إلى وزارة الشؤون الإسلامية - المسجد، الجامع).

أثمّن لوزارة الشؤون الإسلامية ما تقوم به من جهود توعوية ظاهر أثرها ومتابعتها المستمرة لأئمة المساجد وخطباء الجمعة، إلا أني أرى أن المسجد والجامع وخاصة الأول لم يؤديا الدور الذي يفترض أن يقوما به، وأرى أن المجتمع المسلم بشكلٍ عام والسعودي بشكلٍ خاص وبحكم انتشار المسجد حتى صار المرفق العام الأكثر انتشاراً، لدرجة تزيد أعداده على مجموع بقية المرافق العامة في المملكة

مجتمعة، والتي أنها لو فُعّلت بشكلٍ جيد لكان بالإمكان الاستغناء عن كثيرٍ من المراكز الأمنية المنتشرة في مدن ومحافظات المملكة المخصصة لمكافحة الجريمة بأنواها والمتأتية عن تغيرات مجتمعية ناتجة في حالات كثيرة عن اتصالات ثقافية غير مقننة تبعها بوادر سلوك منحرف كان يمكن لإمام وجماعة المسجد ملاحظته وتشخيصه ومعالجته في حينه، إلا أن وجود بعض القصور في تفعيل رسالة المسجد نتج عنه تغيرات مسلكية فردية لوحظ بعضها كتصرفات أفراد نتج عنها أحداث جنائية، وفي بعضها الآخر صارت تغيرات مجتمعية سلبية تشكل خطراً على ثقافة المجتمع بمجمله. ولهذا فإني أرى ما يلي:

١. ضرورة تفعيل دور المسجد، في متابعة شريحة الشباب في الحي؛ من خلال تعاون الإمام والمؤذن مع مجموعة من جماعة المسجد، لمعرفة مجاوري المسجد وتقصي أحوالهم، والعمل على دراسة أحوال من يتكرر تخلفهم عن صلاة الجماعة وأسبابه ومعالجته في حينه.

٢. حفظ كتاب الله والاعتناء به كفيل بصيانه سلوك الأفراد وحفظهم من الانحراف، مما يترتب عليه ضمان توجيه التغير المجتمعي بطريقة إيجابية متوافقة مع نهج هذه البلاد، ولهذا أؤكد على أهمية الاهتمام بحلق تحفيظ القرآن من خلال دعمها وحث أولياء الأمور لتسجيل أبنائهم بها، مع متابعة برامجها والتحقق من الأهلية الشرعية والفكرية للقائمين عليها.

٣. التأكيد على خطباء الجمع بمتابعة ما يجري في المجتمع من أحداث ومتغيرات ثقافية متنوعة، وطرحها في خطب الجمعة بأسلوبٍ هادئ متزن وبشكلٍ علمي مشتمل على حقائق وشواهد مع إيجاد الحلول المقرونة بالأدلة الشرعية الوجيهة. وأثمّن ما يقوم به بعض الخطباء، وتأكيدي هنا جاء لأهمية هذه الخطبة التي يشهدها كل مسلم، ولايتخلف عنها مكلف إلا بعذرٍ شرعي، ولأهمية المرحلة التي نعيشها المقرونة بكثير من الأحداث والمستجدات وما فيها من غموض يصيب الحليم بالحيرة، ومن هنا تأتي

أهمية الخطبة وضرورة الاعتناء بها لتناول أبرز ما استجد طوال الأسبوع من قضايا مجتمعية ومعالجتها وفق رؤية شرعية.

التوصية الرابعة: (موجهة إلى وزارتي التربية والتعليم، والتعليم العالي- المدرسة، الجامعة).

حيث يمضي الطالب في مدرسته وقتاً قد يزيد على ما يمضيه في بقية الأماكن الأخرى، ويخالط أقراناً أتوا من أسر متباينة في أمور شتى، ويتلقى من معلمين تتباين توجهاتهم وثقافاتهم وحتى ولاؤهم لوطنهم وطرق تفكيرهم، بالإضافة إلى نهلهم من مناهج طيبة في مجملها وإن أسلفت وشددت على مسألة الحاجة المستمرة لتطويرها بما يتواكب مع المتغيرات، كل ذلك له دور في توجيه سلوك الفرد وتغييره سلباً أو إيجاباً، خاصة وأن الظروف مهيئة بشكل كامل والبيئة تعين على تلقين الطالب ما لدى مخالطيه سواء أقراناً أو معلمين وما تحويه عقولهم من أفكارٍ ومعارف. ولهذا فقد رأيت ما يلي:

١. لاحظت من خلال دراستي واطلاعي أن هناك من يتطاول على مناهجنا التعليمية؛ بحجة أنها غيرت أفراد المجتمع ونمّت ثقافة التشدد لديهم، وحيث أن الانتقادات الموجهة في بعض ما يطرح من قلة من النقّاد ليس الهدف منها المناهج بل القائمين عليها؛ ومع يقيني أن ذلك لن يغيب عن أنظار المعنيين والمختصين في الجهات المعنية، إلا أني أرى أهمية تدخل وزارة التربية والتعليم مباشرة وفتح أبواب الحوار مع المنتقدين ومعرفة حقيقة ما لديهم، والخلوص في النهاية إلى إصلاح الخلل في المناهج إن وجد ومعالجته وتطوير المناهج بحسب الحاجة، وفي ذات الوقت تجلية الصورة كاملة والتحقق مما يريده المنتقدون. وأشدد على عدم ترك الحبل على الغارب ووعدم السماح بالتطاول على مناهجنا الدراسية؛ بحجة حرية التعبير لوصول قلة من المنتقدين إلى مآرب خاصة أقل ما يظهر منها أنها لاعتبارات شخصية.

٢. لاحظت أثناء إعداد هذا الكتاب وما سمعته من بعض المختصين أن هناك اجتهادات من قبل قلة من المعلمين في تناول بعض المستجدات وسعيهم لتوجيه الطلاب لتبني مواقف متشددة يصورونها على أنها وحدها المتفقة مع الشرع وما سواها فهو مخالف يجب الإنكار عليه دون النظر إلى بقية الأقوال الفقهة الأخرى المخالفة. وأؤكد على ضرورة تكثيف طرق المتابعة من خلال مدراء المدارس والمشرفين التربويين الشرعيين، مع تكاتف جميع المعلمين وإبلاغهم إدارة المدرسة عن أي تغيرات سلوكية أو مفاهيم فكرية مبتدعة لا تتفق مع منهج المجتمع الشرعي. ولا أنسى أن أشيد بجهود وزارة التربية والتعليم في هذا الجانب وقيامها باتخاذ بعض الإجراءات الإدارية بحق بعض المعلمين المخالفين.

٣. ضرورة تكثيف الدورات التثقيفية المتنوعة الموجهة إلى المعلم وتأهيله بما يرتقي بالأساليب التربوية والتعليمية لديه؛ مما يعود بالنفع على الطالب كفرد في مجتمع يتعرض لأشكالٍ شتى من المتغيرات الثقافية التي لا يمكن توجيهها والإفادة منها إلا من خلال تحصين كافة فئاته التي تعد فئتا الطلاب والمعلمين الأكبر بينها.

٤. أثمن ما تقوم به وزارة التعليم العالي من جهود من أجل الإفادة من برنامج خادم الحرمين الشريفين للابتعاث الخارجي، وأشيد بالبرامج التوعية التي تقوم بها والموجهة للطلبة المبتعثين. وأرى أهمية مواصلة حملات التوعية الموجهة للمبتعثين في محل الابتعاث من خلال إيفاد بعض طلبة العلم والمتخصصين في المجالات النفسية والاجتماعية والتربوية؛ بغرض تعزيز ما لدى الطلاب من تعاليم شرعية استقاها من بيئته الأم، مع مساعدته في حل ما يواجهه من معضلات ومشكلات، والإجابة عن بعض التساؤلات الناتجة عن طبيعة الثقافة الخاصة ببلد الابتعاث، مع الاهتمام بمتابعة المبتعثين وعدم التردد في إعادة من لوحظ عليه أي مخالفات قد تتطور مستقبلاً للمطالبة بتبني دعوات تعارض منهج وثقافة المجتمع.

التوصية الخامسة: (موجهة إلى وزارة الإعلام).

حيث نعيش في عصر المعرفة، في زمنٍ كثر المربون فيه وقد يقلون بحسب البيئة المحيطة، ولكن تبقى الوسيلة الإعلامية على الأخص التلفاز عاملاً تربوياً مشتركاً لدى معظم أبناء المجتمع السعودي، فهو يوجه التغير المجتمعي بشكلٍ احترافي لا يجاريه غيره؛ وطبيعة هذا التغير يحددها المشرفون على تلك الوسيلة الإعلامية، فإن هم صلحوا فقد انتفع بصلاحهم مجتمع بأكمله، وإن كان الأمر غير ذلك فسوف تكون تلك الوسيلة وبالاً على المجتمع بأسره، خاصة إن كان البث موجهاً بطريقة تحكمها أجنداتٌ وبرامج مخبأة، فغالباً ما تكون العواقب وخيمة. ومن هنا أرى ما يلي:

١. لاحظت أن التغيرات المجتمعية الثقافية في المرحلتين الثالثة والرابعة من التغير الثقافي كانت في معظمها ناتجة عن مؤثرات إعلامية بدأت بالانفتاح الفضائي في المرحلة الثالثة ومن ثم ثورة الإنترنت في المرحلة الرابعة، وهو ما أشرت إليه في المبحث الرابع. أرى أنه لا يمكن توجيه تلك التغيرات إلا من خلال استخدام نفس الوسائل المتاحة ومخاطبة الأجيال الجديدة وتوجيهها بطرق علمية حديثة غير مباشرة، من خلال الاستعانة بالمختصين في مجالي الإعلام والاتصال الجماهيري، وأؤكد أن زمن التوعية من خلال ما يسمى بأسلوب الحقنة التقليدية أو الخطاب المباشر لم يعد كافياً في المرحلة الحالية. وأشيد بما نهجته بعض الجهات في التوعية الإعلامية غير المباشرة وينصح بالإفادة من تجربتها، ومن تلك الجهات الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من خلال إنتاجها لمجموعة من الأفلام التوعوية القصيرة وبثها عن طريق الإنترنت وبعض القنوات الفضائية، وقد أسلفت الإشارة إليها.

٢. أهمية ملاحظة وزارة الإعلام للدور الذي باتت تلعبه بعض القنوات المحسوبة على هذه البلاد، وتأثير بعضها السلبي الواضح على أفراد المجتمع، وأؤكد

على أهمية التنسيق مع ملاك تلك القنوات لتوجيهها بما يخدم المجتمع ويعين على نشر ثقافته، لا تركها تبث ما يؤثر فيه سلباً ويفرض التغير عليه من خلال بث مواد غير متوافقة مع شريعة هذه البلاد، دون حسيب أو رقيب.

٣. حيث تطرقت إلى اللغة العربية وأشرت إلى أنها تمثل هوية المجتمع، وذهبت إلى أن مكانتها في نفوس أبنائها قد طالتها بعض التغيرات السلبية مستشهداً ببعض الشواهد في عدة مجالات. ولهذا أرى أهمية قيام وزارة الثقافة والإعلام بدورها في حماية هذه اللغة بالتنسيق مع الجهات المعنية ومنها وزارة التجارة لبذل كل ما يحفظ لهذه اللغة الكريمة مكانتها من خلال عمل البرامج التوعوية التي تبين أهميتها، وتنبه رؤساء التحرير إلى عدم نشر ما فيه تجاوز عليها، مع حث الكتّاب للاعتناء بها، كما أن من الأدوار المناطة بهذه الوزارة مراقبة أسماء المحلات التجارية واللوحات الإعلانية المنتشرة في الشوارع والطرق ورصد ما فيها من تجاوزات على اللغة العربية واتخاذ ما يلزم لإصلاحه، وأرى أن هذا من أهم أدوار هذه الوزارة بوصفها المسؤولة عن الثقافة، فكيف يمكن أن يثمر المنتج الثقافي العربي في مجتمع لا يهتم باستقامه لسان أفراده!



المراجع

المراجع

الكتب:

١. القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٢. فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

٣. فرانسيس فوكوياما، التصدع العظيم، بيت الحكمة، العلمة (الجزائر) ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

٤. د. الفاروق زكي يونس، الخدمة الاجتماعية والتغير الاجتماعي، دار عالم الكتب، القاهرة، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).

٥. د. مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، مكتبة الأنجلو المصرية ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

٦. د. سيف الإسلام علي مطر، التغير الاجتماعي دراسة تحليلية من منظور التربية الإسلامية.

٧. د. محمود عودة، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).

٨. د. دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، عمان، دار وائل، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

٩. البداية والنهاية (الجزء السابع) ابن كثير.

١٠. د. إبراهيم بن محمد الجوير، الأسرة والمتغيرات التنموية في المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٥هـ (١٩٩٦م).

١١. د. معن خليل العمر، التغير الاجتماعي، دار الشروق الأردنية، عمّان، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

١٢. د. محيي الدين صابر، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٣٨١هـ (١٩٦٢م).

١٣. د. علي القرشي، التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغير في المجتمع المسلم المعاصر، مكتبة غريب، القاهرة، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).

١٤. د. محمد الجوهري، وآخرون، التغير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤١٥هـ (١٩٩٥م).

١٥. د. إسماعيل كتبخانة، أسس علم الاجتماع، خوارزم العالمية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م).

١٦. د. سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

١٧. د. فادية عمر الجولاني، التغير الاجتماعي..مدخل إلى النظرية الوظيفية لتحليل التغير، دار الإصلاح للطباعة والنشر، الدمام، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

١٨. لي كوان يو، قصة سنغافورة، مذكرات لي كوان يو، ترجمة وتحقيق: هشام الدجاني، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

١٩. د. عبد الفتاح محمد الحلو، شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، مطبعة الفجالة، القاهرة، ١٣٧٨هـ (١٩٥٩م).

٢٠. هاري سانت جون فلبي، العربية السعودية من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٢هـ (٢٠٠٢م).

٢١. د. إياس بن سمير الهاجري، تاريخ الإنترنت في المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

٢٢. د. عبد الله بن محمد الغذامي، من الخيمة إلى الوطن، سؤال الثقافة في المملكة العربية، منشورات علي العمير، جدة ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

٢٣. عبد العزيز بن أحمد الرفاعي، عناية الملك عبد العزيز بنشر الكتب، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).

٢٤. الاستبصار في عجائب الأمصار، كاتب مراكشي مجهول الاسم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

٢٥. محمد بن عبد الرحمن السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).
٢٦. نور الدين علي بن عبد الله السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، لندن، ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م).
٢٧. د. مراد هوفمان، الإسلام عام ٢٠٠٠، ترجمة وتحقيق: عادل المعلم، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).
٢٨. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، الإيمان والرد على أهل البدع (مطبوع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام، الجزء الثاني)، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).
٢٩. د. حمود بن أحمد الرحيلي، أثر الدعوة السلفية في توحيد المملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م).
٣٠. عبد المنعم الغلامي، الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م).
٣١. عبد الفتاح أبو غدة، تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧هـ (١٩٩٧م).
٣٢. عبد الله عبد المجيد بغدادي، الانطلاقة التعليمية في المملكة العربية السعودية، دار الشروق، جدة، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
٣٣. جاك غولد سميث وتيم وو، من يحكم الإنترنت؟ أوهام بلا حدود، ترجمة: فاطمة غنيم، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م).
٣٤. د. وجيه حمد عبد الرحمن، القاموس الوجيز في الجذور العلميه: لاتيني، يوناني ، انجليزي، عربي، مكتبه لبنان، بيروت، ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).
٣٥. محمد علي رفاعي، رجال ومواقف، الجزء الثاني، القاهرة، ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).
٣٦. د. عبد الله بن محمد الغذامي، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

٣٧. د. سعيد بن زعير، وآخرون، العلمانية في العراء، القصيبي شاعر الأمس، وواعظ اليوم، دار الكتاب، ١٤١١هـ (١٩٩٠م).

٣٨. د. عوض القرني، الحداثة في ميزان الإسلام، الرياض، ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م).

٣٩. د. محمد بن أحمد الرشيد، مسيرتي مع الحياة، الرياض، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

٤٠. د. تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير، دار الساقي، بيروت، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

٤١. د. تركي الحمد، دراسات إيديولوجية في الحالة العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).

٤٢. د. محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

٤٣. جورج سادول، Georges Sadol، تاريخ السينما في العالم، صدر عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م) وترجمه إلى العربية إبراهيم الكيلاني وفايز نقش، دار عويدات للنشر والطباعة، ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م).

٤٤. خالد ربيع السيد، الفانوس السحري..قراءات في السينما، نادي حائل الأدبي بالتعاون مع دار الانتشار العربي، ببيروت، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

٤٥. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المجموعة الأولى، المجلد السادس والعشرون (كتاب الجامع٣).

٤٦. مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ ابن باز، المجلد الثالث، جمع وترتيب محمد بن سعد الشويعر.

٤٧. موسوعة فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم المفتي الأسبق للمملكة العربية السعودية جَمع وترتيب وتحقيق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم الطبعة الأولى - مطبعة الحكومة بمكة المكرمة - ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م) الإصدار الأول.

٤٨. د. بكر بن عبد الله أبو زيد، التمثيل..حقيقته، تاريخه، حكمه، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١١هـ (١٩٩٠م).
٤٩. عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم، إيقاف النبيل على حكم التمثيل، الرياض، ١٤١٣هـ (١٩٩٢م).
٥٠. محمد بن موسى الدالي، أحكام فن التمثيل في الفقه الإسلامي، مكتبة الرشد، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م).
٥١. د. فهد بن عبد العزيز الغفيلي، هكذا أفكر، الرياض، مؤسسة الجريسي للنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).
٥٢. حليمة مظفر، المسرح السعودي، بين البناء والتوجس، نادي الطائف الأدبي ودار شرقيات في القاهرة، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م).
٥٣. د. عصام خوقير، الليل لما خلي، مجموعة قصصية، الدار السعودية للنشر و التوزيع، ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م).
٥٤. ناصر بن عبد العزيز الخطيب، مدخل إلى دراسة المسرح في المملكة العربية السعودية، مطبوعات المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤١٠هـ (١٩٩٠م).
٥٥. علي بن عبد العزيز السعيد، المسرح المدرسي و دوره في تأصيل الانتماء الوطني لدى الطفل، ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).
٥٦. عبدالرحمن فهد الخريجي، نشأة المسرح السعودي، جمعية الثقافة والفنون، الرياض، ١٤٠٦هـ (٢٠٠٥م).
٥٧. د. مي العبد الله، التلفزيون وقضايا الاتصال في عالم متغير، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).
٥٨. د.عبدالله المدني، الخليج والتلفزيون..القصة الكاملة لأول محطة تلفزيون في الخليج، مؤسسة الأيام للنشر، البحرين، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥م).
٥٩. د. محمد أحمد صبيحي، تلفزيون المملكة العربية السعودية ومراحل تطوره، المدينة المنورة، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

٦٠. ناصر الحزيمي، أيام مع جهيمان..كنت مع الجماعة السلفية المحتسبة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ١٤٣٢هـ (٢٠١١م).
٦١. د. سهيل صابان، الطباعة العربية في تركيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض، ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م).
٦٢. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، دار المعارف، القاهرة.
٦٣. الإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مؤسسة علوم القرآن، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
٦٤. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، م٤، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ، (١٩٧٩م).

الدراسات والبحوث والرسائل والتقارير وأوراق العمل:

١. د. حامد إسحاق خوجه، بحث بعنوان حقيقة نظرية داروين، كلية الطب والعلوم الطبية جامعة الملك عبدالعزيز.
٢. د. عثمان بن عبد العزيز الربيعة، السياق التاريخي لاتجاهات تمويل الخدمات الصحية في المملكة وتوجهات المستقبل، دراسات اقتصادية: السلسلة العلمية لجمعية الاقتصاد السعودية، المجلد الخامس، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).
٣. تركي عجيبي حكمي، وعبد الوهاب أحمد عريشي، دراسة بعنوان: الرياضة في المملكة العربية السعودية تأسيسها وتطورها، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).
٤. د. صالح بن عبد الله العبود، عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٣هـ صدرت طبعتها الأولى سنة ١٤٠٨هـ ضمن مطبوعات المجلس العلمي بالجامعة، وأعيدت طباعاتها سنة ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).
٥. د. عبد الرحمن بن إبراهيم الجريوي، بحث بعنوان: (عناية الملك عبد العزيز بالدعوة والدعاة وآثارها) مقدم إلى ندوة علمية نظمتها وزارة

الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بمدينة الرياض بتاريخ ٢٣ صفر ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م) بعنوان: (الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز).

٦. د. راشد بن حسن العبد الكريم، بحث موسوم بـ (أثر ما بعد الحداثة في التعليم)، الرياض، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).

٧. د. سعيد الغامدي، دراسة في ثلاث مجلدات (١٧٤٩صفحة) بعنوان (الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها... دراسة نقدية شرعية)، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).

٨. أنجيل راباسا، تشيرلي بينارد، لويل تشوارتز، بيتر سيكل Angel Rabasa، Cheryl Benard، Lowell H. Schwartz، Peter Sickle، تقرير بناء شبكات إسلامية معتدلة Building moderate Muslim networks، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

٩. تشيرلي بينارد Cheryl Benard، تقرير الإسلام الحضاري الديمقراطي، الشركاء، والموارد، والاستراتيجيات (Civil Islam Democratic Partners، Resources، and Strategies) ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).

١٠. د. إبراهيم عبد الله غلوم، المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، دراسة في سيسيولوجيا التجربة المسرحية في الكويت والبحرين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).

١١. محمد بن عبد الله العثيم، قراءة في تاريخ المسرح السعودي ورقة، طرحت في ندوة المسرح السعودي ضمن فعاليات مهرجان الجنادرية السادس عشر، ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م).

١٢. أبو عبد الله لقمان بن أبي القاسم الآجُري، الإبراز لأقوال العلماء في حكم لتلفاز والتصوير الفيديوي وحكم خروج الدعاة في هذا الجهاز المرئي والإجهاز على شبهات من يقول بالجواز، بحث منشور على الإنترنت.

١٣. جهيمان العتيبي، رسالة الفتن وأخبار المهدى ونزول عيسى عليه السلام وأشراط الساعة، ١٣٩٨هـ، (١٩٧٨م).

١٤. مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام، دراسة: استخدامات الإنترنت في المجتمع السعودي..الاستخدام ودوافعه وأنواعه وتأثيراته المحتملة، الرياض، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).
١٥. بنان الدخيل، ومشاعل البشر، بحث: المواقع الاجتماعية وتأثيرها على المجتمع السعودي، الرياض، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٩م).
١٦. د. فهد بن عبد العزيز الغفيلي، دراسة: حقيقة معرفة الآباء بطبيعة استخدامات أبنائهم لوسائل التقنية الحديثة (الإنترنت، الهاتف الجوال، الألعاب الإلكترونية، القنوات الفضائية)، جدة، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م).
١٧. د. فهد بن عبد العزيز الغفيلي، الفراغ الفكري ودوره في التأثير السلبي على أمن المجتمع الفكري، بحث محكم ومنشور من قبل الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

إصدارات إعلامية مطبوعة: (الصحف والمجلات والنشرات):

١. نشرة علماء الذرة تصدر عن جامعة شيكاغو الأمريكية.
٢. مجلة الحرس الوطني، العددين: (٢٤٤)، (٣١٧).
٣. صحيفة الشرق الأوسط، الأعداد: (١٠٩٣٧)، (١١٢٦٤)، (٨١٠٤)، (٨٧٩٦)، (٩٩٥٢)، (١٠٢٥٨)، (٩٩٦٩)، (١٠٣٦١)، (١٠٩٦٤)، (٨٨٦٥)، (١١٤١١)، (١٠٧٩٦)، (٩٣٨٥)، (١١٢٣٨)، (١١٧٦٨).
٤. صحيفة الجزيرة، المجلة الثقافية، الأعداد: (١٨٥)، (١٤٨)، (٤١)، (٨١)، (٢٥٥)، (٨٨)، (٢٥).
٥. صحيفة الجزيرة، الأعداد: (١٣٢٥٨)، (١٣٢٥٨)، (٩٩٦٥)، (١٠٦٨٧)، (١١٧٨٣)، (١٢٢٣٨)، (١٢٥١٥)، (١٠٠٨٧)، (١٠٠٩٤)، (١٣١٨٣)، (١٣٧٢٨)..
٦. صحيفة الرياض، الأعداد: (١٤١٣٤)، (١٤٨١٣)، (١٤٧٦٧)، (١٤٦٠٢)، (١٥١٩٣)، (١٥٢٦٠)، (١٣٥٦٩)، (١٤٩٨٣)، (١٤٩٥٨)، (١٥٢٧١)، (١٥٥٦٥)..

٧. مجلة البيان، العددين: (٢١٢)، (٢٠٣).
٨. مجلة التوثيق التربوي، وزارة التربية والتعليم، عدد (٣٣).
٩. مؤسسة النقد العربي السعودي، مؤسسة النقد العربي السعودي إصداراتها من النقود، ومقتنياتها من النقود القديمة والإسلامية، مؤسسة النقد العربي السعودي،الرياض، ١٤١١هـ (١٩٩١م).
١٠. صحيفة الوطن، الأعداد: (٣٢٥٢)، (٣٣٠٤)، (٣٣١٤).
١١. مجلة الحوار المتمدن، العددين: (٣٥٧)، (٨٧٣).
١٢. مجلة اليمامة، عدد (١٨٦٥).
١٣. صحيفة المدينة، ملحق المدينة الأسبوعي (الأربعاء)، عدد (٢٠٥).
١٤. صحيفة دار الحياة، بتاريخ ١٤٢٩/١١/٢٥هـ (٢٠٠٨م)، وبتاريخ ١٤٣٢/٤/٢٥هـ (٢٠١١م).
١٥. صحيفة عكاظ، نسخة رقمية (٢٢٣٨).
١٦. مطوية لماذا نخشى الدشوش؟، دار القاسم.
١٧. نشرة إلكترونية، هيئة الاتصالات وتقنية المعلومات السعودية، محرم ١٤٣٢هـ (ديسمبر٢٠١٠م).
١٨. صحيفة الوطن العمانية، عدد (٩٤٥٣).
١٩. صحيفة الحقيقة الدولية، بتاريخ ١٤٢٩/٤/٣هـ الموافق ٢٠٠٨/٤/٩م.
٢٠. صحيفة اليوم، عدد (١٣٣٦٦).

المواقع الرقمية:

١. موقع عبد الدائم الكحيل: www.kaheel7.com
٢. موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة http://www.nooran.org
٣. موسوعة مقاتل من الصحراء، الإصدار العاشر http://www.moqatel.com
٤. مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت. http://www.ovpr.kuniv.edu



٥. الموسوعة العربية العالمية. http://www.mawsoah.net
٦. موقع وزارة النقل على الإنترنت www.mot.gov.sa
٧. كتاب حقائق العالم https://www.cia.gov/library
٨. موقع وزارة الثقافة والإعلام على الإنترنت www.info.gov.sa
٩. موقع وزارة الاتصالات وتقنية المعلومات. http://www.mcit.gov.sa/arabic
١٠. موقع الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.
http://www.gph.gov.sa
١١. موقع أمانة مدينة الرياض. http://urbplandep.alriyadh.gov.sa/ARA/
١٢. موقع وزارة المالية السعودية. http://www.mof.gov.sa
١٣. موقع الإسلام اليوم
http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-34-12566.htm
١٤. الموسوعة الحرة ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org
١٥. موقع الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
http://www.pv.gov.sa
١٦. موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
http://www.qurancomplex.org/
١٧. موقع الإسلام www.al-islam.com
١٨. موقع وزارة التجارة والصناعة. http://www.commerce.gov.sa/
١٩. موقع هيئة السوق المالية.
http://www.cma.org.sa/Ar/Pages/home.aspx
٢٠. موقع شبكة الإعلام العربية (محيط) http://www.moheet.com/
٢١. موقع قناة العربية. http://www.alarabiya.net/default.html
٢٢. موقع صيد الفوائد. http://www.saaid.net/arabic/ar74.htm
٢٣. موقع صحيفة إيلاف. http://www.elaph.com/
٢٤. موقع عبد الكريم الجهيمان الرقمي. www.aljhaiman.com

٢٥. مجلة المحجة، مقالات عقدية. www.mahaja.com
٢٦. موقع تقرير واشنطن على الإنترنت، عدد (٦٠).
http://www.taqrir.org/index.cfm
٢٧. موقع شفونغ. www.shvoong.com
٢٨. موقع النادي الأدبي في حائل. www.adabihail.com
٢٩. موقع روح الإسلام www.islamspirit.com
٣٠. موقع ناصر بن عبد العزيز الخطيب. www.nasseralkhatib.com
٣١. موقع الإذاعة السعودية على الإنترنت. http://www.saudiradio.net.sa
٣٢. موقع مجموعة ميني واتز للتسويق www.internetworldstats.com
٣٣. موقع هيئة الإذاعة البريطانية (البي بي سي) www.bbc.co.uk/arabic/
٣٤. موقع داماس بوست /http://www.damaspost.com
٣٥. موقع صحيفة الوفاق. http://www.alweeam.org
٣٦. منتديات مبتعث.. ملتقى الطلاب المبتعثين.
http://www.mbt3th.us/vb/forum.php

مراجع صوتية، ومرئية مسجلة (خطب، محاضرات، حوارات):

١. قناة العربية، برنامج إضاءات، تركي الدخيل، لقاء مع د. عبد الله الغذامي.
٢. قناة دليل، برنامج البيان التالي، د. عبد العزيز قاسم، لقاء مع د. عبد الله الغذامي.
٣. قناة العربية، برنامج روافد، المذيع أحمد الزين، لقاء مع د. تركي الحمد.
٤. خطبة للشيخ الشريم في ١٠/ ٢/ ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) وكانت بعنوان (فقه الأماني).
٥. قناة (إل بي سي)، برنامج عيشوا معنا، المذيع علي العليان، لقاء مع الكاتبة السعودية حصة العون.

٦. د. سعد البريك، محاضرة بعنوان حماية النبي ﷺ لجناب التوحيد ألقاها بتاريخ ٢٥/٦/١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) في المخيم الشبابي الصيفي في جدة الذي أقيم تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية.
٧. قناة (إم بي سي) برنامج نقطة المذيع، سعود الدوسري، لقاء مع الممثل ناصر القصبي.
٨. خطبة جمعة لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين-رحمه الله- في التحذير من إقتناء الأطباق المخصصة لاستقبال القنوات الفضائية، ٢٥/٣/١٤١٧هـ (١٩٩٧م).
٩. محاضرة بعنوان (حديث الركب) للشيخ سلمان العودة ألقاها بتاريخ٢٢/١/١٤١٣هـ (١٩٩٢م)، وهي الدرس (٦٤) من سلسلة الدروس العلمية العامة.
١٠. شريط صوتي للشيخ الألباني بعنوان (فتاوى جدة، الشريط الأول) سجل في محافظة جدة بتاريخ ١٦/٦/١٤١٠هـ (١٩٩٠م).
١١. محاضرة ألقاها لي كوان يو أمام منتدى التنافسية العالمي الذي عقد في مدينة الرياض، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٨م).

مراجع بلغات أجنبية :

1. Daniel Lerner، The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East، Macmillan Pub Co، 1958.

2. W. Ogburn، Social change with respect to culture and original nature، New York : B.W. Huebsch، Inc. 1922.

3. Directory of Public Libraries In the Kingdom of Saudi Arabia، Dr. Saad A. Al-Dobaia، Riyadh، 19941415/AH.

4. Edward Burnett Tylor Primitive culture: researches into the development of mythology، philosophy، religion، art، and custom، Gordon Press، Beddington، 1974.



صدر للمؤلف

- كتاب: الأمن والإجراءات الوقائية التي اتخذتها المملكة لمكافحة الجريمة.
- كتاب: سبع طرق مثالية لتنمية مفرداتك الإنجليزية.
- كتاب: خمسمائة كلمة من أكثر المفردات الإنجليزية شيوعاً واستخداماً.
- كتاب: حوار مع الإرهاب.
- كتاب: هكذا أفكر.
- كتاب: كما وصلتني، ٣٠٠ رسالة من بريدي الخاص.
- كتاب: الألعاب الإلكترونية، خطر غفلنا عنه يهدد الأسرة والمجتمع.
- بحث: الفراغ الفكري ودوره في التأثير السلبي لوسائل التقنية والاتصال على أمن المجتمع الفكري.
- بحث: الإعلام الرقمي .. أدوات تواصل متنوعة ومخاطر أمنية متعددة.
- بحث: طرق وأساليب التنظيمات الارهابية الحديثة .. دواعي إصدار المادة الإعلامية وخصائصها.

ردمك: ٤ - ٧٦٧٣ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

مطابع الحميضي ت: 2130130 الرياض